

تاريخ الحضارة القديمة

في الوطن العربي



مقرر تاريخ الحضارة القديمة في الوطن العربي

السنة الأولى

قسم الآثار

منشورات جامعة دمشق

كلية الآداب والعلوم الإنسانية



تاريخ الحضارة القديمة

في الوطن العربي

الدكتور

جباغ قابلو

الأستاذ المساعد في قسم التاريخ

الدكتور

محمود فرعون

الأستاذ المساعد في قسم التاريخ

1426 - 1427 هـ

2005 – 2006 م

Damascus University



المحتويات

بسم الله الرحمن الرحيم

يحاول هذا الكتاب استعراض تاريخ المشرق العربي القديم منذ الألف الثالث ق.م وحتى دخول الاسكندر المقدوني هذه المنطقة واحتلالها بعد معركة إسوس عام 331 ق.م.

وقد حاولنا ألاّ يقتصر الكتاب على تناول التاريخ السياسي لهذه المنطقة فقط، بل أن يتعدّى ذلك إلى تناول الجوانب الحضارية المختلفة لهذه المنطقة من اقتصاد واجتماع ودين وأدب.

وبما أن الكتاب مخصص لطلاب قسم الآثار فإننا لم نتعرّض للمواضيع الآثارية، لأن الطلاب سوف يدرسون هذه المواضيع بشكل متخصص في مقررات منفردة، كما أن عدد الساعات المقررة للمادة دفعتنا للاختصار في عرض المادة، وإن جهِدْنا ألاّ يخلّ هذا الاختصار بالمادة المراد إيصالها للطلاب.

لقد سعينا لنؤكّد على الوحدة الحضارية التي عاشتها منطقة المشرق العربي القديم خلال تاريخها الطويل، ونرجوا أن نكون قد وُفِّقنا في هذا المسعى.

لقد كتب الأبواب المتعلّقة ببلاد الرافدين وسورية ومصر الدكتور جباغ قابلو، في حين كتب الدكتور محمود فرعون الباب المتعلّق بالجزيرة العربية.

في الختام نرجوا أن يشّكل هذا الكتاب رافداً لمعارف الطلاب الأعزاء، وأن يجدوا فيه الإجابة على التساؤلات التي تخطر على بالهم.

تموز 2005

جباغ قابلو   محمود فرعون





الباب الأول

بلاد الرافدين



الفصل الأول

الموقع الجغرافي وطرق المواصلات

أطلق المؤرخون الإغريق تسمية Mesopotania (أي بلاد الرافدين أو بلاد ما بين النهرين) على المنطقة الواقعة بين نهري دجلة والفرات ولكنّ المؤرخين المحدثين عندما يتعرضون لدراسة تاريخ بلاد الرافدين يدرسون المنطقة الواقعة بين الخليج العربي في الجنوب والهضبة الأرمينيةوجبال طوروس في الشمال ونهر الفرات والبادية الشامية في الغرب وجبال زاجروس في الشرق.

ويمكن أن نميز في بلاد الرافدين بين منطقتين جغرافيتين: الأولى في الشمال وهي التي عرفت تاريخياً باسم بلاد أشور. وهذه المنطقة في أجزائها الشمالية والشرقية جبلية في حين أنها سهلية في المناطق الواقعة بين النهرين الزاب الأعلى والأدنى رافدي دجلة والبليخ والخابور رافدي الفرات. وأمطار هذه المنطقة جيدة وتتجاوز في بعض أنحائها الألف ملم سنوياً، أما المنطقة الثانية فهي الجنوبية عرفت تاريخياً باسم بلاد بابل. وتقسم هذه البلاد أيضاً إلى قسمين الجنوبي منها وهي سومر التاريخية والشمالي منها أي وسط بلاد الرافدين وهي أكاد التاريخية. وأمطار هذا القسم من بلاد الرافدين قليلة ولا تتجاوز المائة ملم سنوياً، ولكن وجود نهري دجلة والفرات يعوض هذا النقص فيالمياه.

وكما قيل عن مصر إنها هبة النيل، فإنه كان لنهري دجلة والفرات الأثر الحاسم في نشوء وازدهار الحضارة الرافدية فنهر دجلة تتفجر ينابيعه من جبال أرمينية جنوب غرب بحيرة « وان » وتصب مياهها في الوديان المجاورة لتشكل بعد ذلك المجرى العام لهذا النهر والذي يبلغ طوله نحواً من (1900 كم). وينحدر النهر بسرعة نحو الجنوب الشرقي إلى مناطق نينوى وآشور، وتتكون المناطق التي يجري فيها من منبعه الرئيسي حتى الجزء

الشمالي من أواسط العراق من جبال وهضاب عالية. وهنا يصبح مجراه عميقاً ضيقاً، ومياه فيضاناته محصورة داخل هذا المجرى، ولذلك اتصفت بسرعة الانحدار والاندفاع.

أما نهر الفرات فينبع من المناطق الواقعة إلى الشمال والغرب من بحيرة « وان » ويسير بداية نحو الغرب بمجرى متعرج حتى مدينة كركميش (جرابلس حالياً) حيث يكون أقرب ما يكون من البحر المتوسط حيث لا يبعد عنه سوى 150 كم. ثم ينعطف نحو الجنوب الشرقي في المنطقة التي تسمى المنعطف الكبير لنهر الفرات. ويقترب من نهر دجلة في منطقة سيبار قريباً من بغداد الحالية، ليفترقا بعد ذلك موسعين من السهل الخصيب الذي يشكلانه قبل أن يقتربا مجدداًّ وتمتزج مياههما في شط العرب ليصبا بعد ذلك في الخليج العربي.

ونشير هنا إلى وجود عدة روافد لكلا النهرين في بلاد الرافدين ومناطق الجزيرة السورية. فنهر دجلة يرفده بشكل أساسي ثلاثة أنهار وهي الزاب الأعلى والزاب الأدنى والديالى. وهي تنحدر من جبال زاجروس، وأما الفرات فله رافدان أساسيان وهما الخابور والبليخ. ومع ذوبان الثلوج على الهضبة الأرمينية كانت تبدأ مواسم فيضان النهرين حاملين معهما الخصب والمتمثل بالطمي واللحقيات الأخرى إلى بلاد الرافدين مما كان يزيد من خصوبة الأرض. وبسبب الاختلاف في المناطق التي كان يجري فيهما النهران، فقد اختلفت طبيعة فيضانيهما، فنهر دجلة الذي يجري في مجرى عميق وضيق فإن موسم فيضانه لا يستغرق إلا ثلاثة أشهر خلال فصل الربيع. في حين أن نهر الفرات وبسبب مجراه العريض الواسع فإن فيضاناته الموسمية تستغرق ضعفي زمن فيضانات نهر دجلة فهي تبدأ أيضاً في أول الربيع، ولكنها تستمر حتى شهر أيلول من العام نفسه.

وكما أشرنا أنفاً فإن بلاد بابل كانت تتلقى كميات قليلة من الأمطار لا تكفي لقيام زراعة منتجة تسد حاجة السكان. ولذلك كان لا بد من الاعتماد على مياه النهرين وروافدهما في تأمين المياه اللازمة للري ولذلك نشطت هنا عمليات حفر الأقنية والترع التي توصل مياهها ومياه روافدهما إلى أبعد ما يمكن وذلك حرصاً على توسيع الرقعة

المزروعة أكبر قدر ممكن. ولكن الطمي الذي يحمله النهران معهما سنوياً كان يؤدي إلى تراكم التراب في هذه القنوات وانسدادها وجعلها غير صالحة للري، مما كان يتطلب تنظيفها وترميمها وبناء قنوات جديدة بشكل دائم، وهذا كان مصدر فخر لحكام مختلف المدن التي قامت في هذه البلاد، وفي الوقت نفسه أصبحت هذه القنوات مصدراً للمنازعات والحروب بين هذه المدن التي كانت تسعى كل منها للسيطرة على أكبر عدد منها وبالتالي ازدياد رقعها الزراعية. وبسبب طبيعة مجرى نهر دجلة المنحدر والسريع فإن استخدامه في عملية الري عن طريق القنوات كان أكثر صعوبة من نهر الفرات ذي المجرى الواسع البطيء الجريان نسبياً، ولذلك نلاحظ أن أغلب القنوات قد شقت على هذا النهر، وبالتالي فإن أقدم المدن وأغلبها قامت على شطآنه.

ومنذ أقدم العصور اشتهرت المناطق الجنوبية ذات السهول الواسعة والمياه الوافرة والمناطق الواقعة بين الخابور والبليخ والزابين الأدنى والأعلى بإنتاج الحبوب بأنواعها المختلفة، وإلى جانبيها زرعت أشجار النخيل بكثافة عالية وكان لزراعة السمسم الذي يستخرج منه الزيت الوحيد المعروف في بلاد الرافدين نصيب وافر من اهتمام الدول الرافدية المختلفة. أما المراعي فقد انتشرت في مناطق السهول الجبلية في الشمال وفي المناطق الواقعة على أطراف نهري دجلة والفرات.

ومن المعلوم أن بلاد الرافدين كانت تفتقر إلى الكثير من الخامات المعدنية والمواد الأولية المختلفة، ولقد أمنت حاجتها من هذا الأشياء عن طريق تجارتها مع بقاع مختلفة من العالم القديم. فالأخشاب مصدرها سورية وربما بعض نواحي بلد عيلام. والنحاس استورد من عدد من مناطق إنتاجها الرئيسية من قبيل الأناضول وقبرص وبلاد ماجان (عمان الحالية) والفضة من جبال طوروس والذهب من الأناضول ومن مصر والقصدير من إيران، أما حجارة نحت التماثيل فبعضها كان يؤتى به من أفغانستان وإيران. وكما نلاحظ فإن الكثير من هذه البلاد لم يكن لها حدود مع بلاد الرافدين والتجارة معها كانت تتم على الأغلب عن طريق الوسطاء ولاسيما في العصور التاريخية المبكرة وهذا

يقودنا للحديث عن الطرق التجارية التي كانت تربط بلاد الرافدين مع غيرها من البلدان المحيطة بها.

لقد اتّصل سكان بلاد الرافدين مع البلاد المجاورة بطرق برية وبحرية أما الطريق البحري فكان الطريق الجنوبي. فالسفن كانت تنطلق من مدينة أور محملة ببضائعها لتصل إلى دلمون (البحرين حالياً) ومنها إلى ماجان وميلوخا(الشواطئ الهندية). أما إلى سورية فقد استخدم طريقان رئيسان للأغراض التجارية والعسكرية. وهذان الطريقان كانا يتخذان من مجرى الفرات بداية لهما وصولاً إلى ماري على المجرى الأوسط للنهر، ومن هناك كان بالإمكان الاتجاه شمالاً إلى إيمار (مسكنة) ومنها إلى حلب أو متابعة الطريق من إيمار نحو كركميش ومنها إلى الأناضول. وهذه الطريق كانت أطول ولكنها أكثر أماناً من الطريق الثانية التي كانت تنطلق من ماري أو جوارها إلى دمشق عبر تدمر و قطنة (المشرفة). وأما إلى إيران فإن المسالك كانت أكثر صعوبة بسبب عدة عوامل منها الحواجز الجبلية التي كانت تقف عائقاً أمام اتصال البلدين إلا من خلال بعض الممرات، وبسبب وجود قبائل معادية في هذه الجبال كانت تطمح للنزول من مواطنها القاسية والفقيرة والاستقرار في بلاد الرافدين. وأخيراً لا بد من الإشارة إلى الصلة التي كانت تربط بلاد الرافدين مع جنوب الجزيرة العربية، فالطريق كانت تنطلق من نجران (التي تتجمع فيها منتجات بلاد اليمن المختلفة) حتى تثليت ثم شرقاً إلى وادي الدواسر ماراً بالفاو ومنها يتابع باتجاه شمال شرق إلى أن يصل إلى الجرهاء ومنها إلى جنوب بلاد الرافدين. و لابد من أن نذكر هنا انه كانت هناك تجارة ناشطة بين السواحل الشرقية للجزيرة العربية وموانئ بلاد الرافدين، وأن منتجات جنوب الجزيرة العربية الواصلة إلى موانئها الشرقية كانت تنقل بحراً إلى بلاد الرافدين.

ويجب أن نؤكد في هذا المجال أن هذه الطرق لم تكن هي الوحيدة المستخدمة في كل مراحل تاريخ بلاد الرافدين. فالطرق كانت تتبدل وفقاً لاعتبارات عديدة أهمها الأمن على الطرق التجارية وتوافر المياه على امتداد هذه الطرق.

الفصل الثاني

عصر السلالات الباكرة

يبدأ هذا العصر مع نهاية حضارة جمدة نصر في حدود (2900 ق0م) ويستمر حتى قيام الامبراطورية الأكادية نحو العام (2350 ق0م). وقد أطلق على هذا العصر هذه التسمية لأن كل واحدة من المدن السومرية كانت تحكم من قبل سلالة مالكة ورد ذكرها في قائمة الملوك السومرية التي وضعت في نهاية الألف الثالث ق0م في عصر سلالة أور الثالثة. وهناك أسماء أخرى يطلقها بعض الباحثين على هذا العصر من قبيل « عصر دول المدن السومرية » حيث كانت كل مدينة مع ضواحيها ومجموعة قنوات الري التابعة لها تشكل دولة صغيرة مستقلة، وترتبط بعلاقات مختلفة مع باقي المدن المحيطة بها.
وغالباً ما كانت تنشب الحروب بين هذه الدول– المدن بغرض السيطرة على الأراضي الزراعية وقنوات الري المقامة على نهري دجلة والفرات. ومن التسميات الأخرى التي تطلق على هذا العصر، تلك التي أطلقها عالم الآثار الفرنسي أندريه بارو وهي » العصر ما قبل الصارجوني « للتدليل على أهمية قيام الامبراطورية الأكادية على يد شاروكين الأكادي في مسيرة التاريخ البشري. ونشير هنا إلى أن العصر يقسم إلى ثلاث مراحل أصغر تدعى بعصر السلالات الباكرة الأول والثاني والثالث ويستند هذا التقسيم إلى ظهور بعض الخصائص المعمارية المتميزة ولاسيما فيما يتعلق ببناء المعابد وكذلك ازدياد عدد الوثائق الكتابية وظهور بعض الارشيفات. كما ويؤدي الفخار دوراً مهماً في هذه التقسيم ([1]).

إن العنصر البشري السائد في جنوب بلاد الرافدين في هذه المرحلة كان العنصر السومري واللغة السائدة هي اللغة السومرية.

---

[1]- مرعي، عيد: تاريخ بلاد الرافدين منذ أقدم العصور حتى عام 539 ق.م، ط1، دمشق، 1991، ص 25.

أما عن أصل السومريين فهناك آراء عدة منها أنهم هاجروا إلى جنوب بلاد الرافدين من بعض مناطق أسيا الوسطى عن طريق إيران، أو من وادي السند عن طريق الخليج العربي. وذهب كرامر إلى اعتبار السومريين بدواً مما وراء القوقاز أو من وراء بحر قزوين، اندفعوا إلى مناطق غرب إيران فيما يعاصر عصر العبيد أو بداية عصر الوركاء وتمثلوا هناك هذه الحضارة ومن ثم اندفعوا إلى جنوب بلاد الرافدين في الربع الأخير من الألف الرابع ق0م. و نفى رأي آخر اعتبار السومريين أغراباً، وتشكك أصحاب هذا الرأي في نتائج دراسة جماجمهم، وافترضوا أن الرؤوس العريضة بينهم ترتيب على اتصالات متقطعة بين سكان العراق ذوي الأصل السامي في فجر التاريخ وبين جيرانهم ذوي الأصل ما قبل الأري ذوي الرؤوس العريضة، دون أن يتأتى عن وحدة جنسية لازمة بين الفريقين ([2]).

أما عن لغة هؤلاء السومريين، فهي لغة إلصاقية، وهي بذلك تختلف عن مجموعة لغات الشرق العربي القديم واللغات الهند وأوربية والحامية. فالإلصاق هو دمج لفظين معاً لتكون كلمة جديدة. فمثلاً كلمة « لو » تعني بالسومرية « رجل » وكلمة « جال » تعني كبير فإذا دمجت هاتين الكلمتين مع بعضهما تصبح « لوجال » وتعني الرجل الكبير بمعنى الملك أو الحاكم.

وانطلاقاً من كون هذه اللغة كما قلنا مختلفة على هذا النحو عن باقي لغات المنطقة، اعتبر الكثير من الباحثين أن السومريين أيضاً غرباء عنها.

أولاً- المدن – الدول :

بدأت في حدود الألفين الرابع والثالث ق 0م بالظهور في الجزء الجنوبي من بلاد الرافدين (سومر التاريخية) مجموعة من المدن – الدول المستقلة وبناء على المعطيات الأثرية المتوافرة، كان يوجدفي مطلع الألف الثالث ق 0م خمس عشرة مدينة – دولة صغيرة. وفي

---

[2]- صالح، عبد العزيز : الشرق الأدنى القديم، مصر والعراق، ط2، 1982، ص388- 391.

الفترة الأولى من عصر السلالات الباكرة (نحو 2750ق0م) تذكر النصوص السومرية أسماء ثلاث عشرة مدينة دولة. وتؤكد الأسطورة السومرية أن الآلهة كانت أول من أسس هذه المدن.

ويرى بعض الباحثين أن المدينة السومرية كانت تتألف من ثلاثة أقسام: القسم الأول هو مدينة الخاصة (الداخلية أو الأقدم).

وكان هذا القسم محاطاً بأسوار خاصة به ويحوي المعابد والقصر ومقرات الموظفين التابعين للبلاط وبيوت المواطنين.

أما القسم الثاني فهو « الضاحية » التي تقرأ بالسومرية (أورد. بار. با) وهي مجموعة الحقول والمراعي التابعة للمدينة. وليست لدينا معلومات فيما إذا كان لهذاالقسم تحصينات ثانوية خاصة به، أو إلى أي مدى كانت تمتد هذه الضواحي. وأما القسلمثالث فهو الميناء. أما مركز إدارة المدينة فيوجد عند البوابة، وقداحتوت المدن الكبرى مجموعة من البوابات التي تختص كل منها بحي من أحياء المدينة، حيث يوجد أمام البوابة فناء يجتمع فيه سكان المدينة (أو سكان الحي) لتدارس قضاياهم ومشاكلهم ([3]).

ولكن هذا التقسيم الثلاثي لا يمكن تعميمه على مختلف المدن السومرية نتيجة لظروف تأسيس كل واحدة منها ومكان توضعها.

وتؤكد الأبحاث الأثرية والنصوص المسمارية أنه كان يوجد في وسط كل مدينة سومرية « قطاع مقدس » وهو مكان مسور خصيصاً ومفصول عن غيره من الأبنية، وتتركز فيه معبد أهم الآلهة وقصر الحاكم، وحول هذا « القطاع المقدس » تتجمع أحياء المدينة السكنية. وكان البيت السومري بشكل عام مبنى صغيراً من اللبن ذا طابق واحد،

Damascus University

---

[3]- أو بنهايم، ليو: بلاد ما بين النهرين، ترجمة سعدي فيضي عبد الرزاق، ط 1، 1981، دار الرشيد للنشر، ص 140.

ويتكون من عدة غرف تحيط بباحة داخلية مكشوفة. وأما سكان المدينة الميسورون فكانوا يملكون بيوتاً من طابقين يحتوي كل منها على أكثر من عشر غرف ([4]).

وأما عن عمارة المعابد، فقد تميز هذا العصر ببناء المعابد التي يمكن تقسيمها من حيث مخططها إلى قسمين: أولهما المعابد العالية القائمة على منصات من القرميد والتي عرفت باسم « الزقورة ». أما ثانيهما فهو المعابد المبنية على سوية الأرض والتي تحيط بها أحياناً أبنية سكنية.

وأما عن الآلهة التي كانت تعبد في هذه المعابد فنستطيع القول إن للدين دوراً هاماً في حياة المجتمع السومري، وكان لطبقة الكهان ولا سيّما في معابد الآلهة الكبرى دور مهم في حياة مدن بلاد الرافدين السياسية. فالمعبد كان في البداية مقر الحاكم في الوقت الذي كان فيه الكاهن الأعلى هو الحاكم المدني والقائد العسكري أيضاً.

وعلى الرغم من أنّ حالة الفرقة السياسية التي سادت بين السومريين، إلا انهم كانوا يتعبدون لمجموعة من الآلهة المشتركة.وأهم هذه الآلهة كان الإله آنو إله السماء الذي بني له معبد كبير في مدينة أوروك. ويبدو أن دور هذا الإله قد تراجع في بداية عصر السلالات الباكرة، وتراجعت أهمية عبادته ليحل محله الإله انليل إله الجو والهواء والذي كان معبده في مدينة نيبور محجاً يقصده السومريون من مختلف مدنهم في مناسبات معينة. وأما ثالث الآلهة الرئيسة عند السومريين فكان الإله إنكي إله الأرض والماء العذب وكان معبده الرئيسي في مدينة إريدو.

وإلى جانب هذه الآلهة الرئيسة المشتركة، كان لكل مدينة سومرية إلهها الخاص الحامي لها والذي يتمتع بمركز الصدارة فيها. فهناك مثلاً نينجر سو في لاجاش ونانا في أور. هذا إلى جانب مجموعة كبيرة من الآلهة الأخرى.

---

[4]- غولاييف: المدن الأولى، ترجمة طارق معصراني، دار التقدّم، موسكو، 1989، ص73.

وأما عن نظام الحكم عند هؤلاء السومريين. فهو بلا شكّ كان نظاماً ملكياً وقائمة الملوك السومريين التي وضعت في عصر سلالة أور الثالثة (2111- 2003ق0م) وربما في عهد أول ملوك هذه السلالة أورنمو (2111- 2094) تذكر أن الملكية هبطت من السماء قبل الطوفان في مدينة أريدو، ومن ثم نزلت بعد الطوفان في مدينة كيش.

ومن خلال بعض النصوص نتبين أن الحاكم لم يكن يتمتع دائماً بسلطان مطلق، بل كان إلى جانبه مجلس يسدي إليه النصح ويساعده على تدبير أمور الدولة، وكان هذا المجلس يضم رؤساء البيوتات الكبيرة أو رؤساء العشائر في المدينة ولذلك يمكن أن نسميه مجلس الشيوخ. وكان هناك مجلس آخر يضم كل الرجال والأحرار القادرين على حمل السلاح في المدينة والذي يمكن أن نسميه المجلس الشعبي، ودور هذين المجلسين واضح من خلال ملحمة جلجاميش.

ولقد حمل حكام المدن السومرية ألقاباً مختلفة. فبعض هؤلاء الحكام كان يحمل لقب « لوجال » بمعنى الرجل الكبير والذي أصبح فيما بعد موازياً للقب الملك. ويرى البعض أن هذا اللقب لم يكن يحمل دائماً وإنما في بعض الحالات الاستثنائية من مثل تعرض المدينة لأخطار خارجية لأن حامل هذا اللقب كان يتمتع بصلاحيات واسعة جداً. ومن الألقاب الأخرى التي استخدمت اللقب « إن » الذي كان يعني السيد أو الكاهن، وأخيراً كان هناك اللقب « إنسي » والذي كان يعنى أمير مدينة – أمير كاهن، وسنعرض فيما يلي لبعض أهم الحكام الذي حكموا المدن السومرية خلال هذا العصر ولأهم الأحداث التي شهدتها هذه المدن.

أشرنا آنفاً أن قائمة الملوك السومريين تذكر أن الملكية هبطت بعد الطوفان في مدينة كيش ويبدو أن هذا التصور تشكل لدى واضعي هذه القائمة لكون حكام هذه المدينة كانوا أول من توصل إلى فرض سيادتهم على مجموعة من دول المدن السومرية، وأن هؤلاء الحكام كانوا أول من حمل اللقب الملكي.

ومن أشهر حكام كيش الذين تذكرهم القائمة السومرية ميبارا جيزي وهو رابع ملوكها من سلالتها الملكية الأولى وقد وصلنا من عصره كتابتان عثر عليهما في وادي الديالى وحسب رواية « قائمة الملوك » فإن ميبارا جيزي قام بحملة ضد عيلام. وأما أبنه آجا فكان معاصراً لملك أوروك جلجاميش. وهو الذي أرسل إلى أهالي أوروك يطلب منهم المساهمة في أعمال الري التي كان يزمع القيام بها، وقد وافق مجلس الشيوخ في أوروك على هذا الطلب، وطلب من جلجاميش الموافقة عليه أيضاً. إلا أن جلجاميش رفض تلبية هذا الطلب إستناداً إلى تأييد الشبان المقاتلين في أوروك له، وتمكن من الانتصار على جيش أجا الذي جاء لفرض الحصار على أوروك ([5]).

ولكن أشهر حكام كيش كان المدعو « ميساليم » ورغم أن اسمه لم يرد في قائمة الملوك، إلا اننا نصادفه في مناطق مختلفة من بلاد الرافدين وخارجها.

فقد عثر على نقوش كتابية باسمه في مدينة أدابا وفي لجش، كما ورد منقوشاً على صولجان مزين برسوم عدة أسود. ويرد الاسم في وثيقة سومرية تسرد أخبار النزاع الذي نشأ بين مدينتي لاجاش وأدما حول ملكية أرض على الحدود بينهما، وتذكر هذه الوثيقة ان ميساليم ملك كيش كان هو الحكم في هذا النزاع وهو الذي حدد الحدود بين المدينتين وهذا يدل على المكانة الكبيرة التي كان يتمتع بها هذا الملك الكيشي في جنوب بلاد الرافدين.

إن الانتصار الذي حققه جلجاميش على آجا جعل السيادة على جنوب بلاد الرافدين تنتقل من كيش إلى أوروك. وأغلب معلوماتنا عن هذا الملك ذات طابع أسطوري، وتربط الأساطير بينه وبين بناء أسوار مدينة أوروك. وقد أثبتت نتائج التنقيب الأثري وجود أسوار حول أوروك يبلغ طولها نحو (9) كم ويرد في رواية سومرية متأخرة أن

---

[5]- كريمر، صمويل: من ألواح سومر، ترجمة طه باقر، تقديم ومراجعة أحمد فخري، بدون تاريخ، ص81، وما بعدها.

جلجاميش كان من بين الذين شاركوا في إعادة إعمار معبد الإلهة إنليل في مدينة نييور بعد أن كان قد تعرض للتدمير.

ومن الوثائق الهامة التي يرد فيها اسم ملوك من أوروك، تلك النصوص التي عثرعليها في شوروباك والتي تعدد أسماء الآلهة السومرية، ويرد اسم لرجال بندا وحلجاميش كملكين ألها بعد وفاتهما.

وبعد ضعف سلالة أوروك انتقلت السيادة على الجنوب الرافدي إلى مدينة أور وذلك بحدود منتصف الألف الثالث ق0م.

ويبدو أن حكام أور كانوا الأكثر غنى من بين جميع حكام المدن السومرية الأخرى، وأن سبب هذا الغنى كان التجارة التي مارستها هذه المدينة عبر الخليج العربي مع دلمون وماجان وميلوخا.

وتعطينا مقبرة أور الملكية التي كشفت عنها تنقيبات البعثة الأثرية الأنكليزية التي كان يرأسها ليوناردوولي والتي جرت في الفترة الواقعة بين (1922- 1934) فكرة عن مدى الغنى الذي كانت تتمتع به هذه المدينة، فقد حوت هذه المقبرة ضريح أحد ملوك المدينة المدعو ميسكا لادوغ وضريح امرأة، ربما إحدى ملكات المدينة أو إحدى الكاهنات الرئيسات فيها.

وكان يدخل إلى المقبرة عبر ممر منحدر كانت تقف فيه عربات تجرها الثيران إضافة إلى جنود يضعون على رؤوسهم الخوذ ويحملون بأيديهم الرماح. وفي إحدى زوايا المقبرة مخدع مقنطر وبداخله سرير نامت عليه امرأة ترتدي عباءة من الخرز الأزرق اللازوردي، وكانت تضع على رأسها تاجاً من أوراق ذهبية وأكاليل ودبابيس على شكل زهور.
واستناداً إلى الكتابة المنقوشة على ختم عثر عليه في المقبرة فإن هذه المرأة كانت تدعى « بوآبي ». وأما الملك ميسكا لادوغ فقد كان على رأسه أيضاً خوذة ذهبية رقيقة للغاية ([6]).

---

[6]- تاريخ الشرق القديم – نشوء المجتمعات الطبقية القديمة، ج 1، « بلاد الرافدين »، بإشراف دياكونوف، موسكو، 1983، (باللغة الروسية)، ص 187 وما بعدها.

وما لفت الانتباه في هذه المقبرة العدد الكبير من الأتباع الذين دفنوا مع أسيادهم. وكانت النساء منهن يحملن آلات موسيقية مختلفة وهن يرتدين عباءات ملونة وعلى رأسهن شرائط فضية. ولم يعثر على أي آثار للعنف على جثث الضحايا، لذلك فمن المحتمل أن يكونوا قد سمموا أو خدروا قبل أن يوضعوا مع أسيادهم.

ثانياً– سلالة لاجاش الأولى :

قدمت لنا التنقيبات الأثرية التي جرت في موقع لاجاش (تللو المعاصرة) مجموعة كبيرة من الوثائق المكتوبة فاقت ما قدمته لنا أي مدينة أخرى معاصرة لهذه المدينة. ومن خلال هذه الوثائق نستطيع التعرف على أوضاع هذه المدينة الداخلية وعلى علاقتها مع جيرانها ولاسيما مع مدينة أوما المجاورة لها والنزاع الذي نشب بين هاتين المدينتين. إن أول الملوك المهمين في هذه المدينة كان أورنا نشه (نحو 2500 ق0م) والذي ربما كان معاصراً لميسانيبادا ملك كيش وإن كان أصغر منه سناً. وهناك نصب يصور أورنانشة وهو محاط بأفراد عائلته وبعض كبار رجال دولته، ويعد هذا النصب فريداً لأن الحكام بعد ذلك أصبحوا يمثلون منفردين. وقد تركزت نشاطات هذا الملك في الأمور السلمية، فقد اهتم بحفر القنوات وبناء السدود والأسوار والمعابد في كل مكان. كما نشط التجارة الخارجية البحرية عبر الخليج العربي بوساطة ميناء غوابا الذي كان يتصل مع لاجاش وجيرسو (وهي مدن لاجاش المهمة) بوساطة قناة مائية كانت تبحر فيها السفن الصغيرة لإيصال البضائع من الميناء وإليه.

ويعد حفيد أورنانشة المدعو إيانا توم (نحو 2470ق0م) من أهم ملوك لاجاش الذين دخلوا في صراع على السيادة على جنوب بلاد الرافدين مع كل من أوروك وأور وكيش وأكشاك وغيرها. وشهد عهده تجدد الحرب مع مدينة أوما المجاورة (تل خوجة الحالية) بغرض السيطرة على منطقة جو إدينا (ومعناها بالعربية حد السهل أو حافة السهل) وانتهت الحرب بانتصار إيانا توم على حاكم أوما. وقد خلد نصره هذا على

نصب يعرف الآن بنصب العقبان نقشت على وجهه الأمامي صورة الإله نينجرسو كمنتصر يمسك بيده اليسري الأعداء كالأسماك في شبكه. أما الوجه الخلفي للنصب فيعرض لمشاهد حربية لإيانا توم إضافة إلى كتابة تقص أخبار الصراع بين المدينتين ([7]).

وقد استمرت محاولات إنانا توم بعد ذلك وكتاباته تذكر أسماء مجموعة من المدن التي حاربها من مثل أدامدون (في عيلام) وإدابا وأور وأوروك وأكشاك التي اجتاحها وقتل ملكها زوزو حيث أضاف إلى ألقابه بعد ذلك لقب« لوجال كيش ».

حكم بعده في لاجاش شقيقه إنانا توم الأول الذي لم يترك أثاراً تذكر وجاء من بعد انتيمينا ومن ضمن الكتابات التي تركها واحدة عثر عليها في نيبور وتذكر أن « سيد الآلهة انليل اختاره من بين 3600 رجل (أو 36000) » وتجددت الحرب في عهده مع أوما. وقد كرس انتيمينا لأخبار هذه الحرب كتابة نقشت على مخروط طيني وكرست لعلاقات لاجاش مع أوما منذ عهد ملك كيش ميساليم إلى أيامه ([8]).

بعد انتيمينا بدأت قوة لاجاش بالانهيار وذلك في عهد حكامها أنانا توم الثاني وانين تارزي وابنه لوجال ندا. وكان ملك لاجاش الأخير هو أورو انمجينا الذي حاول إعادة تنظيم المدينة – الدولة ولاسيما على الصعيد الداخلي، حيث حاول نزع فتيل الاضطرابات الاجتماعيةالتي أخذت تهدد مكانة لاجاش ومركزها الرئيسي في جنوب بلاد الرافدين.

و« أورو انمجينا » فنقش كتابة طويلة ذكر فيها الأوضاع التي سادت لاجاش قبل تسلمه السلطة فيها وكيف استغل كل صاحب منصب منصبه لأغراضه الشخصية، وكيف تحولت أملاك الدولة إلى أملاك شخصية للموظفين والمشرفين عليها.

ولكن الإجراءات التي اتخذها اورو انمجينا والتي شملت إعادة الحقوق لأصحابها ومنع كبار رجال الدولة من استغلال وظائفهم ومرؤوسهيم لم تؤد إلى تحسن الأوضاع

---

[7]- سليمان، توفيق : دراسات في حضارات غرب أسيا، من أقدم العصور إلى عام 1190 ق. م، دار دمشق، ط1، 1985، ص 103- 106.

[8]- كريمر: المرجع السابق، ص 89 وما بعدها.

فيلاجاش بل على العكس ربما زاداتها سوءاً نتيجة انقلاب المستفيدين من الأوضاع السابقة عليه. وفي الوقت نفسه ظهر في مدينة أوما العدو التقليدي لمدينة لاجاش شخصية لوجال زاجيزي (نحو 2350ق0م) الطامع في الانتقام وإلى تأسيس دولة تشمل كل بلاد الرافدين فيما بعد وليست لدينا معلومات كافية حول الطريقة التي وصل بها لوجال زاجيزي إلى السلطة في مدينة أوما، إلا أنه من المحتمل أنه استغل منصبه ككاهن للإلهة نيسابا إلهة اوما ليغتصب السلطة في المدينة.

أما عن مجرى الأحداث بعد ذلك فمختلف عليه في أوساط الدارسين. فبعضهم يرى أنه استغل فترة الفوضى التي كانت تسود مدينة لاجاش نتيجة إصلاحات أوروانمجينا وبدأ يهاجمها ويستولي عليها ومن ثم هاجم كيش التي كان يرى فيها عدواً خطيراً عليه وعلى شعبه السومري باعتبار أن كيش كانت مركز للجماعات الأكادية في بلاد الرافدين في ذلك الوقت ومن ثم استولى على أوروك التي جعل منها عاصمة لملكه الجديد ([9]).

في حين يعتقد آخرون أن الأمور لم تجر على هذا النحو، ويضعون مخططاً آخر لأعمال لوجال زاجيزي العسكرية منطلقين في ذلك من الألقاب التي حملها خلال فترات مختلفة من حياته.

ففي البداية كان يحمل لقب « إنسي أوما » وفي كتابة نيبور يسمي نفسه « أن أوروك، لوجال أور » وبالتالي فإنه يكون قد سيطر على هاتين المدينتين ومن ثم على نيبور. إن اعتراف نيبور بلو جال زاجيزي أعطاه مكانة سياسية كبيرة كونها العاصمة الدينية لسومر، إضافة إلى المكانة الاستراتيجية حيث سيطر على المجرى الجنوبي لنهر الفرات. ومن هذا الوقت بدأ لوجال زاجيزي يسمي نفسه « ملك أوروك، ملك البلاد » وعلى الرغم من أن هذا النص يذكر أسماء مدن كثيرة احتلها إلا أنه يفضل ذكر مدينتي لاجاش وكيش ([10]).

---

[9]- سليمان: المرجع السابق، ص 113- 115.
[10]- تاريخ الشرق القديم، ص210.

وفي الوقت الذي كان فيه لوجال زاجيزي مشغولاً ببناء دولته وتثبيت سلطانه، جاءته ضربة قاضية مفاجئة من مدينة كيش التي كان قد استولى على السلطة فيها شاروكين مؤسسس الامبراطورية الاكادية وبذلك ينتهي عصر السلالات الباكرة ليبدأ أول عصر امبراطورية عرفها العالم القديم وهو عصر الامبراطورية الأكادية.





الفصل الثالث

الدولة الأكادية

يرجع وجود العناصر السامية في بلاد الرافدين إلى عصور ما قبل التاريخ وفي الفترة المبكرة من عصر السلالات المبكرة، تركز هذا الوجود في مدينة كيش ومحيطها، وبفضل معرفة الإنسان للكتابة في هذا العصر، أصبح بالإمكان رصد هذا الوجود من خلال أسماء الأعلام الأكادية التي ترد في النصوص السومرية ولاسيّما أسماء بعض الحكام. إضافة إلى الكلمات الأكادية التي دخلت إلى اللغة السومرية.

لقد أسهم الأكاديون في الحياة العامة للمدن السومرية، وكان لهم دورهم في الإنجازات الحضارية التي تحققت في عصر السلالات الباكرة وإن كان دورهم السياسي ضعيفاً إن لم يكن معدوماً قبل أن يقوم شاروكين بالاستيلاء على السلطة في مدينة كيش، وينطلق منها ليفرض سيطرته على كل بلاد الرافدين والمناطق المجاورة لها، موحداً ولأول مرة دويلات المدن السومرية المتنازعة فيما بينها في ظل سلطة سياسية واحدة.

وفي بحثنا عن حياة وشخصية شاروكين، تصادفنا مشكلة التمييز بين ما هو أسطوري وما هو حقيقي أو تاريخي. فهو يقول عن نفسه في نقوش أمر بوضعها أنه نشأ من أصل متواضع، وأنه لم يعرف له أباً، وأن أمه ولدته خفية في مدينة أزو بيرانو على ضفة الفرات ثم وضعته في سلة من القصب وألقت بها في النهر. فاحتمله الماء حتى التقطه الفلاح أكي الذي اتخذه ولداً له وعلمه مهنته، إلى أن شملته الإلهة عشتار بحبها ورعايتها ورفعت من شأنه. وقوله أن أمه حملت به خفية وأنه لم يعرف له أباً، ربما كان يخفي في طياته أن

أمه كانت إحدى الكاهنات اللواتي وهبن عفافهن لربها أو للمعبد وكبير كهنته، أي ولد نتيجة زواج من النوع الذي كان يمارس في المعابد في تلك العصور ([1]).

وقد بدأ شاروكين حياته العملية في مدينة كيش التي تدرج في المناصب فيها حتى وصل إلى وظيفة ساقي الملك. وفي ظروف نجهلها وثب على عرش المدينة واستلم السلطة فيها. وإن كان من المحتمل أن يكون شاروكين استغل فترة الاضطرابات التي كانت تمر بها المدينة نتيجة الصراع مع لوجال زاجيزي الحاكم القوي في جنوب بلاد الرافدين في ذلك الوقت.

وقد وجه شاروكين عنايته منذ أيام حكمه الأول إلى قواته المحاربة، وزاد الاهتمام منذ بداية عهده بتقوية الفرق ذات الأسلحة الخفيفة من القواسة، واستخدام الأسلحة البرونزية، وارتقت في جيشه أساليب المبارزة الفردية.

وعلى الرغم من الأهمية الكبيرة التي كانت تتمتع بها مدينة كيش والمكانة الكبيرة لملوكها، إلا أن شاروكين آثر أن ينقل مقر حكمه إلى مدينة جديدة تكون مرتبطة باسمه، فبنى لنفسه عاصمة جديدة أطلق عليها أسم أكاد أو « أجاد » بالقرب من مدينة سيبار. ولكن هذه العاصمة لم تكشف حتى الآن، بالرغم من الجهود الكبيرة التي بذلها أثاريون أجانب وعراقيون في هذا السبيل.

وقد جعل شاروكين من عاصمة ملكه مقراً لعبادة الإلهة عشتار، في حين كانت سيبار مقراً لعبادة الإله شمش.

إن المواجهة بين لوجال زاجيزي وشاروكين كانت أمراً لا مفر منه، فكلاهما لديه الأهداف والطموحات نفسها، وإن كان لوجال زاجيزي قد بدأ بتنفيذ مشاريعه قبل شاروكين بزمان، إلا أن النصر في النهاية كان لمصلحة هذا الأخير. وإن كنا نجهل الكثير من التفاصيل عن سير المعارك بين الطرفين إلا أننا نعلم ومن خلال كتابات شاروكين أن

---

[1]- صالح، عبد العزيز : المرجع السابق، ص 419.

خمسين أميراً سومرياً تحالفوا تحت قيادة لوجال زاجيزي ضده ولكن شاروكين تمكن من أن يلحق الهزيمة بهذه القوات المتحالفة وأن يقبض على لوجال زاجيزي الذي اقتاده في قفص وجره من من عنقه حتى بوابة الإله انليل. ثم هاجم شاروكين المدن السومرية الواحدة تلو الأخرى إلى أن أخضعها جميعها لسلطته، وعندما وصل إلى شاطئ الخليج العربي قام بغسل سلاحه في مياه هذا البحر واتخذ لنفسه لقب ملك سومر وأكاد.

ولم يكتف شاروكين بما حققه من سيطرة على وسط بلاد الرافدين، فبدأ بالتطلع إلى المناطق المجاورة، فخاض حرباً في عيلام في الجنوب الشرقي من بلاد الرافدين وحرباً ضد القبائل اللولبية التي كانت تتخذ من جبال زاجروس موطناً لها وكانت تطمح للنزول من مواطنها الفقيرة إلى السهل الرافدي الخصيب، وكانت من النجاحات الكبرى التي حققها وصوله إلى شمال سورية، فهوفي إحدى كتاباته يذكر « شاروكين الملك خر خاشعاً في توتول (هيت حالياً) أمام (الإله) داجان وصلى. الأرض العليا أعطاه إياها (أي داجان) : ماري- يرموتي إبلا حتى غابة الأرز وجبال الفضة » ([2]). والمقصود بغابة الأرز جبال الأمانوس وبجبال الفضة جبال طوروس. وفي ملحمة (« شارتامخاري » بطل المعركة) يُذكر أن شاروكين لبى نداء مجموعة من التجار الأكاديين الذين كانوا يعملون في آسيا الصغرى ضد حاكم بوروشخاندا الذي كان يتعرض لهؤلاء التجار المقيمين في مدينة كانيش. وإن كنّا لا نستطيع أن نكون واثقين تماماً من أن شاروكين وفي هذه الفترة المبكرة من التاريخ قد اجتاز جبال طوروس وحارب هناك ومن ثم عاد إلى موطنه في وسط بلاد الرافدين.

وقبل نهاية حكمه حدث تمرد في البلاد، كما تذكر الروايات «كل شيوخ البلاد نهضوا ضده وحاصروه في أكاد » أو كما يرد في نصوص أخرى « في شيخوخته كل

---

[2]- مرعي، عيد: المرجع السابق، ص 46.

البلاد ثارت ضده وحاصروه في أكاد » ولكن شاروكين « خرج (من المدينة) أوقع بهم الهزيمة، قام بسحقهم...»([3]).

ولم يكتف شاروكين خلال مدة حكمه المديدة التي تجاوزت خمساً وستين عاماً (2350-2284ق0م) بالأعمال العسكرية، ولكنه وجه اهتمامه أيضاً إلى النواحي العمرانية. فبناء عاصمة جديدة، تطلب بناء معابد وقصور ومبان للإدارات المختلفة وقبل كل شيء أسوار وحصون وأمر بشق قنوات ري جديدة وإصلاح ما تخرب أثناء فترة الصراع مع لوجال زاجيزي. ولقد أدرك ومنذ وقت مبكر أهمية كسب تأييد طبقة الكهان إلى جانبه، فعندما احتل مدينة نيبور، أظهر اهتماماً بعبادة إله سومر الرئيسي انليل إلى جانب الآلهة الأكادية. ومن الألقاب الملكية التي حملها لقب ملك البلاد (« ملك الكل » شاركيشا توم).

بعد شاروكين جلس على العرش ابنه الأكبر ريموش (2284- 2275ق0م) والذي اضطر في بداية حكمه للتصدي للتمرد الكبير الذي قامت به المدن السومرية بزعامة « لوجال أور » المدعو كاكو. وقد تمكن ريموش من القضاء على هذا التمرد وأسر زعيمه، ومن ثم خاض حرباًَ أخرى ضد بعض المدن (دير، أوما، أدابا، لاجاش) وبعد ذلك توجه إلى عيلام في حملة عسكرية وفي نصب أقيم في معبد نيبور يذكر ريموش إهداءه لهذا المعبد خمسة عشر كيلو غراماً من الذهب و 1.8 كغ من النحاس وستة من العبيد والإماء من جملة غنائمه من بلاد عيلام. ووفقاً لرواية متأخرة، ربما من عهد شاركا ليشاري، فإن ريموش توفي مقتولاً على يد « كبرائه » رمياً بالحجارة، وجلس على العرش مكانه شقيقه ما نيشتوسو (2275- 2260ق0م).

إن أول حملات مانيشيتوسو كانت ضد المقاطعة العيلامية أنشان (تل مليان حالياً بالقرب من سوزه) وهناك كتابة تذكر أخبار حملة قام بها إلى الجنوب يرد فيها أنه « نزل

---

[3]- تاريخ الشرق القديم، ص 239- 240.

إلى البحر الأسفل بالقوارب، واجتمع 32 حاكماً للحرب انتصر عليهم. ومن الجبال (الواقعة) في تلك الجهة من البحر الأسفل، اقتلع الحجارة، حملها بالمراكب حتى مرفأ أكاد، رسو (هناك) صنعوا تمثالاً له » ([4]).

وفي نص آخر يذكر وصوله « حتى مناجم الفضة نفسها » إن المهم في هذين النصين، هو ذكرهما الهدف من حملات مانيشيتوسو ألا وهو الحصول على المواد الأولية سواءٌ أكانت حجارة أم فضة، إلى جانب تدعيم السلطة الأكادية في جنوب بلاد الرافدين وفي عيلام.

وتولى العرش الأكادي بعد وفاة مانيشتوسو ابنه نارام سن (2260- 2223ق0م) الذي يعد مع جدّه الأكبر شاروكين أشهر ملوك الدولة الأكادية.

وقد تميزت بداية حكمه بثورات قامت في مدن جنوب بلاد الرافدين هدفت إلى الاستقلال عن السلطة الأكادية. وقد شاركت في هذه الانتفاضة مدن كيش ونيبور وأوما وماري وغيرها. وهناك كتابة لنارم سن تذكر انتصاره « في تسع حملات خلال عام واحد » وعن أسر ثلاثة ملوك. ويبدو أن المقصود بذلك هو انتصاره على المدن التسع المتمردة، ومما يلفت الانتباه في أخبار انتصارات نارام سن، هو ما يذكره عن انتصاره على حاكم ماجان (ربما سواحل عمان الحالية) المدعو مافي أدم. إن وصول جيوش نارام سن إلى تلك البقعة النائية عن بلاده يعتبر في حد ذاته خطوة جبارة وجريئة من هذا الملك الكبير، وهنا لابدّ من الإشارة إلى أن بلاد ماجان كانت تعتبر من المصادر الرئيسية للحصول على حجر الديوريت الذي كان يستخدم في نحت التماثيل.

وبعد أن استقرت الأمور لنارام سن في الداخل نتوجه بنظره إلى جبال زاجروس موطن القبائل اللولبية المتربصة ببلاد الرافدين فشن حرباً كبيرة ضدها، خلدها لنا على نصب تعتبر مناظره من أمتع النقوش الأكادية وهو النصب الذي يسمى نصب النصر.

---

[4]- تاريخ الشرق القديم، ص244.

فنرى على النصب الملك بجسده الفارع المشدود وبلحيته الكثة وهو يحمل قوسه المزدوج ويضع على رأسه التاج ذا القرون، وينتعل صندلاً ذا شرائط وهو يهاجم حصن أعدائه، وصوّر مقدمي جيشه وحملة ألويته يصعدون معه سفح التل الذي يقوم الحصن فوقه ويتخللون أدغاله، وصُور مُبلغ أوامر الملك يأمر بها من خلفه، وصور نافخ البوق يرتكز على الأرض بيده ويشرع البوق عالياً صوته قوياً مدوياً، وصور بعض الأعداء يتساقطون من سفح التل على أم رؤوسهم، وصور بعضٍ آخرين يهبطون التل هبوطاً اضطرارياً عمودياً، ثم جعل غاية الركب قمة جبل عظيم تتوجه رموز مقدسة محورة قد ترمز إلى الثالوث الفلكي ثالوث القمر والشمس والزهرة ([5]).

وأما عن حروبه في سورية فهناك كتابات تذكر حروبه في الشمال السوري وفي إحداها يقول « منذ الأزل، منذ خلق البشر لم يخضع أي ملك من الملوك أرمان وإبلا. نرجال فتح لنارام سين القوي وأعطاه أرمان وإبلا وأهداه جبال الأمانوس، جبال الأرز والبحر الأعلى وبسلاح داجان الذي جعل مملكته كبيرة، أخضع نارام سن القوي أرمان وإبلا وقيل ذلك (المنطقة) من ضفة الفرات حتى مدينة أوليشوم »([6]).

أطلق نارام على نفسه « ملك جهات العالم الأربع » وأله نفسه في حياته فنرى على بعض الأختام من عصره مثلاً « الإله نارام سن القوي، إله أكاد ملك جهات العالم الأربع – لوجال أو شوماجال، الكاتب، حاكم لاجاش »([7]).

إن إقامة عبادة نارام سن، قد تكون أضعفت الرابطة القوية التي كانت تجمع بينه وبين طبقة الكهان، ولاسيّما كهنة الآلهة الرئيسة سواءٌ الأكادية أو السومرية.

---

[5]- صالح، عبد العزيز: المرجع السابق، ص422 .

[6]- مرعي، عيد : المرجع السابق، ص 49- 50.

[7]- تاريخ الشرق القديم، ص246 وما بعدها.

Damascus University

وكان على خليفته الملك شاركا ليشاري (2223- 2198) ق.م مجابهة أخطار كثيرة هددت وحدة الدولة. فتصدى لهجوم القبائل الغوتية المنحدرة من جبال زاجروس وأسر قائده المدعو سارلا غ، وصد هجوماً عيلامياً على منطقة أكشاك. وهاجم القبائل الآمورية في بادية الشام. ومن الوضح أن هذه الحروب كانت حروباً دفاعية استهدفت حماية حدود الدولة ووحدتها أكثر من كونها حروباً توسعية. ولكن وبفضل هذه الحروب تمكن شاركا ليشاري من المحافظة على حدود دولته.

بعد وفاة شاركا ليشاري دخلت البلاد في مرحلة من الفوضى، تعاقب على العرش خلالها أربعة ملوك خلال ثلاث سنوات إلى أن استولى على السلطة شخص اسمه دودو (2195- 2174ق0م) والذي تمكن من إعادة النظام إلى البلاد في الداخل وبعض الهيبة في الخارج. وفي عهد خليفته وابنه شودل (2174-2159ق0م) حدث الغزو الغوتي لأكاد، حيث دُمرت العاصمة، وحل الحكم الغوتي محل الحكم الأكادي. لابد من أن الحروب الطويلة التي خاضها الملوك الأكاديون المتعاقبون قد أدت إلى إرهاق الجيش والمواطنين على حد سواء. وفي عهد الملوك المتأخرين الضعفاء لم يتمكن هذا الجيش من التصدي للأخطار الخارجية التي أحدقت بالبلاد وأهمها الخطر الغوتي.

لقد كان من أهم ميزات العصر الأكادي، هو الانتقال من نطاق دولة المدينة الصغيرة المساحة وذات الإمكانات المادية والبشرية المحدودة إلى الدولة الكبيرة المترامية الأطراف وذات الإمكانات المادية والبشرية الواسعة ([8]). وقد ترافق ذلك مع انتشار اللغة الأكادية التي بدأت تحل تدريجياً محل اللغة السومرية، ومن ثم انتقلت هذه اللغة فيما بعد خارج نطاق بلاد الرافدين لتصبح لغة دولية في الألف الثاني ق 0م، وعلى الصعيد الديني رفع الملوك الأكاديون من شأن آلهتهم ولاسيّما الإلهة عشتار التي أرجع إليها شاروكين الفضل فيما بعد فيما وصل إليه والإله شمش إله الشمس والذي كان مقر عبادته الرئيسي

---

[8]- سليمان، توفيق: المرجع السابق، ص 135.

في مدينة سيبار. ومع التأكيد على أن ملوك أكاد لم يهملوا الآلهة السومرية التي أغدقوا على معابد آلهتها الهدايا والأعطيات.



الفصل الرابع

الحكم الجوتي لبلاد الرافدين

2159–2116 ق0م

سبق أن أشرنا إلى أن منطقة جبال زاجروس كانت مصدر خطر دائم يهدد الدول القائمة في بلاد الرافدين. فعندما تكون السلطة في هذه الدول في أيد قوية، فإن القبائل القاطنة في هذه الجبال، كانت تستكين وتبقى هادئة، وعندما تجد ضعفاً في هذه السلطة، فإنها تبدأ بمحاولة التسلل والانتقال للعيش في السهول الخصبة تاركةً خلفها مواطنها الجبلية الفقيرة. وهذا ما حصل عندما بدأ الضعف يدب في أوصال الدولة الأكادية في عهد شاركا ليشاري، حيث بدأت القبائل الغوتية التي تسكن في هذه الجبال إلى الشمال الشرقي من بلاد الرافدين بالهجوم على بلاد الرافدين، حيث يرد أول ذكر لهم في نصوص تعود إلى عصر هذا الملك.

وبالحقيقة فإن معلوماتنا عن هؤلاء الغوتيين قليلة للغاية سواءٌ فيما يتعلق بتنظيماتهم الداخلية أو بطريقة حكمهم للبلاد والمناطق التي خضعت لهم.

ويبدو أنهم تمكنوا في البداية من الاستيلاء على مناطق الفرات الأوسط ومن هنا مدوا نفوذهم جنوباًبعد وفاة شاركا ليشاري.

ويصف ابتهال سومري حالة البلاد بعد الهجوم الغوتي عليها فيقول« البلاد في أيدي أعداءٍ قساة، الآلهة سيقت إلى الأسر وأثقل كاهل السكان بالضرائب وجفت الأقنية وشبكات الري، وأصبح نهر دجلة غير صالح لعبور السفن ولم يعد بالإمكان ريّ الحقول ولم تعط الحقول محاصيلها » ([1]).

---

[1]- مرعي، عيد: المرجع السابق، ص55.

ويتضح لنا من هذا النص مدى الخراب الذي حل بالقاعدة الاقتصادية للبلاد نتيجة الحكم الغوتي الذي لم يتجاوز القرن من الزمان.

ويمكن القول إن سلطة الغوتيين كانت أقوى ما تكون في وسط بلاد الرافدين. أما المناطق الجنوبية فربما لم تخضع بصورة مباشرة للحكم الغوتي ولكن ربما أدى حكام هذه المناطق الجزية للملوك الغوتيين، ولاسيّما أولئك الحكام الذين كانت لهم علاقات تجارية مع شمال بلاد الرافدين، أي عبر الأراضي التي كان يسيطر علها الغوتيون.

ونشير هنا إلى أن الغوتيين المتخلفين حضارياً، قد تمثلوا الثقافة الأكادية، فتسمّوا بالأسماء الأكادية «كارو، بوزورسين»، وحمل ملوكهم الألقاب الملكية الأكادية (ملك جهات العالم الأربع) رغم أن حملهم هذا اللقب لم يكن ليعبر عن سلطانهم الحقيقي. وتبنى الغوتيون الآلهة الأكادية وعبدوها على أنها آلهة غوتية؛ فالملك الغوتي لاسيراب الذي أهدى هراوة حربية إلى مدينة سيبار، دوّن عليه أسماء آلهة الغوتيين «عشتار و سين»([2]).

وفي الختام يمكن القول إن الغوتيين لم يتركوا أية آثار إيجابية عنهم في بلاد الرافدين، وكان جلّ ما تركوه يتمثل في الخراب والدمار. فهم لم يكونوا حاملي حضارة، بل على العكس من ذلك كانوا مدمرين للمظاهر الحضارية التي سادت في بلاد الرافدين خلال القرون السابقة لمجيئهم.

---

[2]- تاريخ الشرق القديم، ج1، ص255.

Damascus University

الفصل الخامس

سلالة لاجاش الثانية

يبدو أن لاجاش قد خرجت عن السلطة الأكادية في فترة ضعف هذه السلطة وذلك بعد وفاة الملك شاركا ليشاري. وبحكم وقوعها إلى الجنوب من بلاد الرافدين فإنها لم تخضع لسلطة الغوتيين المباشرة. فهؤلاء انحصر نفوذهم وسلطتهم المباشرتين في وسط بلاد الرافدين.

وقد بدأ نهوض المدينة وازدهارها مع تسلم السلطة فيها الأمير أورببابا (2164- 2144 ق0م) والذي تمكّن من فرض سلطتة على عدد من المدن السومرية من قبيل « أور» و « أوروك »، وشيد عدداً من المعابد من اللبن المشوي ولاسيّما لآلهة مدينته الرئيسة « نينجرسو » و « نينخورساج ». ويبدو أن التجارة الخارجية كانت نشيطة خلال عهده، بدليل حجر الديوريت الذي نحت منه تمثالاً لنفسه ويبلغ ارتفاعه 68سم، وكذلك أمر بنحت رأس صوجلان نذره لأحد الآلهة، أملاً بإطالة العمر ([1]).

وخلَف أورببابا على عرش لاجاش صهره المدعو « جوديا » الذي وصل إلينا من عصره مجموعة كبيرة من المخلفات الفنية والكتابية.

فمن النصوص المكتوبة التي وصلتنا من عهده تلك التي يبتهل فيها للإلهة « جاتومدو »، ويبدو أن والدته كانت كاهنة لهذه الإلهة فيقول « يامن تحتلين المرتبة الأولى في السماء، أنت يامن أحييت الأرض أنت الملكة الأم. يامن أسست لاجاش، والشعب الذي تمنحينه نظرك يزخر بالقوة. والتّقي الذي تنظرين إليه ستطول حياته. ليس لي أم أنت أمي، ليس لي أب أنت أبي.... ولدتيني في المعبد...».

[1]- سليمان، توفيق : المرجع السابق، ص148.

والأمر المهم في كتاباته هو الأمكنة التي يرد ذكرها في هذه الكتابات على أنها مصدر المواد الأولية التي جلبها لتنفيذ مشاريعه العمرانية. فهناك مواد جلبت من عيلام ودلمون وميلوخا وماجان. وما يلفت الانتباه أكثر هو حصوله على الأخشاب من الأمانوس، وبعض أنواع الحجارة من منطقة مادجا (بالقرب من كركوك) فكيف تمكن جوديا من الوصول إلى هذه المناطق رغم أن الغوتيين كانوا يحكمون منطقة أكادآنذاك؟

من المحتمل أنه كان هناك اتفاق بين الطرفين يدفع بموجبه جوديا للملك الغوتي هدايا كثيرة، إن لم تكن جزية لقاء السماح لتجارته بالمرور عبر الأراضي التي كانوا يسيطرون عليها للمتاجرة مع المناطق الواقعة إلى الشمال من بلاد الرافدين، أو مع سورية. حتى إن بعض الباحثين يعتقدون أن جوديا لم يكن أكثر من ممثل للحكم الغوتي في سومر وإن كان هذا الأمر بعيد الاحتمال ([2]).

وقد ترك جوديا مجموعة كبيرة من التماثيل التي تمثله متعبداً في وضعية الجلوس أو الوقوف، والمنحوتة في معظمها من حجر الديوريت الأسود أو غيره من الحجارة القاسية، وكانت هذه التماثيل تودع في المعابد المنتشرة في أنحاء البلاد بغية الحصول على رضى الآلهة.

وبعد وفاة جوديا جلس على عرش لاجاش، ابنه « أورننجرسو » الذي حكم نحواً من أربع سنين ولم تحدث في عهده أي تغيرات جوهرية بالمقارنة مع ما كان سائداً في عهد جوديا، إلا أن أحوال لاجاش بدأت بالتغير في عهد خلفائه فبدأت تفقد نفوذها الذي كانت تملكه في سومر. وكان آخر من حكم المدينة من سلالة أورببابا، المدعو ناماخاني، الذي فقدت لاجاش في عهده كل نفوذ لها لصالح جارتها أوروك، التي انطلقت منها حركة طرد الغوتيين المحتلين في عهد حاكمها أوتوخينجال.

---

[2]- تاريخ الشرق القديم، ج1، ص 262.

Damascus University

الفصل السادس

سلالة أور الثالثة

2111 – 2003 ق.م

بعد الفوضى السياسية التي غمرت بلاد الرافدين، عقب اجتياح الغوتيين لها، وإسقاطهم الدولة الأكادية، بدأت بعض المدن الرافدية، ولاسيّما تلك الواقعة في الجنوب الرافدي، والتي لم يفرض الغوتيون عليها سيطرة مباشرة، بدأت هذه المدن بالنهوض تدريجياً واستعادة عافيتها ودورها السياسي والحضاري. ورأينا في الفصل السابق كمثال على ذلك مدينة لاجاش والتطورات التي جرت فيها. إلا أن التغير الأساسي والجوهري الذي حدث في بلاد الرافدين في أعقاب الغزو الغوتي، وبعد أن فقد هؤلاء الغوتيون قوتهم الدافعة والمحركة، واستكانوا لما حققوه من انتصار على الأكاديين هذا التغير، ارتبط بشخصين ومدينتين لا علاقة لهما بلاجاش، أما الشخص الأول فهو أوتوخينجال حاكم أوروك والثاني أورنمو الذي أصبح فيما بعد ملكاً على أور.

لقد وصلَنا من عهد أوتوخينجال عددٌ قليلٌ من النصوص، نعلم من بعضها أنه كان بأصله صياد سمك وأنه « أسعد سكان أوروك وكولاب » عندما قرر خوض الحرب ضد الغوتيين. ومن إحدى كتاباته، نعلم أنه ألحق الهزيمة بآخر ملوك الغوتيين المدعو تيريجان والذي التجأ هو وأفراد أسرته إلى مدينة دوبروم. إلا أن سكان هذه المدينة أسلموه إلى رسل أوتوخينجال، الذي أنزل به العقاب المناسب. وإثر ذلك حمل لقب « ملك جهات العالم الأربع ». والذي أصبح الأن لقباً تقليدياً، أكثر مما يعبر عن سلطة حقيقية يتمتع بها من كان يحمل هذا اللقب.

ويبدو أن أوتوخينجال وبفضل جهوده التي بذلها في سبيل التخلص من الحكم الغوتي، أصبحت له السيادة العليا على مجموعة المدن الواقعة في الجنوب الرافدي، فهو تدخل لحل نزاع نشب بين حاكم لاجاش ناما خاني وحاكم أور. ورغم طابع المنافسة الذي كان يحكم العلاقة بين أوروك ولاجاش، إلا أن أوتوخينجال حكم في هذه القضية لصالح لاجاش.

ولكن أوتوخنيجال لم ينعم طويلاً بما حققه من إنجازات، إذ انقلب عليه أحد قادته العسكريين المدعو أورنمو الذي كان قد عينه حاكماً على مدينة « أور » بعد أن حكم نحواً من سبع سنوات ونصف ([1]).

1– أورنمو :

تذكر قائمة الملوك السومرية « مدينة أوروك ضُربت بالسلاح والسلطة فيها انتقلت إلى مدينة أور » وحتى يضفي أورنمو صفة الشرعية على حكمه، عمد إلى نسب نفسه إلى الملك جلجامش الذي كان حاكماً على أوروك في عصر السلالات الباكرة.

لقد تمكن أورنمو خلال سنوات حكمه الأولى من فرض نفوذه على معظم مدن جنوب بلاد الرافدين وفي مرحلة لاحقة مد هذا النفوذ إلى شمال بلاد الرافدين وعندها تلقب بلقب « ملك سومر وأكاد ».

وشهدت بلاد الرافدين في عهده نهضة حقيقية تمثلت بتنشيط التجارة ولاسيّما مع ماجان وميلوخا حيث يُذكر في إحدى كتاباته « سفن ماجان وميلوخا أُعيدت إلى يد الإله نانا » وبمعنى آخر فإن السفن الهنديةوالعربية أصبحت تؤم مجدداً ميناء أور على الخليج العربي ([2]).

---

[1]- هبو، أحمد أرحيم : تاريخ بلاد الرافدين من عصور ما قبل التاريخ إلى سقوط بابل، ص539.
[2]- تاريخ الشرق القديم، ج1، ص 267- 268.

بدأ أورنمو نشاطاً عمرانياً واسعاً، فشيد زقورة الإله نانافي مدينة أور، وحصن المدينة المطلة على نهر الفرات من ثلاث جهات وقام بتشييد وترميم ما تهدم من معابد الآلهة في مختلف المدن، وشق أقنية الري لإيصال مياه نهر الفرات ودجلة إلى الأراضي الزراعية. ووجه عنايته لرسم الحدود الفاصلة بين المدن والأقاليم التي اختلطت نتيجة الفوضى التي تسبب بها الغوتيون من قبل، فحدد بذلك للحكام المحليين وحكام المدن مسؤوليات إداراتهم، وأزال مسببات المنازعات والخلافات حول الأراضي ومصادر المياه ([3]).

إلا أن أهم ما وصلَنا من أعمال أورنمو هو إصداره القانون الذي حاول من خلاله تنظيم الحياة الاقتصادية والاجتماعية في المناطق الواقعة تحت سيطرته. لقد سبق أورنمو بعمله هذا كل ملوك بلاد الرافدين. صحيح أن أوروأنميجينيا، حاول معالجة مشاكل لاجاش في فترة سابقة ولكن ليس من خلال قانون متكامل، وإنما من خلال إصداره أوامر إدارية. ويذكر أورنمو في مقدمة قانونه أن الآلهة فوضته بحكم بلاد سومر وأكاد نيابة عنها. ويتحدث بعد ذلك عن أعماله ومحاولته تحقيق العدل في البلاد وحماية الفقراء والأيتام والأرامل، كما يذكر قيامه بتوحيد الأوزان والمقاييس والمكاييل، ثم يعدد الجرائم وما يترتب على مرتكبيها من عقوبات.

مع الإشارة إلى أن مواد القانون صيغت بالأسلوب الشرطي بمعنى إذا فعل إنسان كذا تكون عقوبته كذا. وقد شملت مواد القانون جرائم مختلفة كالسرقة والاغتصاب والاتهام بالكذب والاعتداء على الحقول...الخ وقد بلغ عدد المواد التي وصلتنا من هذا القانون اثنتين وثلاثين مادة ([4]).

حكم أورنمو حتى العام 2094 ق0م، حيث خلفه على العرش ابنه شولجي الذي استمر حكمه حتى العام 2045 ق0م.

2– شولجي :

---

[3]- هبو أحمد ارحيم : المرجع السابق، ص 145.

[4]- مرعي، عيد: قوانين بلاد ما بين النهرين، ط1، 1995، ص11 وما بعدها.

ويعد شولجي مثبت أركان هذه السلالة وموسع نفوذها إلى مناطق لم تبلغها في عهد والده ولاسيّما في المناطق الواقعة إلى الشمال من بلاد الرافدين. فخلال النصف الثاني من حكمه خاصةً، حاول شولجي إخضاع منطقة شرقي دجلة الشمالية، ويبدو من حملاته الكثيرة إلى هناك أنه لقي معارضة عنيدة من سكانها. واستهدفت حملاته الأولى بلاد كَرَخَر وسيموروم الواقعتين شمال شرقي جبل حمرين. أما الثانية فقد كانت حرباً شاملة حيث عبر شولجي كل مناطق شرقي دجلة ووصل حتى ششرم (تل شمشارا) وأربيلم (اربيل الحالية) وبلاد اللولبيين في مناطق السليمانية الحالية ([5]).

ويرى البعض من الباحثين أن هذه المناطق التي استهدفتها حملات شولجي كانت منطقة تجمع لقبائل حورية، وأن شولجي أخذ من هذه المناطق أعداداً كبيرة من الأسرى الذين استُخدموا كأيد عاملة في مشاريع هذه الدولة الأمر الذي تشهد عليه الأسماء الحورية الأصل الكثيرة التي تظهر في الوثائق الرسمية العائدة لهذه الفترة.

ولم يكتف شولجي بحروبه في مناطق شرقي دجلة، بل شن حروباً أخرى في بلاد عيلام، التي حاول أن يستميلها سلماً. فزوج إحدى بناته إلى حاكم مارخاشي في العام 2076 ق0م من حكمه وزوج ابنته الأخرى إلى حاكم انشان في العام 2060 ق0م، ولكن هذه المصاهرة لم تعط النتيجة المرجوة منها، لذلك نراه بعد عامين من هذا الزواج يهاجم صهره ويدمر مدينته. وعلى الصعيد الداخلي، فقد سعى شولجي إلى إقامة سلطة مركزية قوية تشرف على مختلف جوانب الحياة وخاصة الاقتصادية منها وإنشاء قنوات الري والإشراف على الورشات الحرفية. وكما يظهر من أختام بعض موظفيه فإن شولجي لقب نفسه بملك جهات العالم الأربع وألّه نفسه.

3– أمارسين 2045– 2037ق.م :

---

[5]- فيلهلم، جرنوم: الحوريون تاريخهم وحضارتهم، ترجمة فاروق إسماعيل، دار جدل، ط1، 2000م.

تابع أمارسين سياسة والده من حيث الضغط على القبائل المنتشرة شرقي نهر دجلة ولاسيّما في الأقسام الشمالية، كما أنه وجه حروبه ضد العلاميين وعين على بعض مدنهم حكاماً خاصين من قبله ممن يثق بهم. وتابع أعمال البناء التي كانت قد بدأت منذ عهد جده أورنمو، فشيّد معبداً للإله إنكي في إريدو. ووصف نفسه في إحدى كتاباته بأنه « الإله الشمس، الذي يهب الحياة للبلد » وعندما توفي خلفه على العرش أخوه شوسين.

4- شوسين 2036- 2028 ق0م

بدأ حكمه بتوجيه حملات عسكرية إلى المناطق الجبلية الشمالية والشرقية حيث موطن القبائل ذات الأصول الهندو أوربية والطامحة دوماً للنزول إلى السهل الخصيب.

ولكن الخطر بدأ يحدق بهذه الدولة من جهة الغرب، أي من جهة البادية السورية، فالقبائل الأمورية التي كانت ترتحل في هذه البادية وعلى أطراف بلاد الرافدين كانت هي الأخرى ترنو بنظرها إلى السهل الخصيب، ويبدو أن خطر هذه القبائل قد ازداد في السنوات الأخيرة مما دفع بالملك شوسين لبناء سور أطلق عليه اسم « سورمارتو » أي « السور الغربي »، أو « عازل التيدانوم » وهؤلاء كانوا جزءاً من القبائل الأمورية التي تحاول الدخول إلى بلاد الرافدين. ويذكر شوسين في إحدى كتاباته أن طول هذا السور بلغ 26 برو (نحو 275كم) وبالحقيقة فإن بناء هذا السور يشير إلى أن الأوضاع على الحدود الغربية لم تكن على ما يرام، وأن القبائل الأمورية أخذت تشكل خطراً متزايداً يهدد كيان سلالة أور الثالثة.

5- إيبي سين 2027- 2003 ق0م :

عندما ورث إيبي سين العرش عن والده، بدا وكأن الدولة قوية ولا تعاني من مشاكل حقيقية، لاسيّما بعد بناء سور مارتو الذي حاول من خلاله شوسين وكما أشرنا أعلاه وقف تغلغل القبائل الأمورية إلى بلاد الرافدين. ولكن الدولة بدأت بفقد سيطرتها عن

المناطق الواقعة على أطرافها، ففي العام الثالث من حكمه انفصلت أشنونا وفي العام الرابع سوزا، وفي العام الخامس لاجاش وفي العام السادس أوما.

ولكن هذا لم يعن أن إيبي سين لم يقم بأي إجراء من أجل حماية دولته. فمن أجل تمتين وتحصين حدوده الشرقية وخاصة تقوية نفوذه في عيلام، قام في العام الخامس من حكمه بتزويج شقيقته من إنسي زابشالي في المنطقة الواقعة على الحدود العيلامية الحورية. وفي العام السادس قام بتقوية أسوار نيبور و أوروك، ولكن هذا الأمر لم يجد نفعاً ففي العام السابع من حكمه سقطت مدينة أوروك بيد أعدائه وفي العام العاشر تصدى لتمرد قامت به سوزا ومدينتان أخريان في شمالي عيلام، ورغم أن المنطقة التي وقع فيها التمرد قريبة من مدينة صهره زابشالي، إلا أن صهره هذا لم يقدم له أي مساعدة في التصدي لهذا التمرد. وبعد أربع سنوات تصدى لتمرد آخر وقع في بلاد عيلام أيضاً ([6]).

ولكن الانهيار الحقيقي لسلطة إيبي سين بدأ في النصف الثاني من فترة حكمه. ولدينا معلومات عن حالة الضعف التي أصابت الدولة نستقيها من المراسلات التي جرت بين إيبي سين والقائد العسكري الأموري إشبي إرا.

فهذا القائد كان قد عين في وقت سابق حاكماً عسكرياً على مدينة ماري وعندما أحس بضعف الدولة انطلق إلى نيبور ومنها إلى إيسين. وعندما كانت مدينة أور وبعض المدن الأخرى في ضائقة غذائية لا متناع المدن الأخرى عن إرسال حصتها الشهرية من المواد الغذائية إلى هذه المدن، فقد طلب إيبي سين من إشبي إرا التكفل بإرسال المؤن إلى العاصمة. إلا أن إشبي إرا طلب من الملك أن يعترف به أولاً حاكماً على إيسين وطلب صلاحيات واسعة من أجل الوقوف في وجه القبائل التي تهدد كيان الدولة على حد زعمه. ورغم أن المؤن المطلوبة كانت موجودة بحوزته في إيسين إلا أنه تذرع بأنه لا يملك

---

[6]- تاريخ الشرق القديم، ج1، ص187-289.

وسائط النقل اللازمة لنقلها إلى أور وهي ستمائة مركب وطلب من الملك تأمين المراكب. ولما كان إيبي سين عاجزاً عن تأمين مثل هذا العدد من المراكب، فقد طلب من إشيبي إرا تأمينها على أن يدفع له ثمن المؤن مضاعفاً إذا ما أرسلها إلى أور، إلا أن إشيبي إرا سرعان ما أعلن نفسه حاكماً مستقلاً في هذه المدينة وذلك في السنة العاشرة أو الحادية عشر من حكم إيبي سين([7]).

وقد رد إيبي سين أسباب محنته هذه إلى إرادة الآلهة وفساد الدولة. فقال في رسالة وجهها إلى أحد قادته الذي كان يتولى حكم مدينة كازالو « قضى إنليل بالشر على سومر وهبط عدوها من بلاد... وتولى زعامة البلاد. وترك إنليل الملكية لإشبي إرا الرجل الوضيع غير السومري..»([8]).

ولم يكن إشبي إرا الحاكم الوحيد الذي أعلن انفصاله، فكما أشرنا أنفاً فإن أشنونا عند مدخل وادي الديالى كانت من أوائل المدن التي خلعت ولاءها، وحاكمها المدعو إيليشووالذي كان لزمن ليس بالبعيد مجرد كاتب ملكي أعلن نفسه « الملك القوي ملك بلاد بويم » واستمرت سيطرة إيبي سين على أور حتى العام (2004 أو 2003ق0م) عندما تمكن العيلاميون القادمون من الشرق من اقتحامها بعد طول حصار فدمروها وقادوا ملكها مكبّلاً بالقيود إلى عاصمتهم سوزا. واستمر وجود حامية عيلامية في المدينة لبضع سنوات. إلى أن تمكنت قوات إشبي إرا من الاستيلاء عليها في عام (1996 ق0م).

بعد انهيار سلالة أور الثالثة عادت هذه البلاد لتحكم منجديد بنظام دول المدن، عوضاً عن نظام الدولة المركزية الموحدة. وتنافست السيادة والسيطرة على الجزء الجنوبي من بلاد الرافدين سلالتان من اللتين قامتا على انقاض سلالة أور الثالثة، وهما سلالة إيسين ومؤسسها إشبي إرا وسلالة لارسا ومؤسسها شخص اسمه نبلا نوم.

---

[7]- تاريخ الشرق القديم، ج1، ص 287- 289.
[8]- صالح، عبد العزيز: المرجع السابق، ص 448.

إن انهيار هذه السلالة يمثل النهاية بالنسبة للسيادة السياسية للسومريين مع استمرار وجودهم الحضاري متمثلاً باللغة والآداب السومرية.

وأخيراً لابد من الإشارة إلى أن بعض الباحثين يطلقون على هذا العصر اسم « عصر الانبعاث السومري » ونحن نعتقد بأن هذا الأمر فيه شيء من المبالغة فاللقب الذي حمله ملوك هذه الدولة يدل على أنها كانت دولة لكل بلاد الرافدين وليس لسومر فقط. ورغم أن اللغة السومرية عادت لتصبح لغة الإدارة والحكم، إلا أن هذه اللغة تعرضت لتأثيرات أكادية قوية حيث دخلتها الكثير من المفردات الأكادية. ومما يدل على النفوذ المتزايد لهذه اللغة أن أسماء ثلاثة من ملوك هذه السلالة هي أكادية: أمارسين وشوسين وإيبي سين أي دخل في تركيبها اسم الإله سين (إله القمر)الأكادي.

كما ازدادت في هذا العصر أهمية عبادة الإله « دجن » السوري الذي أدخله الأكاديون إلى بلاد الرافدين، حتى إن شولجي أسس مدينة جديدة أطلق عليها اسم بوزوريش دجن بمعنى « في حماية دجن ».

الفصل السابع

العصر البابلي القديم

يمتد هذا العصر ما بين سقوط سلالة أور الثالثة حتى قيام الدولة البابلية الأولى. ويتميز بسيادة دولتي إيسين ولارسا على أغلب مناطق وسط وجنوبي بلاد الرافدين. وبما أن دولة إيسين قامت قبل دولة لارسا بفترة من الزمان فإننا سنبدأ باستعراض تاريخها أولاً.

أولاً- دولة إيسين :

يبدأ تاريخ هذه الدولة، مع إعلان القائد الأموري إشبي إرا انفصاله عن إيبي سين آخر ملوك سلالة أور الثالثة نحو العام العاشر من حكم هذا الملك أي نحو (2017ق.م) واستمرت بالوجود حتى قضى عليها ملك لارسا المدينة المجاورة والمنافسة ريم سين وذلك نحو العام (1794 ق0م). وحكم خلال هذه الفترة التي تزيد على قرنين من الزمان خمسة عشر ملكاً أشهرهم مؤسس الأسرة الحاكمة اشبي إرا الذي تمكن من الاستيلاء على مدينة نيبور المقدسة عند السومريين إضافة إلى مدينة أور والتي طرد الحامية العيلامية التي كانت موجودة فيها. واتخذ لنفسه الألقاب الملكية الكبرى من مثل « ملك جهات العالم الأربع» ووضع رموز الألوهية أمام اسمه. وتمكن خليفته (2017- 1985ق0م) من فرض سيطرته على وادي الديالى لبعض الوقت، وجعل من حكام أشنونا تابعين له، كما تمكن من استعادة تمثال الإله نانا الذي أخذه العيلاميون من أور إلى بلادهم. أما أشمي دجن (1953-1935ق0م) فينسب إليه إصلاح، حيث حرر سكان نيبور المقدسة من الضريبة العشرية ومن الواجب العسكري مستبدلاً بهما الخدمة في المعابد

فقط. ويبدو أنه توافرت في بلادالرافدين في هذه الفترة أعداد كبيرة من القوات المرتزقة من أبناء القبائل الأمورية مما مكّنه من استصدار مثل هذا القرار.

إن آخر من جلس عرش إيسين من سلالة إشبي إرا كان الملك لبيت عشتار (1934-1924 ق0م)، ويتميز عهد هذا العاهل بإصداره قانوناً يعرف في الأوساط العلمية باسمه.

وكمعظم قوانين وتشريعات بلاد الرافدين، فإن هذا القانون يتألف من مقدمة ومتن ومن ثم الخاتمة.

يذكر لبيت عشتار في المقدمة أن الآلهة أوكلت إليه مهمة إقامة العدل في البلاد وأنه أعاد الحرية إلى أبناء مجموعة من المدن الرافدية (نيبور وأور وإيسن وسومر وأكاد) بعد أن كانت قد سلبت منهم.

ومن ثم تأتي مواد القانون التي تعتمد المبدأ الشرطي أي « إذا فعل إنسان كذا فإنه يترتب عليه كذا... » ومبدأ الجزاء في هذا القانون يجيز التعويض المادي عن العقوبة الجسدية. ومن المواضيع التي تعرضت لها المواد التي وصلتنا من هذا القانون ما يتعلق بالسرقة وقطع الأشجار ومشاكل العبيد والادعاء الكاذب وحقوق الأسرة ومشاكلها وغيرها، وكمثال على ذلك نورد بعض المواد:

المادة الخامسة: إذا استلم رجل سفينة وحُددت له المسافة المتفق على قطعها، لكن الملاح غير الطريق وسرقت السفينة، فعلى الذي استلم السفينة أن يدفع تعويضاً عنها.

المادة العاشرة: إذا قطع رجل شجرة في بستان رجل آخر يدفع نصف مينة فضة.

المادة الثامنة والعشرون: إذا أصيبت زوجة رجل ما بالعمى أو الشلل فإنه لا يستطيع (أي زوجها) أن يخرجها من البيت وفي حال أخذ زوجها زوجة ثانية فعليه أن يعيل الزوجتين الثانية والأولى.

المادة الخامسة والثلاثون : إذا استأجر رجل ثوراً وأتلف عينه، عليه أن يدفع نصف ثمن شرائه ([1]).

إن إصدار هذا القانون يدل على التطور الذي حصل في مجتمع بلاد الرافدين والأهمية الكبرى التي اكتسبها الاقتصاد الحر، وضرورة تنظيم العلاقة بين الأفراد فيما بينهم أو بينهم وبين السلطة.

استمرت سلالة إيسين في الحكم حتى العام (1793 ق0م) عندما استولى عليها ملك مدينة لارسا ريم سين. ولكن قوة هذه السلالة والمناطق التي خضعت لها بدأت بالتراجع بعد لبيت عشتار، لتقتصر في أواخر أيامها على مدينة إيسين والمناطق المجاورة لها.

ثانياً– سلالة لارسا :

بعد وقت قليل من استيلاء أشبي إرا على السلطة في إيسين، وانتزاعها من يد آخر ملوك سلالة أور الثالثة إيبي سين، استولى شخص آخر اسمه نبلانوم على السلطة في مدينة لارسا. ويبدو أن ملوك لارسا الأول كانوا تابعين لملوك إيسين حيث كانوا يستخدمون التواريخ الإيسينية في مدوناتهم. وكان جونجونوم أول من بدأ باستخدام تواريخ خاصة به معلناً بذلك انفصاله التام عن سلالة إيسين، ومنطلقاً في الوقت نفسه بحملة توسيع لحدود دولته وخاصة في المناطق الواقعة إلى الشرق من لارسا، وشهد عهد خليفته أبي ساريخي (1905– 1895ق0م) أول صدام مباشر بين قوات لارسا وإيسين. أما سوموإل (1894–1866ق0م) فقد حقق انتصارات مهمة ضد كازالو وكيش وتوّج أعماله باستيلائه على مدينة نيبور.

---

[1]- مرعي، عيد : قوانين بلاد ما بين النهرين، ص21 وما بعدها.

وتراجعت قوة لارسا في عهد خلفائه، إلى أن ظهرت على مسرح الأحداث شخصية كودورمبوك زعيم يموت بعل التي تتخذ من مناطق شرقي لارسا وباتجاه بلاد عيلام موطناً لها. ويعتبره البعض من الباحثين عيلامياً انطلاقاً من اسمه العيلامي. وإن كنا نشك في ذلك فالاسم لا يعطي دائماً دلالات عرقية دقيقة، وخاصة إذا ما أخذنا بعين الاعتبار المناطق التي كانت تنتشر فيها قبيلته والمتاخمة لعيلام كما أشرنا آنفاً.

لقد تمكن كودورمبوك من التخلص من آخر ملوك لارسا من سلالة نبلا نوم المدعو تسيلي حدد وذلك بحدود العام (1834 ق0م)، وأوقع بعد ذلك الهزيمة بجيش مدينة كازالو وحلفائها من قبيلة موتي يابال. وفي العام (1826 ق0م) سيطر على مدينة نيبور.

ورغم أن كودورمبوك كان سيداً على أكبر ممالك جنوب بلاد الرافدين في هذه الفترة، إلا أنه لم يحمل أي لقب ملكي، واكتفى بلقب « أب الأموريين »، في حين أنه أجلس أبنه ورَدسين في العام 1834ق0م على عرش لارسا. وعين ابنته كاهنة لإله القمر نانا في أور. واستمر حكم وردسين إلى أن توفي في العام 1823ق0م. وعند ذلك قام كودورمبوك بتعيين ابنه الآخر ريم سين على عرش لارسا.

ونحن لا نعرف متى انتهت حياة كودور مبوك، ولكننا نعلم أنه كان مازال على قيد الحياة في عام 1819ق0م، حيث وضعت كتابة باسمه واسم ابنه ريم سين بمناسبة إنشاء معبدين جديدين للإلهين إنانا و نانايا.

إذا عدنا إلى حكم ريم سين، لنلاحظ أنه في السنوات الأولى من حكمه لم يقم بأي تحرك عسكري. ولكن هذا الأمر بدأ بالتبدل بدءاً من عام 1809 ق0م عندما بدأ يمارس سياسة توسعية كبيرة ويخوض حروباً كثيرة بعضها ضد مدن بمفردها وبعضها الأخر ضد تحالف مجموعات من المدن وهكذا نجد أنه في عام (1809ق0م) خاض حرباً ضد مدينة بي نارايتم الواقعة في أقصى جنوب بلاد الرافدين. وفي العام التالي هزم تحالف مدن أوروك وإيسين وبابل ورابيقو وفي العام (1803 ق0م) استولى على

مدينتي كيسورو وأوروك مما سمح له بالسيطرة على مجرى نهر الفرات من نيبور شمالاً إلى مصبّه في الخليج العربي جنوباً. وبدءاً من العام (1801 ق0م) بدأ ريم سين بوضع رموز الألوهية أمام اسمه. ومع مطلع القرن الثامن عشر ق 0م، بدأ ريم سين باستهداف ممتلكات ايسين إلى أن تمكّن من الاستيلاء على المدينة نفسها عام (1793 ق0م).

لقد كان ريم سين رجل دولة متميزاً بدون شك، على الرغم من عدم توافر معلومات عن تدخله في كل أمور دولته كما كان يفعل حكام ماري وآشور وبابل المعاصرون له، على أننا نجهل الأسباب التي دفعته إلى عدم متابعة أو استغلال النجاحات العسكرية التي حققها ولاسيّما بعد استيلائه على إيسين.

لقد كرس ريم سين الجزء الأخير من ملكيته لأعمال البناء ولاسيّما مشاريع الري، فمثلاً يرد في نص يؤرخ بالسنة الرابعة والعشرين من حكمه: « بناء على مشيئة الآلهة آنو و إنليل و إنكي حفر الراعي المخلص ريم سين صاحب الحكمة والذكاء العظيم، القناة المزدوجة التي تؤمن مياه الشرب للسكان البعيدين وتنتج علىكل من ضفتيها القمح الوفير وأوصلهاحتى البحر وحول الأرض الواقعة عليها إلى أرض زراعية...»([2]).

استمر ريم سين يحكم في لارسا حتى العام (1763 ق0م) عندما استولى حمورابي البابلي على هذه المدينة، الأمر الذي سنستعرضه بالتفصيل عند حديثنا عن الدولة البابلية.

الحياة الاقتصادية في لارسا

ازدهرت الحياة الاقتصادية في مملكة لارسا بجوانبها المختلفة، وإن كانت الزراعة والتجارة قد أدّت دوراً أكثر أهمية من أوجه النشاط الاقتصادي الأخرى. وتميز هذا

---

[2]- كلينغل، هورست: العصر البابلي القديم ودولـة حمورابي، تعريب عبد الله الحلو، دار شمأل، 1998، ص53.

العهد بوفرة الوثائق ذات الطابع الاقتصادي التي وصلتنا من لارسا نفسها ومن مدن أخرى كانت تقع تحت سيطرتها ولاسيّما من أور. ولم تقتصر هذه الوثائق على تلك العائدة لإدارة الدولة وإنما تعود إلى أشخاص كانوا يقومون بنشاطات اقتصادية متعددة بعضها لصالحهم الشخصي وبعضها الآخر لحساب الدولة.

ففيما يتعلق بالوثائق الرسمية فبحوزتنا مثلاً وثيقة تتحدث عن تخصيص ستة ثيران وأربعة فلاحين من أجل الاهتمام بأرض (فلاحة وزراعة وحصاد) مساحتها 8 بور (نحو 66000 م2) وفي وثيقة أخرى يدور الحديث عن قطف التمور من أشجارها وتجميعها في أحد المستودعات، ومن ثم توزيع كميات منها لبعض الأغراض: «4/5 11 غور تمر (سلمت من قبل) سين ناصر؛ 2/5 4 غور تمر (سلمت من قبل) المجموع 1/5 16 غور تمر، من بينها 3/5 15 غور و 3 بان نقلت إلى المستودع، 1/5 غور و 2 بان صرفت لتحضير خبز حلو، 2 بان أُعطيت لرئيس البحارة...»([3]).

وفي وثيقة أخرى تتحدث عن جز الصوف من قطعان الماشية يرد ما يلي « 12 تالنت صوف نخب عالٍ، 34 تالنت صوف نخب جيد (المجموع) 46 تالنت صوف جزت في قرية [000] ووضعت في المستودع ». وأما عن الوثائق العائدة لأشخاص، فالوثائق العائدة لهذه الفترة تمتاز بأنهاتعطينا أحياناً صورة عن النشاط الاقتصادي الذي مارسته عائلة ما خلال أجيال متعددة، فهناك مائة وثيقة تعكس نشاط أسرة واحدة خلال ثلاثة أجيال تاجرت خلالها هذه الأسرة بكل شيء من البيوت إلى الأراضي الزراعية إلى العبيد وممارسة الإقراض بالربا... الخ.

كما أنه هناك نحو ثمانين وثيقة تعكس نشاطات شخص اسمه بعل مونامخه كالبيع والشراء وضمان أشخاص ومبادلة بساتين.

---

[3]- كوزيريفا: لارسا القديمة، موسكو1988، ص 55.

Damascus University

فمثلاً في العام التاسع من حكم وردسين اشترى بعل مونامخه بالاشتراك مع والده قطعة أرض من معبد الإلهة نانا في أور مساحتها 24كار (840 م2) دفع ثمنها 2 مينا من الفضة. ولم يكن بعل مونامخة يسدد دائماً ثمن مشترياته فضة فأحياناً يكون الدفع فضة مع مواد عينية مختلفة كالحبوب والتمور والصوف والزيت ([4]).

وكمثال على التجارة الخارجية في هذا العصر نورد بعض الأمثلة من أرشيف شخص اسمه إيانا تسير، وقد عثر على هذا الأرشيف في مدينة أور. كان إيانا تسير من التجار الذين يتعاملون مع دلمون (البحرين الحالية) والتي كانت مركزاً لتبادل بضائع بلاد الرافدين مع بضائع الهند وجنوب الجزيرة العربية. ولقد تخصص بشراء خامات النحاس من دلمون، قسم منها وهو القسم الرئيسي كان يشتريه لصالح القصر (ربما من أجل صناعة الأسلحة للجنود) وقسم آخركان يلبي من خلاله حاجاته الشخصية. وهناك قسم ثالث كان يشتريه بناء على طلب بعض الأشخاص. وكان يدفع ثمن ما يشتريه فضة وأحياناً كان يبادله بالعطور السورية والأقمشة الملونة ([5]). ومن الوثائق العائدة لهذا الشخص نذكر نص هذه الرسالة « قل لـ إيانا تسير وإيلوشو (..) هكذا يقول ناني، (الرب) شمش ليحفظك مع الأحياء! بالنسبة إلى ما كتبته لي – ها أنا أرسل إليك جيميل سين. اختم له نقودي (كيس نقودي) ونقود إيربام سين فليحضرها إلى هنا، أعطيه نحاساً نظيفاً » ([6]).

وكمثل آخر نورد النص التالي « 4كار مساحة مبنية (البيت مساحته 144م2) و10كار بيت في الحقل (؟) إلى جانب بيت خازيروم، جانب قناة شاروغيفي ومعبد الربة نينشوربور، اشترى تابيلشو من سن شيم، وكثمن كامل له أعطاه 2/3 مينا فضة.

---

[4]- كوزيريفا: المرجع السابق، ص 73.

[5]- دياكونوف: أناس مدينة أور، موسكو، 1990، ص 97.

[6]- دياكونوف: المرجع السابق، ص 116.

عن أي دعوى (أو مطلب) من أجل البيت يجيب   سين شيم (بما في ذلك) أنهما في مستقبل الأيام لن يطالبا بعضهما بأية مطالب.باسم ملكهم أقسموا (الشهود، التاريخ العام السابع عشر من حكم ريم سين1806ق0م »([7]).

ثالثاً– دولة أشنونا :

كانت أشنونا الواقعة إلى الشمال الشرقي من بغداد، بالقرب من مصب نهر الديالى في دجلة، من أوائل المدن التي أعلنت انفصالها عن سلالة أور الثالثة، وعندما بدأ الضعف يعتري أوصال هذه السلالة في أيام آخر ملوكها إيبي سين وبدأ ملوكها يؤرخون للأحدث وفق سنوات حكمهم، عوضاً عن التاريخ وفق سنوات حكم ملك أور، وحوّلوا المعبد الذي كان مشيداً في مدينتهم لإقامة عبادة ملك أور شوسين، إلى بناء استخدم لأغراض مدنية، وأحلوا اللغة الأكادية، لغتهم، محل اللغة السومرية التي كانت لغة الإدارة أثناء حكم سلالة أور الثالثة ([8]).

ومن خلال الوثائق المكتشفة فيها تكون لدينا فكرة عن ملوك هذه الدولة وأهم أعمالهم، فنعلم مثلاً أن الملك بلالاما وهو الملك الرابع في هذه الأسرة بنى مدينة توتب (خفاجي الحالية) ومدينة تاني تشباك. وفي فترة الصراع الذي احتدم في بلاد الرافدين في نهاية القرن العشرين ومطلع القرن التاسع عشر بين ملوك أشور وبابل ولارسا وعيلام دخلت أشنونا في حلف مع عيلام وتمكن ملكها نرم سين من الوصول بحدوده إلى منطقة الفرات الأوسط وشمالاً إلى حدود آشور وإلى الخابور في الشمال الغربي واتخذ لنفسه لقب ملك « آشور » إلىجانب لقبه التقليدي ملك أشنونا. ويعتبر شقيقه المدعو دادوشا من أشهر ملوك هذه الدولة، حيث تذكر النصوص إسهامه في إسقاط حكم يسمح أدو بن

---

[7]- دياكونوف: المرجع السابق، ص 105.

[8]- هبو: المرجع السابق، ص 161.

شمشي أدو في ماري والأهم ما ينسب إليه من إصداره لتشريع يسمى اليوم في الأوساط العلمية بشريعة أشنونا.

وقد عثر على هذا القانون أثناء أعمال التنقيب الأثري التي كانت تقوم بها بعثة أثرية عراقية في موقع تل حرمل (شادوبوم القديمة) برئاسة الأستاذ طه باقر وذلك في الفترة بين (1945-1947 م) ورغم أن مقدمة القانون مكتوبة باللغة السومرية إلا أن مواده كلها مدونة باللغة الأكادية، وبذلك يمكن اعتباره أول قانون مدون بهذه اللغةوصلنا إلى الآن.
وقد قسمت مواد القانون إلى ستين مادة، صيغت بشكل شرطي حيث تبدأ بكلمة « شوما » إذا وتعالج القضايا التالية: الأسعار والأجور والسرقة والتجارة وحقوق العائلة والقروض والطلاق والرهن وشؤون العبيد وما إلى ذلك. وكمثال على مواد هذا القانون نورد المواد التالية:

المادة 17: إذا جلب رجل ما المهر إلى بيت حميه، فإذا واجه بعد ذلك أحد الاثنين (الخطيبة أو الخطيب) قدره (توفي)، فإن المال يعود إلى صاحبه.

المادة 18: إذا تزوجها ودخلت إلى بيته، وبعد ذلك واجه العريس أو العروس قدرها (توفيت)، فلا تسترجع (الأرمل) ما جلبه إلى (حميه) لكنه يأخذ الفائض...

المادة 40: إذا اشترى رجل عبداً أو أمة أو ثوراً أو أية بضاعة، ولم يستطع التعرف على البائع، فإنه يعد سارقاً.

المادة 53: إذا نطح ثور ثوراً (آخر) وسبب موته، يتقاسم صاحبا الثورين ثمن الثور الحي ولحم الثور الميت ([9]).

ولكن نهاية حكم أشنونا كانت أخيراً على يد قوات حمورابي البابلي نحو العام (1761ق0م) ودخلت في إطار مملكته.

---

[9]- حول القانون يمكن الرجوع بشكل مفصل إلى كتاب الدكتور عيد مرعي الآنف الذكر، ص33-44.

الفصل الثامن

الدولة البابلية الأولى

كانت بابل من بين المدن الرافدية التي تدفقت إليها القبائل الأمورية في نهاية الألف الثالث ومطلع الألف الثاني ق.م. وتمكنت من تأسيس أسرة حاكمة فيها. ولم يكن لهذه المدينة شأن يذكر قبل ذلك مقارنة مع المدن الرافدية الأخرى التي كانت فاعلة على الساحة الرافدية منذ منتصف الألف الثالث ق0م.

ويعتبر سومو أبوم مؤسس هذه الأسرة الأمورية وبدأ حكمه نحو العام 1894ق.م وبسبب وجود قوتين كبيرتين في ذلك الوقت في بلاد الرافدين وهما إيسين ولارسا، فإن سومو أبوم وخلفاءه من بعده انصرفوا إلى مراقبة الصراع بين هاتين القوتين من ناحية، ومحاولة تحصين مدينتهم وتوسيع نفوذهم قدر المستطاع في المنطقة المحيطة بها.

وعلى ذلك نرى سومو أبوم يحتل مدينتي دلبات وسيبار. وأما خليفته سومو لاإل فاحتل مدينة كيش واكتسح كازالو وأخضع كوثا ووصل نفوذه إلى حدود نيبور وإيسين وماردا. ولكن هذه المناطق لم تخضع بشكل كامل لحكمه لذلك كان على خلفائه أن يخوضوا الحرب مجدداً ضدها وضد غيرها من المدن الرافدية إلى جانب الاهتمام بالمشاريع العمرانية الدينية منها والعسكرية. فالملك سابيئوم (1844-1831ق0م) بدأ ببناء معبد الإله مردوك في بابل والذي عرف باسم إيسانجيلا. وأما خليفته أبيل سين فزاد من تحصينات العاصمة بابل، وأقام معبداً للإلهة عشتار في المدينة نفسها، وحصن مدينة سيبار بسور جديد وقام بجملة مشاريع للري... وخلفه سين موباليط والد حمورابي ومعاصر ريم سين ملك لارسا الذي حاول جاهداً الحد من طموح ملوك بابل في توسيع رقعة نفوذهم ([1]).

---

[1]- هبو: المرجع السابق، ص164–165.

أولاً- حمورابي 1792- 1750ق0م :

جلس حمورابي على عرش بابل في الوقت الذي كان في بلاد الرافدين ملكان قويان إلى حد كبير وهما شمشي أدو ملك أشوروالمسيطر على المناطق الشمالية من بلاد بابل وريم سين الذي يفرض هيمنة واسعة على الجنوب الرافدي. وإلى جانب هذين الملكين القويين كانت هناك مملكة أشنونا إلى الشمال الشرقي من بابل عند مصب نهر الديالى في دجلة، هذه المملكة المتحالفة مع عيلام التي تحاول توسيع نفوذها باتجاه حوض الفرات الأوسط والجزيرة العليا. أي أنها كانت في منافسة مباشرة مع كل من ماري وأشور.
وبسبب هذا الوضع المعقد الذي كان سائداً في بلاد الرافدين عشية صعوده على العرش، فإن حمورابي لم يكن يملك مجالاً واسعاً للتحرك من أجل توسيع نفوذه. ولذلك نراه في السنوات الأولى من حكمه منصرفاً إلى أعمال بناء المعابد وتحصين المدن التابعة له والتحالف مع القوى الموجودة في المنطقة وخاصة مع الملك شمشي أدو، حتى إن بعض الباحثين ينظر إلى حمورابي وكأنه تابع للملك الأشوري وأن معظم الحروب التي خاضها خلال فترة تعاصرهما ما كانت إلا بتوجيهات منه، وخاصة الحملة التي خاضها في السنة الثامنة من حكمه ضد قبائل يموت بعل، وهي المنطقة التي ينتسب إليها ريم سين ملك لارسا فمن غير المحتمل أن يكون حمورابي قد تجرأ على القيام بمثل هذا العمل دون دعم مباشر وحماية لخلفيته من الملك الأشوري. وعلى صلة بذلك نذكر الحرب التي خاضها في السنة العاشرة من حكمه والتي انتصر فيها على مدينة مالجوم المجاورة لدجلة، وفي السنة الحادية عشرة التي تمكن من خلالها من احتلال مدينة رابيقوم الواقعة على الفرات، وهاتان المدينتان كانتا تابعتين لملك أشنونا ([2]).

بوفاة شمشي أدو نحو العام 1782 ق0م، تخلص حمورابي من أحد كبار المنافسين له بالسيادة على بلاد الرافدين، ولم يبق أمامه سوى أشنونا ولارسا ولذلك سعى إلى

---

[2]- كلينغل: المرجع السابق، ص60.

التخلص منهما ودخل في سبيل ذلك في تحالفات مع قوى أخرى على تخوم بلاد الرافدين ونقصد بذلك ماري التي جلس على عرشها زمري ليم بعد طرد يسمح أدو بن شمشي أدو منها. وهناك رسائل عثر عليها في محفوظات ماري تبين العلاقة بين بابل وماري خلال هذه الفترة سواء في المجال الدبلوماسي أم العسكري. ومن خلال هذه الرسائل نعلم أن هذا الحلف قد امتد إلى مملكة يمحاض التي كانت تسيطر على معظم الشمال السوري وأجزاء من الجزيرة الفراتية. ومن أمثلة هذه الرسائل، النص التالي وهو رسالة من زمري ليم إلى حمورابي « فيما يتعلق بالفرق العسكرية الداعمة التي تكتب إلي دائماً من أجلها، كتبت إلى حمورابي ملك حلب ليرسل إلي فرقة. وقد أرسل فرقةً إلى الآن وهاهي قد وصلت..»([3]).

وقد أسهمت هذه القوات التي أرسلها ملوك يمحاض وماري في حروب حمورابي ضد خصومه أشنونا وعيلام ولاسيّما في العام (1764ق0م) عندما تصدى لتحالف ضم أشنونا وعيلام ومالجي أوم وجماعات من القبائل الجبلية وقفت إلى جانبها. وكان لهذا النصر عند حمورابي أهمية ومعنى كبيران فهو يصف نصره هذا بأنه « قوى أساس دولة سومر وأكاد » بعد أن انتهى حمورابي من أشنونا، توجه إلى أخر خصومه الأقوياء في بلاد الرافدين ريم سين ملك لارسا والذي كان تجاوز الثمانين من عمره، فبدأ بانتزاع ما تبقى من مملكته، فاحتل نيبور عام (1763ق0م) وفي الصيف التالي وصل إلى أسوار لارسا حيث فرض حصاراً على المدينة انتهى باستيلائه عليها « بالاعتماد على ثقة الآلهة — آنو و إنليل التي تتقدم جيشه وبالقوة العظمى التي منحته إياها الآلهة الكبار، انتصر على بلاد يموت بعل وعلى ملكها ريم سين » ولم يعامل حمورابي لارسا معاملة المدينة المهزومة التي يجب أن تدمر بل اهتم بتوسيعها وبعمرانها، ففي رسالة وجهها إلى أحد أعوانه في

---

[3]- كلينفل: المرجع السابق، ص 64.

لارسا، يذكر حمورابي أنه قد وضع تحت تصرفه مئة وثمانين من الحمالين ليساعدوا في إتمام عمران المدينة ([4]).

وفي العام (1761ق0م) توجه حمورابي ضد ماري حليفته السابقة، التي يذكر احتلالها وبشيء من عدم الاهتمام من خلال ذكره أحداث العام الثالث والثلاثين من حكمه. ويبدو أنه خلال هذه الحملة لم يتعرض للمدينة بسوء، لأنه يعود ويذكر في أحداث العام الخامس والثلاثين من حكمه أنه دمر أسوار ماري وأسوار مالجي أوم. إن السيطرة على طرق التجارةالمنطلقة من شواطئ الخليج العربي وعلى امتداد نهر الفرات، لابد من أن يكون السبب وراء انقلاب حمورابي على حليفته السابقة المتحكمة بالعقدة التجارية الهامة الواقعة على الفرات الأوسط.

أما عن أعماله العسكرية الأخرى فحولياته لا تأتي على ذكرها، أما النصب الذي دون عليه قانونه فيذكر فيه أنه استولى على آشور ونينوى. توفي حمورابي في عام 1750ق0م بعد أن أعاد توحيد كل بلاد الرافدين تقريباً تحت سلطته.

إن أهم ما يميز عصر حمورابي إلى جانب إعادته توحيد بلاد الرافدين، هو إصداره لقانونه الشهير، هذا القانون الذي أصدره بعد أن انتهى من مجمل أعماله الحربية وأصبح الوقت مناسباً لإصدار تشريع ينظم من خلاله أمور البلاد والعباد. أصدر حمورابي قانونه في العام الرابع والثلاثين من حكمه، وقد دُوِّن باللهجة البابلية من اللغة الأكادية وبالخط المسماري على مسلة من حجر الديوريت يبلغ ارتفاعه 2.25م ومحيطه عند القاعدة 1.9م. في أعلى المسلة يظهر الملك حمورابي واقفاً أمام إله الشمس الإله شمش وهو يتناول منه رموز السلطة الصولجان والخاتم. وقد عثر على هذه المسلة أثناء التنقيبات الأثرية التي كانت تجرى في العاصمة العيلامية سوزا من قبل بعثة أثرية فرنسية كان يقودها دومورغان، بين العامين (1901–1902م)، ويبدو أن هذه المسلة مع أشياء أخرى كثيرة كانت قد

---

[4]- كلينغل: المرجع السابق، ص 75.

نقلت إلى العاصمة العيلامية كغنيمة حرب بعد الهجوم الذي شنه على بابل الملك العيلامي شوتروك ناخونتي نحو العام (1170ق0م) قضى خلاله على أخر الملوك البابليين الكاشيين.

يتألف القانون من مقدمة ومتن وخاتمة. وتتميز مقدمة قانون حمورابي بالطول (نحو 303 أسطر) وتتحدث عن أعمال حمورابي المختلفة في جميع المدن التي أخضعها لسلطته وتُعظم إلهة تلك المدن، وتؤكد أن الآلهة اختارت حمورابي ليحقق العدل في البلاد. أما الخاتمة فقد كتبت بنفس الأسلوب ويذكر فيها حمورابي أعماله، ويرجو من الآلهة المختلفة أن تعاقب كل من لا يعمل بقانونه أو يحاول محو اسمه عنه ليكتب اسمه مكانه. ويؤكد أن هدفه من وضع القانون هو إحقاق الحق وتطبيق العدالة.

وأما المتن فقد قام اللغوي الفرنسي شيل بدراسته وقسّمه إلى 282 مادة معتمداً في ذلك على المقاطع المبدوءة بكلمة (شوما) والتي تعني (إذا) وقد عالج حمورابي في قانون مختلف القضايا التي تهم المجتمع سواءً من الناحية الاقتصادية أو القضائية وانطلق من مبدأ العين بالعين والسن بالسن، واعتبر الإنسان مسؤولاً عن أعماله بغض النظر عن طبيعة هذا الأعمال، فالبناء مسؤول عن البناء الذي يبنيه والطبيب مسؤول عن المريض الذي يعالجه والربان مسؤول عن السفينة التي يقودها...الخ.

المادة 42: إذا استأجر إنسان حقلاً للزراعة (حرفياً : للحراثة) ولم يزرع الحقل بالحبوب، فإذا برهن (المرء) أنه لم يؤد عمله في الحقل يدفع عندئذ حبوباً إلى صاحب الحقل كمحصول حقل جاره.

المادة 218: إذا عمل طبيب لإنسان جرحاً صعباً بأداة من البرونز (أي أجرى عملية) وسبب الموت للإنسان، أو فتح صدغ إنسان بأداة من البرونز وضرب عين الإنسان فعلى المرء أن يقطع له يده.

ولقد وضح القانون العلاقة بين الآباء والأبناء وقضايا الزواج والمهر والطلاق وتعدد الأزواج والخدمة العسكرية والإقراض والفائدة ([5]) ومن خلال القانون نعلم أن المجتمع الرافدي كان مؤلفاً من ثلاث طبقات :

1- الأحرار والذين يدعون « أويلوم » وكان من هؤلاء كبار رجال الدولة والمزارعون والحرفيون والتجار وكانوا يتمتعون بالامتيازات والحقوق كلها.

2- الموشكينوم: واختلف الباحثون حول تحديد الوضع القانوني والاجتماعي لهذه الفئة: فمنهم من يرى فيهم أناساً كانوا يقيمون على أراضي الملك ويعملون فيها، ولكنهم لا يملكون أي شيء ولاسيّما أراضي زراعية وبالتالي فهم من الموظفين أو العاملين من المستويات الدنيا في القصر الملكي. بينما يرى آخرون أنهم يمثلون الرعية بشكل عام والذين لا ينتمون إلى دائرة الحكم الضيقة ([6]).

3- العبيد (واردوم) : ويقبع هؤلاء في أسفل السلم الاجتماعي، وكانوا محرومين من كل شيء تقريباً وإن كان يحق لهم الزواج من امرأة حرة، وفي هذه الحالة فإن أبناءهم يكونون أحراراً. وأما مصدر العبيد في هذا العصر فكان الشراء أو من أسرى الحروب، وكذلك من يعجز عن سداد دينه كان يتحول إلى عبد.

ثانياً- الدولة البابلية في عهد خلفاء حمورابي :

تولى العرش بعد وفاة حمورابي ابنه شمسو إيلونا (1749- 1712ق0م) الذي قضى السنوات الأولى من حكمه في أعمال البناء وتزيين المعابد المختلفة بالذهب والفضة. ولكن المتاعب بدأت بالظهور في وجهه بدءاً من عام1742ق0م عندما هاجمت القبائل الكاشية منطلقة من مواطنها في جبال زاجروس بلاد الرافدين، ولقد تمكن شمسوا إيلونا

5- يمكن الاطلاع على مختلف مواد القانون في كتاب الدكتور عيد مرعي قوانين بلاد ما بين النهرين.

6- تاريخ الشرق القديم، ج1، ص 360 وما بعدها.

Damascus University

من التصدي لها ودفعها إلى أطراف بلاد الرافدين من جهتي الشرق والشمال. وقد استقر قسم منهم في بلاد عانة في المجرى الأوسط لنهر الفرات مؤسساً إمارة لهم هناك.

وأما المشاكل الأخرى التي واجهت شمسو إيلونا فقد جاءت من الجنوب عندما ثارت مجموعة من المدن ضمت أور ولارسا وكوثا وأروك وكيسورو وغيرها بزعامة شخص اسمه ريم سين الذي كان ربما من أسرة ريم سن حاكم لارسا السابق وقد استمرت هذه الثورة حتى عام (1736ق0م) بين مد وجذر إلى أن تمكنت قوات ملك بابل من القضاء عليها نهائياً وقتل زعيمها. وقضى شمسو إيلونا الفترة المتبقية من حكمه بإعادة إعمار ما تخرب نتيجة هذه الثورة وإخماد تمردات أخرى قامت في وجهه بين الفينة والأخرى. ولكن يبدو أن المناطق التابعة لدولته والمطلة على الخليج العربي والتي كانت تدعى « بلاد البحر » قد انفصلت عن جسد الدولة بشكل نهائي وقبل نهاية حكمه. ونشير في ختام حديثنا عن شمسو إيلونا إلى أنه أصدر مرسوماً أعفى بموجبه المكلفين بالضرائب مما تراكم عليهم وسجل في حولياته أنه قام بـ « تحرير سومر وأكاد » أي تحريرهم من الضرائب ومن العبودية المترتبة على عدم تأدية الديون.

وجلس على عرش بابل بعده ابنه إيبي إيشوخ (1711-1684ق0م) ومن بعده عمي ديتانا (1683-1647ق0م) الذي تتحدث كتاباته عن بنائه حصوناً وحروب خاضها ضد بلاد البحر المنفصلة. وبدأ خليفته عمي صدوقا (1647-1625ق0م) حكمه باتخاذ إجراءات هدفت إلى إعادة « العدل » وهذه الإجراءات كانت تمس الحياة الاقتصادية بشكل خاص من مثل حظر أخذ الرهائن ممن لا يستطيع دفع ما يترتب عليه من ديون أو ممن لا يستطيع دفع ضريبة مترتبة عليه « جامع الضرائب وتحت طائلة العقوبة بالموت لا يحق له أن يأخذ الرهائن من بيت من لا يستطيع دفع الضريبة المترتبة عليه ». وكذلك إلغاء بعض الديون « التعهد بإعادة الدين، حبوب أو فضة، الذي أخذه على نفسه (أكادي أو أموري) (قبل صدور هذا العفو) أمام إنسان ما أو إنسان تابع للقصر يُعفَون من هذا الدين ».

آخر ملوك أسرة حمورابي هو شمسو ديتانا (1625- 1595ق0م) لا نعرف الشيء الكثير من فترة حكمه.

في العام (1595ق0م) قام الملك الحثي مورشيلي الأول بهجوم على سورية تابعه جنوباً حتى وصل إلى بابل التي قام بتدميرها. ومن المحتمل أن يكون الملك البابلي شمسو ديتانا قد قتل نتيجة هذا الهجوم. ومعلوماتنا عن هذا الهجوم نستقيها من المصادر الحثية فقط. ولدينا معلومات عن وجود عناصر كاشية كانت تعمل في خدمة الملوك البابليين منذ نهاية القرن السابع عشر ق 0م وربما قام هؤلاء بدور العملاء والجواسيس لصالح الحثيين أثناء هجومهم على بابل. ومن المؤكد أن كثيراً من الكاشيين الموجودين في منطقة عانة قد شاركوا في هذا الهجوم، لأننا نعلم أن تمثال الإله مردوك كبير آلهة بابل قد نقل إلى هناك إثر الهجوم الحثي.

وبما أننا ألقينا بعض الأضواء على الحياة الاقتصادية والاجتماعية من خلال ما ذكرناه عن قانون حمورابي والمراسيم التي أصدرها من جاء بعده من الملوك البابليين، فإننا سنتوقف هنا لنلقي نظرة على الحياة الثقافية والدينية في العصر البابلي القديم.

الحياة الثقافية :

نشطت في العصر البابلي القديم حركة تدوين الآداب القديمة التي كانت منتشرة في بلاد الرافدين بشكل شفوي على ألسنة الناس، أو كانت مدونة باللغة السومرية، وجرى نقلها الآن إلى اللغة الأكادية بلهجتها البابلية القديمة.

وقد ازداد خلال هذا العصر الاهتمام بتدوين نصوص العرافة والتكهنات والنبوءات وتفسير الأحلام، واتصال الآداب بالحياة العامة أكثر من قبل، وصار يخدم مسائل من الحياة اليومية وهمومها (الحصاد السيئ، تراكم الديون، الفقر، المرض..)([7]). وكان من أهم الأعمال التي دونت خلال هذه المرحلة :

---

[7]- إسماعيل، فاروق: إراو ملك كل البلاد، ملحمة بابلية، دار جدل، حلب، 1998، ص 25.

– اسطورة أترخسيس: وتتناول موضوعات تتعلق بالطوفان وصراع الآلهة وخلق الإنسان وعلاقة الإنسان بالإله، والعقاب ودرجاته والازدياد البشري أو الانفجار السكاني.

– ملحمة جلجامش: وهي صياغة لثلاث حكايات سومرية عن مآثر ملك أوروك (2700 ق.م) وحكاية سومرية عن الطوفان في عمل واحد ذي طابع جديد. وهي تبحث في سعي الإنسان للحصول على الخلود والشباب الدائم. ولكن جلجامش يكتشف في النهاية صحة ما قالته له سيدوري فتاة الحانة «الحياة الأبدية التي تنشدها لن تلقاها. عندما خلقت الآلهة البشر قدرت عليهم الموت، واحتفظت بالحياة الخالدة لنفسها». فتخيب آماله ويقنع بأن خلود الإنسان بأفعاله وأعماله التي يخلفها بعده ([8]).

– من الأعمال الأخرى التي وضعت خلال هذا العصر أسطورة أدبا وأسطورة إتانا ونزول عشتار إلى الجحيم ([9]).

وقد برز خلال هذا العصر أدب الحكمة والموعظة، وقد وضعت هذه المواعظ على لسان الحيوانات أو النباتات أحياناً أو على شكل محاورات بين الأصدقاء. ومن أمثلة النموذج الأول (مناظرة الثور والحصان) و(الأثل والنحلة). ومن أمثلة النموذج الثاني » حوار العبد ومولاه « ومنه نقتطف هذا المقطع القصير.

م– أيها العبد، اقترب مني

ع– نعم، مولاي، نعم

م– أسرع، أحضر لي ماء أغسل يدي وأتغذى

ع– تغدَّ مولاي، تغدَّ فوجبة طيبة، تشرح القلب... أن تأكل من رزق ربك، وأن تغسل يديك.... فسيمضي نهارك..

---

[8]- اسماعيل، فاروق: المرجع السابق، ص26–27.

[9]- حول هذه الأساطير يمكن الرجوع إلى :سيدا، عبد الباسط: من الوعي الأسطوري إلى بدايات التفكير الفلسفي النظري (بلاد الرافدين تحديداً)، دار الحصاد، دمشق، ط1، 1995.

م– كلا... كلا أيها العبد.. لن أتغدى

ع– لا تتغد ... لا تتغد ، أن تجوع حتى تأكل، أن تعطش حتى تشرب هذا مايلزم الرجل ([10]).

ونشير في ختام هذا الحديث الموجز عن الحياة الثقافية إلى أن مطلع القرن الثامن عشر ق0م شهد ذروة التطور التاريخي للغة الأكادية، كما بدأت مرحلة جديدة في تاريخ الكتابة المسمارية. إذ شُرع بتبسيط أشكال العلامات واختصار عددها وتطويرها لتعتمد المبدأ المقطعي لا الرمزي التصويري في التعبير عن الأصوات اللغوية. وبغية استكمال الظروف المساعدة على انتشار الأكادية وكتابتها بدأ الاهتمام بتصنيف قوائم بالعلامات تبين أشكالها وقيمها الصوتية، وبإعداد قوائم معجمية تعد من بواكير المعجمات اللغوية الصوتية، وأشهرها معجم الموضوعات المدون على اثنين وعشرين رقيماً ويعرف باسم HAR.RA=hubullu أي « الفوائد » وهو سومري – أكدي، يضم مفردات كثيرة تتصل بالحياة والبيئة، ويعود إلى أواخر العصر البابلي القديم ([11]).

الحياة الدينية:

لقد أصبح الإله مردوك الإله الرئيس في بلاد الرافدين، بعد أن أزاح آنو وإنليل من مركزيهما. ففي مقدمته لقانونه يذكر حمورابي أنه « عندما آنو العظيم ملك الآنوناكو، وانليل سيد السموات والأرض مقرر مصير البلاد، حدد لمردوك الابن البكر للإله إيا، العزة الإلهية فوق كل البشر، وجعلاه كبير الإيجيجو وسميا بابل باسمه العظيم، وجعلاها بارزة في كل أنحاء العالم، وأقاما له فيها ملكاً أبدياً قواعده ثابتة كقواعد السماء والأرض ». وفي أسطورة الإنوما إيليش يظهر مردوك كخالق للكون بعد أن انتصر على تيامات

---

[10]- عبد الله، فيصل: حوار العبد ومولاه، مجلة دراسات تاريخية، العددان 41-42، 1992، ص80 وما بعدها.

[11]- اسماعيل: المرجع السابق، ص25.

حول الكتابة في بلاد الرافدين يمكن الرجوع إلى : مرعي، عيد: الكتابة والتعليم في بلاد الرافدين، دراسات تاريخية، العددان 41-42، 1992، ص7 وما بعدها.

ممثلة الفوضى في الكون. وتعدد هذه الأسطورة خمسين اسماً لمردوك أعلنتها آلهة السماء ومع كل اسم تفسيره الذي يبرز صفة من صفات هذا الإله.

وشغل إله الشمس « شمش » مكانة كبيرة في مجمع الآلهة البابلية، فعلى المسلة التي نُقش عليها نص قانون حمورابي، يُصوَّر الملك البابلي وهو يقف على هيئة المتعبد أمام الإله، وهو يتسلم منه الخاتم والصولجان رمزي السلطة والملكية.

وكان الإله سن (إله القمر) من الآلهة المباركة عند البابليين يمجد في بعض الأحيان أكثر من الشمس، وكانوا يعتقدون أن القمر إنما هو أب إله الشمس. وكان القمر بالنظر لتغيير شكله بصورة مستمرة يحاط بالأسرار والغموض. وكان البابليون يعتبرونه (خصوبة تثمر من تلقاء نفسها). ولكلّ من أشكاله اسم شاعري، ومن خلال مراقبة بزوغه تعلم الإنسان تقسيم الوقت، ولذلك كان سين « ربّ ومثبت اليوم والشهر والسنة » أما الإلهة الأنثى الأهم عند البابليين فقد كانت الإلهة عشتار، التي صوّرت في عالم الآلهة لي في مصاف الآلهة لكبار، وتعتبرعشتار كابنة لإله القمر سين، وارتقت من مركز عشيقة آنو إلى زوجته الشرعية ولذلك سميت فيما بعد سيدة الآلهة. كانت عشتار متعددة الجوانب وتقوم بأداء مختلف الواجبات، فمن جهة تقوم بواجب إلهة الحب والخصب والرفاه والازدهار للبلاد، ومن جانب آخر تصور كإلهة للحرب والمعارك، وكانت تتقدم الملك المنتصر في الحرب، وكامرأة مغرية تسحر الرجال، ولكنها تقودهم إلى المصائب. وقد جرى ذكرها بمدح في الكثير من الأناشيد البابلية ([12]).

ومن الآلهة الأخرى الهامة التي يرد ذكرها في المدونات البابلية، الإله أدد المجسد لقوى الطبيعة من طقس وأمطار وعواصف وبرد وبرق والإلهة إيرشكيجال والتي تعتبر السيدة الأعلى على « أرض بلا عودة » أي العالم السفلي. والإله نرجال الذي حل محلها في هذه المهمة بعد أن جعل منها زوجة له، والإله إيا إله الحكمة والإلهة سارابانيتومزوجة الإله

---

[12]- كلينغل، إيفلين : رحلة إلى بابل القديمة، ترجمة زهدي الداودي، دار الجيل، دمشق، ط: 1984، ص 141-142.

مردوك...الخ. إن صعود نجم الآلهة البابلية لم يلغ بالتأكيد دور الآلهة السومرية، فلقد حافظت على مكانتها خاصة في المدن السومرية واستمر الملوك البابليون بالاهتمام بمعابدها وتقديم الهدايا ويمكن أن نأخذ مما ورد في مقدمة قانون حمورابي كدليل على هذا الاهتمام.

كانت التقدمات المختلفة تقدم لكل هذه الآلهة بشكل دوري في كل المناسبات الدينية. وقد أدّى كهنة المعابد، خاصةً المعابد الكبيرة دوراً كبيراً في حياة المجتمع وبخاصة الاقتصادية منها. فبفضل الغنى الكبير الذي كانت تنعم به هذه المعابد نتيجة للتقدمات الكبيرة التي كان يقدمها لها الملوك سواءٌ أكانت هذه التقدمات أراضي زراعية أم إعفاءات ضريبية، تحولت هذه المعابد إلى قوة اقتصادية كبيرة ذات تأثير مزدوج على الحياة في بلاد الرافدين.

وفي العصر البابلي القديم كان الملك يمارس دور الكاهن الأعلى. وكان الكهنة مراتب: فهناك « سدنة البيت » وهؤلاء كانوا يقومون بأعمال مختلفة في المعبد منها حمل تماثيل الآلهة في المناسبات والاحتفالات الدينية، وكان هناك كهنة غسالون ومنظفون يعتنون بنظافة المعبد ودهانون يقومون بعمليات المسح بالزيت، وهناك فئة أخرى تمارس أعمال السحر والتنبؤ وفئة مختصة بمراسم الدفن وما إلى ذلك. ولابد من الإشارة إلى وجود فئة من الكاهنات وبمراتب متعددة فهنماك الناديتوم والشوجيتوموالإنتوم وغيرها ([13]).

[13]- قابلو، جباغ: دور المرأة في عالم الشرق القديم (سورية، بلاد الرافدين)، مجلة عاديات، حلب، الكتاب العاشر، 2003، ص123 وما بعدها.

Damascus University

الفصل التاسع

بابل في ظل الحكم الكاشي

الكاشيون من الأقوام الجبلية التي كانت تسكن منطقة جبال زاجروس وبحكم الطبيعةالفقيرة لهذه المنطقة، فإن القبائل القاطنة فيها كانت تسعى دوماً للنزول إلى منطقة السهل الخصيب في بلاد الرافدين. وكنا قد أشرنا سابقاً إلى أن هذه القبائل قد هاجمت منطقة بابل في عهد الملك شمسو إيلونا خليفة حمواربي. ولكن الملك البابلي تمكن من التصدي لهم وإلحاق الهزيمة بهم، وإن لم يتمكن من إعادتهم إلى مواطنهم الأصلية في جبال زاجروس، بل تراجعت جماعات منهم إلى أطراف بلاد الرافدين الشمالية الغربية وأسسوا إمارة في منطقة خانا.

ومن شبه المؤكد أن يكون هؤلاء الكاشيون قد شاركوا الملك الحثي مورشيلي الأول هجومه على بابل عام 1595 ق0م وإسقاطه الحكم فيها. وبما أن مورشيلي الأول لم يبق في بابل بل غادرها عائداً إلى بلاده، وبما أن الكاشين كانوا القوة الكبيرة الوحيدة الموجودة في المنطقة في ذلك الوقت، فإن مقاليد الأمور في بابل آلت إليهم. ومن المحتمل أن ملوكهم الأُول لم يتخذوامن هذه المدينة عاصمة لهم، بل أداروا هذه البلاد من عاصمتهم في بلاد خانا. والدليل على ذلك يكمن ربما في أن أول ملوكهم الذي حكم في بابل المدعو آجوم الثاني وحتى يكتسب ود السكان المحليين وطبقة الكهنة القوية، فإنه أمر بإعادة تماثيل الإله مردوك وزوجته ساربانيتو من بلاد خانا حيث بقيا هناك مدة أربعة وعشرين عاماً، ونصبهما مجدداً في معبديهما في مدينة بابل. وقد حمل آجوم الثاني الألقاب التالية: « النسل الصافي (للإله) شوقامونا (الإله الرئيسي عند الكاشيين)، ملك الكاشيين والأكاديين ملك بلاد بابل الواسعة، الذي أسكن أشنونا الكثير من السكان،

ملك ألمان وبادان ». وألمان وبادان هما مناطق جبلية في أعالي نهر الديالى وروافده وهي المناطق التي انطلق منها الكاشيون في هجومهم على بلاد الرافدين. وربما دلّ هذا على استمرار الصلة بين الكاشيين الذين استقروا في بابل وبين مواطنهم الأصلية ([1]).

أولاً- علاقات الكاشيين مع القوى المحيطة :

لم يتمكن الكاشيون من فرض سيطرتهم على كل بلاد الرافدين. وأقصى ما تمكنوا من تحقيقه هو فرض سيطرتهم على وسط وجنوب بلاد الرافدين (أي سومر وأكاد) وصولاً إلى أقصى الجنوب، عندما تمكن ملكهم أولام بورياش من القيام بهجوم مفاجئ على مملكة البحر، التي كانت قد انفصلت عن جسد الدولة البابلية منذ أيام شمسو إيلونا الأخيرة وأقامت لها حكماً مستقلاً هناك. ومع ذلك فإن النجاح الذي حققه هذا الملك لم يستمر في عهد خلفائه وعادت بلاد البحر لتكون دولةمستقلة إلى أن أسقطها العيلاميون بحدود العام 1450ق0م.

وأما عن علاقات الكاشيين الخارجية، فقد غلب عليها الطابع السلمي مع المصريين، في حين شابها الكثير من التوتر مع الآشوريين والعيلاميين.

1- العلاقات مع المصريين :

تعود جذور العلاقة بين الكاشيين والمصريين إلى أيام الملك المصري تحوتمس الثالث الذي قام في العام الثامن من حكمه بحملة كبرى إلى سورية، مستهدفاً إخراج الحوريين الميتانيين منها وتثبيت النفوذ المصري فيها. ومن المعلوم أن الملك المصري في حملته هذه اجتاز نهر الفرات ووصل إلى مناطق الجزيرة السورية، وقد ذهب للقائه هناك الملك الكاشي كارا إنداش محملاً بالهدايا الثمينة وواضعاً بذلك أسس الصداقة التي ربطت بين الدولتين فيما بعد.

---

[1]- تاريخ الشرق القديم، ج1، ص418 – 419.

وقد كشف لنا أرشيف العمارنة المصري مجموعة من الرسائل التي أرسلها الملوك الكاشيون إلى الملكين المصريين أمنحوتب الثالث وابنه اخناتون. ومن خلال هذه الرسائل نلاحظ إصرار الملوك الكاشيين على الحصول على الذهب المصري وتقديمهم شقيقاتهم وبناتهم كزوجات للفرعون المصري لقاء ذلك. كما نلاحظ تعالي ملوك مصر على الملوك الكاشيين وعدم نظرهم إليهم نظرة تكافؤ وتساوٍ.

فمثلاً الملك قداشمان اليل يعتب على امنحوتب الثالث لعدم إرساله إحدى بناته ليتزوجها متذرعاً بعدم وجود مثل هذا التقليد لدى الأسرة الحاكمة في مصر. كما يشكو الملك الكاشي من قلة الذهب والنوعية السيئة التي أرسلت إليه من مصر([2]).

ومن عهد بورنا بورياش الثاني (نحو 1367- 1346ق0م) توجد مجموعة من الرسائل التي بعثها إلى فرعوني مصر امنحوتب الثالث واخناتون، لا تخرج بمحتواها عن رسائل والده ولاسيّما فيما يتعلق بالإلحاح على طلب الذهب المصري ([3]).

2– العلاقات مع الأشوريين :

تعود العلاقة بين الكاشيين والآشوريين إلى عهد الملك بورنا بورياش الأول ابن آجوم الثاني الذي عقد اتفاق سلام مع الملك الآشوري بوزور آشور الثالث. (نحو العام 1540) وبلغ التوتر أشدّه في عهد الملك توكولتي نينورتا الأول (1243- 1208ق0م) الذي تمكن من اجتياح بلاد بابل وقتل الكثير من أهلها ودمّر مبانيها وساق تماثيل آلهتها إلى عاصمته كغنائم حرب. ولكن الرد على هذا الهجوم الآشوري جاء في عهد الملك الكاشي أدرشوما أوصور بن كاشتيلياش الرابع الذي اجتاح بقواته بلاد آشور دون أن يتمكن من ضمها إلى بلاده بشكل كامل. ورغم ذلك فإن العلاقة بين الفريقين اتسمت بعد ذلك بالتوتر الدائم، وبلغ هذا التوتر أشده من جديد في عهد الملك الآشوري آشور

---

[2]- The Amarna letter. Edited and Translated by: William L.Moran. London. 1992.

[3]- العلاقات الدولية والدبلوماسية في الشرق القديم، موسكو، 1987، ص84 وما بعدها.

Damascus University

أوباليط الأول، الذي أرسل رسلاً من قبله إلى بلاط الملك المصري محملين بالهدايا. مما أدى إلى استياء الملك الكاشي الذي أسرع بإرسال رسل من قبله هو الأخر إلى البلاط المصري، طالباً من الملك المصري عدم استقبال هؤلاء الرسل الآشوريين، لأنهم بنظره من أتباعه وإعادتهم فارغي الأيدي. وشهدت العلاقة الكاشية – الآشورية نوعاً من التحسن عندما زوّج الملك الكاشي بورنا بورياش الثاني ابنه من ابنة الملك أشور أوباليط الأول، وعندما توفي الملك الكاشي، تمكن الملك الآشوري من تنصيب حفيده على العرش الكاشي باسم كارا إنداش الثاني. ولكن الطبقة الحاكمة الكاشية لم ترض عن هذا الأمر ودبّرت أمر الإطاحةبهذا الملك وجرى تنصب ملك آخر مكانه باسم كوريجالزو الثاني. وقد حاول كوريجالزو هذا مهاجمة آشور إلا أنه هزم على يد الملك الآشوري الجديد حدد نيراري الأول مما حدا به إلى تجديد اتفاق السلام الذي كان معقوداً بين الدولتين.

3- العلاقات مع الحثيين :

إن تصاعد القوة الآشورية في شمال بلاد الرافدين هو الذي أدى إلى ازدياد الروابط بين الكاشيين والحثيين. فكلتا الدولتين الكاشية والحثية، كانت ترى في القوة الآشورية المتصاعدة خطراً يهدد مصالحها. ويبدو أن نجاح الملك الآشوري أددنيراي الأول وخاصة نجاحه في ضم منطقة خانيجالبات، قد سرّع من تطوير العلاقات الحثية الكاشية فنرى الملك الحثي شوبيلوليوما ينزوج من أميرة كاشية، وأصبحت العلاقة في عهد الملك موآتيلي أكثر متانة، وتحولت في عهد خاتوشيلي الثالث إلى علاقات صداقة وتحالف حقيقي ومعاهدة مشتركة، ونصت المعاهدة على أنه في حال موت أحد فريقي المعاهدة أن يساعد الفريق الثاني والباقي على قيد الحياة أولاد الفريق المتوفى ويقف إلى جانبهم للمحافظة على السلطة. وقد وفى الملك الحثي خاتوشيلي الثالث بوعده، فعندما توفي

الملك الكاشي قد شمان تورغو، أرسل الملك الحثي رسالة إلى القادة الكاشيين طالباً منهم المحافظة على حقوق الملك الصغير قدشمان انليل الثاني(1276–1265ق.م) ([4]).

ويبدو أن العلاقة بين البلاطين قد شابها نوع من التوتر بعد ذلك، وانقطع إرسال الرسل من بابل نحو خاتوشا، مما حدا بالملك الحثي لإرسال رسالة عتب إلى بابل ([5]).

4– العلاقات مع العيلاميين :

يبدو أنه لم تقم علاقة مباشرة بين الكاشيين والعيلاميين قبل عهد الملك الكاشي كوريجالزو الثاني. ويبدو أن الملك العيلامي خوربابتلا كان المبادر لشن الهجوم على بعض المواقع الخاضعة لسلطة الكاشيين فتصدى له الملك الكاشي كوريجالزو وألحق به الهزيمة، ومن ثم لحق به إلى عاصمته سوزه واحتلها. ولكن النصر الذي حققه كوريجالزولم يعن ضم عيلام إلى سلطة البابليين بشكل نهائي، إذ سرعان ما استقلت هذه البلاد وقامت فيها سلالة حاكمة محلية أخرى. وقد استغل العيلاميون الضعف الذي حل ببلاد بابل نتيجة حروب الكاشيين مع الآشوريين فأخذوا يهاجموها من جهة الشرق والجنوب الشرقي. وقد بدأت هذه الهجمات في عهد الملك العيلامي أونتاش جال وتوالت في عهد خلفائه ووصلوا في إحداها إلى وسط بلاد الرافدين فتمكنوا من الاستيلاء على ايسين وماردا. ولكن الهجوم العيلامي المدمّر جاء في عهد ملك عيلامي شوتروك ناخونتي نحو العام 1160ق0م الذي ذكر في تقرير يخلد انتصاره أنه بعد أن عبر نهر أولاي (قارون) سار من الجنوب إلى بلاد بابل واحتل المدن والقرى الكبيرة وفرض على السكان ضرائب باهظة من الذهب والفضة وسقطت كل المدن بيده ونُهبت المعابد والقصور وأُخذت تماثيل الآلهة إلى العاصمة سوزه. واقتيد آخر ملك كاشي المدعو إنليل نادين آخي إلى

---

[4]- عبد الله، فيصل؛ مرعي، عيد: تاريخ الوطن العربي القديم (بلاد الرافدين)، منشورات جامعة دمشق، 1996، ص269.

[5]- الرسالة موجودة في : (الوجه الأمامي Kbo 1-10).

Damascus University

عيلام. وبذلك سقط الحكم الكاشي في بابل على يد العيلاميين بعد أن استمر نحو أربعة قرون ([6]).

ثانياً– الأثر الكاشي على بلاد الرافدين :

شكل الكاشيون في بلاد الرافدين طبقة عسكرية أجنبية حاكمة تختلف عن السكان المحليين من حيث أصولها وثقافتها. ولقد شعر الكاشيون بتخلفهم الحضاري عن البابليين، لذلك نراهم يحاولون تمثل الحضارة البابلية وعدم الدخول في صراع معها. وقد ظهر هذا التمثل في استخدامهم اللغة البابلية لتدوين وثائقهم وإطلاق الأسماء البابلية على أبنائهم وإظهارهم الاحترام الكبير للآلهة البابلية والسومرية على السواء، مع عدم إهمالهم آلهتهم القومية بطبيعة الحال. فنرى الكثير من الملوك الكاشيين يشيدون المعابد للآلهة البابلية. فالملك كارا إنداش يشيد معبداً للإلهة عشتار في مدينة أوروك ويصف نفسه في كتابة وضعت بهذه المناسبة « راعي عشتار المحبوب » وأما كوريجالزو الأول فقد كان متحمساً لعبادة الإله إنليل وأدخل اسم هذا الإله في اسم اثنين من أبنائه.

وأما عن المنشآت الأخرى التي شادها ملوك السلالة الكاشية في بابل فلعل أهمها مدينة دوركوريجالزو التي بناها الملك كوريجالزو الأول في موقع عقرقوف الحالي إلى الشمال الغربي من بغداد. وقد بناها كوريجالزو لتكون مقراً له عوضاً عن العاصمة التاريخية بابل. ولعل أهم ما كشف عنه في هذه المدينة الزقورة الضخمة التي بنيت على نمط زقورة أور، وقد بنيت من الطوب المجفف الذي تعاقبت معه طبقات سميكة من الأسفلت لزيادة تماسك المنشأة. ولم يبق لأيامنا الحالية من هذه الزقورة سوى الجزء الداخلي من كتلة الطوب المجفف منتصباً. وقد عُثر بجوار هذه الزقورة على معبد أنشئ وفق المخطط التقليدي لبناء المعابد في بابل أي الفناء الذي تحيط به مجموعة كبيرة من الغرف.

6- عبد الله، مرعي: المرجع السابق، ص 268- 269.

والمنشأة المدنية الأهم التي عُثر عليها في المدينة هي القصر الملكي. ويبدو أن هذا القصر لم يشيد وفق مخطط مسبق، بل تم بالتدريج إضافة مجموعة من المباني حول الفناء. أما الجزء المحفوظ منه على أفضل وجه فهو فناء كبير مربع الشكل طول ضلعه 64م وثلاثة أجنحة حوله، لكلّ منها مدخل واحد وسط كلّ واجهة ([7]).

أما عن الإدارة الكاشية للدولة، فقد اعتمد الملوك الكاشيون على الجيش اعتماداً كبيراً . هذا الجيش الذي كان يعتمد على الفرسان والعربات التي تجرها الخيول اعتمادا رئيساً. أما مشاته فكانوا يُزودون بدروع برونزية إضافة إلى خوذة جلدية وأقواس جيدة وسيوف برونزية.

وقد أقطع الملوك الكاشيون قواد الجيش مساحات كبيرة من الأرضي الزراعية من ضمن أراضي القصر. كما حصل أفراد الجيش على أراضٍ وإن كانت مساحتها أقل. وكانت توضع على حدود هذه الأراضي حجارة تدعى كودور وعلى هذا الحجر كانت تنقش حدود الأرض والأمر الملكي بمنحها وإن كانت هذه الأرض معفاة من الضرائب أم لا. ويميل البعض من الباحثين إلى أن مثل هذا الإقطاع لم يكن يعني ملكية مطلقة لهذه الأرض، وأنه مع صعود كل ملك كاشي جديد كان من الواجب تجديد الإقطاع، على اعتبار أن الأرض ظلت ولو نظرياً تعد ملكاً للقصر والملك الجالس فيه. وكان يحيط بالملك مجموعة كبيرة من الموظفين، من ضمنهم مجموعة من المستشارين « شاكين تم ماتي » ومجموعة من أصحاب المراتب العسكرية والمدنية الذين كانوا يقودون الفرق العسكرية أو الإدارات المدنية « شاكاناكو، لابوتو، آكلو » إضافة إلى مجموعة من الموظفين الذين كانوا يعملون في المناطق المختلفة مثل « شاتامو » الذي كان يدير مشاريع المعبد ([8]).

---

[7]- غافليكو فسكا، كريستينا: الفن في بلاد ما بين النهرين، ترجمة كبرو لحدو، دار الينابيع، دمشق، ط1، 1995، ص129-134.

[8]- تاريخ الشرق القديم، ج1، ص450 وما بعدها.

وفي ختام حديثنا عن الكاشيين لابد من القول إن الكاشيين ورغم تخلفهم الحضاري فإنهم لم يكونوا مخربين ومدمرين لمظاهر الحضارة البابلية كما فعل أسلافهم الغوتيون. فبالإضافة إلى محافظتهم على هذه الحضارة، فقد أوجدوا أشياء جديدة من مثل الاهتمام بتربية الخيول وإدخال استخدامها على نطاق واسع إلى بلاد الرافدين، ووضع لوائح للمصطلحات والتعابير الخاصة بهده المهنة. واستخدم الكاشيون طريقة جديدة في التأريخ تقوم على تعداد سنوات حكم الملك اعتبار من أول العام الجديد (بداية نيسان) الذي يلي اعتلاءه العرش، والتي تختلف عن طريقة التأريخ السابقة التي عرفتها بلاد بابل منذ تاريخها المبكر والقائمة على تسمية سنوات حكم كل ملك بالأحداث الهامة التي تحدث خلالها ([9]). وأدخلوا أنماطاً جديدة من العمارة المدنية والدينية نلحظها في الأبنية التي شيدت في مدينة دوركوريجالزو. ونشير أخيراً إلى العثور على مجموعة من الآثار ذات الطابع الكاشي في مناطق متعددة من دول الخليج العربي الحالية (البحرين والكويت وغيرهما) وكان من ضمن هذه الأشياء أوانٍ فخارية وأختام أسطوانية وبعض النصوص المكتوبة، مما يدل على استمرار الصلة بين بلاد الرافدين وهذه المناطق خلال العصر الكاشي ([10]).

ثالثاً- بابل بعد العصر الكاشي :

لم يدم الحكم العيلامي لبلاد بابل طويلاً، إذ سرعان ما تشكلت عدة نقاط للمقاومة مثل بيت نباخي وشابرباري الواقعتان إلى الشمال من بابل. إلا أنّ مركز المقاومة الرئيسي تشكل في مدينة إيسين التي قامت فيها سلالة حاكمة محلية كان على رأسها شخص اسمه مردوك كابيت آخيشو الذي جمع حوله كل القوى المعادية لعيلام. وقد حكم من هذه السلالة أحد عشر ملكاً كان أشهرهم الملك نبوخذ نصر الأول

---

[9]- مرعي: تاريخ بلاد الرافدين، ص 100.

[10]- بوتس، دانيال، ت: الخليج العربي في العصور القديمة، الجزء الأول، ترجمة إبراهيم خوري، المجمع الثقافي، أبو ظبي، 2003م، ص430،423-431.

(1124- 1103ق0م) الذي قام بحملتين ضد عيلام. اضطُر في الأولى إلى الانسحاب دون أن يكمل المهمة التي أراد إنجازها بسبب تفشي المرض في صفوف جنوده. أما حملته الثانية فكانت مفاجئة للعيلاميين لأنها جاءت في وقت من السنة كان الحرّ فيه قائظاً وتمكن فيها من تحقيق نصر كبير على العيلاميين.

ويذكر نبوخذ نصر الأول في نصوص تخلد أعماله، أنه حقق الانتصار أيضاً على القبائل اللولبية، سكان الجبال الشمالية الشرقية، وعلى الأموريين سكان الفرات الأوسط.

إن تعاظم القوة الآشورية في عهد الملك تيجلات بلاصر الأول، أثّر إلى حد كبير في قوة سلالة إيسين وأضعفها إلى حد كبير. وشكل دخول القبائل الآرامية إلى الجنوب الرافدي نهاية الألف الثاني ق 0م عامل ضغط إضافياً على هذه الأسرة مما أدى إلى زوالها وقيام مجموعة من دويلات المدن الآرامية مكانها.



الفصل العاشر

الدولة الآشورية

تقع بلاد آشور في القسم الشمالي من بلاد الرافدين. وهذه المنطقة عرفت في المصادر الأكادية باسم سوبارتو. واستمر هذا الاسم في الاستخدام في المصادر البابلية العائدة للألف الأول ق 0م. أما تسمية الآشوريين فتعود إلى حاضرتهم الأولى مدينة آشور، أو إلى اسم إلههم الرئيسي. وقد ورد هذا الاسم في المصادر الآرامية باسم آثور.

وتتميز بلاد آشور بجبالها الوعرة وأمطارها المعتدلة ووجود بعض السهول التي تسمح بقيام زراعة حبوب جيدة. وتتألف هذه البلاد من مثلث رأسه في الأسفل (مدينة آشور) وقاعدته في الأعلى (مدينتي نينوى وأربيلوم « أربيل الحالية ») مع أنه يصعب تحديد العصر الذي أصبحت فيه هذه المدن الثلاث تشكل إطاراً سياسياً واحداً. وينقسم تاريخ آشور إلى ثلاثة عصور متميزة وهي :

1 - العصر الآشوري القديم: ويمتد من نهاية الألف الثالث ق 0م حتى القرن السادس عشر ق0م.
2 - العصر الآشوري الوسيط: ويبدأ في منتصف الألف الثاني ق 0م ويستمر حتى نهاية القرن العاشر ق0م.
3 - العصر الآشوري الحديث: ويبدأ مع نهاية القرن العاشر ق 0م ويستمر حتى سقوط الامبراطورية الآشورية على يد التحالف الميدي الكلداني أواخر القرن السابع ق0م.

Damascus University

أولاً- العصر الآشوري القديم:

ويمكن أن نميز في هذا العصر فترتين: الأولى تمثلها دولة مدينة آشور، وثانيها مملكة شمشي أدو. ونبدأ من الفترة الأولى.

1- دولة مدينة أشور :

من أجل دراسة تاريخ دولة المدينة هذه في نهاية الألف الثالث ق 0م ومطلع الألف الثاني، لدينا كتابات تشييد موضوعة باسم أشخاص كانوا يحملون لقب إيشياكوم، وهو اللقب المقابل للقب السومري إنسي. وقد عُثر على هذه الكتابات في المعابد خاصّةً. إلى جانب ذلك لدينا « قائمة الملوك الآشوريين » التي تذكر أسماء الملوك الآشوريين منذ الألف الثالث ق 0م حتى القرن الثامن عشر ق 0م وتضع هذه القائمة الملوك الآشوريين في عدة مجموعات، تضم الأولى منها أسماء سبعة عشر ملكاً تدعوهم « الملوك الذين عاشوا في الخيام »، وتضم المجموعة الثانية أسماء عشرة ملوك تدعوهم « الملوك الذين كانوا أسلافاً »، ثم تأتي بعد ذلك مجموعتان تضم كل واحدة منهما أسماء ستة ملوك، ثم يأتي اسم شمشي أدو الأول، أول الملوك الآشوريين الذين يتوفر لدينا عنهم معلومات موسعة ([1]).

إن آشور لم تكن دائماً بلداً مستقلاً، فكثيراً ما خضعت لسيطرة الجنوب الرافدي الأقوى. فمن المؤكد مثلاً أن شاروكين الأكادي هاجم المنطقة وأخضعها لحكمه. كما خضعت مدينتا آشور ونينوى لحكم ما نيشتوسو ثالث الملوك الأكاديين. وفي عصر أور الثالثة خضعت أجزاء من بلاد أشور لحكم ملوك أور. وكان يحكم في آشور موظف يحمل لقب (إنسي) ونعلم اسم أحد هؤلاء الانسيين وهو (زار يكوم)، ولكن هذا الحاكم لم يكن من السكان المحليين، إذ نعلم أنه كان قبل ذلك حاكماً في سوزه. وكان من

---

[1]- ساغس، هنري: جبروت أشور، ترجمة آحو يوسف. دمشق، 1995، ص48.

ضمن مهمات الانسي في عصر هذه السلالة مراقبة التجارة الخارجية التي كانت حكراً على الدولة. ولكن قد يكون وضع المناطق الحدودية ومنها آشور مختلفاً نسبياً عن المناطق المركزية، حيث كانت تتمتع ببعض الاستقلالية. وقد ترك لنا زاريكوم هذا كتابة على شرف ملك أور أمارسين 2045- 2037 ق0مومكرسة للإلهة بيلات – إياكاليم.

بعد سقوط سلالة أور الثالثة تمتعت آشور باستقلالها وحكمت فيها أسرة أسسها شخص اسمه بوزور آشور، وكان من خلفائه شالي ماخوم، إيلوشوم، إيريشوم الأول وإيكو نوم الذي كان معاصراً لمؤسس السلالة البابلية الأولى سومو آبوم ([2]).

إن أشهر هؤلاء الحكام هو إيلوشوم الذي أعفى التجار من الضرائب المرتبة عليهم لقاء ما يجلبونه من بضائع إلى آشور. وكانت هذه البضائع تأتي بشكل أساسي من أور ونيبور (النحاس عبر الخليج العربي، والأقمشة من مدن بلاد الرافدين المختلفة) ومن دير وكسيمار (منطقة الديالى) ومن أوالا (أي عبر زاجروس حيث كانت الطريق توصل من هنا إلى آشور وأربيل). وعبر هذا الطريق كان يؤتى بالذهب واللازورد والصوف والعبيد ورؤوس الماشية. وقد وضع إيلوشوم بذلك بداية دور آشور كوسيط في مجال التجارة الدولية.

وقد تابع هذه السياسة من بعده ابنه إيريشوم الأول الذي كان له دور كبير في تأسيس المستعمرات التجارية خارج آشور وأهمها كاروم كانيش في آسيا الصغرى. وقد عُثر في الطبقة الثانية من هذا الموقع على أكثر من عشرة آلاف رقيم مسماري تشكل أرشيفات مستقلة بأسماء أشخاص يزيد عددهم على العشرين وتعود أغلبها إلى الفترة الواقعة بين نحو 1880- 1820ق0م وبعضها إلى فترة لاحقة بقليل (1800-

[2]- تاريخ الشرق القديم، ج2، ص25 وما بعدها.

1740ق0م). وهي تصور نشاطاً مكثّفاً للقوافل التجارية بين آشور وكانيش عبر الجزيرة السورية وسهول جبال طوروس كما تروي لنا تفاصيل عن الحياة التجارية الداخلية ([3]).

كان آخر ملوك هذه الفترة إيريشوم الثاني الذي طرده من عاصمته الزعيم الأموري المعروف شمشي أدو الأول.

إن السلطة في آشور في هذا العصر كانت بيد شخص يحمل لقب إيشياكوم يشرف على أعمال بناء المعابد وأنظمة الري وإدارة ممتلكات المعبد، وكان هذا المنصب وراثياً ضمن الأسرة الحاكمة. وأما الأمور القضائية فكانت بيد موظف يحمل لقب « أوكولوم » وكان هذا الشخص يُعين من قبل مجلس المدينة « آلوم ».

وتوجد ميزة هامة للكتابات المكرّسة لبناء المعابد التي كان الحكام الآشوريون يأمرون بوضعها، وهي أنها كانت توضع باسم الحاكم ومجلس المدينة في آن واحد.

2- آشور في ظل حكم شمشي أدو الأول :

ينتمي شمشي أدو إلى القبائل الخانية وهي من القبائل الأمورية التي توغلت إلى بلاد الرافدين مع نهاية الألف الثالث ق 0م، وكان موطنها الأصلي في منطقة ترقا (تل العشارة الحالية عند مصب الخابور في نهر الفرات). وكان والده إيلا كبكابو حاكماً في ترقا قبل أن يقوم ملك ماري يجيد ليم بطرده منها وضمها إلى مملكته. وفي هذه الأثناء التجأ شمشي أدو إلى بابل حيث عاش هناك فترة من الزمن. وتَمثّل الثقافة وأسلوب الحياة البابلية. وهنا جمع شمشي أدو قوات واستولى بواسطتها على مدينة ايكالاتوم الواقعة على نهر دجلة والمتمتعة بموقع هام للغاية بحكم سيطرتها على مجموعة من الطرق المؤدية إلى حوض الفرات من نهر دجلة. وبعد ذلك بثلاث سنوات استولت قوات شمشي أدو على مدينة آشور التي كان يحكمها آنذاك إيريشوم الثاني.

---

[3]- اسماعيل، فاروق : المركز التجاري (كاروم Karrom) في الألف الثاني ق 0م، في الحوليات الأثرية العربية السورية، المجلد الثالث والاربعون، 1999، ص105 وما بعدها.

وقد اتخذت حروب شمشي أدو بعد ذلك اتجاهين: الأول عبر الفرات وإلى الغرب والثاني عبر دجلة وإلى الشرق.

ولقد بدأ شمشي أدو بالتخلص من أقوى حكام منطقة الفرات الأوسط ألا وهو يخدون ليم حاكم ماري التي استولى عليها في حدود العام 1810ق0م. ولكن ابن ملك ماري المدعو زمري ليم تمكن من الفرار والالتجاء إلى عدو آخر لشمشي أدو هو ملك حلب. وقد أجلس شمشي أدو ابنه الأصغر يسمح أدو على عرش ماري كحاكم فيها نيابة عنه، في حين أجلس ابنه الأكبر اشمي دجن في مدينة إيكالاتوم على نهر دجلة أما هو فاتخذ من مدينة شوباط انليل (تل ليلان حالياً) مقراً له.

وبعد أن ثبت شمشي أدو حكمه في هذه المناطق بدأ بالتطلع نحو الشمال السوري. ولكن في شمال سورية كانت تقوم مملكة يمحاض القوية وملكها ياريم ليم الأول يرصد تحركات خصمه شمشي أدو. وبدأ صراع سياسي عسكري بين الطرفين. فالملك شمشي أدو عمد إلى التحالف مع ملك كركميش أبلا خاندا، فبالإضافة لحصوله على مساندة ملك قوي، فإن أبلا خاندا حصل أيضاً على حق المتاجرة مع ماري بدون ضرائب. وأما التحالف الآخر الذي عقده شمشي أدو مع دول غربي الفرات فكان مع قطنه، وقد تعزز هذا التحالف بزواج ابنة ملك قطنه من يسمح أدو بن شمشي أدو. ويبدو أن شمشي أدو قد سعى من وراء هذه التحالفات إلى وضع مملكة حلب بين فكي كماشة وعزلها عن مختلف القوى المحيطة بها. ومن خلال أرشيف ماري نعلم مدى الحرص الذي يبديه شمشي أدو للعلاقة مع قطنه، فقد وضع فيها أولاً حامية عسكرية كبيرة تقدر بنحو عشرة آلاف رجل توجهت إلى قطنه بقيادة سومونيخيم وسامي داخيم (ARM I 11.11 15, 123) ويشير النص (ARMV19) أن هذه الفرق بقيت في قطنه أطول من المدة التي خطط لها شمشي أدو بالأصل. وأما المنحى الآخر الذي يبدو من خلاله اهتمام شمشي أدو بهذه العلاقة، فهو تأنيبه ابنه يسمح أدو على عدم معاملته زوجته ابنة ملك قطنه بالشكل اللائق.

وأما من ناحية الشرق، فقد سعى شمشي أدو لفرض سيطرته على المناطق الواقعة إلى الشرق من نهر دجلة ووصولاً إلى الممرات الجبلية عبر جبال زاجروس التي كانت تستخدمها القوافل التجارية. وعلى ذلك فقد وجه عدة حملات نحو كابارا المعروفة من خلال وثائق ماري. وبعدها وجه حملات ضد شوشارا (شمشارا الحالية) وأخيراً أرابخه (كركوك الحالية).

وبالمحصلة يكون شمشي أدو قد فرض سيطرته على كل شمال بلاد الرافدين ومنطقة الفرات الأوسط. ورغم أنه حمل في البداية اللقب الذي كان متداولاً في آشور « إيشياكوم » إلا أنه سرعان ما تخلى عنه ليحمل لقب « شاركيشاتيم » بمعنى ملك الكل أو ملك الجميع.

وقد قسم شمشي أدو الأول دولته إلى أربع عشرة منطقة، كان لكل منها مركزها الخاص في موقع محصن « خالصوم »، حيث كانت هناك منطقتان هامتان على نهر دجلة هما إيكالاتوم وشيتولوم. وأربع مناطق رعوية وهي كارانا وخاليتا وكوروتوم وساغاراتوم، وأربع أخرى تقع على الحدود الشمالية عند منابع الخابور وهي أشتناكوم وكيردافات (إلى الجنوب من شاغربازار الحالية) وناحور إلى الشرق من حران وتالخات. وكانت هناك ثلاث مناطق زراعية هامة متوضعة في منطقة الفرات الأوسط وهي ماري وترقا وتوتول العليا، وآخر المناطق كانت تقع في منعطف نهر الفرات ([4]).

أما عن كيفية نجاح شمشي أدو في جعل دولته من أهم دول العالم في تلك الفترة، فذلك عائد إلى عاملين أساسيين أولهما مهاراته الإدارية ومتابعته بشكل شخصي لكل صغيرة وكبيرة تجري في دولته، حيث كان رسله يجوبون أطراف البلاد حاملين معهم أوامر الملك وتعليماته. وكان أصحاب المناصب العليا يُنقلون من مدينة إلى أخرى باستمرار،

---

[4]- تاريخ الشرق القديم، ج1.

حيث تتوافر معلومات عن أحد هؤلاء الموظفين اسمه ياشوب إل وهو من ماري، ونُقل إل شوباط انليل ومن هناك نُقل مرة أخرى توتول حيث أنهى حياته فيها.

وأما العامل الثاني في نجاح شمشي أدو فكان السياسة بعيدة النظر التي انتهجها وهذه تظهر بشكل واضح في علاقاته السياسية، ففي سبيل عزل حلب تحالف مع جاراتيها الشمالية كركميش والجنوبية قطنه.

كما ارتبط بعدد من الاتفاقيات الأخرى مع مجموعة من الأمراء الذين يحكمون في محيط دولته ولاسيّما في سورية.

وطبعاً يجب أن لا نغفل دور الجيش كأداة استخدمها شمشي أدو الأول لتحقيق أهدافه وقهر خصومه. وفي إحدى حملاته تمكّن من حشد أكثر من ستين ألف رجل دفعة واحدة، كما نقرأ في كتابة له أنّه « أقام الحاميات في كل مكان ».

بعد وفاة شمشي أدو الأول (حول 1781 ق.م) لم يتمكّن أشمي دجن ابنه وولي عهده وحاكم المقاطعات الشرقية من المحافظة على الامبراطورية التي أنشأها والده. فزمري ليم تمكّن من العودة إلى عرش والده في ماري وطرد يسمح أدو منها، ولم يكتف بذلك بل عمد إلى التوسع شمالاً على حساب الممتلكات الآشورية هناك. وأما ملك أشنونة فقام بمهاجمة آشور من الجنوب واستولى على أجزاء منها. وحسب قائمة الملوك الآشوريين فإن أشمي دجن استمر في الحكم حتى عام 1741 ق.م ولكن ربّما كان يحكم الآن كحاكم تابع لحمورابي البابلي الذي يذكر قانونه خضوع مدينتي آشور ونينوى لسلطته.

ثانياً– الدولة الآشورية الوسطى :

بعد انهيار الدولة البابلية نتيجة الهجوم الحثي نحو العام (1595 ق.م) وسيطرة السلالة الكاشية على بابل، سيطر الحوريون الميتانيون على معظم الشمال الرافدي ووصل نفوذهم في مرحلة لاحقة إلى الشمال السوري. وبالتالي يكون الآشوريون قد خضعوا لهذه السيطرة الحورية الميتانية. ولكن لا بدّ من الإشارة هنا إلى أن هذه السيطرة لم تكن دائماً

قوية وفاعلة، ولم تعن بحال من الأحوال عدم وجود حاكم آشوري في المنطقة. ولكن قوة هذا الحاكم ومدى صلاحياته كانت تتوقف على قوة الملك الحوري الميتاني ومدى قبضه على مقاليد الأمور. ومن هؤلاء الحكام الآشوريين الذين حكموا خلال هذا الفترة بوزور آشور الثالث (نحو 1460-1477 ق.م) الذي كما ذكرنا سابقاً وقّع اتفاقية مع الكاشيين في بابل لتحديد الحدود بين الدولتين. وأما آشور بل نيشوشو فقد أعاد بناء أسوار مدينة آشور ربّما لحمايتها من الميتانيين، كما جدد اتفاق الحدود مع الملك الكاشي كارا إنداش. أما حاكم آشور نادين آخي الثاني (1402-1363 ق.م) فتميز عهده ببدء الاتصالات مع المصريين وتحديداً مع أمنحوتب الثالث الذي أرسل له كهدية عشرين تالنتاً من الذهب. وكان أول من استخدم اللقب الملكي من بين هؤلاء الحكام الملك آشورأوباليط الأول (1363- 1328ق0م) كما أنه اتخذ لنفسه لقب شاركيشاتي (ملك الجميع). وقد تمكن أشور أوباليط من تعزيز العلاقات مع مصر بأن أرسل رسلاً محملين بالهدايا وعارضاً صداقته على الملك المصري « أبلغوا ملك مصر أن هكذا يقول آشور أوباليط ملك آشور : لتكن بخير أنت وذويك وبلادك ومراكبك وجنودك. لقد أرسلت إليك مبعوثي لكي يراك ويرى بلادك. إنني أقيم الصلات معك اليوم رغم أن أحداً من أجدادي لم يقدِم على ذلك من قبل، أُرسل إليك عربة جميلة وحذاء وجوهرة من اللازورد كهدية إليك، لاتؤخر رسولي الذي أرسلته ليراك. عليه أن يراك ويعود، دعه يستخبر عنك وعن أحوال بلادك ومن ثم دعه يعود » (EA 15).

وقد احتج الكاشيون لدى البلاط المصري، طالبين من الملك المصري عدم استقبال هؤلاء الرسل وإعادتهم إلى بلادهم فارغي الأيدي، لأن الآشوريين من وجهة نظر العاهل الكاشي كانوا رعاياه، ولا يحق لهم الاتصال مع الدول الأخرى متجاوزين القصر الكاشي.

كما ذكرنا في موضع سابق فإن آشور أوباليط دخل في محالفة مع الملك الكاشي بورنا بورياش الثاني وقد عُززت هذه المحالفة بزواج ابن الملك الكاشي من ابنة الملك الآشوري. وبهذه المناسبة بنى معبداً خاصّاً للإله مردوك في مدينة آشور.

وقد تمكن خليفته أريك دين إيلو من توسيع حدود دولته على حساب الميتانيين لاسيّما في منطقة كاتموخ في نواحي طور عابدين الحالية وأطلق على نفسه لقب « الملك القوي، ملك آشور ».

أما خليفته أدد نيراري الأول (1307- 1274ق0م) فقد تمكن من مدّ حدوده الجنوبية حتى رابيقو على نهر الفرات ولوبدي على نهر دجلة. وعلى الجهة الغربية فقد تمكن من الوصول إلى كركميش ومنطقة المنعطف الكبير لنهر الفرات.

وتمكّن خليفته على العرش الآشوري شلمناصر الأول (شلمانو أشاريد 1274-1244ق0م) من إلحاق الهزيمة بتحالف ضم قوات حثية وميتانية إضافة إلى قوات من الأخلامو وهؤلاء من القبائل البدوية التي كانت تجوب منطقة البادية السورية وتشكل تهديداً للدول المستقرة الموجودة على حدود هذه البادية ([5]). واضطر شلمناصر الأول لمجابهة خطر القبائل الأورارتية التي كانت تعيش في منطقة الهضبة الأرمنيةالحالية التي بدأت بالتجمع وتشكيل دولة كان يمكن أن تهدد المصالح الآشورية في المناطق الواقعة إلى الشمال من آشور. وتذكر كتاباته في هذا الشأن تدمير بلاد « اوارتو » وإحراق القرى وسوق قطعان الماشية كغنائم حرب، وفرض الجزية على القبائل الجبلية. وقد بنى شلمناصرالأول مقراً جديداً على الضفة الشرقية لنهر دجلة دعاه كلخو« نمرود الحالية».

وخلف توكولتي نينورتا الأول (1243-1207ق.م) والده على العرش الآشوري. وبفضل حروب والده وجده من قبله، فقد كانت السيادة المطلقة على شمال بلاد النهرين وما جاورها من البلاد من نصب الآشوريين. ورغم ذلك فإن توكولتي نينورتا الأول لم يستكن وقام بعدد كبير من الحروب شملت جبهات عدة. وكانت أخطر هذه الجبهات في ذلك الوقت الجبهة الشمالية، حيث يذكر في إحدى كتاباته أنه دخل في حرب مع تحالف ثلاثة وأربعين من زعماء القبائل النايرية (الأورارتية) وألحق الهزيمة بها ([6]). وبعد

---

[5]- Luckenbill, D.D : Ancient Records of Assyria and Babylonia, “ARAB” , Chicago, 1927. SS 117, P1.

[6]- ARAB: SS 144, P1.

ذلك توجّه غرباً إلى منطقة الفرات حيث أعاد فرض السيطرة الآشورية على المناطق التي كان والده قد احتلها وصولاً إلى كركميش على هذا النهر.

وأخيراً توجه توكولتي نينورتا بنظره جنوباً إلى بلاد بابل، حيث وجه إليها حملة تمكّنت من نهب المدينة وتدمير معابدها والإطاحة بملكها ونقل تمثال كبير آلهتها إلى العاصمة الآشورية إمعاناً في إذلالها.

وقرب نهاية حكمه يذكر توكولتي نينورتا قيامه بحملة ضد الحثيين أسفرت عن أسر (28800) جندي ونقلهم إلى آشور. بعد كل هذه النجاحات العسكرية كان لابد لتكولوتي نينورتا أن يحمل لقباً يعبر عن نجاحه وعن حدود دولته فاتخذ لنفسه اللقب التالي: « الملك القوي، ملك آشور، ملك كاردونياش، ملك سومر وأكاد، ملك سيبار وبابل، ملك دلمون وميلوخا، ملك البحر الأعلى والأسفل، ملك الجبال والسهول الواسعة، ملك السوباريين والجوتيين وكل بلاد نايري، الملك المسموع من قبل آلهته، مستلم الجزيات الكبيرة من بلدان جهات العالم الأربع في مدينة أشور» ([7]).

ولكن نهاية توكولتي نينورتا كانت سيئة حيث قُتل بانقلاب وقع ضده كان على رأسه ابنه وولي عهده. وربما كانت سياسة آشور خصوصاً ضد بابل سبباً وراء عدم الرضا عن توكولتي نيورتا حتى في أوساط السكان الآشوريين أنفسهم.

وهناك نص يشير إلى ذلك محتواه مايلي: « توكولتي نينورتا الذي مدّ يده بالإثم إلى مدينة بابل، تمرد عليه أبناؤه أشور ناصر بال وأعوان مدينة آشور وخلعوه عن العرش وسجنوه في مبنى بـ (كار-توكولتي نينورتا) ثم قتلوه بالسلاح » ([8]).

بعد اغتيال توكولتي نينورتا الأول دخلت الدولة الآشورية مرحلة من الضعف فقدت خلالها الكثير من الأراضي التي كان الملوك السابقون قد ضموها إلى الدولة ومنها بابل التي استعادت استقلالها قبل مقتل توكولتي نينورتا. وقد حكم خلال هذه الفترة بعض

---

[7]- ARAB: SS 170, P1.

[8]- ساغس، هنري : جبروت أشور، ص 86.

الملوك الضعاف الذين كانوا يتلقون الدعم في بعض الأحيان من بابل من أمثال نينورتا أبيل ايكور. كما أن بعض الملوك حكموا فترات قصيرة جداً فابنا أشوردان الأول (1197-1134ق0م) لم يحكما معاً لأكثر من عام واحد.

وقد بدأت الدولة الآشورية بالنهوض من جديد في عهد آشور ريش إيشي (1133-1116 ق.م) ومن جديد قام بحملات ضد البدو في مناطق الفرات. والجبليين في مناطق طوروس وزاجروس. وأما مع سلالة إيسين الثانية التي أصبحت تحكم بابل بعد زوال السلطة الكاشية فخاض حروباً دفاعية، فالملك نينورتا —نادين شوم (1130- 1125ق0م) عبَر أرابخة إلى قلب الدولة الآشورية محاصراً أربيلوم. ومثله فعل نبوخذ نصر الأول (1124- 1103ق0م).

وتعاظمت قوة آشور مع صعود تيجلات بلاصر الأول (توكولتي أبيل إشارا) العرش الآشوري.

إن أول موقف خطر اضطُر تيجلات بلاصر الأول (1116- 1077ق0م) لمواجهته كان في الشمال. فهذه المنطقة التي كانت تخضع بشكل مباشر وأجزاء أخرى بشكل غير مباشر للحثيين، أصبحت منطقة تعمّ فيها الفوضى ومسرحاً لتوغل قبائل جديدة وذلك عقب انهيار الامبراطورية الحثية نتيجة هجوم ما يسمى «شعوب البحر» وحروب تيجلات بلاصر الأول هنا ذات طابع دفاعي استهدفت حماية الأمن الآشوري الذي أصبح مهدداً، ولاسيّما بعد استيلاء القبائل الموشكية على مناطق كاتموخ. عندها توجه الملك الآشوري بقواته وتمكن من إلحاق هزيمة ساحقة بهذه القوات وأسر 6000 آلاف من الموشكيين، وبنفس الوقت اشتبك تيجلات بلاصر الأول مع بعض الإمارات الحورية عند منابع دجلة، وفي العام التالي توغل أكثر نحو الشمال وصولاً إلى ألزي وبورولومزي ([9]).

---

[9]- Graiyson, A. Kirk: Assyrian Rulers of the Early first Millennium BC. (1114-859 BC), A.O. 87 1.

بعد تأمين حدوده الشمالية اتّجه تيجلات بلاصر الأول غرباً نحو سورية، فالأخلامو الذين بدؤوا منذ عهده يُسمَّوْن الأراميين أصبحوا يشكلون خطراً حقيقياً على الدولة من جهة الغرب، لذلك كرّس تيجلات بلاصر 28 حملة ضدهم خلال أربعة عشر عاماً، ودارت رحى الحرب بين رابيقوم في منطقة الرمادي الحالية على نهر الفرات حتى سفوح جبال بشري، إلى كركميش شمالاً عند المنعطف الكبير لنهر الفرات.

وقد حقق تيجلات بلاصر الأول نجاحات كبيرة في حروبه هذه حيث وصل إلى « بلاد أمورو » وجبال لبنان حيث اقتطع أشجار الأرز من أجل أن يبني معبدين للإلهين أدد وآنو في عاصمته آشور، ومن ثم تابع طريقه إلى الساحل الفينيقي إلى جزيرة أرواد في الشمال حتى صيدون في الجنوب. وكما يقول في أحد كتاباته فإنه قام برحلة بحرية على بعد ثمانية عشر كيلو متراً من الشاطئ بوساطة القوارب حيث قام باصطياد الدلافين. وفي طريق عودته نهب «بلاد خاتي » ونعتقد أن المقصود هنا هو ملاطية أو ميليد فارضاً على ملكها إيني تيشوب جزية من أخشاب الأرز، وتابع طريقه شمالاً عبر وادي الفرات إلى أن وصل إلى سوخمو (على الضفة اليسرى للنهر مقابل أرزندجان الحالية) ([10]).

ولكن هذ الحملة كانت مجرد حملة استهدفت النهب وجلب الغنائم إلى آشور، ولم يحاول تيجلات بلاصر الأول فرض سيطرته على أي من المناطق الواقعة إلى الغرب من نهر الفرات.

وأما فيما يتعلق بعلاقاته مع بابل، فقد قام تيجلات بلاصر الأول بحملتين إلى هذه البلاد. وفي المرتين كان هناك حاكم واحد في بابل هو مردوك نادين أخي (1088-1081ق0م). وقد استهدفت الحملة الأولى المنطقة الواقعة بين الزاب الأصغر والديالى، في حين كانت الحملة الثانية أكثر جدية وتمكن خلالها تيجلات بلاصر الأول من احتلال دوركوريجالزو وأوبي وسيبار وصولاً إلى بابل التي أحرق قصرها الملكي. ولكن نجاح

---

[10]- يمكن الرجوع إلى النصوص المتعلقة بحملات تيغلات بلاصر هذه في: Grayson, A.O. 87 4 الأسطر 24-30.

العاهل الآشوري هنا كان مؤقتاً أيضاً، فالملك البابلي مرودوك نادين آخي تمكن من طرده من المناطق التي احتلها نحو العام 1089ق0م حتى إيكالاتوم.

إن آخر الملوك الآشوريين المهمين من ملوك الدولة الوسطى هو آشوربل كالا (1074-1057ق0م) الذي قام بحملات نحو الجبال الشمالية حيث أور واترو (اورارتو فيما بعد). ولمواجهة خطر القبائل الآرامية التي كانت تهدد أشور وبابل معاً، فقد زار آشور بل كالا الملك البابلي مردوك- شابيك زيري (1082-1070ق0م) في سيبار وعقد حلفاً معه، وعندما جلس أدد أبلا إيدين على العرش البابلي والذي يوصف بأنه « أرامي مغتصب السلطة » تزوج أشوربل كالا من ابنته، مما يدل على محاولته احتواء هذه القبائل بالطرق السلمية بعد أن فشل معها أسلوب الضغط العسكري، إلا أن هذا الأسلوب لم يُجْدِ أيضاً، إذ تمكن الآراميون من حصر خلفاء أشور بل كالا في المدن الآشورية نفسها وأصبحت البلاد في موقف عصيب، وتوقفت الأعمال الإنشائية المختلفة، ولم تصلنا من آشور طوال الفترة الممتدة من نهاية القرن الحادي عشر حتى نهاية القرن العاشر أية وثائق أو كتابات تذكر.

ثالثاً- الامبراطورية الآشورية الحديثة :

اضطرت أشور طوال القرن العاشر للدفاع عن حدودها الأصلية في وجه القبائل الآرامية التي تمكنت من تأسيس مجموعة من الدويلات عمت مختلف مناطق سورية وأجزاء من شمال بلاد الرافدين وجنوبها وكان من أهمها بيت زماني في منطقة طور عابدين وبيت بخياني عند منابع الخابور وبيت عديني على الفرات الأوسط في منطقة تل أحمر الحالية إضافة إلى آرام دمشق وحماة وغيرها.

لكن هذا الوضع بدأ بالتبدل مع صعود آشوردان الثاني (935-912 ق0م) الذي عمل جاهداً على إنعاش الاقتصادي الآشوري أولاً وتحقيق الأمن العسكري ثانياً وفي هذا

السبيل سعى إلى توطيد السلطة الملكية وتعزيز الإدارة وتقويتها وفي الوقت نفسه قام ببعض الحملات ولاسيّما باتّجاه الغرب أي ضد القبائل الآرامية.

وبدأ النهوض الحقيقي لآشور مع أدد نيراري الثاني (912- 891 ق0م) الذي تمكن من فرض السيطرة الآشورية على منطقة الخابور وصولاً إلى بيت عديني الآرامية على الفرات. وأما شمالاً فقد وجه عدة حملات ضد مملكة بيت زماني إلى أن تمكن من إخضاعها. وفي اتّجاه الجنوب وجه جيوشه نحو بابل متهماً إياها بنقض المعاهدات المعقودة بين الطرفين وملحقاً الهزيمة بجيوشها وضامّاً نتيجة ذلك منطقة أرابخة إلى دولته ودافعاً بذلك حدود هذه الدولة الجنوبية حتى دوركوريجالزو وسبيار.

وتابع توكولتي نينورتا الثاني (891-884 ق0م) سياسية والده الهادفة إلى فرض السيطرة الآشورية على المناطق الجبلية الشمالية والشرقية وإخضاع الدويلات الآرامية المتمركزة إلى الغرب من آشور. فوجه حملات إلى الشمال جلبت إلى آشور أعداداً كبيرة من الخيول التي بدأت تُستخدم على نطاق واسع في الجيش الآشوري. أما في الغرب فعمل على توطيد السلطة الآشورية في منطقة الخابور. وفي آشور نفسها جدد بناء القلاع والتحصينات الموجودة فيها.

1- آشورناصربال الثاني 884- 859ق0م:

كان آشورناصر بال الثاني قائداً متميزاً وسياسياً بارعاً ومنظماً من الطراز الأول. إضافة إلى أنه كان لا يعرف الرحمة في مواجهة خصومه. ففي بداية حكمه قام بعدة حملات ناجحة باتجاه الشمال والشرق حصل منها على مغانم كثيرة وتمكن من إخماد تمردات كثيرة قامت ضد الحكم الآشوري في أعالي بلاد الرافدين. وأما غرباً فركز حملاته على مملكة بيت عديني محاولاً القضاء عليها. وفي عام (876 ق0م) عبر آشورناصر بال الثاني الفرات من مدينة كركميش التي كان قد أخضعها سابقاً، دافعاً بجيوشه نحو البحر المتوسط، ولم يتمكن أو لم يحاول أحد من الحكام المحليين الذين مرّ عبر أراضيهم من

الوقوف في وجهه حتى وصل إلى البحر المتوسط وقام بغسل أسلحته في مياهه جرياً على العادة المتّبعة ([11]).

وإلى جانب إنجازاته العسكرية، فقد أنجز مجموعة من المشارع العمرانية الضخمة كان بعضها ذا طابع دفاعي وبعضها الآخر مدنياً. فمن أجل تأمين حدوده الشمالية عمد آشورناصربال الثاني إلى إعادة بناء مدينة قديمة كانت موجودة على نهر دجلة (توشخان) لتكون موقعاً عسكرياً ضد القبائل الجبلية ولاسيّما الأورارتية. وزودت المدينة بمستودعات للتخزين يمكن استخدامها في أوقات الحرب.

ومن مشاريعه المدنية، إعادة بناء مدينة كلخو. هذه المدينة التي كان قد أنشاها شلمناصر الأول في القرن الثالث عشر ق 0م، فقام آشورناصربال الثاني بتزويدها بالمياه عن طريق قناة مُدت من الزاب الأعلى، وجعل أبنيتها مهيبة وزودها بشبكة للمياه، وزرع فيها البساتين ثم أسكنها أناساً جلبهم من مختلف أصقاع الامبراطورية، وأحاطها بسور دفاعي بلغ طوله 8كم وبنى لنفسه قصراً ضخماً فيها يعرف حالياً بالقصر الشمالي الغربي وقد دُشنت المدينة بوليمة دامت أسبوعاً وتم التأريخ لها كاملة في مخطوطة تذكر حتى قائمة المأكولات التني قُدمت فيها.

2- شلمناصر الثالث (858-824ق0م).

كانت إمارة بيت عديني الآرامية المتحكّمة بالمعابر عبر الفرات من الشرق إلى الغرب الهدف الأول الذي وضعه شلمناصر الثالث نصب عينيه فور توليه العرش. وكرس السنوات الخمس الأولى من حكمه للتخلص من هذه الإمارة وحاكمها آخوني، إلى أن تكّمن من القضاء عليها بشكل نهائي وتحويلها إلى مقاطعة آشورية على رأسها حاكم آشوري دعاها «كارشلمناصر » وفي عام 853 ق0م التقى جيشاً مؤلفاً من تحالف الإمارات والممالك السورية بزعامة هدد عزر ملك آرام دمشق، وذلك في موقع قرقر على

[11]- حول هذه الحملات أنظر : ARAB: 1 SS 447, 474-475.

العاصي. وقد خلد شلمناصر أخبار هذه المواجهة على عدة أنصاب، كما دونت أخبارها في حولياته. وفي إحدى هذه النصوص يذكر شلمناصر شخصاً اسمه « جنديبو » على أنه « شيخ العرب » وأنه اشترك في صفوف قوات التحالف بألف جمل ([12]).

إن معركة قرقرلم تكن نصراً آشورياً على تحالف الدول السورية، بدليل أن شلمناصر الثالث لم يتابع طريقه جنوباً، وإنما اضطر للعودة إلى المنطقة عدة مرات بعد ذلك، وذلك في الأعوام (849-841ق0م).

أما فيما يخص الجبهة الشمالية فلقد وجّه شلمناصر الثالث عدة حملات باتجاه بلاد أورارتو التي أصبحت في هذه المرحلة تشكل خطراً يهدد مصادر المواد الخام ولاسيّما المعادن إضافة إلى طرق التجارة الدولية التي كانت تسعى آشور لوضعها تحت سيطرتها، وكانت نتيجة إحدى حملاته الوصول إلى العاصمة الأورارتية توشبا وتدميرها وذلك في العام (856 ق0م) ([13]).

كما قام بعدة حملات باتجاه الشرق عبر جبال زاجروس مصطدماً لأول مرة مع الميديين والفرس.

شهدت السنوات الأخيرة من حكم شلمناصر الثالث حرباً أهلية نتيجة تمرّد أحد أبنائه عليه. وفي نص وضع في عهد خليفته شمشي أدو الخامس، يُذكر أنّ سبعاً وعشرين مدينة شاركت في التمرد على شلمناصر من بينها مدن آشورية رئيسة مثل نينوي وأربيل وآشور، وأخرى من مناطق بعيدة ولم يبق على ولائها إلا كلخو والجيش.

وقد توفي شلمناصر الثالث دون أن يقضي على التمرد وانتقلت هذه المسؤولية إلى ابنه ووليّ عهده شمشي أدو الخامس الذي أمضى العامين الأولين من حكمه منشغلاً في القضاء عليه إلى أن استتب له الأمر. ولقد ركز شمشي أدو الخامس جهوده بعد ذلك

---

[12]- حول هذه الحملات أنظر : ARAB, 1 SS 544, SS 601,634.

[13]- قابلو، جباغ : التنافس الآشوري الأورارتي على الشمال السوري، مجلة دراسات تاريخية، العددان 63-64، 1998.

على الحفاظ على أمن دولته من الأخطار التي كانت تحدق بها من الجهة الشمالية والشرقية.

وعندما توفي شمشي أدو الخامس، كان ابنه أدد نيراري الثالث صغيراً فحكمت أمه سمورامات التي تعرف في المصادر الأغريقية باسم سمير أميس باسمه خمس سنوات (809-804ق0م). وقد وجّه أدد نيراري ووالدته حملات متعددة نحو الشرق والشمال الشرقي ضد القبائل التي كانت تعيش في منطقة بحيرة أورميا، وكان هؤلاء من المانيين والميديين وتمكنت الجيوش الآشورية من الوصول إلى « البحر الذي تشرق منه الشمس » والذي ربما كان بحر قزوين. ووسعت حدود الدولة الآشورية من ناحية الشرق حتى وصلت إلى أعالي الزاب الأصغر وديالى. واستغل أدد نيراري الانقسامات التي وقعت بين دولة سورية فعبر في عام (805 ق0م) نهر الفرات إلى سورية حيث جمع كماً هائلاً من الغنائم و الجزيات، إلا أنه لم يستطع البقاء هنا طويلاً. وكذلك لم يستطع تحقيق نجاحات كبيرة في حروبه ضد أورارتو. وكان النجاح الأساسي الذي حققه هذا العاهل مع بابل التي عقد مع حاكمها اتفاقاً نص على اعتراف بابل بحماية العاهل الآشوري لها.

بعد وفاة أدد نيراري الثالث دخلت الدولة الآشورية مرحلة من الضعف المؤقت لم تقم خلالها بحملات تذكر إلا لأغراض دفاعية، وأغلب هذه الحملات كان يقوم بها ولاة محليون أُوكلت إليهم مهمّة حماية حدود الدولة. وفي هذه المرحلة تعاظمت قوة الدولة الأورارتية التي تمكنت من مد نفوذها غرباً نحو الشمال السوري، وألحقت قوات ملكها ساردوري الثاني الهزيمة بالقوات الآشورية في عهد آخر ملوك فترة الضعف هذه آشور نيراري الخامس ([14]).

3– العصر الامبراطوري وتيجلات بلاصر الثالث (745 –727 ق0م):

---

[14]- قابلو، جباغ : توسع أورارتو نحو الشمال السوري في القرنين التاسع والثامن ق 0م. الحوليات الأثرية العربية السورية، المجلد 43، لعام 1999، ص37 وما بعدها.

أدرك تيجلات بلاصر الثالث منذ بداية حكمه أن الدولة بحاجة إلى إعادة البناء وعلى أكثر من صعيد، أهمها إعادة تنظيم الإدارة وإعادة تنظيم الجيش. ففي مجال إعادة تنظيم الإدارة عمد إلى تقوية السلطة المركزية وذلك بربط المقاطعات المختلفة مع العاصمة بنظام بريد سريع وفعال والطلب من الموظفين في المقاطعات إرسال تقارير دورية عن أعمالهم وأحوال مقاطعاتهم. وفي المقاطعات التي كانت تحكم من قبل سلالات حاكمة محلية، عين تيجلات بلاصر الثالث ممثلاً عنه يشرف على كيفية إدارة هذه السلالات لمقاطعاتها ومدى التزامها بتنفيذ توجيهات السلطات المركزية.

أما في مجال الجيش، فقد اعتمد تيجلات بلاصر الثالث على جيش دائم يخضع للملك مباشرة ويتلقى عناصره أجورهم من الخزانة الملكية، وهذا الأمر عدا عن أنه رفع من المستوى القتالي للجيش فقد جعل من الملك أكثر استقلاليةً تجاه المدن والمقاطعات التي كانت تقدم القوات عند الحاجة. وأما من ناحية التسليح، فقد بدأ الآشورين بالاعتماد أكثر فأكثر على الأسلحة الحديدية، وأصبح سلاح الخيالة هو الأساسي وبدأ بالحلول تدريجياً محل سلاح العربات لسهولة حركته وقدرته على إلحاق ضربات مفاجئة بالأعداء. والأمر الآخر المهم هو إقامة جهاز للاستطلاع والتجسس على الأعداء ([15]).

لقد قضى تيجلات بلاصر الثالث العامين الأولين من حكمه في تحصين حدوده الجنوبية والشرقية. ففي الجنوب قام بحملة وصلت به إلى الخليج العربي ملحقاً الهزيمة بالقبائل الخالدية ومهجراً قسماً من سكانها إلى آشور. غير أنه لم يلحق الضرر بأي من المدن مشيراً بذلك إلى دوره كحامٍ ومدافع عن البلاد ([16]).

أما في الشرق فقد شتت قبائل جبال زاجروس وأقام هناك مقاطعتين جديدتين ومن هنا نفى أيضاً الكثير من السكان.

---

[15]- ياكوبسون، ف.أ: الدولة الآشورية الحديثة، في كتاب تاريخ العالم القديم، ط3، 1989، (بالروسية).

[16]- ARAB: 1 SS 764.

والآن أصبح بإمكانه مواجهة الأورارتيين والدخول في صراع معهم من أجل السيطرة على سورية. ففي عام (743 ق0م) توجه بحملة إلى أعالي الفرات ليوقع الهزيمة بقوات دويلات شرق آسيا الصغرى وشمال سورية، تابع بعدها طريقه غرباً حيث فرض الحصار على أرفاد عاصمة مملكة بين آجوشي الآرامية إلى أن سقطت في عام (740 ق0م)، وحُوِّلت إلى مقاطعة آشورية استقبل فيها تيجلات بلاصر الثالث حكام الدول السورية الذين جاؤوا لتقديم الجزيات له ([17]).

وفي العام (735 ق 0م) تخطى الجيش الآشوري حدود أورارتووحاصر العاصمة توشبا ولكنه لم يتمكن من دخولها، وعوضاً عن ذلك فقد عمد تيجلات بلاصر الثالث إل التجوال في طول البلاد وعرضها حاملاً معه الخراب والدمار إلى كل مكان وصل إليه. وفي العام (732 ق0م) توجّه تيجلات بلاصر الثالث مجدداً إلى سورية وواجه تحالفاً كبيراً معادياً للآشوريين على رأسه رزون حاكم دمشق، وانتهت المواجهة باحتلال دمشق وتحويلها إلى مقاطعة آشورية، ثم تابع طريقه جنوباً إلى أن وصل غزة. واتّخذ تيجلات بلاصر الثالث سلسلة من الاجراءات للإبقاء على النفوذ الآشوري قوياً في سورية، فعاقب عسقلان بشدة، وفرض جزية ثقيلة على صور، وأعطى عرش السامرة إلى تابعه هوشيا، ونصّب على عرش شمأل برراكب مكان أبيه بناموا الوفي للآشوريين والذي سقط في حصار دمشق. وفي الأناضول عين مكان حاكم تابال المهزوم أميراً صديقاً للآشوريين ([18]).

وفيما بعد أثارت القلاقل والاضطربات التي وقعت في بابل نتيجة التنافس على العرش والصراع بين القبائل الآرامية الوافدة على منطقة الجنوب الرافدي مع السكان الأصليين، قلق تيجلات بلاصر الثالث، الذي قرر التدخل عسكرياً في المنطقة، ولكن

---

[17]- ARAB: 1 SS 772.

[18]- مرعي، عيد: المرجع السابق، ص 347.

كراغب في إحلال النظام والهدوء في البلاد، ومع أنه تعامل مع مقاومي تقدمه بعنفٍ شديدٍ وهجر أعداداً كبيرة من السكان إلى بلاد أجنبية، إلا أنه لم يقم بتقسيم بلاد بابل إلى مقاطعات آشورية كما جرت عادة الملوك الآشوريين عندما يفتحون بلداً ما، بل رغب بإيجاد رابط يجمع بين بابل وآشور فاتخذ لنفسه لقب « ملك بابل »و « ملك سومر وأكاد ». وللتعبير عن هذه الازدواجية في السلطة بشكل واضح أطلق على نفسه كملك لبلاد بابل اسم بولو. واحتراماً للتقاليد البابلية قاد في عامي(729- 728 ق0م) شخصياً موكب مردوك الذي كان يستهل السنة الجديدة ويمنح الشرعية للملك.

توفي تيجلات بلاصر الثالث عام (727 ق0م) تاركاً دولة امتدت حدودها من الخليج العربي جنوباً حتى طوروس شمالاً، ومن زاجروس شرقاً إلى البحر المتوسط غرباً.

أما خليفته على العرش فكان ابنه شلمناصر الخامس الذي حكم فترة قصيرة (727-722 ق0م)، ومعلوماتنا عنها قليلة، لأنه لم يترك لنا كتابات تذكر عن فترة حكمه هذه. ويبدو أن شلمناصر الخامس غالى في حساب قوته فحاول إلغاء بعض الامتيازات التي كانت تتمتع بها بعض المدن الآشورية مثل آشور وحران وهذه الامتيازات كانت تشمل إعفاءات ضريبية وإعفاء من أعمال السخرة، مما أحدث حالة من عدم الرضى عن الملك أدى إلى مقتله في النهاية.

4- شاروكين الثاني وأسرته:

اعتلى العرش الآشوري بعد شلمناصر الخامس، شاروكين الثاني (722-705 ق0م)، الذي يرى فيه بعض الباحثين ابناً لتيجلات بلاصر الثالث، في حين يرى فريق آخر أنه مجرد مغتصب للعرش بدليل أنه لا يأتي على ذكر اسم أبيه في أي من كتاباته على خلاف عادة من سبقه من الملوك الآشوريين. وأياكان الأمر فإن شاروكين بمواهبه وميّزاته لم يكن أقل شأناً من تيجلات بلاصر الثالث.

وقد واجه شاروكين في بداية حكمه مشكلات على غاية من الخطورة. ففي بابل استولى أحد قادة القبائل الآرامية على السلطة وهو المدعو مردوك إبلا أيدين الثاني. وفي الشمال استعادت أورارتو عافيتها بعد الدمار الذي لحق بها نتيجة هجمات تيجلات بلاصر الثالث عليها وأخذت تستعد للدخول في مواجهة جديدة مع الدولة الآشورية. أما في سورية فقد ظهرت حركة جديدة معادية للآشوريين بزعامة إيلويوبيدي ملك حماه.

ولكن شاروكين بدأ من الداخل أولاً، حيث أعاد الامتيازات التي كانت ممنوحة للمدن والمعابد الآشورية مما أكسبه إلى جانبه طيقة الكهان القوية والمواطنين الآشوريين على حد سواء.

أما على الصعيد الخارجي، فقد حاول أولاً مواجهة الموقف المتوتر في بابل إلا أنه فوجئ بوجود تحالف بابلي عيلامي تصدّى لمشاريعه في هذه المنطقة. وعلى العكس من ذلك، فقد حقق نجاحاً كبيراً في المنطقة السورية وتمكن من إخماد الثورة التي تزعمها ملك حماه المتمرد والتي انضم إليها مجموعة من المدن السورية والفلسطينية وربما لقيت تأييداً ولو معنوياً من مصر المتخوفة من ازدياد القوة الآشورية في المنطقة السورية.

وأما عن علاقته مع أورارتو، فقداستغل شاروكين هزيمة الأورارتيين على يد القبائل الكيميرية التي قدمت من مناطق ماروراء القفقاس، ليدفع بقواته شمالاً وذلك في العام 714 ق 0م. ولكنّه لم يتوجه مباشرة إلى أورارتو وإنما توجه أولاً شرقاً ليضلل الملك الأورارتي « روسا » ثم عاد بسرعة نحو الغرب ولكي يزيد من سرعته لم يصطحب معه سوى الخيالة والعربات وفي معركة خاطفة وسريعة تمكن شاروكين من إلحاق هزيمة كبرى بالجيش الأورارتي الذي تشتت وتبعثر ونجا « روسا » بنفسه فاراً من أرض المعركة. وبعد ذلك بدون أي مقاومة خرّب ونهب أجزاء واسعة من بلاد اورارتو والدول الصغيرة التابعة

لها ولاسيّما « موصاصير » التي كانت المركز الديني للقبائل الأورارتية ومركزاً للخزانة الملكية ([19]).

و في عام (710ق.م) عاد شاروكين الثاني مجدداً إل بابل، وفي هذه المرة حقق نجاحاً كبيراً واضطر مردوك إبلا إدين إلى الفرار ربما إلى عيلام. وأما شاروكين فتوجّه نفسه ملكاً على بابل وزوج ابنه ووريثه سينحاريب من إحدى الأميرات البابليات، وفي عام 707 ق.م عاد إلى عاصمته الجديدة التي كان قد بناها إلى الشمال من نينوى وأطلق عليها اسم دور شاروكين محمّلاً بغنائم ضخمة حيث أمضى بقية أيامه فيها.

توفي شاروكين الثاني عام 705 قتيلاً على يد أحد جنوده وجلس على العرش مكانه ابنه سينحاريب (704-681ق0م).

كان سينحاريب من أنصار الحزب العسكري في آشور ولذلك فإنه اعتمد في حكمه على القوة بشكل مطلق، كما أنه استهان بعمليات التتويج التي كانت تجري في بابل مما سهل من عودة مردوك إبلا إدين إليها، واستيلائه على السلطة فيها. ولكن سينحاريب جهز جيشه وانطلق به جنوباً واشتبك بالقرب من كيش (702ق0م) مع الجيش البابلي المدعم بالعيلاميين وألحق به هزيمة ساحقة، وفي هذه المرة أيضاً تمكن مردوك إبلا إيدين من الفرار. وأجلس سينحاريب صنيعة له على العرش يدعى « بيل ايبني ».

وعندما قامت محاولات في سورية للتخلص من الحكم الآشوري جابهها سينحاريب بشدة وقام بحملة احتل فيها كل المدن الفينيقية عدا صور، وفرض الحصار على القدس (أور شليم) لكنه لم يستطع الاستمرار في حصاره هذا بسبب تفشي وباء في أوساط جيشه مما اضطره للانسحاب.

---

[19]- ميدفيدسكايا، أي أن: حول تحديد خط سير حملة شاروكين في عام 714ق.م، VDI (مجلة أخبار التاريخ القديم)، العدد 2، العام 1989، ص100 وما بعدها.

ولإخضاع بابل بشكل نهائي والقضاء على مرودك إبلا إيدين قرر سينحاريب مهاجمة عيلام نفسها التي كانت تقدم الدعم المعنوي والعسكري له، فعمد إلى تجهيز أسطول بمساعدة من المدن الفينقية سار به عبر نهر دجلة ثم نقله إلى نهر الفرات وبعد ذلك أبحر في الخليج العربي، وتم إنزال الجنود الآشوريين على شاطئ عيلام حيث تمكن الآشوريون من نهب عدد من المدن العيلاميةالجنوبية دون أن يصلوا إلى العاصمة سوزه. ولكن الرد العيلامي جاء مفاجئاً لسينحاريب. إذ قام العيلاميون بهجوم على شمال بابل مما أتاح لهم عنصر المباغتة وقطع خطوط الاتصال الآشورية وأسر ابن سينحاريب المدعو آشورنادين شوم الذي كان عينه والده ملكاً على بابل. ولكن القوات العيلامية لم تكن قادرة على الدخول في مواجهة مباشرة مع الآشوريين لذلك عمدت للانسحاب من بابل.

وفي عام (689 ق 0م) حدثت اضطربات في عيلام، استغلها سينحاريب ودفع بجيشه إلى بابل. إن مدينة بابل كانت تعد أقدس المدن الرافدية والإله الحامي لها مردوك كان يُقدَّس بدرجة متساوية مع الإله آشور. ولكن سينحاريب لم يكن ليهتم بهذه الأمور. ولذلك فإنه لم يُعِرْ أي اهتمام لمكانة بابل، حيث استولى على المدينة بهجوم كبير مدمراً إياها تدميراً كاملاً وساق سكانها كأسرى، وأكد سينحاريب أن بقايا المعبد وجدران المدينة قد رميت في نهر الفرات. ومن ثم سعى إلى حفر قناة للري في المكان الذي كانت تقوم عليه المدينة العظيمة. وعمد بعد ذلك إلى نقل تماثيل الآلهة البابلية إلى آشور. إن هذه الوحشية التي عامل بها سينحاريب مدينة بابل أثارت الرعب في كل الشرق القديم. ولكنها وبالوقت نفسه أثارت شعوراً بعدم الرضا حتى بين الآشوريين أنفسهم، ولذلك اضطر سينحاريب لاتخاذ بعض الخطوات للمصالحة ولاسيّما مع طبقة

رجال الدين، فتم الإعلان عن أن الآلهة هي التي غضبت على بابل لآثام أهلها وقررت مغادرة المدينة ([20]).

وفي نفس العام (689ق0م) اغتيل سينحاريب ربما من قبل أحد أبنائه. وأما وريثه على العرش فكان ابنه الأصغر أسرحدون. ورغم أن كل الآشوريين « من الصغير إلى الكبير » حلفوا يمين الولاء له، إلا أن هذا لم يمنع من تمرد إخواته الكبار ضده. وفي المقاطعات الواقعة على حدود الامبراطورية أعلنت بعض المناطق استقلالها مثل تابال في جنوب شرق آسيا الصغرى، وأما اورارتو فقد أعادت ضم موصاصير إليها.

كان أول ما فعله الملك الجديد بعد أن قضى على تمرد إخوته الكبار، هو إعادة بناء مدينة بابل، وأعلن أن « مردوك » إله المدينة أشفق على مدينته وقرر العودة إليها ([21]) كما أنه أعاد الامتيازات التي كانت ممنوحة للمدن البابلية والآشورية وفرض ضرائب جديدة لصالح المعابد. ومن أجل إعادة الأراضي التي كانت للبابليين، بدأ حملة ضد القبائل الآرامية، ومع أن العمليات الحربية صعبة إلا أنها أعطت نتائج جيدة. وأما على الجبهة الشمالية فقد تمكّن من صدّ هجوم للقبائل الكيميرية.

وأخيراً تم إخماد عصيان مضاد للآشوريين في فينيقية وملاطية. وقد أدرك أسرحدون أنه إذا أراد للسيادة الآشورية أن تستتب في سورية فلا بد من إخضاع مصر. وبدأت التحضيرات لذلك خاصة في صيدا التي كان قد دمّرها وحولها إلى مقاطعة آشورية في وقت سابق. في عام (676 ق0م) قام أسرحدون بأول حملاته ضد مصر التي لم يكتب لها النجاح. ولذلك كرر المحاولة عام (671ق0م) وفي هذه المرة تمكن من إلحاق الهزيمة بجيش الفرعون المصري طهارقا الذي فر إلى الصعيد، في حين احتل جيش أسرحدون مدينة منف العاصمة واتخذ لنفسه لقب « ملك ملوك مصر، أعالي مصر وكوش » ([22])

---

[20]- ياكو بسون : المرجع السابق، ص37.

[21]- ARAB. T2 SS 507.

[22]- ARAB, 2, SS 575.

وعمد إلى تقسيم المناطق التي سيطر عليها إلى مقاطعات وأعطى المدن المصرية أسماء آشورية. وكانت كل إجراءاته تشير إلى نيته بالبقاء في مصر. ولكنه ما إن عاد إلى آشور حتى بدأت الاضطرابات في مصر حيث حوصرت القلاع الآشورية. وفي عام (669 ق0م) قاد أسرحدون جيشه مجدداً نحو مصر ولكنه توفي وهو في طريقه إليها.

قبل وفاته بسنوات كان أسرحدون قد حل مشكلة وراثة العرش. فعين ابنه شمش شوم أوكين ولياً للعهد على بابل، وآشوربانيبال ولياً للعهد على آشور. وعندما كان أسرحدون مازال على قيد الحياة، طلب من جميع السكان والولاة والأمراء إعلان الولاء والخضوع لآشور بانيبال كملك على المملكة الآشورية بأجمعها. وعلى هذا الأساس فإن آشوربانيبال (668-626 ق0م) لم يجد صعوبة تذكر في الجلوس على عرش أبيه، وخلال بضعة شهور تم تتويج شقيقه ملكاً على بابل. من خلال بعض النصوص نعلم أن آشور بانيبال كان معتل الصحة أوعلى الأقل كان كثير الوساوس وربما لم يشارك بنفسه في أي حملة حربية. ولكنه وبالمقابل كان على درجة عالية من الثقافة حيث جمع في قصره في نينوي مكتبة ضخمة، ونحن مدينون لهذه المكتبة بالكثير من معارفنا عن حضارة بلاد الرافدين وتاريخها. ولقد شغل آشور بانيبال نفسه دائماً بإغناء مكتبته، وذلك بأن كلّف مجموعة كبيرة من الكتّاب ليطوفوا أرجاء الامبراطورية ويبحثوا في المعابد وغيرها عن الألواح المدوّنة ويحضروها إلى مكتبته، أو على الأقل أن يستنسخوها ويحضروا النسخ إليه. ويكفي أن نقول مثلاً إنه عُثر في مكتبته على مالا يقل عن أربعة عشر رقيماً من قصة الطوفان البابلية تعود إلى العصر الآشوري الحديث ([23]). إلى ذلك فقد كان بنفسه شاعراً نظّم القصائد الدينية، وربّما أسهم أيضاً في وضع بعض الحوليات.

إن أول المهمات التي كان على آشور بانيبال مواجهتها هي مسألة احتلال مصرهذه العملية التي بدأت منذ عهد والده. وعلى ذلك عمد آشوربانيبال إلى جمع جيش كبير من

---

[23]- علي عبد الواحد، فاضل: الطوفان في المراجع السماوية، ط1، 1999، دمشق، ص23.

جنسيات مختلفة من امبراطوريته واستعان بأساطيل المدن الفينيقية ثم هاجم مصر براً وبحراً في عام 666 ق0م. وألحق هزيمة كبرى بجيش الملك المصري طهارقا الذي فرّ إلى جنوب البلاد، ومن ثم تقدمت قوات آشوربانيبال إلى أن وصلت إلى العاصمة المصرية طيبة، حيث عمدت إلى نهبها وتدمير معابدها، مما أحدث حالة من الغضب الشعبي عند المصريين دفعتهم إلى إبداء مقاومة عنيفة للاحتلال الآشوري. ولم يتمكن الآشوريون بالتالي من فرض هيمنتهم على هذا القطر الكبير لفترة طويلة من الزمن، وإن كانت المعلومات تنقصنا حول الطريقة التي انتهى بها الحكم الآشوري لمصر إلا أننا نعلم أن ذلك جرى في عهد الملك بسماتيك الأول (664-610ق0م) الذي كان أميراً معيناً من قبلهم على سايس، وتمكن من التحالف مع الليديين في آسيا الصغرى وغيرهم من الإيونيين والكاريين وبفضل هذه القوة الكبيرة التي توفّرت لديه تمكن من طرد الحاميات الآشورية التي كانت متمركزة بشكل أساسي في منطقة الدلتا المصرية ([24]).

وأما مع عيلام فقد حاول إقامة علاقات سلمية (من المحتمل لكسب الوقت) ولكن عيلام رفضت هذا العرض وفضلت الوقوف إلى جانب معارضي الحكم الآشوري في أقصى جنوب الرافدين. في عام 663 ق.م توفي ملك عيلام وبدأت مشاكل في البلاد تتعلق بوراثة العرش، ولم يبخل آشور بانيبال بإعطاء بعض المطالبين بالعرش ملجأ لديه على أمل أن يستفيد منهم في المستقبل. وجاءت الفرصة في عام 653ق0م عندما دخل الملك العيلامي تي أومان جنوب بلاد الرافدين، ولكنه لقي الهزيمة وأُسر وأُعدم هو وابنه أمام الجيش العيلامي المستسلم. ووُضِع على العرش العيلامي مكانه أحد الأمراء الذين كانوا قد التجؤوا إلى آشور ([25]).

وفي هذا الوقت تعرضت آشور لخطر شديد تمثل بتمرد شمش شوم أوكين شقيق آشور بانيبال وملك بابل. ولقد تمكن هذا من كسب مصر وأمراء سورية وفلسطين

---

[24]- سليم، أحمد أمين: في تاريخ الشرق الأدنى القديم، مصر- سورية- لبنان، 1986، ص197-198.
[25]- ARAB, 2, SS 787.

وشيوخ القبائل العربية والميديين والعيلاميين إلى جانبه. ولقد وحّد بين هؤلاء كرههم للآشوريين ورغبتهم بالتخلص من الاحتلال الآشوري لبلادهم، أوالانتقام لاحتلال سابق. وقد بدأت الأعمال الحربية عام (652 ق0م)، وكعادته فقد استخدم آشوربانيبال القوة والحذاقة والإشاعات المعادية لمواجهة الموقف. وبالمحصلة فقد وُجدت بابل نفسها محاصرة بعد تدمير الجيش العيلامي الذي قدم لمساعدتها، وذلك بعد أن نشر الآشوريون إشاعات مختلفة في صفوفه وأثاروا مشكلة وراثة العرش مجدداً. في حين لم تتمكن القوى الأخرى باستثناء القبائل العربية من تقديم مساعدة فعالة لهم، واضطر البابليون للاستسلام بعد حصار دام ثلاث سنوات ([26]).

وجاء بعد ذلك دور عيلام التي تعرضت لهجومين آشوريين في الأعوام (647-646ق0م) وفي النهاية دخلت الجيوش الآشورية العاصمة سوزة ودمرتها من أساسها ونقل آشور بانيبال إلى نينوى غنائم لا تحصى من بينها تماثيل الآلهة وأعداد كبيرة جداً من الأسرى، وبعد هذه الهزيمة فقدت عيلام أي مكانة لها في عالم السياسية الدولية.

إن معلوماتنا عن السنوات الأخيرة من حكم آشور بانيبال فقيرة للغاية، فالمقاطع الأخيرة من حولياته تنتهي ببعض الأحداث التي جرت في عام (635 ق0م)، وهي تتعلق بالعلاقات مع أورارتو وإقامة الملك الأورارتي روسا الثاني سفارة له فينينوى.

ويبدو أن السنوات الأخيرة من حكم آشوربانيبال قد شهدت ضعفاً في الدولة الآشورية بحيث عجز جيشها عن التصدي لهجمات القبائل السكيثية التي كانت قد بدأت بالظهور على حدود الشرق الأدنى القديم منذ أواسط القرن الثامن ق 0م، وحسب أخبار هيرودوت فإن هذه القبائل تمكنت من اجتياح سورية والوصول إلى حدود مصر ربما في نهاية ثلاثينيات القرن السابع ق0م.

---

[26]- هديب، غزالة: الدولة البابلية الجديدة (626-539ق0م)، دمشق، 2001، ص48 وما بعدها.

Damascus University

وازداد ضعف الدولة بعد وفاة آشور بانيبيال المفترضة بنحو العام (626 ق0م) وتعاقب على العرش من بعده ثلاثة ملوك. أولهم ابنه آشورإيتيل الاني الذي حكم أربع سنوات، تلاه أحد قادة الجيش المدعو سين شوم ليشور الذي لم تتجاوز مدة حكمه عدة أشهر ليخلفه ابن آخر لآشوربانيبال هو سين شار أشكون الذي توج ملكاً عام (623 ق0م).

وفي عهده تأزمت أمور الدولة إلى حد كبير: فالقبائل الميدية المتفرقة التي كانت هدفاً للملوك الآشوريين السابقين توحّدت فيما بينها وأعلنت قيام المملكة الميدية وعاصمتها اقباتان (همدان الحالية)، وفي بابل تمكن القائد الآرامي الكلداني نابوبولاصر من الاستيلاء على السلطة في بابل، والمدن السورية الداخلية والساحلية بدأت بقطع صلاتها مع العاصمة الآشورية.

في عام (614 ق0م) تمكن الملك الميدي كياكساريس من مهاجمة حدود الدولة الآشورية والوصول من ثم إلى أسوار العاصمة نينوى، ولما فشل في اقتحام هذه الأسوار، غادرها وتوجه إلى العاصمة التاريخية آشور التي تمكن من اقتحامها وتدميرها. وفي هذه الأثناء وصل نابوبولاصر إلى آشور ولكنه وجد كل شيء منتهياً، ولكنه اغتنم الفرصة ليجتمع مع الملك الميدي ويعقد معه اتفاقاً ينص على صداقتهما وتحالفهما ضد الآشوريين. وفي عام (612 ق0م) حاصر الحليفان مدينة نينوى مجدداً وتمكنا بعد ثلاثة أشهر من الحصار من احتلالها وتدميرها. ومن هنا عاد الميديون إلى بلادهم مع حصتهم من الغنائم، بينما تابع الجيش البابلي طريقه إلى مدينة حران التي كان قد التجأ إليها أحد القادة الآشوريين ونصب نفسه ملكاً على الآشوريين باسم آشورأوباليط الثاني. وفي حران حصل الآشوريون على مساعدة عسكرية من المصريين، في حين طلب البابليون المساعدة من الميديين. وفي عام (610 ق0م) لقي الجيش الآشوري هزيمة كبرى واضطرت بقاياه مع القوة المصرية للفرار إلى الغرب من نهر الفرات وسقطت حران ووضعت فيها حامية بابلية.

وفي عام (609 ق 0م) حاول آشور أوباليط الثاني استعادة مدينة حران وفرض حصاراً عليها لمدة شهرين، إلا أن الحامية البابلية الموجودة فيها صمدت أمام هذا الحصار وتمكنت في النهاية من صدّه. ولم يعرف ماذا حصل لآشور أوباليط الثاني بعد ذلك.

وبذلك اختفت آشور من خارطة الشرق الأدنى القديم، واقتسم البابليون والميديون ممتلكاتها، فسيطرت ميديا على الأجزاء الشرقية من بلاد آشور وشكل المجريان الأعلى والأوسط لنهر دجلة حدودها الغربية.

أما بابل فقد شملت بنفوذها جنوب بلاد الرافدين ووسطها وعيلام ووادي الفرات كله وأعالي بلاد الرافدين غرب دجلة. ووقفت بذلك وجهاً لوجه أمام المصريين في سورية ([27]).

رابعاً- الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية عند الآشوريين :

إن مصدرنا الأساسي عن الحياة الاجتماعية عند الآشوريين هو مجموعة الوثائق القانونية التي تعود إلى العصرالآشوري الوسيط، إلى جانب بعض العقود والوثائق الخاصة، وهذا ما يجعل معلوماتنا مجتزأة ولا تغطي مختلف مراحل التاريخ الآشوري. وعلى ذلك يمكن القول إن المجتمع الآشوري كان كمثل باقي مجتمعات الشرق القديم مقسماً إلى فئتين رئيسيتين هما الأحرار والعبيد. الأحرار كانوا يضمون كل المواطنين الآشوريين سواءٌ في المدن الآشورية الرئيسة أو الذين يعيشون في البلاد المفتتحة، والعبيد بمجموعهم كانوا من العاجزين عن سداد ديونهم، وأسرى الحروب، وهؤلاء ازداد عددهم بشكل كبير في عهدالدولة الآشورية الحديثة نتيجة الحروب الكثيرة التي خاضتها هذه الدولة وسياسية التهجير التي اتّبعها ملوكها في حق الشعوب المهزومة والتي كان أعداد منها يحولون إلى عبيد ([28]).

---

[27]- مرعي، عيد: المرجع السابق، ص387-392.

[28]- فون زودن: مدخل إلى حضارات الشرق القديم، ترجمة د. فاروق إسماعيل، ط1 2003، ص89.

وهناك فئة ثالثة بين الفئتين السابقتين يطلق على أفرادها اسم « آشورايا » ويرى فيهم بعض الدارسين صنفاً أوفئة خاصة من الأحرار الذين ربما كانوا من المسبيين إلى المدن الآشورية من سكان المناطق المحتلة، إلى جانب الآشوريين الفقراء الذين لا يملكون أي شيء ويعملون في أراضي غيرهم وبالتالي فهم مرتبطون بهذه الأراضي ([29]).

وفيمايتعلق بالأسرة، فهذه الأسرة كانت أبوية على الصعيدين القانوني والاجتماعي. حيث كان النسب والوراثة يرتبطان بجهة الأب، والذكر الأكبر سناً في الأسرة يستخدم هيبته. وغالباً ما كان سائداً مبدأ الزوجة الواحدة، ولكن هذا لا يعني عدم حق الزوج باتخاذ عشيقة له. حتى إن هناك بعض وثائق الزواج تنص صراحة على أنه لا يحق للزوج باتخاذ زوجة ثانية مع حقّه باتخاذ عشيقة له. أما إذا كانت الزوجة لا تنجب أطفالاً فمن حق الزوج أن يقتني أمة لهذه الغاية. وحتى يكون الزواج معترفاً به فيجب أن ينظم كتابياً. وكانت هناك مواد أخرى تنظم مسائل الوراثة والطلاق والعلاقة بين الزوجين. ومن أمثلة مواد القانون الآشوري الوسيط ذات الصلة بهذا الموضوع نورد المواد التالية:

المادة 26: إذا كانت هناك زوجة تسكن في بيت أبيها ومات زوجها، فإذا كان هناك أولاد لزوجها، يمكنهم أخذ كل المجوهرات التي زينها بها زوجها وإذا لم يكن هناك أولاد لزوجها فإنها تحصل هي على ذلك.

المادة 34: إذا تزوج رجل أرملة، وعلى الرغم من أنه لم يعقد عليها عقداً وأقامت في بيته سنتين، فإنها تعد زوجته، ولا يجوز أن تخرج (مرالبيت).

المادة 37: إذا طلق رجل زوجته، يمكنه إعطاؤها شيئاً إذا أراد، وإذا لم يرغب لا يعطيها شيئاً، عليها أن تخرج بأيد فارغة.

---

[29]- ساغس: المرجع السابق، ص 187.

المادة 38: إذا كانت زوجة تسكن في بيت أبيها، وطلقها زوجها فيحق له أن يأخذ الحلي التي زينها بها.ولكن لا يحق له أن يمس المهر الذي قدّمه، هذا يعود إليها كاملاً ([30]).

أما فيما يتعلق بالحياة الاقتصادية فقد تركزت على الزراعة وتربية الحيوان والتجارة.

في الزراعة كان الشعير المحصول الأساسي لدى الآشوريين وكان يليه من حيث الأهمية القمح. وكان هذان المحصولان يعتمدان بالدرجة الأولى على مياه المطر وليس على الري وخاصة في الشمال الرافدي، ولذلك فإن انحباس الأمطار في بعض السنوات كان يمكن أن يؤدي إلى مجاعة تصيب البلاد كلها. وإلى جانب هذين المحصولين كان هناك الكتان الذي يُستفاد من بذوره في إنتاج نوع من الزيوت. هذا إلى جانب الفواكه المختلفة كالعنب والتين والزيتون والرمان والتمر. ولابد من الإشارة هنا إلى أن الملوك الآشوريين سعوا إلى إدخال مزروعات عديدة إلى بلادهم من مزروعات البلاد التي كانوا يفتحونها، فسنحاريب مثلاً زرع القطن في حديقة نينوى وأطلق عليه اسم « الأشجار المثمرة للصوف ».

وقد حرص القانون الآشوري الوسيط على حماية الملكية الزراعية في عدد من مواده، فمثلاً المادة العاشرة من اللوح B تنص على أنه « إذا حفر رجل بئراً أو أقام قناة في حقل ليس له، فإنه يخسر بئره وقناته ويضرب ثلاثين عصا، ويؤدي أعمال سخرة للملك لمدة عشرين يوماً ». والمادة الثالثة عشرة تنص « إذا زرع رجل في أرض (لا تعود ملكيتها له) إما بستاناً أو حفر بئراً أو زرع خضروات، فإذا ادّعوا وأثبتوا ذلك عليه، فإن صاحب الحقل يستولي، في اليوم الذي يذهب فيه إلى هناك (إلى الحقل) على البستان مع نتائج عمل الرجل » ([31]).

---

[30]- مرعي، قوانين..، ص121-123.

[31]- مرعي : المرجع السابق، ص 131- 132.

وأما فيما يتعلق بتربية الحيوان، فكان لهذا النشاط أهمية كبيرة تنبع من تعدد أوجه استخدام الحيوانات. فبعضها كان يستخدم للجرّ مثل الثيران، وبعضها الآخر يستخدم في التغذية كالأبقار والماعز. وكانت هذه الحيونات تربى ضمن قطعان يشرف عليها رعاة مختصون. أما ملكيتها فتكون إما لشخص محددٍ أوملكاً للمعبد أو للقصر. وأخيراً لا بد من الإشارة إلى استخدام الحمير والبغال في القوافل التجارية التي كانت تجوب أرجاء الدولة الآشورية ومنها إلى البلاد المجاورة. وأما الخيول فقد استخدمت لأغراض عسكرية وخاصة في الألف الأول ق0م.

إن موقع آشور على طول نهر دجلة وفي عرض الطرق المؤدية إلى البحر المتوسط غرباً وجبال زاجروس شرقاً وطوروس شمالاً وبابل جنوباً، جعلها في موقع المؤهل لتأدية دور الوسيط في تجارة الشرق القديم. وبحوزتنا معلومات مفصلة عن تجارة آشور في مطلع الألف الثاني ق.م مع منطقة كبادوكيا في آسيا الصغرى وذلك من خلال وثائق كانيش. والطريف في هذه الوثائق أنها تسجل نشاطات تجارية لبعض النساء المنتميات إلى عائلات تجارية آشورية. فأحياناً كثيرة يكون الزوج مقيماً في كانيش في كبادوكيا وزوجته في آشور تتابع من هنا أمور تجارته ([32]).

وفي مطلع الألف الأول ق.م عندما فرض الآشوريون سيطرتهم على مناطق واسعة من الشرق القديم، تحولت التجارة بمجملها إلى تجارة داخلية، أي تبادل منتجات كل منطقة مع منتجات مناطق أخرى في إطار الدولة الواحدة. إلا أن هذا لا يعني توقف التجارة الخارجية بشكل نهائي. فتجارة الأخشاب مع مصر استمرت عبر الموانئ الفينيقية، واستمرت آشور باستيراد القصدير الذي لا يمكن الاستغناء عنه في تصنيع البرونز من شمال غربي إيران بالدرجة الأولى، ثم تصديره إلى المستوطنات التجارية وإلى الجنوب. كما كانت تصدر إلى آسيا الصغرى كثيراً من المنسوجات، وكان المصدر الأصلي لبعضها هو

---

[32]- ليتشكوفسكا، كريستينا: النشاط الاقتصادي لنساء عائلة بوش أوكين، في كتاب الشرق القديم، المجلد الرابع، يريفان، 1983، ص85 وما بعدها.

بلاد بابل. وصدرت آسيا الصغرى النحاس إلى آشور. ويمكن التمييز في النصوص بين أنواع متعددة منه، كما استمر توريد الخيول للدولة الآشورية من خارج حدودها ولاسيّما من جهات إيران وآسيا الصغرى.

وأما عن الديانة الآشورية، فلقد اتفق الآشوريون مع البابليين في عبادة الآلهةنفسها غالباً، ولكن تصوراتهم الدينية لم تكن متماثلة دائماً. لقد كان الإله الرئيسي عند الآشوريين هو الإله آشور إله العاصمة وإله الملوك الذي يسير بأسلحته في مقدمة جيوشهم والذي يتم القسم أمامه وكانت تقف إلى جانبه الإلهة عشتار الآشورية، التي غالباً ما كان يتم الابتهال إليها أيضاً. وحصلت في بلاد آشور المزاوجة بين الإلهين آنو وأدد، أما الآلهة الأخرى الرئيسة التي تأتي النصوص الآشورية على ذكرها: فهي إيا وسين وإن وشمش الذي كان يحرص الملوك على أن يصدّق على عدالة سياستهم، والإلهة نينورتا التي كان لها معبد ضخم في مدينة كلخو والذي صار إلهاً للحرب والصيد إلى جانب الإله نرجال ذي الأصل السومري. ولقي نوسكو إله النور اهتماماً بالغاً، وأدّى الإله نبو في الألف الأول ق0م، إلى جانب الإلهة عشتار – دوراً أساسياً في الشعائر الدينية الرسمية والشخصية، بل صار يحتل المقام الأول في مجال الأسماء الشخصية ([33]).

وكانت القرابين تقدم في المعابد الكبرى لعدد من الآلهة، على الرغم من أن بعضاً منها كانت لديه معابده الخاصة. ومما يلفت الانتباه في المعاهدات السياسية أنها تفرض على من ينقض الاتفاق أن يقدم صدقة تكفير للإله توضع على ركبتي الإله، بل – وفي بعض الحالات – أن يُحرق أحد أبنائه أمام الإله.

وشاع في آشور تقليد تقديم قرابين الفدية خارج إطار شعائر المعبد، وكانت تلك القرابين تتمثل غالباً بالحملان والجداء والخنازير الصغيرة وتهدف إلى دفع آلهة العالم السفلي إلى الابتعاد عن المرضى والتخلي عنهم.

---

[33]- فون زودن : المرجع السابق، ص 201-202.

ومن الشعائر المتصلة بقرابين الفدية شعيرة استخدمت على نطاق محدود جداً وتتمثل بتعيين ملك بديل يتولى الحكم عادة مئة يوم، ومهمته هي تحمل نتائج كل العواقب الشريرة التي تهدد الملك الحقيقي اعتماداً على تنبؤات فألية يفصح عنها الخبراء بكشف الطالع، ومن مصادرنا المهمة عن هذه الشعيرة، رسائل تعود إلى السنة الثانية عشرة من سنوات حكم اسرحدون. فقد كان هذا الملك يستشعر المرض كثيراً، ويؤمن إيماناً عميقاً بالتنبؤات الفألية. ولذلك عين ثلاث مرات ملوكاً بدلاء له، واكتفى خلال فترة المئة يوم التي حكم كل واحد منهم فيها بأن يدعوه الناس بـ « السيد الفلاح » ولكن أحدهم مات عند تعيينه تماماً، وتعرض الآخران للقتل وكرّما بجنازة ملكية رسمية ([34]).

أما عن كهنة المعابد فكانوا ينتظمون في فئات عدة أهمها كان المسؤول عن إدارة المعبد الكبير في العاصمة الآشورية، والذي كان يحمل لقبين، أحدهما: ذو طابع إداري هو « أباراكو » بمعنى مدير بيت الإله آشور. والآخر كان يسمى في معابد آخرى « شانغو ». والفئة الثانية من خدم الشعائر الدينية هم « الكالو » بمعنى (كاهن الابتهالات)، على الرغم من دائرة اختصاصهم تتعدى مسألة الابتهالات فقط. وهناك موسيقيو المعبد، والآشيبو وهم الخبراء في التعاويذ السحرية وغالباً ما يوصف هذا الشخص بـ « طارد الأرواح »، وإلى جانب هؤلاء توجد فئة العرافين « بارو » وقد أدّى هؤلاء دوراً هاماً في الحياة الآشورية حتى على مستوى القصر لأن بعض الملوك كانوا يربطون حتى حملاتهم الحربية بهذه التنبؤات ([35]).

خامساً- الجيش الأشوري :

---

[34]- فون زودن : المرجع السابق، ص 211-212.

[35]- ساغس: المرجع السابق، ص 297 وما بعدها.

قبل ختام حديثنا عن الآشوريين لا بد من إلقاء نظرة سريعة على الجيش الآشوري الذي كانت له اليد الطولى في إقامة هذه الامبراطورية المترامية الأطراف والذي لم تتوقف حروبه خلال ما يزيد على قرنين من عمر الدولة الآشورية الحديثة.

وفي الواقع فإن الجيش الآشوري كان قوة معقدة التكوين حسنة التنظيم تضم وحدات خاصة من أنماط عديدة. وكانت نواة هذه القوة هي الجيش الدائم الذي تناط به عدة مهام أولها ضمان أمن الملك الشخصي وحماية الحدود وقمع التمردات. وهذا الجيش في جزء منه – وحتى المعسكر في الولايات – كان يتبع للملك مباشرة وليس للوالي الذي تعسكر بعض فرق هذا الجيش في حدود ولايته. ولم يقتصر الجيش الآشوري على المواطنين الآشوريين، بل كان يضم أعداداً كبيرة من أبناء المناطق المفتوحة. وهذه المجموعات العرقية كانت تحافظ على هويتها في شؤون القتال. وهكذا نرى على المجسمات تصويراً لمجموعات مثل رماة النبال ورماة المقاليع والسيافين والرماحين وفرق المشاة الخفيفة وفصائل المشاة الثقيلة وكلها تتميز من حيث الأحذية واللباس وأغطية الرأس عدا عن تميزها من حيث السلاح.

وكانت ترافق الجيش مركبات ميدانية وعربات لنقل التجهيزات اللازمة، التي كانت تشمل ليس فقط الأشياء الضرورية كالطعام والخيام، بل –كذلك – مواد خاصة مثل التجهيزات الهندسية للحصار والمنجنيقات وأحياناً كان الجيش يصل إلى نهر يتوجب عبوره، مما يجعل ضرورياً إشادة الجسور أو تصميم الأطواف. وهذه كانت من وظائف جنود الاستطلاع. وحين كان الجيش الآشوري يصل إلى المدينة المعادية التي يتوجب حصارها، كان من الضروري مرة أخرى أن ينصرف جنود الاستطلاع إلى بناء السلالم وحفر الأنفاق.

وكان بوسع الآشوريين حين تستدعي الضرورة، أن يرسلوا إلى ميدان المعركة ما ينوف على مئة ألف محارب. فشمشي أدد الأول يقال أن جيشه كان يبلغ نحواً من ستين

ألف مقاتل، أما شلمناصر الثالث فيقول إنه عبر الفرات نحو الغرب بمئة وعشرين ألف مقاتل في عام (845 ق0م). ولكن هذا العدد الكبير من الجنود لم يكن ليشارك في كل معارك الدولة الآشورية. فهناك حملات كان تقوم بها قوى أصغر بكثير ربما لا تزيد على فرق بعض الولايات، أو الجيش الموجود بإمرة الملك فقط دون جيوش الولايات. وأما عن ترتيب سير هذا الجيش فهناك بعض الإشارات إليه في بعض النصوص الملكية الآشورية، ومنها نستشف أن رايات الآلهة ويرافقها رجال الدين كانت تسير في المقدمة ومن ثم الملك مع حرسه الخاص وفرقة من المشاة الخاصة وبعد ذلك كان يأتي جسم الجيش الآشوري المكون من المقاتلين الآشوريين وأخيراً تأتي الطوابير الخاصة بالنقل والمؤن وما إلى ذلك، ولابد من الإشارة هنا إلى أن فرقة الاستطلاع والتجسس كانت تسبق الملك وجيشه في كل حروبه وخاصة في عهد الدولة الآشورية الحديثة ([36]).

---

[36]- ساغس : المرجع السابق، ص339 وما بعدها.

الفصل الحادي عشر

الامبراطورية البابلية الحديثة

استغل نابوبولاصر زعيم إحدى القبائل الخالدية (الكلدانية) في جنوب بلاد الرافدين الضعف الذي حلّ بالامبراطورية الآشورية بعد وفاة آشوربانيبال عام (626 ق.م) لتكثيف نشاطاته العسكرية من أجل الاستيلاء على السلطة في بابل، ولم يكن الأمر سهلاً عليه، إذ أن الجيش الآشوري استمر بالقيام بعدة حملات إلى بابل في محاولة منه للنيل من نابوبولاصر إلا انه لم يفلح في جهوده وأعلن هذا القائد نفسه رسمياً « ملك أكاد » أولاً في مدينة سيبار ثم في بابل وذلك في تشرين الثاني من عام (626 ق0م) وكنا قد ذكرنا الأعمال التي قام بها نابوبولاصربالتحالف مع الميديين والتي أدت في النهاية إلى سقوط الدولة الآشورية، هذه الدولة التي اقتسم ممتلكاتها في بلاد الرافدين الحليفان اللذان أسقطاها. وبما أن الآشوريين كانوا يسيطرون على سورية وفلسطين، فقد اعتبر الكلدانيون أنفسهم ورثة لهم في هذه المنطقة. ولكن المصريين الذين قدموا المساندة العسكرية للجيش الآشوري في آخر معاركه كان لهم قول آخر في هذا المجال، فملكهم نخاو الثاني كان يريد استرجاع السيادة المصرية على سورية، خصوصاً ولاسيّما أن الفرصة الآن مؤاتية، فسورية واقعة في فراغ كبير نتيجة الهزيمة الآشورية وعدم وصول القوات الكلدانية وفي الوقت نفسه عدم وجود قوة محلية تغطي هذه الفراغ، وعلى العكس من ذلك، فإن الجيش المصري الذي جاء لمساعدة الآشوريين موجود في منطقة الفرات ويتحكم بمدينة كركميش المتحكمة بالمعابرعبر هذا النهر.

وهنا أدرك نابوبولاصر أنه إذا ما أراد السيطرة على سورية فلا بد له من إخضاع كركميش أولاً. وفي عام (605 ق0م) عبرت قوات ولي العهد الكلداني نبوخذ نصر

الفرات وهاجمت كركميش من شمالها وجنوبها وتمكنت من تدمير الحامية المصرية الموجودة فيها. ومن ثم سقطت أجزاء واسعة من سورية وفلسطين، أي كل المناطق الواقعة بين الفرات ومصر في يد القوات الكلدانية دون مقاومة تُذكر.

وأثناء وجوده في سورية عام (605 ق0م) بلغ نبوخذ نصر نبأ وفاة والده فعاد إلى بابل بسرعة ليتسلم مقاليد السلطة فيها. وبعد ذلك توجه نبوخذ نصر مرات عديدة إلى سورية في الأعوام (604-601 ق.م) ووصل إلى الحدود المصرية.

وفي عام (599 ق0م) قام نبوخذ نصر الثاني بحملة إلى شمال الجزيرة العربية ليضرب القبائل العربية المعادية له وليضع الطرق التجارية المارة من هذه المنطقة تحت سلطته. وفي عام (598 ق0م) فرض الحصار على أورشليم بسبب تحالف ملكها مع المصريين وتمكن من احتلالها وعين عليها ملكاً من أنصاره ([1]).

وفي (عام 595-594 ق0م) حدث تمرد في أوساط الجيش البابلي وصلت إلينا أخباره من خلال وثيقة محضر محاكمة أحد المتآمرين، وقد نظرت في هذه القضية محكمة عسكرية برئاسة الملك نفسه، وقد أدين المتهم بخيانة الوطن ونقض عهد الولاء الذي كان قد أداه للملك وصدر حكم بإعدامه ومصادرة ممتلكاته.

وفي عام (587 ق 0م) حاول الفرعون المصري الجديد « أبري » إعادة فرض السيادة المصرية على مناطق الساحل السوري فاحتل مدن غزة وصور وصيدا وحرض ملك القدس على التمرد على نبوخذ نصر الثاني. فتحرك هذه الأخير بسرعة كبيرة حيث دفع بجيوشه من جديد إلى سورية واستطاع طرد المصريين من المدن التي كانوا قد احتلوها وحاصر القدس، وبعد حصار طويل سقطت المدينة بيده ونُقِل جزءٌ من سكانها إلى بابل.

بلغت بابل في عهد نبوخذ نصر الثاني (605-562 ق0م) مرحلة عالية من القوة والازدهار. وسعى هذا الملك العظيم جهده من أجل أن تكون عاصمته درة مدن بلاد الرافدين بعد الدمار الكبير الذي لحق بها نتيجة الحملات الآشورية المتكررة عليها،

---

[1]- غزالة، هديب: المرجع السابق، ص 71 وما بعدها.

وحركات التمرد والعصيان الكثيرة التي شهدتها. وقد بدأت حركة إعمار المدينة في عهد نابوبولاصر واستمرت في عهد نبوخذ نصر الثاني وقد أراد نبوخذ نصر جعل مدينته محصنة تحصيناً قوياً، فبنيت أسورٌ مزدوجة كان سماكة الدخلي منها (6.5م) وهي أكثر ارتفاعاً من السور الخارجي، وقد عزز السوران بحصون مزدوّة بأبراج تستخدم كشرفات لإطلاق النار والسهام، وحفر خندق مائي أسفل السور الخارجي تراوح عرضه (20-80م). وأقام نبوخذ نصر شارع المواكب الاحتفالية الذي كانت تُحمل فيه تماثيل الآلهة في مهرجان رأس السنة الجديدة. ومن الأبنية المهمة التي بنيت في هذا العهد، القصر الملكي الذي كان يقع في الزاوية الشمالية الغربية من المدينة. وعمل على ترميم وتوسيع معبد مردوك ([2]).

وبعد وفاة نبوخذ نصر الثاني جلس على العرش ابنه أويل مردوك الذي حكم سنتين فقط (562-560ق0م)، ومن ثم اغتيل على يد زوج أخته القائد العسكري نرجال شارأوصور (559-556ق0م) وقد اشتهر هذا الملك باهتمامه بإصلاح المعابد ورعاية آلهتها، حيث تفيض كتاباته بذكر الإلهين مردوك ونابو اللذين يُعزى إليهما الفضل في تسلمه الحكم. كما عرف عنه اهتمامه بمشاريع الري في البلاد، وأنه كان من ملاكي العبيد الكبار، وكان صاحب أراض واسعة وقطعان ماشية كثيرة ([3]).

وأما عن أعماله على الصعيد الخارجي، فالحوليات البابلية تذكر قيامه في العام الثالث من حكمه بحملة إلى منطقة كيليكيا في آسيا الصغرى، وأنه حقق بعض النجاحات في هذه الحملة. ولكنه سرعان ما توفي بعد عودته إلى عاصمته بابل ليخلفه على العرش ابنه لاباشي مردوك ولم يستمر حكمه أكثر من تسعة أشهر حيث اغتيل نتيجة مؤامرة قام بها بعض قادة الجيش لينصب نابونيد ملكاً بدلاً عنه.

---

[2]- كلينغل، ايفلين: المرجع السابق، ص 157.

[3]- هديب، غزالة : المرجع السابق، ص 133-134.

Damascus University

إن الملوك الثلاثة الذين خلفوا نبوخذ نصر في الحكم لم يتمكنوا من السيطرة على الأوضاع في المملكة ولا على حدودها، واتسمت سنوات حكمهم مع قلتها بالضعف والانحلال واضطراب أحوال البلاد. لذلك كان لا بد كي تنهض البلاد من كبوتها من عاهل قوي يستطيع إمساك زمام الأمور بشكل فعال، ويضبط أوضاع البلاد في الداخل ويقود سياسة قوية في الخارج. وهذا ما اضطر الملك نابونيد لمواجهته خلال سنوات حكمه التي امتدت من (555-539 ق0م).

من الواضح أن نابونيد لم يكن من أصل ملكي، وقد أثرت عليه أمه كثيراً كانت تشغل فيما مضى منصب كاهنة الإله سين (إله القمر) في مدينة حران([4]).

وقد دخل نابونيدفي صراع مع كهنة الإله مردوك الأقوياء، عندما حاول أن يدفع عبادة هذا الإله إلى المرتبة الأولى في بلاد الرافدين على حساب عبادة الإله مردوك. إلا أن هذا الصراع لم ينفجر بين عشية وضحاها، بل احتاج إلى عدة سنوات قبل أن يظهر بشكل علنيوسافر. وقد قضى نابونيد هذه السنوات بممارسة سياسة خارجية نشيطة والقيام بمشاريع معمارية هامة، ففي عام حكمه الثالث (554-553ق0م) قام بحملة ضد حماه، ونصب حيرام الثالث ملكاً على صور، ووصل حتى غزة. وفي السنة التالية كان أيضاً في سورية حيث جمع قواته ودخل الصحراء العربية وحاصر أدوماتو « دومة الجندل »، وهي واحة هامة من واحات شمال شبه الجزيرة العربية كان الآشوريون قد استولوا عليها في الماضي نظراً لأهميتها الاستراتيجية في المواصلات والتجارة ([5]).

وفي عام (552 ق0م) استغل الصراع الدائر بين الفرس والميديين ليبسط سيطرته على مدينة حران التي كان الميديون يسيطرون عليها منذ عام (610 ق0م)، وفي العام السادس من حكمه خرج نابونيد من بابل إلى واحة تيماء بعد أن وضعها في عهده ابنه

---

[4]- مرعي، عيد: بابل في عهد آخر ملوكها نابونيد، مجلة دراسات تاريخية، العدد 63-64، 1998، ص30-31.

[5]- مرعي: بابل في عهد آخر ملوكها نابونيد، ص32.

وولي عهده بل شار أوصور. وقد طرح الباحثون آراء عدة في مسألة انتقال نابونيد للإقامة في تيماء، وإن كنا لا نستبعد أن يكون للعامل التجاري الدور الأهم في هذه المسألة، فتيماء كانت محطة تجارية هامة في شمال الجزيرة العربية تنتهي إليها الطرق التجارية القادمة من جنوب شبه الجزيرة والمحمّلة بمنتجات بلاد اليمن المؤلفة من المواد العطرية الثمينة كالبخور والمر واللبان وغيرها. ونابونيد كان يرغب بوضع هذه التجارة والطرق التجارية الناقلة لها تحت تصرفه، لذلك نراه يقوم ومن موقعه في تيماء بغزوات ضد المحطات التجارية الأخرى الواقعة في شمال شبه الجزيرة العربية ([6]).

وفي عام (546ق0م) عُقد السلام بين المصريين والبابليين الذين كان عليهم الآن مواجهة الخطر الجديد المحدق بالطرفين ألا وهو الخطر الفارسي.

فالملك الفارسي قورش الثاني تمكن من توسيع مناطق سيطرته إلى حد كبير. فلقد تمكن من التخلص من جده الملك الميدي استياغس وذلك في عام (550 ق0م) وضم مملكته إليه، وبعد ذلك اتخذ هدفاً لنفسه المملكة الليدية الواقعة على السواحل الغربية لآسيا الصغرى التي تمكّن من ضمها إلى ممتلكاته في عام (547 ق0م). وخلال الأعوام اللاحقة توجّه ببصره نحو الحدود الشرقية، فضم إليه الممالك والإمارات الواقعة إلى الشرق من إيران. والآن لم يبق أمامه سوى نابونيد ومملكته.

إن كل محاولات نابونيد لدرء الخطر الفارسي لم تعط النتيجة المرجوة، فكما أسلفنا القول، فإن مملكة قورش الثاني أصبحت تمتد على مساحة واسعة وتضم أقطاراً عديدة وبالتالي فإن إمكاناتها البشرية والاقتصادية أكبر بكثير من إمكانات بابل. وفي بابل نفسها لم يكن وضع نابونيد جيداً بسبب سوء علاقته مع كهنة الإله مردوك من ناحية، وبسبب الأزمة الاقتصادية التي حلت بالبلاد بعد أن استولى الفرس على الطرق التجارية الواصلة إلى بابل من ناحية ثانية، مما جعل الأهالي والتجار غير راضين عنه ومستعدين

---

[6]- مرعي: المرجع السابق، ص 34-36.

لمساعدة أي إنسان أو دولة تطيح به. وإضافة إلى ذلك، فإنه كان يعيش في بابل آلاف الناس الذين نقلوا للعيش فيها من مناطق أخرى وكان هؤلاء يفكرون بالعودة إلى بلادهم وكانوا مستعدين لمساعدة الفرس الذين نظروا إليهم كمنقذين لهم.

في ربيع عام (539 ق0م) دخل الجيش الفارسي بقيادة قورش بلاد الرافدين ووصل إلى منطقة نهر الديالى حيث أعلن حاكم المنطقة البابلي ولاءه للملك الفارسي.

إن التحصينات الضخمة التي كانت تحيط بالمدن الرئيسية كسيبار وبابل لم تساعد نابونيد كثيراً لعدم دعم أهالي هذه المدن له. ففي آب (539 ق0م) تمكن الجيش الفارسي من إلحاق هزيمة كبرى بالجيش البابلي عند مدينة أوبيس على نهر دجلة والذي كان على رأسه ولي العهد البابلي الذي قتل في هذه المعركة. بعد ذلك حاصر الفرس سيبار التي كان يتولى الدفاع عنها نابونيد بنفسه، ولكنه مالبث أن ترك المدينة وتوجه إلى بابل ليتولى الدفاع عنها، ولكنه لم يلق أي ترحيب من سكانها فما لبثت أن سقطت بيد الفرس في تشرين الأول من نفس العام ([7]).

بسقوط الدولة البابلية الحديثة تنتهي مرحلة من مراحل تاريخ المشرق العربي القديم، لتبدأ مرحلة جديدة تمثلت بسلسلة من الاحتلالات الأجنبية كان أولها الاحتلال الفارسي الذي دام من عام 539 ق.م حتى 333 ق.م. وهو العام الذي دخلت فيه قوات الاسكندر المقدوني المنطقة بعد إلحاقها الهزيمة بقوات الملك الفارسي دارا الثالث في معركة إسوس.

---

[7]- هديب، غزالة: المرجع السابق، ص158وما بعدها.



الباب الثاني

سورية



الفصل الأول

الوضع الجغرافي والبيئي

يطلق اسم سوريا على المنطقة الواقعة بين جبال طوروس شمالاً وشبه جزيرة سيناء جنوباً. ومن البحر المتوسط غرباً حتى نهر الفرات شرقاً. ويرى البعض من الباحثين « أن سوريا القديمة كانت تضم سوريا الحالية ولبنان والأردن وفلسطين مع بلاد ما بين النهرين وقسماً من شمالي شبه الجزيرة العربية وقسماً آخر من آسيا الصغرى وغيرها من مناطق أقل أهمية »([1]) ولكن يجب الإشارة إلى أن هذه كانت حدود الدولة السلوقية التي أسسها سلوقس من قادة الاسكندر المقدوني والتي كانت عاصمتها أنطاكية. وتقسم هذه الرقعة الجغرافية الواسعة إلى عدة مناطق طبيعية:

1- منطقة السهول الساحلية: وهي الممتدة من خليج اسكندرونة في الشمال حتى الحدود المصرية. ويتراوح عرض هذه السهول ما بين عدة كيلو مترات إلى عشرات الكيلو مترات. وتهطل في هذه المنطقة أمطار تتراوح معدلاتها السنوية مابين800 إلى 1000 مم وهذه الكمية تكفي لقيام زراعة حقلية جيدة إلى جانب زراعة الأشجار المثمرة. ويتميز هذا الشريط الساحلي بوجود عدد من الموانئ الطبيعية فيه والتي ازدهرت منذ الألف الثالث قبل الميلاد وأهمها أوجاريت وجبيل وصيدا وصور وغزة.

2- منطقة الجبال الساحلية: وتمتد هذه أيضاً من الشمال إلى الجنوب بمحاذاة الشريط الساحلي وتفصل السهل الساحلي عن منطقة السهول الداخلية. وقد اشتهرت هذه الجبال منذ القديم بغناها بالأشجار المهمة التي كانت محطّ اهتمام الدول القوية

---

[1]- العابد، مفيد رائف: سوريا في عصر السلوقيين، دار شمأل للطباعة والنشر، دمشق1993، ص4.

المجاورة لسورية، كأشجار الأرز والصنوبر والسرو التي كانت تستخدم في صناعة المراكب وبناء المعابد والقصور والأثاث المنزلي.

ويوجد في هذه السلسلة الجبلية عدد من الممرات الطبيعية التي استخدمها سكان سورية القدماء أثناء انتقالهم من الداخل إلى ساحل البحر المتوسط. أما أشهر جبال هذه السلسلة فهي الأمانوس ثم لبنان الغربي فالكرمل.

3- منطقة السهول الداخلية: وتقع هذه إلى الشرق من منطقة الجبال الساحلية وتوجد فيها مجموعة من الوديان التي تجري فيها أنهار متوسطة الطول (العاصي، الليطاني، الأردن). وأهم سهول هذه المنطقة تلك الواقعة بين حلب والفرات، ويمتاز هذا السهل بإنتاجه الواسع من الحبوب نتيجة تلقّيه كميات من الأمطار تصل إلى نحو 400 ملم سنوياً. وتحدّ هذا السهل من الجنوب سهول حماه وحمص والبقاع والتي قامت فيها عدة مراكز حضارية هامة كمملكة قطنا وقادش في الألف الثاني ق 0م ومملكة حماه الآرامية وآرام دمشق وغيرها في الألف الأول ق0م.

4- منطقة البادية : وهي المنطقة الواقعة إلى الشرق من منطقة السهول الداخلية وصولاً إلى نهر الفرات شرقاً، وتتصل جنوباً مع شبه الجزيرة العربية. وكانت هذه المنطقة موطناً لعدد من القبائل التي تتجول فيها، والتي كثيراً ما تحاول الانتقال إلى المناطق الحضرية الخصيبة سواء في بلاد الرافدين أم في سورية.

وقد قامت في هذه المنطقة بعض الواحات التي كانت تشكل محطات للقوافل التجارية، وتعتمد في مياهها على بعض الينابع. وأهم هذه الواحات واحة تدمر الواقعة في قلب البادية السورية، وواحة دمشق التي تقع على أطرافها والتي تتلقى مياهها عبر بعض الأنهار التي تنبع من الجبال المحيطة بها ولاسيّما من جبل الشيخ.

وكانت سورية على صلة وثيقة مع الأقطار المحيط بها، فمع بلاد الرافدين كان هناك على الأقل طريقان تستخدمهما القوافل التجارية القادمة من بلاد الرافدين، فالقوافل كانت تتجمع عند كركميش في منطقة المنعطف الكبير لنهر الفرات حيث تعبر النهر

متجهة إلى الممرات عبر جبال طوروس وصولاً إلى آسيا الصغرى، أو تتجه إلى الجنوب الغربي حيث مدينة حلب ومنها إلى سهل العمق ومن ثم إلى مدينة أوجاريت على شاطئ البحر، أو إلى جبال الأمانوس مخترقة إياها إلى آسيا الصغرى. وأحياناً كانت تنتقل من سهل العمق إلى الجنوب أكثر عبر سهل الغاب. فسهل البقاع وهكذا.

الطريق الثاني كانت أقصر ولكنها أكثر خطورة، وكانت تصل ما بين مجرى الفرات عند مصب الخابور فيه وصولاً إلى المنحدرات الجنوبية لجبل بشري، متابعاً إلى واحة تدمر، ومن هناك إما إلى أعالي العاصي وإما مباشرة إلى دمشق.

لقد شكل وادي نهر العاصي أحد الطرق الرئيسة الواصلة من شمال سورية إلى جنوبها ومن منطقة هذا الوادي كانت تنطلق الطرق إلى شواطئ البحر المتوسط عبر الممرات الجبلية. أحد هذه الممرات كانت تقع إلى الجنوب من مدينة أوجاريت، والآخر كان في فينيقية عند مصب نهر الكبير الجنوبي. ومن هنا كانت الطريق تنطلق إما شمالاً نحو أوجاريت أو جنوباً إلى جبيل ومن ثم إلى صور. وأما من أعالي العاصي فكان يمكن العبور إلى مجرى اللطياني ومن هنا إما إلى صور أو إلى أعالي وادي الأردن وصولاً إلى فلسطين.

أما مصر فكانت معزولة عن فلسطين بوساطة شبه جزيرة سيناء الصحراوية، ولذلك فإن جيوش المشاة والقوافل التجارية كانت تختار أقصر الطرق، وهي التي كانت تسير بمحاذاة شاطئ البحر حتى غزة ومنها شمالاً عبر الهضاب إلى أعالي نهر الأردن. ووادي الأردن نفسه لم يكن صالحاً كثيراً لعبور القوافل ولذلك فإن القوافل كانت تجتازه عبر الممرات الواقعة فيه شرقاً ومن هناك كانت تصل إلى واحة دمشق.

ولم يكن هناك أي طريق مباشر بين فلسطين وبلاد الرافدين في الفترة الواقعة بين الألفين الرابع والثاني ق 0م. وهذا يفسر عدم وجود اتصالات مباشرة بين مصر وبلاد الرافدين فترة طويلة أيضاً. إن الطريق الدائري عبر فلسطين وشرقي الأردن فوادي العاصي ثم شمال سورية فشمال بلاد الرافدين كان هو الطريق الوحيد الواصل بين مناطق المشرق

العربي القديم المختلفة ([2]) إن دراسة أسماء المواقع الجغرافية القديمة تدفع إلى الاعتقاد بأن سكان سورية وشرقي المتوسط كانوا من « أصول عربية محلية » منذ الألف الرابع ق0م على الأقل. وهناك من يرجح وجودهم هنا منذ الألف السادس ق 0م ومنها انتقلوا إلى بلاد الرافدين عبر شمال سورية.

Damascus University

[2]- حول موضوع الطرق التجارية، انظر: قابلو، جباغ : الطرق التجارية ووسائط النقل في بلدان الشرق العربي القديم خلال الألفين الثاني والأول ق0م، في كتاب فعاليات الأسبوع الثقافي الرابع لقسم التاريخ، دمشق، 2000، ص43 وما بعدها.

الفصل الثاني

سورية في الألف الثالث ق0م

إن معلوماتنا النصية عن سورية في الألف الثالث ق 0م جاءتنا بصورة رئيسة من خلال أرشيف مملكة إبلا الذي يُرجعه المختصون إلى منتصف هذا الألف. أما معلوماتنا عن النصف الأول من الألف الثالث ق 0م من خلال المصادر المحلية فمحدودة جداً. فعلى الرغم من أن أعمال التنقيب الأثري شملت مناطق سورية من أقصاها إلى أقصاها إلا أن النصوص المكتشفة تبقى نادرة ولعلّ من أهمها النصوص المكتشفة في جبل عارودة والتي تشير إلى وجود صلات مع حضارة أوروك في جنوب بلاد الرافدين. وتتضمن هذه النصوص بعض التفصيلات عن الحياة الاقتصادية، ولكنها تثبت استخدام نظام المقاييس السومري المعروف في جنوب بلاد الرافدين وذلك دون أن تعطي أي معلومات عن الوضع السياسي ([1]).

ولكن وبالمقابل لدينا بعض الشواهد المصرية التي تتعرض لذكر العلاقات بين مصر وسورية خلال هذه الفترة. فهناك مثلاً بعض الآثار المصرية التي عثر عليها في جبيل والتي تحمل أسماء فراعنة مصريين من الأسرة الرابعة حتى السادسة ومن هذه الأسماء الملك خع سخموي من أواخر الأسرة الثانية، وأما نصوص الملك سنفرو من الأسرة الرابعة فتذكر وصول أربعين سفينة محملة بالأخشاب من سورية.

---

[1]- حول بعض التنقيبات التي جرت في سورية في بعض المواقع العائدة لفترة النصف الأول من الألف الثالث ق0م يمكن الرجوع إلى دليل معرض الآثار السوري الأوربي الصادر في دمشق عام 1996، وكذلك أعداد مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية ذات الأرقام 42 لعام 1996 و43 لعام 1999 و44 لعام 2001.

وإذا كانت النصوص المصرية تحوي هذه الإشارات، فإن النصوص الرافديةالعائدة للنصف الأول من الألف الثالث ق0م لا تأتي على ذكر اسم أي من المدن السورية.

إن معلوماتنا عن الوضع في سورية وخاصة في شمالها انقلبت رأساً على عقب بعد اكتشاف إبلا وأرشيفها الملكي.

إبلا

كان اسم مدينة إبلا معروفاً لدى دارسي تاريخ الشرق القديم، من خلال وروده في عدد من النصوص التي تعود لحكام حكموا في بلاد الرافدين بدءاً من شاروكين الأكادي، وإن كانوا يجهلون مكان هذه المدينة قبل اكتشافها من قبل البعثة الأثرية الإيطالية المنقّبة في تل مرديخ في محافظة إدلب.

فالملك الأكادي الأول شاروكين يقول في إحدى كتاباته « لقد تضرّع شاروكين للإله داجان في توتول، فمنحه البلاد العليا ماري، يرموتي، إبلا حتى غابة الأرز وجبال الفضة ».

أما حفيده نارام سين فيذكر في كتابة له « في جميع العصور منذ خُلق الإنسان، لم يقم ملك من الملوك بتدمير أراضي أرمانوم وإبلا وعندما فتح الإله نرجال الطريق أمام نارام سين الشجاع، دفع بإرمانوم وإبلا إلى يديه، ومنحه أيضاً جبل الأمانوس، جبل الأرز، والبحر الأعلى ». وفي عصر سلالة لاجاش الثانية نرى الملك جوديا حاكم لاجاش (2150-2110ق0م) يفتخر بأنه استورد جذوع الأرز والشوح والدلب وغيرها من الأشجار الجبلية من أورشو الواقعة في سهل إبلا. ويتردد اسم إبلا كثيراً في نصوص عصر سلالة أور الثالثة (2111-2001ق0م). ويقل ذكرها في النصوص البابلية والآشورية العائدة للألف الثاني ق0م. ويرد في إحدى هذه الوثائق أن ساعي ملك إبلا قد وصل إلى آشور. وفي أحد الرقم المكتشفة في آلالاخ والعائد للقرن الثامن عشر

ق0م نجد الإشارة التالية :   « في ذلك العام عندما اختار أميتاكوم ملك آلالاخ ابنة حاكم إبلا زوجة لابنه ». كما أُدرجت إبلا في قائمة البلدان التي تدفع الجزية إلى مصر، والتي نصادفها في نقش الفرعون تحوتمس الثالث في معبد الإله آمون بالكرنك.

1- اكتشاف إبلا :

في عام 1964م بدأت بعثة إيطالية من جامعة روما برئاسة الأستاذ باولوماتييه أعمال مسح أثري في مناطق شمالي سورية بهدف اختيار عدة مواقع للتنقيب فيها في إطار مشروع علمي كبير غايته دراسة الاستيطان في شمالي سورية خلال عصر البرونز. وقد لفت تل مرديخ الواقع في محافظة إدلب بالقرب من بلدة سراقب، نظر البعثة الأثرية الإيطالية بضخامته وباللقى الأثرية الملتقطة من على سطحه، وبناء على ذلك بدأت أعمال تنقيب علمية منهجية على هذا التل بدءاً من عام 1964.

وقد بدأت الأعمال تعطي ثمارها بدءاً من عام 1968 عندما كشف في المنحدر الجنوبي الغربي للأكروبول عن تمثال نصفي من البازلت يمثل جسم رجل دون رأس. وقد نقشت على الكتف كتابة مسمارية باللغة الأكادية، وهذه الكتابة عبارة نقش نذري أمر بكتابته إبيط ليم أحد ملوك إبلا. ويتحدث عن تقديم نذر للآلهة عشتار إلهة الخصب والحب والحرب، هو عبارة عن جرن ماء لغرض الوضوء والطهارة ([2]).

ورغم أن التمثال لم يكن في مكانه الأصلي، بل كان خارج السوية الأثرية لعصره، فقد تسنى استناداً إلى السمات الأسلوبية والكتابية تحديد تاريخه ونسبته إلى مطلع الألف الثاني ق0م.

ولكن هذا الاكتشاف ورغم أهميته لم يقدم البرهان القاطع على أن التل الذي يجري فيه التنقيب هو مدينة إبلا القديمة، فقد يكون هذا التمثال منقولاً إلى هنا من مكان آخر كغنيمة حرب مثلاً.

---

[2]- مرعي، عيد: ابلا تاريخ حضارة أقدم مملكة في سوريا، الأبجدية للنشر، دمشق1996، ص10-11.

أما الاكتشاف الهام الثاني فجرى في عام 1974، عندما كُشف في هذا العام أرشيف صغير مكون من نحو 40 رقيماً مسمارياً. وأما الاكتشاف الكبير فقد حدث في آب عام 1975، فأثناء العمل في تنظيف حجرات القصر الملكي في أكروبول تل مرديخ، عثر المنقبون على حجرة صغيرة تقع بجوار الغرفة التي سبق واكتُشفت فيها الرقم الأربعون، ووجدوا فيها نحو ألف رقيم طيني آخر. وفي الأول من تشرين الأول من العام نفسه، ولدى الانتهاء من موسم الحفريات، عُثر على مكتبة الأرشف الملكي التي ضمت نحواً من أربعة عشر ألف رقيم، بعضها كامل وبعضها محطم. وفي العام التالي كُشف عن 1500 رقيم ليصبح مجموع الرقم المكتشفة نحو 17500 رقيم ([3]).

وقد تبين أن النصوص المدونة بالخط المسماري وضعت بإحدى اللغات السامية القديمة ومن المجموعة الشمالية الغربية والقريبة من الكنعانية، وقد أطلق عليها بيتيناتو لغوي البعثة الإيطالية آنذاك اسم « اللغة الكنعانية القديمة ».

أما عن الأبنية المكتشفة في المدينة، فقد كشف عن عدة قصور تعود إلى عصور مختلفة من تاريخ المدينة، فهناك القصر الملكي العائد للعصر الذهبي من تاريخ المدينة (2400-2300ق0م) والذي وجدت فيه المحفوظات الملكية، والقصر الذي كشف عنه أسفل المدينة من جهة الشمال والذي يعود إلى الفترة التي تلت تدمير المدينة على يد شاروكين الأكادي ومن ثم إعادة إعمارها (2100-1900ق0م) ومن ثم القصر المتوسط الذي بني في أقصى جنوب المدينة. وإلى جانب هذه القصور هناك معبد ضخم وجدت بقاياه إلى جانب القصر القديم والذي ربّما كان مخصصاً للإلهة عشتار. وبدءاً من عام 1995 بدأت حفائر في سور المدينة الذي يعود للعصر السوري القديم وبالقرب منه، وقد أسفرت الأعمال عن الكشف عن ثلاثة أبنية ضخمة ربما تكون قصراً أكثر من

---

[3]- حول اكتشاف المدينة والتنقيبات الأولى فيها يمكن الرجوع إلى :
Matthiae, P: Ebla, an empire rediscovered , London – Torento , 1980.

Damascus University

كونها قلعة، أو ربما كان لها وظائف إدارية، لها علاقة بمدخل المدينة([4]). وقد تم الكشف أثناء هذه العمليات عن بوابات المدينة (البوابة الشمالية الشرقية وبوابة الفرات وبوابة حلب) وقد عُثر ضمن هذه الأبنية على عدد كبير من المنحوتات الكبيرة النذرية والتي تعود إلى العصر البرونزي الوسيط الأول والثاني وغيرها كثير ([5]).

إن دراسة تاريخ إبلا تقوم على الجمع بين الدراسة الأثرية أي دراسة الآثار المكتشفة بجميع اشكالها العمرانية والفنية ودراسة الأرشيف الملكي لإبلا والذي يلقي الضوء على حياة المملكة على جميع الأصعدة الداخلية والخارجية.

2- أرشيف إبلا الملكي :

يدهشنا أرشيف إبلا الملكي بالتنوع الكبير لنصوصه. وتشغل الوثائق الإدارية والتجارية الحيّز الأكبر من هذا الأرشيف وهي تتضمن أوامر ملكية ورسائل الموظفين الكبار المتعلقة بقضايا تسيير شؤون الدولة والمعاهدات الدولية مع المدن والدول الأخرى في سورية وبلاد الرافدين وقوائم بأسماء المدن التابعة لإبلا وسجلات تسليم الحبوب والجعة والنبيذ والزيوت واللحوم إلى أفراد العائلة المالكة وكبار الموظفين والسعاة القادمين من البلدان الأخرى.

وثمة وثائق تشهد على تسليم رؤوس ماشية ومواد غذائية أخرى كأضاحي للآلهة.

ويحتوي أرشيف إبلا على عدد كبير من النصوص « المدرسية » الشبيهة بالموسوعات، وهي تضم جداول تعليمية للإشارات الكتابية وقوائم بأسماء الحيوانات والأسماك والطيور والنباتات وشتى أنواع الأحجار والمعادن والأشجار، وكذلك أسماء مدن أوروك وأبو صلابيخ مما يشهد على الصلات الثقافية الوثيقة بين إبلا والمراكز الحضارية القديمة في بلاد الرافدين. ولم يكتف كتبة إبلا بالاقتباس من المنجزات الحضارية لجيرانهم

---

[4]- ماتييه، باولو: تل مريخ – ابلا، ص89 وما بعدها.

[5]-Matthiae , P: Fowlles A Tell Mardikh – Ebla , 1997.

في الحوليات العربية السورية، العدد 44، عام 2001.

الرافديين بل كانوا يضعون بأنفسهم بعض القوائم اللغوية والجغرافية المشابهة منها « سجل إبلا الجغرافي » الذي يضم 289 من أسماء المدن.

كما قدم أرشيف إبلا لعلماء اللغات القديمة هدية كبيرة تمثلت باكتشاف المعاجم السومرية- الإبلائية التي حوت نحو ثلاثة آلاف كلمة. وتعد هذه المعاجم الأقدم من نوعها في العالم. وقد سهل هذا المعجم إلى حد كبير من دراسة اللغة الإبلائية وأتاح في بعض الأحيان تدقيق معاني بعض الكلمات والمصطلحات السومرية.

إن تأريخ أرشيف إبلا لايزال موضع جدل بين الباحثين، ويعتمد هذا التأريخ بشكل أساسي على الدمار الذي لحق بالقصر (ج) (حيث عثر على معظم الأرشيف الإبلائي). إن الخصائص الكتابية، وكذلك فحوى العديد من النصوص الأدبية، يسمح لنا بمقارنتها مع النصوص المكتشفة في تل « أبو صلابيخ » الواقع في جنوب العراق والمؤرخة بنحو 2600 ق0م. ومن جهة أخرى اكتُشف أثر للفرعون بيبي الأول من الأسرة السادسة (2340-2181ق0م) بين أطلال القصر (ج). ويعزى تدمير هذا القصر ومعه نهاية عصر محفوظات إبلا، إلى حملة شاروكين الأكادي على الشمال السوري، مع أنه لا يتوافر حتى الآن أي برهان قاطع على ذلك.

ويذكر أرشيف إبلا أسماء ثلاثة حكام حكموها خلال عصر المحفوظات، وهذا يعني أن هذا العصر لا يغطي أكثر من ثلاثة أجيال، وبالتالي فإن تاريخ هذه المحفوظات يجب أن يكون بحدود 2400ق0م.

أما لغة هذه النصوص فقد دار حولها جدل بين علماء المسماريات، فمنهم من اعتبرها لغة أطلق عليها اسم ماقبل الكنعانية أو الكنعانية القديمة وميّزها عن اللغتين الأكادية والأمورية من حيث نظام الأفعال والضمائر والاشتقاقات وتركيب الجملة، وقرّبها بالتالي من اللغات السامية الشمالية الغربية: الأوجاريتية والفنيقية والعبرية التوراتية، ويقف على رأس هذا الفريق الإيطالي بيتيناتو. وهناك فريق آخر اعتبر اللغة الجديدة لهجة أكادية

غربية، أما الفريق الأخير من الدراسين فيعتقد أنه يجب إضافة هذه اللغة إلى قائمة اللغات السامية كلغة تاسعة تربطها أوثق العلاقات مع الأكادية والأمورية ([6]).

وأما الكتابة فمن المعلوم أن الإبلائيين قد استخدموا الكتابة المسمارية لكتابه لغتهم والتي كانت مستخدمة في بلاد الرافدين منذ آواخر الألف الرابع ق 0م. وتظهر نصوص إبلا تشابهاً كبيراً من حيث الكتابة مع النصوص المكتشفة في كل من فارا (شوروباك القديمة) وأبو صلابيخ في جنوب الرافدين.

3- نظام الحكم في إبلا :

كان نظام الحكم في إبلا ملكياً، وكان الملك الإبلائي يحمل اللقب السومري المعروف « إن، EN » والذي يقابله في اللغة الإبلائية لقب « مليكوم » بمعنى ملك وكان الملك رأس الدولة ومسؤولاً عن مختلف شؤونها السياسية والاقتصادية والعسكرية.

وتورد النصوص المختلفة المكتشفة في إبلا أسماء عدد من الملوك الذين حكموا فيها وبعض هؤلاء الملوك لم يعثر على وثائق خاصة بهم ضمن الأرشيف الملكي الإبلائي، لذلك فإن الباحثين يعتبرونهم من الحكام الذين حكموا قبل عصر الأرشيف وربّما لم يكونوا ملوكاً بالمعنى الحقيقي للكلمة. فمثلاً هناك نص يرد فيه تقديم أضاحٍ لآلهة إبلا يرد فيه أسماء عشرة من الملوك الذين قُدِّمت لهم الأضاحي، أي أن ملوك إبلا كانوا يرفعون إلى مصاف الآلهة بعد وفاتهم. وهناك نص آخر يذكر أسماء ستة وعشرين ملكاً. ولكن المؤكد الآن أن ثلاثة ملوك كانوا معاصرين للأرشيف الملكي ونجد وثائق من عهدهم، وهم إجريش خلب (والقراءة السابقة خلم) وإركب دامو وإشار دامو.

وإلى جانب الملك كان هناك مجلس للشيوخ يعرف باسم « أبو » وهؤلاء كانوا من زعماء الأسر الكبيرة والغنية في إبلا، وكان الملك يأخذ برأيهم في الأمور الهامة ولذلك نقرأ في النصوص الإبلائية تعبير « الملك والشيوخ ».

---

[6]- مرعي، عيد: المرجع السابق، ص71-72.

وكان الملك من حيث المبدأ هو المسؤول عن كل قطاعات الدولة، ولكن بما أنه كان غير قادر على متابعة كل القضايا بنفسه، فقد كان هناك عدد من الموظفين الكبار الذين يحملون اللقب السومري لوجال، وكانت إدارة القصر الملكي منوطة بشخص يحمل لقب أدانوم « سيد » وكان يتبعه عدد كبير من الموظفين. وكان هناك الوزراء ونصوص إبلا تذكر أسماء بعضهم ولعل أشهرهم أبريوم وإبي زكير. ويظهر في النصوص الإبلائية أشخاص يحملون لقب « أوجولا » السومري الذي يعني « والي، مشرف » وهؤلاء كانوا يتولون إدارة المدن أو الوحدات الأصغر وكانوا يختارون على الأغلب من بين أفراد العائلة المالكة أو المقرّبين منها ([7]).

لقد حاول البعض من الباحثين تصوير إبلا على أنها امبراطورية مترامية الأطراف تسيطر على سورية وبلاد الرافدين والأناضول، ولكن محتوى النصوص الإبلائية لا يشير إلى أن إبلا قد فرضت سيادتها على هذه الأماكن. وبالواقع فإن الإمبراطورية التي أقامتها كانت امبراطورية تجارية أكثر من كونها امبراطورية سياسية. فاهتمام ملوك إبلا الأول كان تأمين قوافلهم التجارية في وجه الأخطار التي قد تتعرض إليها في البلدان الأخرى، لذلك عمدوا إلى عقد معاهدات مع زعماء الدول الأخرى، ويمكن الافتراض أن حدود مملكة إبلا امتدت إلى منطقة الفرات الأوسط شرقاً وإلى سواحل البحر المتوسط غرباً، ومن سهول حمص جنوباً إلى جبال طوروس شمالاً، ويمكن الافتراض أيضاً أنه كان لها نوع من النفوذ خارج هذه الحدود ([8]).

4- العلاقات السياسية والعسكرية :

لايحتوي أرشيف إبلا الضخم على الكثير من الشواهد عن علاقات إبلا السياسية مع غيرها من المراكز الحضارية التي كانت قائمة في المنطقة السورية أو الرافدية، كما لم

---

[7]- مرعي، عيد: المرجع السابق، ص22-23.

[8]- مرعي، عيد: المرجع السابق، ص24.

Damascus University

يأتي أي ذكر لمصر في هذا الأرشيف، ومع ذلك فإن هذا الأرشيف عرّفنا على معاهدتين وقعتهما إبلا: أولاهما مع خمازي الواقعة في شمال إيران. وكان الهدف من هذه المعاهدة إقامة تحالف سياسي عسكري بين الدولتين على الرغم من التباعد الجغرافي بينهما، فلقد نصت المعاهدة على تبادل الدعم العسكري عند الحاجة « اركب دامو ملك إبلا وأخ زيزي ملك مدينة خمازي أنت عظيم، جنود جيدون أرسل إلي..»

وأما المعاهدة الثانية فكانت ذات طبيعة تجارية وقعتها إبلا مع مملكة آشور (حسب قراءة بعض الباحثين للاسم ومنهم بيتيناتو) أو أبارسال حسب قراءة مجموعة أخرى من الباحثين (ومنهم سولبرجر) وهي تقع إلى الشرق من ماري، وكانت الغاية منها حماية التجارة النهرية لإبلا في هذه المناطق. وأما عن الحروب التي خاضتها إبلا، فلا يوجد لدينا حتى الآن دليل قاطع على أن إبلا قد دخلت في حروب مع جيرانها سواء القريبون أم البعيدون، وقد كان نص قرأه بيتيناتو وبين أنه يتضمن تقريراً عن أعمال عسكرية قام بها القائد الإبلائي إنا – داجان ضد ماري وملكها ايبلول إل وفي هذا التقرير يخبر إنا داجان ملك إبلا (الذي لا يرد اسمه في النص) بانتصاره على ماري ومن ثم خلعه ملكها وتوليه السلطة فيها. ولكن هذه القراءة للنص لاقت معارضة من عديد من الباحثين (إد زارد ودياكونوف، وأركي وغيرهم) الذين رأوا في النص رسالة من ملك ماري الجديد إنا- واجان إلى ملك إبلا يذكره فيها بالانتصارات التي حققها ملوك ماري السابقين ويطلب فيها منه استمرار الالتزام بالأمور المتفق عليها بين الدولتين.

لا بدّ أخيراً من الإشارة إلى أن إبلا كدولة تجارية كان يهمها أن تؤمن حماية قوافلها التجارية في البلاد التي تمر بها، لذلك نراها توقع المعاهدة مع أبارسال، وفي الوقت نفسه نرى ملك إبلا إركب دامو يزوج ابنته من ملك إيمار ذات الموقع الاستراتيجي على نهر الفرات وذلك بهدف تحقيق نفس الغاية أي ضمان تجارة إبلا.

5- الحياة الاقتصادية :

أثبتت وثائق إبلا أن هذه الدولة كانت تتمتع بنظام اقتصادي منظم وموجّه ويخضع لرقابة مركزية قوية.

وقد تنوعت أوجه النشاط الاقتصادي في إبلا، حتى لم يترك نشاط اقتصادي إلا ومورس فيها وإن كان بمستويات مختلفة.

فمثلاً يرى بعض الباحثين أن الاقتصاد الإبلائي قام على الرعي وما ينتج عنه (أي عن تربية المواشي). ويرى البعض الآخر من الباحثين أن الزراعة كان لها الدور الأساسي في هذا الاقتصاد. وفي كل الأحوال لا يمكن تجاهل دور التجارة الكبير في حياة إبلا الأمر الذي سنلحظه أثناء تطرقنا لهذا الموضوع. وسنبدأ أولاً من الزراعة.

أ- الزراعة :

تقع إبلا كما هومعروف وسط بيئة طبيعية مناسبة للزراعة بفضل خصوبة أراضيها من ناحية وتلقيها كميات من الأمطار تكفي لقيام زراعة بعلية واسعة من ناحية أخرى. كما أن وجود بعض الأنهار وإن كانت صغيرة (نهر قويق)، إلا أنها كانت تؤمن المياه لنشوء زراعة مروية. أضف إلى ذلك أ ن المناطق الواقعة إلى الغرب من إيبلا وهي مناطق هضاب وجبال، كانت تسمح بقيام زراعة الأشجار المثمرة خاصة الزيتون والكرمة.

ومن خلال النصوص المختلفة التي تحتوي على إشارات تتعلق بالزراعة، يتين لنا أن الملك وأسرته كانوا من كبار ملاك الاراضي، وكان بإمكان الملك أن يهب أراضي غير محددة المساحة تصل إلى قرى بكاملها لمن يشاء من أبناء مملكته. ويلي الأسرة المالكة في عداد ملاّك الاراضي، كبار رجال الدولة من شيوخ وقضاة وكتاب وتجار وغيرهم، إضافة إلى الكهان، ولكن تحديد مساحةالأراضي التي يملكها هؤلاء مسألة صعبة ومن الممكن إيراد بعض الأمثلة عن ملكية بعض الأشخاص.

Damascus University

فمثلاً هناك شخص اسمه جلاء دامو كان يملك 16600 وحدة قياس، وهذا يعني نحو خمسة الاف هكتار في عدة قرى ([9]). وهناك كاهنة اسمها سارين دامو كانت تملك نحو أربعة ألاف هكتار من الأراضي البعلية ونحو ألفين من الاراضي المزروعة بأشجار الزيتون وكروم العنب ([10]).

وأما فيما يتعلق بالمزروعات، فلا بد أن الحبوب كانت تأتي في المقام الاول ولاسيّما الشعير والقمح، وتأتي بعد ذلك الأشجار المثمرة وخاصة الزيتون والكرمة. ويوجد ضمن أرشيف إبلا عدد كبير من النصوص التي تأتي على ذكر كميات المحاصيل التي كانت تُجمع في بعض السنوات، وكذلك الكيفية التي كان يتم عن طريقها توزيع هذه الكميات، حيث كانت هناك حصص مقررة للقصر الملكي (الملك وأفراد أسرته وباقي العاملين فيه).

ونشير هنا إلى أن بذار الحبوب كانت تُوزّع أيضاَ من مستودعات القصر الملكي على مختلف القرى من أجل زراعتها، ولكن لا نعلم هل كانت هذه القرى من أملاك القصر الملكي أم أنها كانت تؤدي جزءاً من إنتاجها للقصر بعد أن تقوم بزرع هذه البذار وحصاد الحبوب.

أما فيما يتعلق بالأشجار المثمرة، فكما ذكرنا هناك الزيتون الذي يرد ذكره بكثرة في نصوص إبلا، حيث كانت تقدم الأنواع الفاخرة منه كهدايا لملوك الدول المجاورة، ويأتي بعد الزيتون الكرمة التي كانت أهميتها أقل من الزيتون وهذا ما يمكن أن نستخلصه من النص الذي يوضح مساحة الاراضي المخصصة لزراعة كل نوع من المحاصيل في إحدى القرى «700 جانا كشداكي خصصت لزراعة الحبوب، 30 جانا كشداكي خُصصت لزراعة الزيتون و5 جانا كشداكي للعنب في قرية أسالو » ([11]).

---

[9]- ترد وحدة المساحة في النصوص الإبلائية بصيغة « جانا كشداكي » وهي تركيب من عدة كلمات سومرية، معناها مساحة محددة قدّرها أركي بـ 350م2. انظر حول هذا الموضوع في:
أبو عساف، علي: الزراعة في إيبلا، دراسات تاريخية، العددان43-44، لعام 992، ص9.
[10]- المرجع السابق، ص11-12.
[11]- المرجع السابق، ص13.

ب- الرعي وتربية الحيوانات :

يعتقد بعض الباحثين ومنهم الأمريكي « جلب » أن أساس ازدهار إبلا قام على الرعي وتربية الحيوانات وما ينتج عن ذلك من مصنوعات وخاصة النسيجية منها والتي كانوا يتاجرون بها إلى مناطق مختلفة.

واستدل هؤلاء الباحثين على رأيهم بالنصوص التي تذكر أعداداً كبيرةً من رؤوس الماشية المختلفة التي كانت تربى في إبلا. ونشير هنا إلى ان أراضي إبلا الواقعة على أطراف البادية هي التي كانت مناطق تربية الماشية. فالنص (TM, 75G184) يذكر 79300 رأس غنم تعود إلى الملك. وفي أحد المواسم جرى إحصاء 80 ألف رأس ماشية وفي إحصاء أخر أُحصي 72240 رأس ماشية.

ويبدو أن الثيران والأبقار كانت أقل أهمية من الأغنام، حيث إن النصوص تذكرها وإن كان بأعداد أقل بكثير من أعداد الأغنام.

ج- الحِرَف والصناعة :

تركزت الصناعة الإبلائية على جانبين : أولهما الصناعات النسيجية، وهذه كانت على الأغلب محلية من حيث موادها الأولية وتصنيعها، وكان جزء منها يستخدم في الأسواق المحلية والفائض كان يُصدر إلى البلاد المجاورة وخاصة إلى بلاد الرافدين. ثانيهما: الصناعة المعدنية والصياغة، وهذه كانت نصف محلية، بمعنى أن إبلا كانت تستورد المواد الخام وتصنعها وتعيد تصديرها.

وكما ذكرنا أعلاه فإن الصناعات النسيجية كانت من أهم الصناعات الإبلائية. وهناك نصوص كثيرة ضمن الأرشيف الإبلائي تتطرق لمواضيع على صلة بهذه الصناعة. ومن خلال هذا الأرشيف نعلم مثلاً أن قسماً من الإنتاج كان يُوزع على مجموعةالعاملين في أجهزة الدولة المختلفة بمن فيهم أفراد الأسرة المالكة وذلك في مناسبات مختلفة.

وكان من أغلى أصناف المنسوجات ذلك الذي يدعى في النصوص « زارا » وكان هذا النوع مخصصاً للنساء ولا يقدم للرجال بتاتاً وكانت تحصل عليه نساء البلاط أو نساء الوجهاء فقط، وكان ثمن القطعة منه يتراوح بين 11–15 مثقال فضة في حين أن ثمن القطعة الواحدة من الألبسة الأخرى كان يقارب سبعة مثاقيل ([12]).

ومن الصناعات المعدنية الهامة التي كانت تفتخر بها إبلا، وترد بكثرة في نصوصها، صناعة المجوهرات من مشابك ذهبية وفضية، وهذه أيضاً كانت تُوزع في مناسبات مختلفة عن نساء البلاط أو ترسل كهدايا إلى بلاطات الدول المجاورة لإبلا.

وهناك معادن أخرى كثيرة يرد ذكرها في نصوص إبلا مثل النحاس والقصدير اللذين يستخدمان بعد خلطهما بنسب معينة للحصول على البرونز لصناعة أدوات مختلفة. فمثلاًهناك نص يذكر 59.5 مينا نحاس و 7.5 مينا قصدير، سلمها أحد الإداريين لتصنيع مائة خوزة، ويذكر نص آخر تسليم 3 مينا و 40 مثقال إلى ناظر الحدادين، ونص أخر يذكر 10 مثقال نحاس لصنع حربة للملك ([13]).

د– التجارة :

مما لا شك فيه أن إبلا بحكم موقعها القريب من مصادر المواد الأولية سواء من الأخشاب في جبال الأمانوس، أو المعادن الثمينة وخاصة الفضة في جبال طوروس، قد أدّت دوراً مهماً في تجارة العالم القديم في منصف الالف الثالث ق.م. وكان للتجارة الدور الأكبر في الغنى والرفاه اللذين تمتعت بهما إبلا.

وعندما تحدثنا عن الصناعة قلنا إن إبلا كانت تستورد الكثير من المعادن وتصنعها ثم تعيد تصديرها. والسؤال الذي يطرح نفسه هو من أين كانت تستورد إبلا هذه المعادن.

---

[12]- ماريا جوفانا، بيغا: حريم ملوك عبلا (إيبلا)، ترجمة قاسم طوير، في كتاب أضواء جديدة على تاريخ وآثار بلاد الشام، دمشق، 1989، ص72.

[13]- مرعي،عيد : المرجع السابق، ص42-44.

Damascus University

نستطيع تقسيم المعادن التي كانت تستوردها إبلا إلى قسمين: الأول منهما مناجمه قريبة من أراضيها وكانت عملية الحصول عليها سهلة ولا تحتاج في هذا السبيل إلى أي وسطاء، ونخصّ بالذكر من هذه المعادن الفضة التي كانت منتشرة بكثرة في جبال طوروس الواقعة إلى الشمال من إبلا، والتي أطلق عليها شاروكين الأكادي اسم جبال الفضة نتيجة غناها بهذا المعدن.

وأما القسم الآخر من هذه المعادن فهي التي كانت عملية الحصول عليها تحتاج إلى مجهودات اكبر وربّما لأكثر من وسيط وذلك نتيجة لبعد مواطنها عن إبلا ونخصّ بالذكر من هذه المعادن الذهب والنحاس والقصدير واللازورد.

فالذهب كان من الممكن الحصول عليه من مصر التي كانت مشهورة بغناها بالذهب وكان بالإمكان الحصول عليه عبر وسطاء يقيمون في مدينة جبيل التي اتخذ منها المصريون مركزاً للمتاجرة مع بلاد الشام وما وراءها، أما فيما يتعلّق بالنحاس فلا بد أن مصدره كان من قبرص التي اشتهرت بغناها بهذا المعدن في العالم القديم، وأما القصدير فكانت مناجمه تقع في شمال غرب إيران أي في منطقة لا تبعد كثيراً عن إبلا. ومن الأحجار التي كانت تستوردها إبلا اللازورد والأوبسديان فهذه كان يؤتى بها من أفغانستان عن طريق إيران فبلاد الرافدين ومنها إلى إبلا.

وهناك من يعتقد أن إبلا وعلى الرغم من إنتاجها من الأصواف إلا أنها كانت تستورد كميات منه وذلك لتلبية حاجة ورشاتها من هذه المادة.

وأما صادرات إبلا فكانت المنسوجات والألبسة التي كانت تشكل عماد تجارتها وكانت هذه المنتجات تصدر بشكل رئيسي إلى بلاد الرافدين عبر ماري. وأما عن الألقاب التي أُطلقت على من كانوا يقومون بالمهام التجارية فهي:

- لوكار : وتعني بالسومرية « رجل المركز التجاري » أو « رجل السوق » وهؤلاء كانوا يتخصصون أحياناً ببيع مادة واحدة.

- مشكيم: وتعني مراقباً أو مشرفاً على مهنة معينة، كالعمل في التجارة وهو أدنى مرتبة من اللوكار.

- ماخو: وتطلق على التاجر الذي كان يمارس التجارة مع البلاد البعيدة، والنصوص تذكر ماخو من نوزي ومن حران وغيرهما ([14]).

6- الحياة الإجتماعية :

انقسم سكان إبلا إلى فئتين: الأولى وهم سكان إبلا الأصليون الذين كان يطلق عليهم اسم « أبناء البلد، أبناء إبلا » وكان هؤلاء يتمتعون بكامل الحقوق والامتيازات، وكان يدخل ضمن هذه الفئة العائلة المالكة وكبار رجال الدولة، إضافة إلى عدد كبير من الموظفين والتجار والحرفيين والفلاحين والرعاة وغيرهم، أما الفئة الثانية فهم « الغرباء » حيث كان يعيش في إبلا عدد كبير من الأجانب الذين كانوا يمارسون أعمالاً مختلفة، ويأتي على رأس هؤلاء الأجانب المرتزقة الذين كانوا يقدمون خدماتهم العسكرية لملوك إبلا، لأن هذه الأعمال لم تكن من الأعمال التي يمارسها سكان إبلا الأصليون. وقد سبق أن ذكرنا شيئاً عن المعاهدة بين إبلا وخمازي والتي نجد فيها ذكر إرسال جنود جيدين إلى إبلا. وكان هؤلاء المرتزقة يتمتعون بمكانة كبيرة في إبلا، لدرجة أن إبريوم الوزير الإبلائي زوّج ابنته من قائدهم. ومن الأجانب الآخرين الذين كانوا يعيشون في إبلا التجار الذين كانوا يمارسون التجارة معها ويقيمون فيها فترات متفاوتة. وهناك الكتبة الذين كانوا يعلِّمون أبناء إبلا الكتابة المسمارية ويرد ذكر هؤلاء في الوثائق الإبلائية كقادمين من مدن الجنوب الرافدي وخاصة من مدينة كيش. وكل هؤلاء الذين ذكرناهم كانوا مصنفين في إطار السكان الأحرار. وكانت هناك فئة من العبيد تعيش في إبلا وإن كنا نجهل مدى الدور الذي كان يؤديه هؤلاء في حياة إبلا وخاصة الاقتصادية منها.

7- الحياة الثقافية :

---

[14]- مرعي، عيد: المرجع السابق، ص45-47.

أظهرت النصوص المكتشفة في إبلا أن هذه المدينة كانت قد وصلت في منتصف الألف الثالثة قبل الميلاد إلى درجة عالية من التطور الاقتصادي والاجتماعي والثقافي. وقد تجسد هذا التطور الثقافي بالكشف عن هذه اللغة الجديدة التي كانت مستخدمة من قبل أبناء الشمال السوري خلال هذه الفترة. وكذلك من خلال العلاقات ذات الطابع الثقافي التي ربطت بين إبلا ومناطق أخرى مجاورة لها وخاصة بلاد الرافدين.

ويشار إلى هذه العلاقات في النصوص الإبلائية على النحو التالي « عندما وصل الكتاب الصغار من ماري » ويورد نص إبلائي مسألة رياضيات مبنية على النظام الستيني وضعها « كاتب كيش إشمع إل » الذي يبدو انه كان استناداً إلى الرياضيات في إبلا.

وفي مجال نظام العد، فقد استخدم الإبلائيون بخلاف السومريين، النظام العشري في العد كما يظهر من ذكر (مئة Miat) و(ألف Lim) و(عشرة آلاف Ribab) و(مئة ألف Maiat) في نصوص إبلا.

وقد ظهرت بعض هذه الأعداد في ماري وأبوصلابيخ في أوقات مختلفة.

أما في مجال التأريخ وأسماء الأشهر، فإن التأريخ بذكر رقم السنة الملكية واسم الشهر كان مستخدماً في ماري وإبلا وغيرهما. وتظهر بعض أسماء الأشهر من تقويم إبلا في ماري وأبوصلابيخ.

وكنا قد أشرنا إلى وجود قوائم معجمية في إبلا أحادية اللغة (السومرية أو إبلائية) وثنائية اللغة (سومرية – إبلائية) وهذه المعاجم كانت تستخدم على ما يظهر لأغراض تعليمية.

ويبدو أن مهنة الكاتب كانت محترمة وذات مكانة في إبلا.

فالكثير من النصوص تأتي على ذكر الكتّاب وبمجالات متعددة فمثلاً هناك النص (TM 75 G1398) ويتضمن فحص كاتب شاب يُذكر فيه اسم معلمه وفاحصه في نهاية اللوح. والنص (ARRET 1,13) يذكر تقديم أنسجة إلى الكاتب أبو–كورا. كما

أن بعض النصوص تذكر في خاتمتها اسم كاتبها ومدققها من مثل الأطلس الجغرافي الذي نقرأ في نهايته « تيرا إل كتب اللوح، أزي عارف الألواح، إنا إل المدقق » ([15]).

8- الحياة الدينية :

تأتي نصوص إبلا على ذكر مجموعة كبيرة من الآلهة، نستطيع تحديد وظائف بعضها ومهماته، وبعضها الآخر نقف عاجزين عن فعل ذلك تجاهه رغم أهميته.

ولعل أهم الآلهة الإبلائية هو الإله نيداكول والذي يقرأ بعض الباحثين اسمه بصيغة « إتاب بال ». وكانت لهذا الإله عدة مراكز يُعبد وتُقدم له الأضاحي فيها بدليل ورود اسمه مقترناً بأسماء عدة مدن، مثل نيداكول أتاني ونيداكول أمادو (حماه) وغيرهما. وهناك من يرى في هذا الإله إلهاً للقمر في إبلا على اعتبار أن إله القمر لم يظهر في نصوص إبلا ولا بأي اسم من الأسماء المعروفة في المناطق المجاورة. وأما زوجة الإله فهي الإلهة بعلة. والإله الثاني المشهور في إبلا هوكورا، ويبدو أنه كان خاصاً بمدينة إبلا، وكان أمراء المدن التابعون لملك إبلا يقسمون الولاء في معبده في مراسم خاصة بذلك، كما أن زوجة هذا الإله وهي الإلهة بارما تشكل معه الزوج الإلهي اللذين يتماهى معهما الزوجان الملكيان، باعتبارهما يمثلانهما على الأرض. ويعتقد المختصون الذين يعملون على نصوص إبلا أن أصل هذين الإلهين ليس محلياً ولا أكادياً ([16]). وأما ثالث الآلهة الإبلائية الهامة والذي دخل اسمه في تركيب أسماء الأعلام الإبلائية فهو دامو. وكلمة « داموم » الإبلائية معروفة في الأوجاريتية وتعني « شعب، جماعة » أما في الأكادية فتعني الرقم ألف، وعندما تستخدم تلك الكلمة في تركيب أسماء الأعلام فإنها تضفي صفة الألوهية إلى الأسرة أو الجماعة صاحبة الاسم ([17]). ولذلك يعتقد أن هذا الإله هو الإله الحامي للأسرة المالكة.

---

[15] - حول الأوضاع الثقافية في إبلا وعلاقتها مع الجوار، انظر بتوسع في كتاب د. مرعي الآنف الذكر، الصفحات71-86.

[16]- عبد الله، فيصل : تاريخ الوطن العربي القديم - بلاد الشام، منشورات جامعة دمشق، 2003-2004 ص53.

[17]- أركي، الفونسو: ملوك إبلا العشرة، ترجمة قاسم طوير في كتاب أضواء جديدة، ص61.

وهناك آلهةأخرى كثيرة يرد ذكرها في النصوص الإبلائية منها رسب أو رشف وشيبش الذي يعادل شمش والإله أدا ويعادل حدد أو أدد وداجان وبعل وعشتار وكاميش (وهذا ربما كان أناضولياً). وأما فيما يتعلق بالطقوس الإبلائية فهي لاتزال غير واضحة، إلا أن القائم على إدارتها يدعى باشيشو « الذي يمسح » ويساعده آخرون يدعون أشيراتوم وأشاراتوم كما يوجد ذكر لكاهن يدعى بنيتوم، وهو التعبير الذي يطلق على الكاهن المتنبئ بأحوال الناس والغيب ([18]).

ونشير أخيراً إلى أنه رغم العدد الكبير من الآلهة التي يرد ذكرها، إلا أن الكهنة والمعابد لم يتمتعا بالسلطة والنفوذ اللذين تمتعا بهما في بلاد الرافدين ويبدو أن طبيعة النظام السياسي في إبلا هي التي حدّت من دور المعبد في حياتها، ونشير أيضاً إلى شيوع عادة تأليه الملوك بعد وفاتهم وذلك بالاستناد إلى لوائح التقدمات التي عثر عليها والتي تضم أسماء بعض ملوك إبلا.

9- نهاية مملكة إبلا :

إن موقع إبلا الاستراتيجي على طرق التجارة الدولية وقربها من مصادر المواد الأولية وبقعتها الخصيبة، كان له أثره السلبي عليها كما كان له أثره الإيجابي. فكما كان هذا الموقع سبباً في ازدهارها وبلوغها درجة عالية من التطور، كان أيضاً السبب الذي أدى للقضاء عليها من قبل منافسين آخرين كانوا أقوى منها عسكرياً وإن لم يكونوا كذلك اقتصادياً. فكما ذكرنا عند استعراضنا للنصوص التي ورد ذكر إبلا فيها فإن الملوك الأكاديين وضعوا منذ بداية ظهورهم هدفاً يتلخص بالقضاء على هذا المنافس التجاري المتحكم بالتجارة عبر الفرات، فقام شاروكين ونارام سن بحملات عسكرية ضدها. وكل

[18]- عبد الله، فيصل : المرجع السابق، ص 47.

واحد منهما ادعى أنه دمر المدينة. ويُرجع الباحثون آثار الحريق والتدمير الموجودة في قصر إبلا الملكي (القصر G) والعائد إلى الألف الثالث ق0م. إلى هذه الحملات.

ولكن استمرار ذكر إبلا في النصوص العائدة إلى ما بعد عصر نارام سين يشير إلى انبعاث المدينة من جديد وعودتها لممارسة دور في الحياة السياسية والاقتصادية للشمال السوري، وإن كان هذا الدور أقل أهمية من الدور الذي كانت تمارسه سابقاً. وقد استمرت هذه الفترة من نحو 2000–1600 ق0م. ومن الآثار المكتشفة في المدينة والتي تعود إلى هذا العصر، السور الضخم المحيط بالمدينة وعدد من معابدها من قبيل معبد رشف ومعبد عشتار والقصر الغربي والذي عُثر تحت أرضيته على مقبرة ملكية تتألف من العديد من المغاور والكهوف، والقصر الشمالي الذي تعرض للتدمير نحو العام 1600ق0م. ومن المستغرب ألا تشير محفوظات ماري الملكية التي ترقى في معظمها إلى النصف الأول من القرن الثامن عشر ق 0م إلى مدينة إبلا، ويفسر بعضهم السبب في ذلك إلى انتقال الزعامة على مناطق الشمال السوري مع مطلع الألف الثاني ق 0م إلى مدينة حلب.

وجاءت نهاية إبلا كمدينة مع تقدم الملوك الحثيين نحو شمال سورية بدءاً من عهد خاتوشيلي الأول، ومن المؤكد أن إبلا تعرضت للتدمير مجدداً أثناء حملة مورشلي الأول نحو شمال سورية وبلاد الرافدين، نحو عام 1595 ق0م.

ولابد من الإشارة أخيراً إلى أن اكتشاف إبلا بدّل الكثير من المفاهيم التي كانت سائدة في أوساط الدراسين حول تاريخ سورية القديم بشكل خاص، والشرق القديم بشكل عام.

فالرأي القائل أن سورية لم تعرف أي مملكة قوية خلال الألف الثالث ق 0م، وأن الممالك القوية الأولى قامت على مجاري الأنهار الكبرى، وبالتالي فإن سورية كانت واقعة بين منطقتين حضاريتين كبيرتين هما بلاد الرافدين ومصر، وأنها كانت منطقة حضارية

هامشية، نقول إن هذا الرأي أصبح مع اكتشاف إبلا وأرشيفها الضخم رأياً باطلاً لا يستند إلى أي أساس ([19]).



Damascus University

[19]- يمكن النظر بتوسع حول هذه المسألة لدى جلب، إجناس: تباين البيئة بين إبلا في شمال سورية ولاجاش في جنوب بلاد الرافدين في كتاب أضواء جديدة على تاريخ وآثار بلاد الشام، ترجمة قاسم طوير، ص 42-751.

الفصل الثالث

سورية في الألف الثاني ق0م

في بداية حديثنا عن سورية في الألف الثاني ق 0م، لابد من الإشارة إلى أن العناصر الأمورية كانت قد بدأت بالتوغل إلى بلاد الرافدين وسورية منذ منتصف الألف الثالث ق0م، وهناك أكثر من شاهد نصي على ذلك.

فالملك الأكادي شاركاليشاري (2223–2198ق0م) يذكر في أحد تواريخ سنوات حكمه، أنه انتصر على الأموريين (مارتو بالسومرية) في منطقة جبل بسار (جبل بشري شمال شرقي تدمر). والملك شوسين (2036–2028ق0م) يفتخر بأنه بنى سوراً سماه جدار مارتو أو سور مارتو، لمنع الأموريين من الدخول إلى أراضي دولته. ومع اكتشاف إبلا وأرشيفها تعززت معارفنا عن هؤلاء الأموريون خلال الألف الثالث ق 0م والمهم في وثائق إبلا التي تذكر الأموريين أنها تعود إلى فترة أقدم ولو بقليل من نصوص الدولة الأكادية.

فنصوص إبلا توضح لنا أن الأموريين عاشوا في منطقة جبل بشري منذ القرن الرابع والعشرين ق0م. فالنص (TM, 1317, G, 75) يمكن ترجمته كالتالي: « أقمشة من أجل فلان من إيمار (مسكنة على الفرات) نذراً منه بعد ما هلك الأموريين (أو لأن الأموريين قد هلكوا) وخروفاً من ماشية فلان نفسه ضحية منه للنصر الذي تحقق»([1]).

والأمر المميز الآخر في وثائق محفوظات إبلا أنها تذكر ملوك الأموريين، فهناك نصوص تذكر إرسال أنواع من الأقمشة إلى ملك الأموريين وإلى كبار السن من بلاد

---

[1]- آركي، الفونسو: ماردو (الأموريين) في نصوص إبلا، ترجمة قاسم طوير، في كتاب أضواء جديدة، ص77.

الأموريين أيضاً. ويبدو أنه بعد الهزيمة التي لحقت بالأموريين أقسموا يمين الولاء والتبعة للإبلويين ([2]).

والآن وبعد أن انهارت مملكة إبلا، فإن هؤلاء الأموريين أسسوا ممالكهم الخاصة والقوية في مناطق مختلفة من سورية، كما فعلوا في بلاد الرافدين بعد انهيار سلالة أور الثالثة. وكانت أهم الممالك التي أسسوها ممالكة يمحاض (حلب) وماري وقطنة وإيمار وغيرها.

أولاً– مملكة يمحاض :

خلفت مملكة يمحاض وعاصمتها حلب مملكةإبلا كقوة مسيطرة على الشمال السوري مطلع الثاني ق 0م. ولكن معلوماتنا عن هذه العاصمة خلال الألف الثالث ق0م يشوبها قدر كبير من عدم الوضوح. فحتى قبل اكتشاف أرشيف إبلا كان الكثير من الباحثين يعتقدون أن المدينة لم تكن موجودة قبل الألف الثاني ق 0م. والبعض الآخر من هؤلاء الباحثين ذهب يبحث عنها في بعض النصوص الرافديةالتي يرد فيها ذكر لمدن واقعة في حوض الفرات الأوسط أو الشمال السوري من مثل آرمي (Armi) أو أرمان (Arman) وغيرهما. وبعد اكتشاف أرشيف إبلا وجد بعض الباحثين ومنهم آركي عضو اللجنة الدولية المكلفة بنشر وترجمة هذا الأرشيف أن المدينة كانت موجودة في الألف الثالث ق0م وأن اسمها يرد في وثائق إبلا تحت اسم خلب، ولأنها كانت مكان عبادة ضمن سلطة ملوك إبلا، يشرف عليها موظف يحمل لقب قيم (أوجولا) فهي لا تذكر إلا مرتبطة بإلهها وهو الإله حدّا إله الطقس وأن زوجة هذا الإله واسمها خبت التي تعني « الحلبية » أي « سيدة حلب »([3]).

---

[2]- آركي، المرجع السابق، ص79.

[3]-Archi, alhponso: Aleppo in the Ebla Age. In AAAS.Vol XLIII. 1999, P131-134.

إن عدم إجراء تنقيبات أثرية واسعة في مدينة حلب نفسها وعدم الكشف عن وثائق من خلال أعمال التنقيب المحدودة التي جرت فيها، جعلنا نعتمد في دراستنا لتاريخها وتاريخ مملكة يمحاض حتى في الألف الثاني، أي عندما كانت تشكل واحدة من أكبر القوى في سورية، على مصادر خارجية. وهذه المصادر هي أرشيف ماري وأرشيف آلالاخ (السوية السابعة) بالدرجة الأولى، وأرشيف العاصمة الحثية بوغازكوي (حاتوشا القديمة). فأرشيف ماري يعرفنا على أوضاع المملكة من بداية تأسيسها تقريباً حتى عهد ملكها الثالث حمورابي الحلبي، وأرشيف آلالاخ يكمل لنا سلسلة ملوك حلب حتى نهاية هذه السلالة تقريباً.

أما أرشيف حاتوشا فإنه يفيدنا في التعرف على العلاقة التي ربطت بين الحثيين ومملكة يمحاض في عهد الدولة الحثية القديمة.

وفي السنوات الأخيرة ظهرت وثائق جديدة من مناطق أخرى مثل تل ليلان (شوباط انليل عاصمة الملك الآشوري شمشي أدو الأول) وتفيدنا هذه الوثائق في التعرف على امتداد نفوذ حلب إلى المناطق الواقعة إلى الشرق من نهر الفرات وصولاً إلى نهر دجلة وذلك في الفترة التي أعقبت انهيار امبراطورية شمشي أدو.

إن أول ذكر لملوك حلب يأتي من ماري، وتحديداً من عهد ملكها يخدون ليم (نحو1825-1810ق0م) الذي يورد في وثيقة التأسيس التي أودعها في أساسات معبد شمش إله الشمس، أخبار حملة قام بها إلى شواطئ البحر المتوسط. ومن ثم يذكر أخبار حلف تشكّل ضده ضم ملوك سامانوم وأوبرابوم وتوتول وأمنانوم وأبانوم ورابوم ولمساعدة هؤلاء (جاءت فرق سومو إيبوخ (حاكم) بلاد يمحاض). ومن الممكن أن يكون سومو إيبوخ هذا مؤسس السلالة الملكية في حلب التي استمرت تحكم فيها مدة قرنين من الزمان. ولقد عاصر سومو ايبوخ كلاً من يخدون ليم ملك ماري وشمشي أدو الأول ملك آشور وابنه يسمح أدو المقيم كنائب عن والده في ماري بعد استيلاء شمشي أدو عليها وحمورابي الحلبي وإشخي أدو ملك قطنة. ويبدو أنه حكم لفترة طويلة، فقد بدأ

حكمه قبل حكم شمشي أدو الأول (أي قبل 1809 ق0م) وانتهى نحو السنة الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من حكم حمورابي البابلي (أي نحو 1780). وقد أُعلن عن وفاته في رسالة أرسلها شمشي أدو الأول إلى ابنه يسمح أدو([4]).

أما عن نفوذ هذا العاهل، فمن المرجح أن المنطقة التي حكمها كانت تمتد من الفرات شرقاً حتى العاصي غرباً، أما حدوده الجنوبية فقد وصلت إلى حدود قطنة، أما باتجاه الشمال فقد بقيت أورشو وكركميش خارج نطاق مملكة يحماض وإن كانت خاضعة لنفوذها القوي.

وقد قام سومو إيبوخ بحملات ضد مناطق تابعة لمملكة شمشي أدو الأول، احتل خلالها قلعة تدعى « دورشمشي أدو » وسميت باسم الملك المنتصر أي « دور سومو إيبوخ ». ولقد استمر الصراع بين هذين العاهلين إلى أن توفي سومو إيبوخ. لكن الصراع بين المملكتين لم ينته بل استمر في عهد خليفة سومو إيبوخ الملك ياريم ليم الأول.

1- ياريم ليم الأول (نحو 1780-1765ق0م) :

يذكر ياريم ليم نفسه أن سومو إيبوخ هو والده. وقد عاصر مجموعة من الحكام الكبار سواء في سوريا أو في بلاد الرافدين، فهو كان معاصراً لحمورابي البابلي وأشخي أدو ملك قطنة ومن ثم ابنه الذي حل محله بعد وفاته المدعو يموت بعل، وفي عهده حدث التغيير في ماري حيث حل زمري ليم محل يسمح أدو ابن شمشي أدو وأبلا خاندا في كركميش، وأما في بلاد الرافدين فهناك إلى جانب حمورابي ريم سين ملك لارسا وإبال بيل الثاني حاكم أشنونا. وفي عهد ياريم ليم كان الصراع على أشده بين حلب وآشور في سبيل السيطرة على مناطق الفرات الأوسط. فكما نعلم فإن شمشي أدو الأول تمكن من السيطرة على ماري وأن زمري ليم قد التجأ إلى بلاط ياريم ليم. وبعد وفاة شمشي أدو

---

[4] - كلينغل، هورست: تاريخ سورية السياسي 3000-300 ق.م، ترجمة سيف الدين دياب، مراجعة عيد مرعي، دمشق، 1998، ص56-57.

حاولت حلب مدّ نفوذها إلى المناطق الخاضعة له، وكانت الخطوة الأولى في هذا الاتجاه، إعادة زمري ليم إلى عرش ماري وإنشاء حلف بين ماري وحلب توّج بزواج ملك ماري الجديد من الأميرةالحلبية شيبتو بنت ياريم ليم. وقد توسع هذا الحلف فيما بعد ليضم بابل التي كان يحكمها آنذاك حمورابي. وعلى العكس من ذلك فإن علاقات حلب مع قطنة المملكة الأمورية في وسط سورية كانت سيئة بدليل تحالفها مع شمشي أدو الأول وزواج ابنه ونائبه في ماري يسمح أدو من ابنة ملك قطنة أشخي أدو. ومن المؤكد أن هذا التحالف كان موجهاً بالدرجة الأولى ضد حلب وذلك بهدف وضعها بين فكي كماشة. ولكن العلاقات مع قطنة تبدلت إثر وفاة أشخي أدو ملكها وجلوس ابنه يموت بعل، ومن المحتمل أن هذا التحول في العلاقة كان بتدخل ووساطة من زمري ليم، مع أن أحد نصوص ماري يتضمن اقتراحاً من حمورابي البابلي، يعرض فيه التحالف مع ياريم ليم ملك يمحاض ويموت بعل ملك قطنة ([5]).

وقد ربطت علاقة طيبة ياريم ليم مع أوجاريت، حيث تذكر عدة نصوص من محفوظات ماري ومنها (ARM XXIII 538-540) إقامته في أوجاريت ويبدو أن زمري ليم قد رافقه في هذه الزيارة.

لقد امتد نفوذ حلب الاقتصادي والسياسي في عهد هذا الملك من قطنة جنوباً إلى كركميش ثم أورشو وخاشو في الأناضول شمالاً وإلى إكالاتوم شرقاً على مقربة من آشور، أما غرباً فكانت آلالاخ وميناؤها نافذة حلب على البحر ([6]). توفي ياريم ليم في حياة زمري ليم وخلفه ابنه حمورابي.

2– حمورابي اليمحاضي :

---

[5]- عبد الله، فيصل : المرجع السابق، ص 104.

[6]- كلينغل، هورست: المرجع السابق، ص64.

اعتلى حمورابي العرش نحو العام 1765 ق0م ولا نعرف تاريخاً دقيقاً لوفاته وجل ما نعرفه أنه كان مازال حاكماً على حلب عندما أخضع البابليون ماري ومن ثم دمروها (أي بعد عام 1761 ق0م).

وقد عاصر حمورابي الحلبي كلاً من زمري ليم ملك ماري وسميه حمورابي البابلي وتيار أمي ملك كركميش وإبني أدو ملك حاصور وغيرهم كثير.

وقد استمرت العلاقة الطيبة في عهده مع ماري، ويرد في إحدى وثائق محفوظات ماري أخبار لقاء جمع بين الملكين على أراضي مملكة يمحاض. وارتبط كذلك بعلاقة جيدة مع ملك أوجاريت الذي أرسل إليه طالباً منه التوسط لدى زمري ليم من أجل أن يسمح لابنه بزيارة قصر ماري الشهير، وإن كانت نصوص ماري لا تشير إلى هذه الزيارة قد تمت بالفعل. وأما فيما يتعلق بالعلاقة مع بابل، فقد ترسخت هذه العلاقات وأرسلت حلب فرقاً من الجند لمساعدة حمورابي البابلي في حروبه في بلاد الرافدين.

وقد شهد عصر حمورابي سقوط ماري بيد حمورابي البابلي، ومازلنا نجهل الأسباب التي دفعت حمورابي الحلبي إلى عدم تقديم المساعدة لصهره زمري ليم ملك ماري في محنته هذه، وربما كان الملك الحلبي مهتماً أكثر بمنطقة أعالي الجزيرة والفرات ولا يعنيه خوض حرب قد تكون خاسرة مع بابل. وتشهد الوثائق المكتشفة في تل ليلان (شوباط انليل – شخنا) التي كشفت عام 1987 عن ازدياد نفوذ الملك الحلبي في هذه المناطق وإلى تسابق حكام الدويلات المحلية المتوضّعة في منطقة الخابور مثلاً على التحالف مع الملك الحلبي. ومن أهم هذه الدويلات مملكة آبوم في عهد ملكها موتيا (من منتصف القرن الثامن عشر ق.م) وكردا وكرنا وكمنت وغيرها ([7]). إن باقي معلوماتنا عن مملكة يمحاض وملوكها نستقيها من خلال محفوظات ألالاخ (موقع العطشانة في سهل العمق) التي عُثر عليها في السوية السابعة من هذا الموقع أثناء عمليات التنقيب التي أجراها

---

[7]- إسماعيل، فاروق: أخبار جديدة عن نفوذ مملكة يمخد (حلب) في منطقة الخابور، مجلة دراسات تاريخية، العددان 45-46، 1993، ص121-126.

الإنكليزي ليونارد وولي. ومن خلال هذه المخطوطات نعلم أن ملك يمحاض (أبا إيل) ابن حمورابي قد منح شقيقه ياريم ليم حكم ألالاخ عوضاً عن مدينة « إرّت » الواقعة شرق الفرات والتي قامت فيها ثورة ضد الحاكم الحلبي، وقد أخذ أبا إيل من أخيه عهداً بأن يظل هو وأبناؤه خاضعين للسيادة الحلبية ([8]).

وأما الملوك الذين تعاقبوا على الحكم في يمحاض بعد أبا إيل فكانوا ياريم الثاني ونقمي إيبوخ وأركبتوم وياريم الثالث وأخيراً حمورابي الثاني. وقد تميز عهد هؤلاء الملوك وخاصة الأخيرين منهم بتضاؤل نفوذ مملكة يمحاض نتيجة عوامل داخلية وخارجية إلى أن جاء الهجوم الحثي أواخر القرن السابع عشر والذي أدى إلى سقوط المملكة بشكل نهائي.

3– الهجوم الحثي وانهيار مملكة يمحاض :

جاء انهيار مملكة يمحاض على يد جيرانها الشماليين، ونقصد بذلك الحثيين الذين بدؤوا في عهد دولتهم القديمة بمحاولة التوسع ومدّ النفوذ نحو الشمال السوري. وإن كانت المصادر الحثية لا تشير صراحة إلى الأسباب التي دفعت بالحثيين إلى هذه المنطقة، إلا أنه لا يمكن إغفال دور العامل الاقتصادي في هذه العملية، فالحثيون رغبوا بوضع أيديهم عل مصادر المواد الخام التي كانت في الشمال السوري، إضافة إلى وضع يدهم على الطرق التجارية التي كانت تمر في هذه المنطقة. وهناك نص متأخر يعود إلى زمن الإمبراطورية الحثية الحديثة ولكنه يستعرض جانباً من التاريخ الحثي الماضي، ويذكر هذا النص » في الماضي ملوك (بلاد) حلب امتلكوا مملكة عظيمة « ويُعتقد أن المقصود بعبارة (في الماضي) أي الفترة التي سبقت ظهور الحثيين على حدود حلب في عهد الملك الحثي خاتوشيلي الأول (النصف الثاني من القرن السابع عشر ق.م) (Kbo, 1,6).

---

[8]- عبد الله، فيصل: الأرض والإنسان في ألالاخ في القرنين 18-15 ق.م، مجلة دراسات تاريخية، العددان35-36، 1990، ص273، الحاشية رقم 4.

وقد بدأ الحثيون نشاطهم التوسعي هذا في عهد الملك لابارنا، وعلى ما يظهر فإن لابارنا حقق نجاحات هامة في هذا المسعى وخاصة في مناطق طرسوس (تارسا في النصوص الحثية)، فالآثار المكتشفة هنا وفي الطبقة الثالثة تحديداً التي تعود إلى (1700-1650 ق.م) تشير إلى خراب وتدمير لحق بالموقع ربما نتيجة حملات لابارنا إلى هنا ([9]).

إن أول حملة حثية باتجاه شمال سورية كانت في العام الثاني من حكم خاتوشيلي الأول حيث يذكر في حولياته « في العام التالي ذهبت أنا (قمت) ضد مدينة ألخاخا (آلالاخ) ودمرتها ».

ومن آلالاخ توجه خاتوشيلي الأول بجيوشه إلى أورشو، ففي النسخة الأكادية من حولياته يذكر « إثر ذلك توجهت أنا ضد أورشو، من أورشو ذهبت إلى إيكاكاليش ومن إيكاكاليش سرت إلى تيشيخينيو، وفي طريق عودتي دمرت أنا بلاد أورشو وملأت بيتي بالكنوز ».

وفي العام السادس توجه ضد مدينة خاشو « في العام التالي توجهت أنا ضد مدينة زارونتي ودمرت زارونتي، ضد مدينة خاشو توجهت أنا أمامنا (ملك الحثيين) وقف العدو، ومعهم فرق مدينة حلب (أي مع العدو) عند جبل أدالور أتممت أنا تدميرهم... الملك العظيم، شبيه الأسد، عبر نهر بوران مدينة خاشو قهرها.. »([10]). وقد عثر في العاصمة خاتوشا وأثناء التنقيب في المنطقة السادسة على مجموعة من النصوص الحثية، وعند مقارنتها مع حوليات الملك خاتوشيلي الأول، تبين أنها تتحدث عن نفس الموضوع الوارد في حولياته عن أحداث العام السادس من حكمه. ولكن ما يلفت الانتباه في النص الحثي هو ما يذكره عن وصول قوات من حلب للوقوف إلى جانب مدينة خاشو «

---

[9]- غيورغادزه: صراع الحثيين للسيطرة على شمال سورية في عهد الدولة القديمة، مجلة أخبار التاريخ القديم، (VDI) العدد 1، العام 1964، ص5.

[10]- غيور غادزه: المرجع السابق، ص 11.

Damascus University

زالودي قائد فرق ماندا وزوكراشي قائد فرق رجل مدينة حلب جاؤوا لمساعدة خاشو » أي أن زوكراشي جاء بقوات لوحده، ورجل مدينة حلب جاء بقوات وحده. ولكن من المقصود برجل مدينة حلب ؟ من خلال نصوص أخرى تعود للفترة نفسها (KUB, XXX 1, 5) تبين أن المقصود هو ملك حلب « ياريم الثالث » والمهم أن نتيجة هذه الحرب كانت هزيمة لقوات التحالف وربما مقتل القائد زوكراشي، وبالتالي فإن خاشو اعترفت بالسيادة الحثية وحلفت يمين الولاء لخاتوشيلي الأول.

إن توجّه قوات حلب لمساندة خاشو، يدل على أن هذه المنطقة إما أنها كانت تابعة بشكل مباشر لمملكة يمحاض، أو أن يمحاض أدركت المخاطر التي كانت تهددها من ناحية الحثيين، فأرادت مساعدة خاشو في الوقوف في وجه التقدم الحثي دفاعاً عن مصالحها الخاصة، حيث أدركت يمحاض الخطة الحثية القاضية بالتقدم خطوة خطوة نحوها.

توجه خاتوشيلي الأول بعدها ضد حلب نفسها. ولكن نتيجة هذه الحرب تبقى غير واضحة تماماً نتيجة التناقض في أخبار النصوص الحثية. فأحد نصوص خاتوشيلي الأول (Kbo, 1, 6) « ممتلكاتهم (أي ملوك حلب) خاتوشيلي الملك العظيم، ملك بلاد خاتي، جعلها مستوية... ». ولكن يبدو أن خاتوشيلي لم يتمكن من الوصول إلى مدينة حلب نفسها أو لم يدمرها واكتفى بالتعهد الذي أعطاه إياها ملك حلب بأن يكون تابعاً له، حيث يرد في نص آخر له «رجل (من) مدينة حلب، أخذ كلمة أبيه » والمقصود هنا أن خاتوشيلي قبل يمين الولاء الذي قدمه له ملك حلب. ولكن يرد في نص آخر « رجل (من) مدينة حلب رفض كلمة أبيه » أي أن هذا الملك وبعد انسحاب خاتوشيلي نقض عهوده السابقة. ولماكان خاتوشيلي مصاباً كما نفهم من سياق نص مورشيلي الأول خليفته على العرش الحثي، فإنه لم يكن قادراً على العودة إلى حلب مجدداً.

إن الضربة القاضية ضد يمحاض وعاصمتها حلب جاءت على يد مورشيلي الأول الذي يذكر في كتابة له (BOTU, 20, II, 10-11) « و(مورشيلي ذهب إلى (مدينة حلب) وهو من أجل (دم) أبيه (أي خاتوشيلي) ثأر ». ولم تتمكن حلب وملكها حمورابي الثاني، خليفة ياريم ليم الثالث من الصمود أمام قوات مورشيلي الأول، هذه القوات التي اجتاحت شمال سورية وتابعت طريقها إلى بابل حيث أسقطت الدولة البابلية القديمة، وكان ذلك بحدود العام 1595 ق0م.

بعد عودة مورشيلي الأول من حملته ضد شمال سورية وبابل اغتيل في عاصمته، ومرت الإمبراطورية الحثية بفترة من الضعف جعلتها غير قادرة على التدخل في شؤون شمال سورية، مما مكن ملوك حلب من استعادة بعض نفوذهم، ونعلم من هؤلاء الملوك شارا إل وأبا إل وإليم إليما. ولكن الخطر جاءهم الآن من جهة الشمال الشرقي حيث كان الحوريون الميتانيون قد أسسوا دولتهم في أعالي شمالي بلاد الرافدين، وبدؤوا بمدّ نفوذهم نحو الشمال السوري مما أدى إلى اصطدامهم مع مملكة يمحاض وإخضاعها لسيادتهم بعد طرد آخر ملوكها وأسرته إلى إيمار.

4- الوضع الاقتصادي في مملكة يمحاض :

مما لاشك فيه أن يمحاض كانت تتمتع بغنى كبير ناتج عن موقعها في منطقة خصيبة تصلح لجميع أنواع الزراعات سواءٌ الحقلية الواسعة كالحبوب أو زراعة الأشجار المثمرة وخاصة الزيتون والعنب. ولا يجب أن يغيب عن بالنا وقوع مملكة حلب في منطقة قريبة من مناطق الحصول على الأخشاب الثمينة وإن اختلف الدارسون حول أهمية الأخشاب في اقتصاد يمحاض.

ولاشك أن التجارة كانت مصدراً أساسياً للاقتصاد اليمحاضي نتيجة وقوعها على الطرق التجارية الواصلة بين بلاد الرافدين وسواحل البحر المتوسط والأناضول عبر الفرات. ومن المعلوم أن الدول التي كانت تقع على هذه الطرق التجارية كانت تحصل

على عائدات كبيرة من خلال ما كانت تفرضه من ضرائب على القوافل المارة عبر أراضيها. وكانت ماري بعلاقتها المميزة مع يمحاض تشكل شريكاً أساسياً في التجارة معها، ومن المحتمل أن المواد التي يرد ذكر وصولها إلى ماري في محفوظاتها، قد وجدت طريقها إلى باقي مدن بلاد الرافدين. كما أن منتجات هذه المدن كانت تصل إلى ماري ومن ثم إلى مملكة يمحاض.

ومن الأمثلة على ذلك ما يرد مثلاً في أحد نصوص الأرشيف من أن ياريم ليم ملك يمحاض أرسل مئة جرة خمر إلى ماري. وهناك نص آخر يذكر أن 144 جرة خمر، جبيت كمكس في محطة للجمارك عند ترقا ويبدو أن هذه الكمية أخذت كضريبة عن سفن كانت تحمل خمراً وقادمة من شمال سورية ([11]).

ونفس الشيء يمكن أن يقال عن إرساليات زيت الزيتون من يحماض إلى ماري، فهناك نص يشير إلى مقايضة كميات من زيت الزيتون مع زيت السمسم.

كما أشرنا أنفاً فإن ماري كانت تشكل محطة تجارية هامة بالنسبة ليحماض تحصل من خلالها على تحتاج إليه من مواد أولية وغيرها من غير المتوافرة في أراضيها ومنها القصدير، فأرشيف ماري يضم عدة وثائق تشير إلى إرسال كميات من القصدير إلى قصر حلب، ومنها نص يشير إلى إرسال كمية خمسين مينة قصدير (نحو 25 كغ) إلى ياريم ليم، ونص آخر يشير إلى إرسال (1) تالنت قصدير من حمورابي البابلي إلى حلب وغيرها كثير ([12]).

وكانت الألبسة اليمحاضية مشهورة وكانت تقدم كهدايا من قبل ملوك حلب إلى أصدقائهم من ملوك وأمراء الدول التي يتعاملون معها.

---

[11]- مرعي، عيد: التجارة بين ماري ويمحاض في القرن الثامن عشر ق.م، مجلة دراسات تاريخية، العددان 67-68، 1999، ص6-7.

[12]- انظر حول هذا الموضوع وبتوسع في بحث الدكتور عيد المرعي المشار إليه في الهامش السابق.

أما فيما يتعلق بالحرف والصناعات فإن وثائق آلالاخ السوية السابعة، تعطينا فكرة عن مدى الازدهار الذي كانت تعيشه منطقة الشمال السوري في ظل سيادة يمحاض عليها. فهذه النصوص تأتي على ذكر الصاغة والنحاسين والخياطين والنساجين والنجارين والحلاقين ودباغي والجلود وغيرهم كثير.

ثانياً– مملكة ماري :

تقع ماري (تل الحريري حالياً) في محافظة دير الزور غير بعيد عن الحدود السورية العراقية الحالية. وقد بدأت التنقيبات الأثرية في الموقع عام 1933م علىيد بعثة فرنسية برئاسة عالم الآثار أندريه بارّو وأدت هذه الأعمال (التي مازالت مستمرة حتى أيامنا هذه) إلى الكشف عن آثار استيطان تعود إلى العصر الحجري النحاسي. وتبين أن المدينة قد عاشت فترتي ازدهار إحداهما في منتصف الألف الثالث ق 0م ومعاصرة فترة عصر السلالات الباكرة في بلاد الرافدين، والثانية في مطلع الألف الثاني ق 0م وكانت معاصرة خلالها مملكة يمحاض وسلالة حمورابي في بابل.

لقد سيطرت ماري على قسم كبير من الأراضي الزراعية الواقعة في منطقة الفرات الأوسط ومن ضمنها السهول الواقعة بين الخابور والبليخ، وإضافة إلى أنها سيطرت على الطرق التي كانت تسير بمحاذاة نهر الفرات والتي كان يستخدمها التجار الجوالون سواءٌ المشاة منهم أو الذين كانوا يستخدمون قوافل الحمير. ومن ماري كانت الطرق تسير إلى غابات الأرز في سورية(الأمانوس) وإلى جبال الفضة (طوروس) وإلى السهول الخصيبة في أعالي نهر الخابور وإلى مجرى وادي العاصي، وإلى مناطق استخراج أحجار الأوبسيديان في الجبال الواقعة عند منابع نهر دجلة.

إن واضع « قائمة الملوك السومرية » كانت لديه معلومات عن سلالة ماري، ولكنه لم يتمكن من وضعها في إطارها التاريخي الصحيح. وتذكر القائمة أن السلالة التي حكمت في ماري هي السلالة العاشرة بعد الطوفان، وأن مؤسسها يدعى آشود وقد

حكم ثلاثين سنة. وهناك أيضاً إيلي شير (إذا كانت القراءة صحيحة) والذي عاصر نهاية سلالة جلجامش في أوروك. وقد عُثر على أختام تعود إلى هذا الملك في مدينة أور، الأمر الذي يمكن أن يدل على وصول نفوذ ماري في هذا العصر حتى الخليج العربي أو على امتداد التجارة المارية إلى هذه المنطقة ([13]).

لقد أتاح الكشف عن محفوظات إبلا إلى التعرف على سلسلة من الملوك الذين حكموا ماري خلال منتصف الألف الثالث ق 0م. ففي رسالة موجهة من حاكم ماري إنا دجن إلى معاصره الإبلائي اركب دمو يأتي إنا دجن على ذكر أسماء أربعة من أسلافه وهم أنوبو وسأمو ومن ثم إشتوب إشتار الذي وصل بسلطته إلى ميناء إيمار على الفرات وتمكن خليفته إيبلول إل من الوصول إلى كركميش (جرابلس الحالية)، ويبدو أن إيبلا كانت مضطرة لدفع أتاوة مهمة لماري، إلى أن وقّع أركب دمو معاهدة سلام معها.

ومن الملوك الآخرين لماري والذين يظهرون في وثائق إيبلا ايكون إشار الذي لم يحكم فترة طويلة، وآخرهم خيدار ([14]).

وفي العصر الأكادي خضعت ماري لملوك الدولة الأكادية بدءاً من شاروكين، أما خلال عصر السلالات الباكرة فيبدو أن ماري تمتعت باستقلالية من نوع ما حيث نرى الملك أورنمو يزوج ابنه من أميرة تدعى ترم أورم ابنة أبيل كين شكاناكو ماري.

إن أهم آثار عصر الازدهار في الألف الثالث ق 0م والتي كشفت عنها التنقيبات هي القصر الذي يعود إلى ما قبل عهد شاروكين والذي وجدت آثاره تحت آثار قصر الألف الثاني ق 0م. إلى جانب مجموعة من المعابد أهمها معابد عشتار ونيني زازا ونينهور ساج والزقورة ومجموعة تماثيل حكام ماري مثل تمثال بوزور عشتار وغيره[15]().

---

[13]- تاريخ الشرق القديم، ج1، ص342 وما بعدها.

[14]- عبد الله، فيصل: تاريخ الوطن العربي القديم بلاد الشام، ص 55-58.

[15]- بارو، أندريه: ماري، ترجمة رباح نفاخ، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1978.

Damascus University

ويبدو أن المدينة مرت بفترة انتقالية من نهاية الألف الثالث ق 0م إلى مطلع الألف الثاني ق 0م. هذه المرحلة التي شهدت سيطرة العناصر الأمورية على معظم المراكز الحضارية الرافدية والسورية ومن ضمنها ماري.

ولدينا معلومات موسعة عن فترة السيطرة الأمورية على ماري من خلال الأرشيف الذي عثر عليه في المدينة في مواسم التنقيب الثالث والرابع والخامس، ويتألف هذا الأرشيف من نحو خمسة وعشرين ألف رقيم كتبت بالخط المسماري وباللغة الأكادية، ويشمل وثائق متنوعة من حيث المضمون (اقتصادية وإدارية ودينية وسياسية واجتماعية وأدبية...الخ) وتقوم البعثة المنقبة بمهمة نشر هذا الأرشيف في سلسلة علمية اسمها (Archives Royales De Mari) (أرشيفات ماري الملكية) وتعرف اختصاراً بـ (ARM) وهناك إلى جانبها (ARMT) أرشيفات ماري الملكية – ترجمة.

ومن خلال هذا الأرشيف نعلم أن أسرة أمورية وصلت إلى الحكم في ماري في مطلع الألف الثاني ق 0م، وأول الملوك المعروفين من هذه الأسرة هو يجيد ليم. الذي حاول توسيع حدود دولته على حساب جيرانه، الذين كان أقواهم إلا كبكاكو ومقره مدينة ترقا (العشارة الحالية في محافظة الرقة) وقد تمكن يجيد ليم من طرده من هذه المدينة وضمها إلى سلطته. ولا نعرف سوى ذلك شيئاً عن أخباره.

أما خليفته يخدون ليم (نحو العام 1820ق0م) فمصدرنا الأساسي عن فترة حكمه وأعماله نستقيها من وثيقة التأسيس التي وضعها في أساسات معبد شمش إله الشمس الذي بناه في ماري والذي عثرت عليه البعثة المنقبة في موسم التنقيب التاسع عام 1953.

وفي هذه الوثيقة يقص يخدون ليم أخبار حملة قام بها إلى شواطئ المتوسط، وعن قيامه بجمع الأخشاب من الجبال من أجل تنفيذ مشاريعه العمرانية. ويذكر يخدون ليم في نفس الوثيقة أخبار حرب خاضها مع مجموعة من الحكام المحليين في منطقة الخابور

والذين لاقوا تأييداً قوياً من ملك حلب ([16]). ومن خلال محفوظات ماري نعلم أن أحد الحكام المحليين التابعين له واسمه أبي سمار كتب إليه رسالتين (ARM I، 1,2) يستنجد فيهما به ضد أعداء كثر محيطين به.

أما نهاية يخدون ليم فكانت الاغتيال، وربما كان شمشي أدو ابن إلاكباكبو وراء هذا الاغتيال، وخلفه على العرش أخوه سوموِيم الذي كانت فترة حكمه قصيرة، إذ سرعان ما استولت قوات شمشي أدو على ماري، وجعل من ابنه يسمح أدو نائباً عنه فيها وأصبحت ماري تشكل جزءاً هاماً من الإمبراطورية التي أنشأها شمشي أدو والتي استعرضناها في موقع آخر من هذا الكتاب.

وعندما توفي شمشي أدو لم يتمكن أبناؤه من المحافظة على هذه الإمبراطورية فعاد زمري ليم الأمير الماري الملتجئ إلى حلب إلى مدينته ليتولى السلطة فيها بعد طرد يسمح أدو منها.

بلغت ماري أوج قوتها وازدهارها في عهد آخر ملوكها زمري ليم. ومحفوظات ماري تعطينا فكرة عن العلاقات السياسية التي ربطته مع عدد من الدول السورية والرافدية، فمثلا ارتبط زمرى ليم برباط المصاهرة مع ملك حلب ياريم ليم بزواجه من ابنته الأميرة شيبتو وذلك بعد أن عاد إلى عرش ماري. واستمرت العلاقة الطيبة مع حلب في عهد ملكها حمورابي، وكانت علاقة زمري ليم جيدة في الجزء الأكبر من حكمه مع حمورابي البابلي وشاركت جيوش حلب وماري في حروب هذا الأخير ضد عيلام وأشنونة. أما مع قطنة في وسط سورية، فالعلاقة كانت أيضاً جيدة بدليل دخوله كوسيط بينها (أي بين قطنة) وحلب إثر وفاة شمشي أدو حليف قطنة السابق.

وكان يساعد زمري ليم مجموعة من كبار الموظفين والذين يختص كل واحد منهم بشأن معين. ونعرف من هؤلاء الموظفين مثلاً يحدي ليم وسوكان نيشوم المكلف بالأشياء

---

[16]- مرعي، عيد: يخدون ليم ملك ماري، « وثيقة تأسيس معبد إله الشمس (شماش) في ماري »، مجلة دراسات تاريخية، العددان 27-28، 1987، ص99-107.

الثمينة وبتوزيع المعادن وبالمشاغل وياسيم سومو مفتش القصر وقصور المملكة وهو مكلف أيضاً باقتراح التعيينات للسنة الجديدة. وكان هناك مجموعة من السفراء في قصور حكام المدن المجاورة مثل سفير زمري ليم لدى حمورابي البابلي المدعو إيبال بي إيل، وسفيره لدى كركميش المدعو سيدقو لاناسي.

وكانت المملكة مقسمة إلى مجموعة من المقاطعات أو المدن التي كانت يشرف عليها ممثل للملك كان من ضمن واجباته الإشراف على الجهاز الإداري في المقاطعة والمشاريع الملكية وتنظيم الأعمال الجماعية ومراقبة تقديم الأضاحي والتقدمات إلى المعابد، إضافة إلى حفظ النظام وفض المشاكل التي كانت تنشب بين أوساط السكان في مقاطعته، ونعرف من حكام هذه المقاطعات كبري داجان في ترقا، وإيتور أشدو في ناحور، وياقيم أدو في ساغاراتوم وغيرهم.

ووجد تحت تصرف هؤلاء الحكام مجموعة من الموظفين، فهناك المسؤولون عن مشاريع القصر مباشرة، و المسؤولون عن الأراضي الزراعية، ومجموعة من المحاسبين الذين كانوا يقومون بإحصاء السكان وتوزيع الأراضي على الناس المكلفين برعايتها وتعداد رؤوس الماشية وكميات الحبوب المنتجة، ويرد في النصوص كذلك جامعو الضرائب والكتبة.

وكان هؤلاء يتلقون أجورهم من الدولة على شكل قطع من الأراضي الزراعية ومواد عينية وهدايا قيمة في بعض المناسبات.

وكان هناك إلى جانب الموظفين الملكيين مجلس للكبار وللشيوخ Sugagum ومجلس لجميع سكان المقاطعة أو المدينة Alum-Ruhrum ووجود مثل هذه المجالس مؤكد في عدد من المدن التابعة لماري.

ومن خلال محفوظات ماري نعلم عن وجود ملكيات خاصة للأراضي إلى جانب الأراضي التابعة للملك وللمعابد، ففي أحد النصوص (ARMT, VIII 85) يذكر أن أكثر من أربعين شخصاً من سكان ساجاراتوم على الخابور، رفعوا دعوى بشأن أراضٍ

تابعة للقصر معلنين أن هذه « الأرض لنا » ويرد بعد ذلك أن « آلوم ساجاراتوم اجتمع، والقضية نظر فيها زمري ليم في معبد عناة ».

وفيما يتعلق بأراضي المعابد فمعلوماتنا عنها قليلة، إلا أن وجودها مؤكد من خلال بعض النصوص، فالنص (ARMT 1, 1360) يذكر بستان الإله حدد في أرابخه، والنص (ARMT VI, 0405) يذكر إعادة بناء قناة ري على أراضي الإله إيغي كورا في ترقا.

وقد ازدهرت الحرف في هذا العصر ازدهاراً كبيراً، حيث كانت تنفذ في الورش الملكية مختلف التوصيات الواردة من القصر من مثل الحلي المصنوعة من الأحجار الكريمة والأسلحة والتماثيل وغيرها كثير.

إلا أن التجارة كانت مصدر غنى ماري الأساسي، وكان الملك يشرف على هذه التجارة بصورة مباشرة.

ونصوص ماري غنية بالحديث عن تصدير الخمر والخشب والخيول وزيت الزيتون من المدن المختلفة إلى بلاد الرافدين عبر ماري، وعن تصدير القصدير إلى المدن السورية، وكانت ماري تستورد القصدير من شمال غرب إيران ([17]).

نهاية مملكة ماري :

إن الغنى الذي كانت تتمتع به ماري بحكم موقعها المهيمن على طرق التجارة الدولية، جعلها منذ قيامها هدفاً لجيرانها الأقوى منها عسكرياً سواءٌ في بلاد الرافدين أم في سورية. وعندما انتهى حمورابي من تصفيه حساباته مع أعدائه في بلاد الرافدين وخاصة ريم سين حاكم لارسا وبعد أن أخضع أشنونا وعيلام، طمع في أن يضم ماري إلى مملكته، ليسيطر بذلك على الجزء الأكبر من الطريق التجاري الواصل ما بين الخليج العربي إلى سورية والمار بمدينة ماري، لتحل بابل محل ماري كوسيط في عالم التجارة

---

[17]- حول اقتصاد ماري انظر: أبو عاصي، علم الدين: اقتصاد مملكة ماري، القرن الثامن عشر ق.م، وزارة الثقافة، دمشق، 2002.

الدولية. ولذلك وجه حمورابي إلى ماري حملتين كانت أولاهما في العام 1761 ق0م وفي هذه الحملة تمكنت قوات حمورابي من الاستيلاء على ماري. ولكنه عاود مهاجمتها ثانية بعد عامين من هجومه الأول، ربما لانتفاضها ضد حكمه، وفي هذه المرة أمر بهدم أسوارها. أما مصير ملكها زمري ليم فلا نعرف عنه شيئاً.

وفي العهود اللاحقة سكن المدينة عدد قليل من السكان، حيث ورد ذكر المدينة في خط سير الملك الآشوري توكولتي نينورتا الأول مع بلاد خانه ورابيقو، وقد عثر المنقّبون بالفعل على بعض الآثار التي تعود إلى العهد الآشوري الوسيط، من بينها مقبرة ومبنى كبير يعتقد أنه كان مقراً للقائد الآشوري.

لقد كان للكشف عن مدينة ماري أهمية استثنائية بالنسبة لتاريخ سورية وبلاد الرافدين خلال الألفين الثالث والثاني ق 0م. فالمنشآت المعمارية المكتشفة في المدينة وخاصة قصرها الملكي الذي اعتُبر واحداً من أضخم قصور الشرق القديم، تطلع لرؤيته الكثيرون من حكام الدول المجاورة. وأرشيفها الضخم والذي نستقي منه معظم معلوماتنا ليس فقط عن تاريخ المدينة وإنما تاريخ الشمال السوري وعلاقته مع بلاد الرافدين، قدّما لعلماء الآثار والتاريخ كنزاً لا ينضب من المعلومات ([18]).

ثالثاً– مملكة ألالاخ :

تقع ألالاخ (موقع العطشانه الحالي) في سهل العمق. وقد اشتهر هذا السهل منذ القدم بغناه بالثروات الطبيعية ولاسيما الأخشاب والمعادن. فجبال طوروس (جبال الفضة) تحده من الشمال، وجبال الأمانوس (جبال الأرز) تحده من الغرب، كما أن الطرق التجارية القادمة من بلاد الرافدين والمتجهة نحو شواطئ المتوسط تمر منه، والشيء نفسه يمكن أن يقال عن الطرق المتجهة إلى أسيا الصغرى.

---

[18]- حول هذه الخلاصة انظر:
Marguron, Jean-Klaude: Mari ou les Debuts de le Civilisation Urbaine en Syria. Asss. Vol XLV1. P47-57.

Damascus University

أما موقع ألالاخ نفسه فيشغل موقعاً متميزاً في هذا السهل، حيث تلتقي عنده الطرق المؤدية إلى بلاد الحثيين شمالاً وإلى داخل سورية جنوباً، ويوجد بالقرب منه مرفأ طبيعي يسمح باستقبال المراكب التجارية.

وقد أجريت أعمال تنقيب أثري في الموقع على يد عالم الآثار الانكليزي الشهير ليونارد وولي بدءاً من عام 1937 واستمرت لسبع مواسم. وقد أعطت هذه التنقيبات نتائج على غاية من الأهمية، وأثبتت أن بعض المواقع المحيطة بالتل قد استُوطنت منذ العصر الحجري القديم، أما التل نفسه فقد بدأ السكن فيه منذ الألف الرابع ق0م، حيث قامت هنا دولة كانت على صلة وثيقة في العصور التالية بمختلف الدول الكبرى التي قامت في المشرق العربي القديم.

إن أهم المكتشفات التي صادفت المنقبين بالنسبة لمؤرخي تاريخ سورية القديم هي النصوص التي وُجِدت في السويتين السابعة (وهي الأقدم) والرابعة (وهي الأحدث). وقد بلغ عدد هذه النصوص نحواً من 460 نصاً مكتوباً باللغة الأكادية وبالخط المسماري. وقد نسخ ونشر هذه النصوص العالم وايزمان في مؤلفه المعروف باسم (The Alalakh Tablets) والصادر في لندن عام 1953. وكما ذكرنا آنفاً فإن هذه النصوص تصنف في مجموعتين: الأقدم منهما هي التي عثر عليها في السوية السابعة وتؤرخ هذه السوية بنهاية القرن الثامن عشر ق 0م ويرمز لها بـ (ATVII) ويرمز لرقمها بـ (+AT)، أما المجموعة الأحدث وهي نصوص السوية الرابعة (ATIV) ويرمز لنصوصها بـ فقط (دون إشارة+) وتؤرخ بنهاية القرن الخامس عشر ق 0م ويصل عدد نصوص هذه المجموعة إلى مئتين وخمسين نصاً ([19]).

ووثائق ألالاخ بشقيها على غاية من الأهمية لأنها تغطي فترة هامة من تاريخ شمال سورية تقع بين انهيار ماري وتوقف معلومات أرشيفها في نهاية النصف الأول من القرن

[19]- عبد الله، فيصل: الأرض والإنسان في ألالاخ في القرنين الثامن عشر والخامس عشر ق.م، دراسات تاريخية، العددان 35-36، 1990، ص258-259.

الثامن عشر ق0م، وظهور أوجاريت ونوزي وشاغار بازار وبوغازكوي والعمارنة اعتباراً من نهاية القرن الخامس عشر ق0م.

وأما من حيث المنشآت المعمارية فإن أهم ماكشف عنه في ألالاخ القصر المنسوب إلى ملكها ياريم ليم والذي بني في موقع قصر حاكم سابق ويتميز بتحصيناته القوية، وكان يغطي مساحة قدرها 100×350م ويشبه في بنائه قصر كنوسوس في جزيرة كريت ولاسيّما فيما يتعلق بالنقوش الجدارية والمتشابهة في القصرين.

1- حكام ألالاخ :

ذكرنا عند حديثنا عن أبا إل ملك يمحاض أنه منح شقيقه ياريم ليم حكم ألالاخ عوضاً عن مدينة إرت الواقعة إلى الشرق من نهر الفرات. وبذلك يكون ياريم ليم هذا أول حكام ألالاخ، ولكنه لم يكن مستقلاً تماماً على ملوك يمحاض. فهو يؤرخ للأحداث بسني حكم ملك يمحاض، حتى أن ياريم ليم هذا لم يحمل اللقب الملكي أبداً.

وقد خلف أميتاكوم أباه في حكم ألالاخ، وقد عاصر ملوك يمحاض نقميبا وإركابتوم وياريم الثالث وحمورابي الثاني. وقد استمرت ألالاخ في عهده تابعة ليمحاض حتى عندما حمل أميتاكوم اللقب الملكي، فإن ذلك تزامن مع حمل ملك حلب لقب الملك العظيم.

ويبدو أن نهاية السوية السابعة في ألالاخ قد ترافق مع نهاية السلالة الحلبية تقريباً، أي نتيجة الهجوم الحثي على الشمال السوري منذ منتصف القرن السابع عشر ق0م.

وتسود فترة من الغموض تاريخ حلب وشمال سورية عموماً بما فيها ألالاخ ما بين الهجوم الحثي وصعود ادريمي إلى عرش ألالاخ. ولكن ومن خلال بعض النصوص المكتشفة في أرشيف السوية الرابعة ومن خلال نقش السيرة الذاتية لإدريمي، نعلم أن حلب استعادت شيئاً من مكانتها بعد الهجوم الحثي وأن ثلاثة من الملوك تعاقبوا على عرشها وهم شارا إل وأبا إل وإيليم إليما وهو والد إدريمي.

إدريمي ملك ألالاخ :

بدأت الدولة الحورية الميتانية التي قامت في منطقة شرق الفرات الأعلى، بمدّ نفوذها في منطقة أعالي بلاد الرافدين. ومن ثم سعت لمد نفوذها نحو الشمال السوري، مستفيدة من تفوقها العسكري المتمثل باستخدام قواتها للعربات الحربية الخفيفة التي تجرها الخيول. وكان الوضع الدولي في مصلحتها: فالدولة الحثية كانت ما تزال تعاني من نتائج الصراع على العرش الذي نشب بعد اغتيال مورشيلي الأول. ودول بلاد الرافدين كانت في موقف لايسمح لها بمواجهة دولة قوية صاعدة لعدم وقوف الدولة الكاشية على قدميها بعد في بابل، وآشور كانت متقوقعة داخل حدودها منذ انهيار الإمبراطورية الآشورية الأولى. حتى إن الآشوريين خضعوا في هذه المرحلة للحوريين الميتانيين.

ولدينا من هذا العصر وثيقة هامة تعطينا فكرة عن الأحداث التي كانت تجري في الشمال السوري في هذا العصر، وهذه الوثيقة هي السيرة الذاتية التي أمر ملك ألالاخ إدريمي بنقشها على تمثاله النصفي وهي مكتوبة بالمسمارية وباللغة الأكادية.

يذكر ادريمي في بداية سيرته قصة هروبه مع جميع أفراد أسرته من حلب التي كان يحكمها آنذاك إليم إليما، بعد وقوع اضطرابات في المدينة ربّما بتحريض من الميتانيين، والتجأت الأسرة إلى أقربائها حكام إيمار (مسكنة على الفرات). غادر بعدها إدريمي أصغر أبناء ملك حلب المخلوع إيمار إلى بلاد كنعان حيث أمضى هناك سبع سنين متواصلة بانتظار الفرصة المناسبة للعودة إلى ملك أبيه. وفي النهاية جهّز إدريمي قوات حملها على السفن من مكان ما من الشاطئ الفينيقي إلى بلاد موكيش، وكما يقول في سيرته « عندما سمعت بلادي بقدومي جُلبت إلي الثيران والنعاج، وخلال يوم واحد عادت إلي بلاد نيا وبلاد (أميا) وبلاد موكيش ومدينة ألالاخ عاصمتي الحالية »([20]).

[20]- حول هذه السيرة مترجمة إلى العربية بشكل كامل انظر، مرعي، عيد : ادريمي ملك ألالاخ، مجلة دراسات تاريخية، العددان 29-30، العام 1988، ص103-126.

وهناك آراء متعددة بين الدراسين حول مدى ارتباط عودة إدريمي إلى العرش باتفاقه مع الحوريين أو باتفاقه مع المصريين.

فالبعض يرى أن ادريمي عاد إلى الملك على أن يتنازل عن حلب ويبقى مقر حكمه في ألالاخ وأن يعترف بالسيادة العليا للملك الحوري الميتاني عليه. أما البعض الآخر فيرون أن ادريمي ما كان يمكن أن يعود إلى ألالاخ لو لم يأخذ موافقة المصريين على مثل هذا المشروع، وينطلق هؤلاء في رأيهم هذا من أن ادريمي كان قد التجأ إلى كنعان كما يذكر هو في سيرته الذاتية، وبلاد كنعان في هذه الفترة كانت خاضعة للنفوذ المصري وما كان بإمكان إدريمي أن يبني سفنه على الشاطئ الكنعاني وينطلق بها شمالاً لو لم يكن المصريون موافقين على هذه الخطوة.

بعد أن وطّد إدريمي الوضع في ألالاخ لمصلحته، قام بحملة عسكرية ضد بعض القلاع والمدن الحثية دون أن يتمكن الحثيون من الرد بسبب مشاكلهم الداخلية. دام حكم إدريمي في ألالاخ نحو ثلاثين عاماً (1500-1470ق0م) وكانت حدود دولته البحر المتوسط غرباً وكيليكية شمالاً وأوجاريت جنوباً. وقد اعتُبر إدريمي مؤسساً لسلالة جديدة في ألالاخ. وبعد وفاته خلفه على العرش ابنه نيقميبا، وفي عهده تظهر السيادة الحورية الميتانية بشكل أوضح في ألالاخ. فبعض الوثائق المكتشفة في ألالاخ تشير إلى شاو شتار الملك الحوري الميتاني كسيد أعلى في ألالاخ. ولم تسجل الوثائق العائدة لعهده أخبار أية حملات عسكرية، والأمر نفسه ينطبق على خليفته المدعو إليم إليما. وربما كان هذا الشخص هو المقصود في كتابة الفرعون المصري تحوتمس الثالث عند حديثه عن استلام هدايا هي عبارة عن عبيد ونحاس وأخشاب ونباتات حلوة من حاكم ألالاخ.

2- الأوضاع الاجتماعية في مملكة ألالاخ :

Damascus University

من خلال وثائق ألالاخ تبين أن السكان كانوا يتألفون من طبقتين رئيسيتين هما الأحرار والعبيد. فالأحرار يتمتعون بالامتيازات المختلفة ونجد بينهم إلى جانب الأسرة الحاكمة وكبار رجال الدولة، الموظف والتاجر والفلاح والحرفي.

أما العبيد فكانوا بمعظمهم من عبيد الدَّيْن. وهم مواطنون عليهم العمل في بيوت مدينيهم حتى يسددوا دينهم مع الفائدة التي كانت تتروح بين 20-25% وإذا لم يستطيعوا السداد كانت تهددهم العبودية الدائمة.

وكان الملك هو الدائن الأكبر في معظم الأحيان، ومن الأمثلة على نصوص الإقراض يمكن أن نذكر ما يلي « إن المدعو (ناشو) بن (تشاني) مدين بثلاثين شيكلاً من الفضة للملك اميتاكوم وعليه ان يقيم في بيت الملك أميتاكوم. ويتعهد بذلك (نشاتي بن شامايا)، إنه سيدفع كمية الفضة في بيت الملك وعندها يستطيع المدين أن يذهب حيث يريد » ([21]). وكان هناك عبيد آخرون من أسرى الحروب وإن كان عددهم قليلاً لا يعتد به.

رابعاً- قطنة :

تقع قطنة (تل المشرفة الأثري على بعد 18 كم إلى الشمال الشرقي من حمص) في سهل خصيب يقع بين تخوم البادية التدمرية ووادي العاصي المجاور. كما انها تقع على ملتقى طريقين رئيسين: من الأناضول شمالاً إلى فلسطين ومصر جنوباً، ومن بلاد النهرين شرقاً إلى ساحل المتوسط عبر البادية السورية غرباً.

وقد جرت أعمال تنقيب أولي في الموقع بين عامي 1924-1929 من مثل الكونت الفرنسي روبير دومينيل دو بوسيون حيث كشف عن سبع مناطق موزعة في أجزاء مختلفة من الموقع، كانت غالبيتها تقع في القسم الشمالي من المدينة المرتفعة المسماة بقبة الكنيسة، حيث نقب فيها عن المجمع المعماري الواسع للقصر الملكي، وإلى جانب

---

[21]- للتوسع حول هذا الموضوع، أنظر: عبد الله، فيصل: الأرض والإنسان في ألالاخ... ص 257 وما بعدها.

ذلك عثرت البعثة المنقبة على عدد من الوثائق المسمارية البابلية العائدة إلى القرن الخامس عشر ق0م. وقد جاء في هذه الوثائق اسم الموقع القديم « قطنه ».

استؤنفت أعمال التنقيب في الموقع عام 1994 من قبل بعثة وطنية برئاسة الدكتور ميشيل المقدسي، وتحولت البعثة إلى بعثة وطنية أوربية (ألمانية – إيطالية) بدءاً من العام 1998.

وكشفت أعمال التنقيب المختلفة أن أقدم السويات تعود إلى الفترة المتأخرة من الألف الثالث ق0م، وكان الموقع خلال عصر البرونز الوسيط (2000-1500ق0م) يمثل عاصمة لمملكة سورية أمورية ومركز تجارياً رئيساً إلى جانب حلب وماري ([22]).

ومن اللقى الأثرية الهامة العائدة لهذه الفترة والتي تدل على مدى اتساع علاقات قطنة مع العالم الخارجي تلك الكسرة الحجرية التي تحمل اسم الملك المصري سيزوستريس الأول (سنوسيرت الأول 1956-1911ق0م) من الأسرة الثانية عشرة ([23]).

ولكن يبقى مصدر معلوماتنا الأساسي عن قطنة خلال القرن الثامن عشر ق0م هو محفوظات ماري. ومن خلال هذه المحفوظات نعلم اسم ملكين من ملوكها وهما أشخي أدو وأموت بيل.

لقد عاصر أشخي أدو كلاً من شمشي أدو الأول ملك آشور وسومو إيبوخ وياريم ليم ملكي حلب وحمورابي البابلي وريم سين ملك لارسا وغيرهم، ومع ذلك فنحن نجهل تاريخ بداية ونهاية حكمه.

ومن خلال محفوظات ماري نتعرف على العلاقة الوثيقة التي ربطت بين شمشي أدو واشخي أدو والتي توجت بزواج ابن شمشي أدو ونائبه في ماري يسمح أدو من ابنه أشخي أدو الأميرة بيلتو، ونعلم كذلك أخبار الفرق العسكرية التي أرسلت من قبل

---

[22]- مقدسي، ميشيل - وآخرون: تنقيبات قطنة، ج1، 2002، ص7-8.

[23]- روكاتي، الساندرو: كسرة حجرية تحمل أسماء سيسوستريس الأول اكتُشفت في قطنة، في كتاب تنقيبات قطنة، ص111-112.

شمشي أدو للمرابطة في قطنة، ويبدو أن هذا الأمر قد تم في إطار تحالف الدولتين ضد مملكة يمحاض، الجارة الشمالية لقطنه.

أما أموت بيل فيرد ذكره في وثائق ماري بدءاً من العام الثاني لحكم زمري ليم ملك ماري. وبذلك فقد عاصر أموت بيل كلاً من ياريم ليم وحمورابي ملكي حلب وحمورابي البابلي وريم سين ملك لارسا. وهناك أجزاء من رسالة من حمورابي يقترح فيها تحالفاً مع كل من ياريم ليم ملك حلب وأموت بيل ملك قطنة ([24]). وقد ورد اسم أموت بيل في رسالة سفير ماري لدى حمورابي إيتور أشدو الشهيرة من بين الحكام الأقوياء في سورية وبلاد الرافدين، وتذكر هذه الرسالة أن خمسة عشر ملكاً كانوا يتبعون أموت بيل.

ويبدو أن السلام قد حل بين قطنة ويمحاض في عهده وبوساطة من ملك ماري زمري ليم.

لقد استغل حكام هذه المدينة موقع مدينتهم المتميز جغرافياً أحسن استغلال فتحوّلت إلى منطقة عبور أساسية في قلب سورية، وعلى طرف باديتها. وهناك نص من أواخر عهد زمري ليم يشير بوضوح إلى وجود مركز تجاري هام في قطنة. كما تشير الوثائق إلى أن قطنة امتلكت علاقات تجارية مع أغلب الممالك والمدن الرئيسية في المنطقة. ويبدو أن قطنة كانت تؤدي دور الوسيط التجاري بين هذه المناطق المختلفة. فالنصوص تشير مثلاً إلى ورود أخشاب من قطنة إلى ماري وهي مرسلة إلى آشور، وكانت هذه الأخشاب من أنواع مختلفة (الأرز والسرو والأس) ومصدرها الأساسي جبال الساحل السوري مما يدل على أن قطنة كانت تؤدي دور الوسيط التجاري بين هاتين المنطقتين في هذه التجارة.

وتشير النصوص كذلك إلى أن تجارة الخيول كانت رائجة في قطنة وكان ملوكها هم من يتاجرون بها بدليل أن اشمي دجن رجا اشخي أدو ملك قطنة أن يرسل إلى إيكالاتوم اثنين منها.

---

[24]- كلينغل: المرجع السابق، ص74.

وذكرت النصوص كذلك عربات خشبية سريعة قدمها أموت بيل إلى قصر ماري إلى جانب جرارٍ من الخمر وأوانٍ معدنية ذهبية وفضية.

أما المواد الواردة إلى قطنة فكان أبرزها القصدير المرسل من ماري، كما يشار مراراً إلى إرسال ألبسة ومنسوجات وأحذية جلدية إلى ملك قطنة أو تقديمها إلى رجال من قطنة أو رسلها ([25]).

بعد محفوظات ماري لا يوجد إلا القليل من الشواهد التي تتحدث عن قطنة خلال الفترات اللاحقة. فألواح ألالاخ من السوية السابعة تذكر قطنة مرتين فقط وتشير إلى أن فرقاً من يمحاض (في عهد ياريم ليم الثالث) قد حاربت ضدها. ويبدو أن الغزو الحثي لشمال سورية، بدءاً من منتصف القرن السابع عشر ق 0م لم يترك آثاراً مباشرة على قطنة، ولم يرد ذكر لها في النصوص الحثية التي تتكلم عن ذلك ([26]).

[25] - إسماعيل، فاروق : قطنا « المشرفة » في وثائق العهد البابلي القديم في الحوليات العربية السورية، المجلد 42، عام 1996، ص97-101.

[26]- كلينغل: المرجع السابق، ص 76-77.

Damascus University

الفصل الرابع

سورية في منتصف الألف الثاني ق0م

شهدت فترة منتصف الألف الثاني ق 0م تحولات سياسية هامة على الساحة السورية، تمثلت ببدء ما يسمى «الصراع الدولي على سورية» وبروز قوى محلية جديدة على حساب قوى أخرى كانت فاعلة خلال النصف الأول من الألف الثاني ق 0م. أما فيما يتعلق بالصراع الدولي على سورية، فلقد بدأ هذا الصراع في نهاية القرن السادس عشر ق0م عندما أراد المصريون استعادة مناطق نفوذهم السابقة في المنطقة السورية، هذه المناطق التي كانوا قد فقدوها أثناء حكم الهكسوس لمصر. وكنا قد ذكرنا في الفصل السابق أن الحوريين الميتانيين قد استغلوا فرصة الضعف الذي حل بمملكة يمحاض المسيطرة على الشمال السوري نتيجة الهجمات الحثية عليها وآخرها هجوم الملك الحثي مورشيلي الأول في مطلع القرن السادس عشر ق 0م، ليمدوا نفوذهم وهيمنتهم من شمال الجزيرة السورية إلى الشمال السوري وصولاً إلى البحر المتوسط. وبذلك أصبحت المنافسة للسيطرة على سورية بين المصريين والحوريين الميتانيين.

ولقد بدأ الملك المصري تحوتمس الأول (1525-1512ق0م) الحملات المصرية الكبرى تجاه سورية، بحملة وصلت به إلى شواطئ الفرات حيث أقام هناك نصباً يخلد وصوله إلى هذه المنطقة. وتابع هذه المسيرة وبحماسة أكبر الملك تحوتمس الثالث (1468-1426ق0م) الذي قام بسبع عشرة حملة عسكرية إلى المنطقة السورية، كان أبرزها حملة العام الثاني وحملة العام الثامن من حكمه. أما حملة العام الثاني فهي الحملة التي وقعت فيها معركة مجدو (تل المتسلم حالياً في فلسطين) بين تحالف الأمراء السوريين بزعامة أمير قادش وبدعم مباشر من الحوريين الميتانيين، وبين القوات المصرية. وعلى الرغم

من النصر الذي حققه تحوتمس الثالث في هذه الحملة إلا أن السيادة المصرية لم تستتب في المنطقة السورية. وأما حملة العام الثامن فكانت من الحملات الكبرى التي قام بها هذا العاهل والتي وصلت به أيضاً إلى الضفة الشرقية لنهر الفرات دون أن يدخل في مواجهة مباشرة مع القوات الحورية التي فضّلت التراجع إلى عمق بلادها وعدم خوض حرب مع القوات المصرية ([1]).

وشهد عهد الملك تحوتمس الرابع بداية تحسن في العلاقات الحورية الميتانية –المصرية، ربما كان الدافع وراءه ازدياد القوة الحثية في بلاد الأناضول، وسعي هذه القوة للتوسع نحو الشمال السوري.

ويبدو أن الحثيين كانوا يشكلون خطراً على الحوريين الميتانيين، لذلك كانوا هم المبادرين للاتصال بالمصريين وتحسين العلاقات معهم. ولقد توج هذا التحسّن في العلاقة بين الطرفين بزواج الملك تحوتمس الرابع من الأميرة الميتانية «موت مويا». أما عهد الملك المصري أمنحوتب الرابع اخناتون (نحو منتصف القرن الرابع عشر ق 0م) فلقد شهد تراجعاً كبيراً للنفوذ المصري في المنطقة السورية، بسبب انشغاله بما سمي بالثورة الدينية في عهده. وقد استفاد الحثيون من هذا الانشغال والتراجع ليوطدوا سيطرتهم على الشمال السوري من ناحية، ومحاولة مدّ هذه السيطرة نحو الجنوب من ناحية أخرى.

وتلقي وثائق العمارنة ([*]) الضوء على الأوضاع في المنطقة السورية خلال هذه الفترة.

ومن خلال هذه الوثائق نتعرف على أهم القوى التي كانت موجودة في سورية خلال هذا العصر. ولا شك أن أمورو وقادش شكلتا مراكز هامة مؤيدة للحثيين عامةً في حين أن بعض المدن الأخرى مثل جبيل وقطنة كانت تقف مع الموالين لمصر.

---

[1]-حول حملات تحوتمس الثالث في المنطقة السورية، انظر بتوسع في محمود عبد الحميد: دراسات في تاريخ مصر الفرعونية. منشورات جامعة دمشق، 1996.

[*] هي مجموعة من الرسائل التي تبادلها حكام الدويلات السورية وملوك بابل الكاشية وحوري ميتاني مع الملكين المصريين أمنحوتب الثالث واخناتون، وتنسب إلى المكان الذي عثر عليها فيه وهي قرية العمارنة الحالية.

ولأهمية إمارة أمورو وقادش خلال هذا العصر فإننا سنتوقف لنلقي بعض الأضواء عليهما.

يعتبر عبدي عشيرتا مؤسساً للأسرة الحاكمة في أمورو، ولكن الشخصية الأكثر بروزاً خلال عصر العمارنة هو ابنه عزيرو الذي حاول أن يلعب على خط التوتر في العلاقة بين الحثيين والمصريين وأن يستفيد من هذا الخلاف ليوسع منطقة نفوذه في المنطقة الوسطى من سورية. فعندما اقتربت قوات الملك الحثي شوبيلوليوما من وسط سورية سارع عزيرو للاتصال به على الرغم من كونه يتبع رسمياً للملك المصري. ولكنه بالمقابل وتحت إلحاح من البلاط المصري فإنه سافر إلى مصر ليظهر ولاءه للعرش المصري ولينفي عن نفسه التهم التي كالها إليه رب عدي حاكم جبيل (EA 169, 170) ومن بين هذه التهم أنه يحاول الاستيلاء على ممتلكات ملك مصر في سورية. وبالفعل فإن عزيرو كان قد استولى على سيميرا مقر إقامة أحد المراقبين المصريين في المنطقة السورية وإرقاتا.

كما أن عزيرو عقد معاهدة مع شوبيلوليوما. وبموجب هذه المعاهدة أصبحت أمورو مرتبطة رسمياً بالدولة الحثية، وتشكل الحد الجنوبي الأقصى من الدول التابعة للحثيين، وتحاذي منطقة النفوذ المصري في سورية. وتحدد المعاهدة مبادئ العلاقات السياسية بين خاتي وأمورو على الرغم من أن حكام أمورو اللاحقين كانت لهم معاهداتهم الخاصة مع الحثيين.

وتفرض شروط المعاهدة على عزيرو حماية ودعم سيده وبلاد خاتي وأبناء الملك العظيم، ويتوجب عليه أن يدفع جزية سنوية مقدارها 300 شيقل ذهب من أفضل نوعية وأحجار كريمة. كما طلب منه أن يمثل بصورة منتظمة أمام الملك الحثي. وقد ظهر ولاء عزيرو للملك الحثي عندما قامت ثورات في سورية ضد الحثيين من قبل قادش ونوخاشي ([2]).

---

[2]- كلينغل: المرجع السابق، ص 178-182.

أما خلفاؤه على عرش أمورو فكانوا ابنه أري تيشوب الذي حكم فترة لم تتجاوز العامين خلفه على إثرها ابنه دوبي تيشوب الذي استمر على ولائه للحثيين وجددت المعاهدة المعقودة بين الحثيين والأموريين في عهده. ومقابل ولائه للحثيين تعهد الملك الحثي مورشيلي الثاني بمساعدته ضد أعدائه وإنهاء عمليات السلب والعمليات العدوانية الأخرى التي تقوم بها فرق حثية في أمورو.

وكان خليفته ابنه بينيتشينا، ويبدو أنه مارس سياسية لم يرض عنها الملك الحثي مووأتيلي الثاني الذي عمد إلى عزله عن العرش إلى أن أعاده إليه الملك الحثي التالي خاتوشيلي الثالث. ويبدو أن سبب عزله عن العرش يعود إلى وقوفه إلى جانب المصريين في معركة قادش (1270ق0م) التي تمثل ذروة الصراع الحثي المصري على المنطقة السورية. أما آخر ملوك أمورو المعروفين بالنسبة لنا قبل الغزو الحثي لشمال سورية فهو شاوشجامووا الذي يرد ذكره في الوثائق الحثية كملك عقدت معه معاهدة تحالف وكذلك في بعض النصوص الأوجاريتية، حيث كان ملك أوجاريت عميشتمرو الثاني متزوجاً من أخته ([3]).

أما قادش (تل النبي مند) فكانت زعيمة للتحالف الذي قام في سورية ضد تقدم تحوتمس الثالث في العام الثاني من حكمه والذي واجهه في معركة مجدو. أما في عصر العمارنة فإن الشخصية البارزة في قادش فهو أميرها إيتاجاما الذي حاول أن يستفيد، كما فعل عزيرو من قبل، من التنافس المصري الحثي على سورية. وبما أن الحثيين كانوا يفرضون سيطرة قوية على الشمال السوري، فقد حاول إيتاجاما التوسع جنوباً مما أوقعه في صدام مع حاكمي قطنة أكيزي (EA53) وبيراوازا حاكم دمشق (EA189). وتشير نصوص العمارنة أيضاً إلى قيام علاقة وطيدة بينه وبين عزيرو حاكم أمورو، بلغت درجة من الثقة جعلت عزيرو يقدم قوات عسكرية إلى إيتاجاما يحارب من خلالها أعداءه (EA140).

[3]- كلنيغل: المرجع السابق، ص 188-190.

اغتيل إيتاجاما من قبل ابنه نيقمادو الذي كان أكثر ميلاً للحثيين من أبيه، ويرد ذكره في بعض نصوص أوجاريت، كما أن الملك المصري حورمحب يذكر اسم المدينة من ضمن المدن التي أخضعها أثناء حملته على سورية. ولكن قادش ما لبثت أن عادت للسيادة الحثية، حيث تذكر من ضمن حلفاء الملك الحثي في معركة قادش. ويبدو أن المدينة قد دمرت بشكل نهائي اثناء غزو شعوب البحر للمنطقة السورية ([4]).

ومن الإمارات الأخرى التي كانت موجودة في المنطقة السورية والتي يرد ذكر لها في نصوص العمارنة، مدن الساحل بمعظمها إلى جانب قطنة وأوبي (دمشق) وغيرها. وقد خضعت هذه المدن إما للسيادة المصرية أو للسيادة الحثية.

وفي هذه المرحلة نشطت مجموعات بدوية في المنطقة السورية عرفت باسم (Ca-Gas) أو الخابيرو ([5]). ويبدو أن هؤلاء كانوا من المرتزقة الذين يقدمون خدماتهم الحربية للحكام المحليين، ففي رسائل رب عدي حاكم جبيل إلى الفرعون المصري يذكر رب عدي عن التحالف القائم بين عبدي عشيرتا وابنه عزيرو ومجموعات الـ (Ca-Gas). وفي إحدى هذه الرسائل يخبر رب عدي الفرعون المصري أن عبدي عشيرتا نصح سكان مدينة أميا بقتل حاكمهم والاتحاد مع (Ca-Gas).

ولقد كانت المناطق الخاضعة للنفوذ المصري مقسمة إلى ثلاث مقاطعات كبرى وهي: أمورو (التي تحدثنا عنها آنفاً) وأوبي وكنعان، وكان يشرف على كل واحدة من هذه المقاطعات موظف مصري يطلق عليه بالأكادية اسم « رابيصو ».

وقد شملت مقاطعة أمورو أجزاء من وسط سورية والساحل المقابل لها وكان مركزها في مدينة سيميرا (تل الكزل حالياً في محافظة طرطوس). أما مقاطعة أوبي فكانت في جنوب سورية وشرق الأردن وكان مركزها في كوميدي (كامد اللوز). وأما كنعان فضمت فلسطين وكان مركز حاكمها في غزة ([6]).

---

[4]- كلينغل: المرجع السابق، ص171-175.

[5]- حول هذه التسمية وأصلها، انظر: عبد الله، فيصل: خبرو- خابيرو، مشكلة حقيقية أم مفتعلة، مجلة دراسات تاريخية، العددان 31-32، عام 1989، ص155 وما بعدها.

[6]- العلاقات الدولية والدبلوماسية في الشرق القديم، المحرر المسؤول ستو تشفسكي، موسكو، 1987.

Damascus University

وأما الحثيون، فقد عمدوا إلى ربط الأمراء الواقعين تحت سيادتهم بمعاهدات يتعهد فيها هؤلاء الأمراء بالولاء للعرش الحثي وبتقديم المعونة العسكرية وعدم إيواء الفارين والمعارضين وما إلى ذلك، مقابل تعهد الملك الحثي بإبقائهم في مراكزهم ونقل سلطاتهم إلى أبنائهم بعد وفاتهم. وكانت هذه المعاهدات تجدد مع كل تغير في السلطة يحدث سواءٌ في العاصمة الحثية أو في الإمارت السورية. وقد كُلّف نائب الملك الحثي المقيم في كركميش بالإشراف على المصالح الحثية في سورية وحل النزاعات التي تنشب بين حلفائهم فيها. وإذا استعصى عليه الحل تنقل المشكلة إلى العاصمة الحثية لينظر فيها الملك الحثي بنفسه.

لقد ازداد التوتر بين المصريين والحثيين ولاسيّما بعد أن تمكن شوبيلوليوما من إخراج الحوريين الميتانيين من شمال سورية بشكل نهائي وأصبح وجهاً لوجه مع المصريين، وكانت الموقعة التي لا بد من وقوعها في قادش عام 1285ق0م بين قوات الطرفين وحلفائهما السوريين. ولما لم تنته المعركة بتحقيق نصر حاسم من أحد الطرفين، ومع ظهور خطر الآشوريين الذين بدؤوا بالنهوض والتوسع نحو الشمال السوري وإلى الجنوب الرافدي بعد سقوط السلالة الكاشية، فإن الدولتين أبرمتا اتفاق سلام بينهما عام 1270ق0م تقاسما بموجبه النفوذ والسيادة على سورية. فكانت سورية الشمالية من نصيب الحثيين، في حين بقي الجنوب السوري من دمشق إلى فلسطين تحت النفوذ المصري. وفيما يتعلق بالساحل فيبدو أن مدينة أوجاريت كانت خط حدود النفوذ بين الطرفين فمن أوجاريت وإلى الشمال منطقة نفوذ حثي، وإلى الجنوب منها منطقة النفوذ المصري.

الفصل الخامس

أوجاريت

تقع أوجاريت (رأس الشمرة) على بعد أحد عشر كيلو متراً إلى الشمال من مدينة اللاذقية. وقد بدأت أعمال التنقيب الأثري في هذا الموقع بعد الاكتشاف المصادفة الذي تم في موقع مينة البيضا، الذي تبين أنه يشكل الحي البحري لمدينة أوجاريت وكان ذلك في عام 1929، من قبل بعثة أثرية فرنسية بقيادة كلودشيفر.

لقد أدت أعمال التنقيب الأثري إلى الكشف عن آثار استيطان تعود إلى منتصف الألف السابع ق0م، ولم ينقطع هذا الاستيطان حتى نهاية الألف الثاني ق0م.

وقد أثبتت هذه النتائج أن المدينة كانت مركزاً تجارياً هاماً على ساحل البحر المتوسط يقصده التجار من كل حدب وصوب بقصد المتاجرة مع أنحاء العالم المختلفة، وأنه كان يقيم فيها جاليات من جنسيات متعددة، أغلب أفرادها من التجار وبعضهم الآخر من الممثلين الرسميين لدولهم فيها. وقد جعل ازدهار أوجاريت منها هدفاً تسعى الدول الكبرى لفرض سيادتها عليها كالمصريين والميتانيين والحثيين.

أولاً- الأرشيف الأوجاريتي :

لقد عثر على أول الوثائق المكتوبة في موسم التنقيب الأول عام 1929، وتتالت بعد ذلك الاكتشافات إلى أن تكون لدينا أرشيف كبير مكتوب بلغات متعددة أكثره بالخط المسماري وباللغات السومرية والأكادية والحورية والحثية، وهناك نصوص مكتوبة بالأبجدية الأوجاريتية التي كانت مجهولة في ذلك الحين، ولذلك عكفت مجموعة من العلماء (بوبير ودورم وفيروللو) على محاولة فك رموز هذه الكتابة وترجمة النصوص

المكتوبة بها، ومن ثم أطلقوا عليها اسم الاوجاريتية، وبعد سنوات عدة عُثر على كسرة من الآجر تضمنت قسماً من أحرف هذه اللغة وما يعادلها من أحرف الهجاء الآشوري – البابلي وعزز هذا الاكتشاف من صحة حل رموز اللغة الأوجاريتية كما توصل إليه العلماء المذكورون، ومن ثم بُدِئ يوضع قواعد لهذه اللغة الجديدة ([1]). لقد كانت هذه الأبجدية أهم ما قدمته أوجاريت للبشرية جمعاء. فهذه الأبجدية نقلت البشرية من مرحلة الكتابة المقطعية المعقدة إلى مرحلة الكتابة الأبجدية البسيطة المؤلفة من ثلاثين حرفاً.

وأما محتوى نصوص محفوظات أوجاريت فهو متنوع كتنوع لغاتها، فلدينا الوثائق الاقتصادية والإدارية والسياسية والنصوص الأسطورية والشعرية والدينية. وتسمح لنا هذه الوثائق بالتعرف على حياة المدينة الخالدة خلال فترة ازدهارها القصوى أي خلال القرنين الرابع عشر والثالث عشر ق0م.

ثانياً– الحياة السياسية :

لقد كان النظام الملكي في أوجاريت ملكياً وراثياً. ونحن نعلم أسماء يعض الملوك الذين حكموا في أوجاريت قبل عصر المحفوظات الذي يبدأ مع الملك نيقمادو الثاني. ومن المحتمل أن يكون عميشتمرو الذي يرد ذكره في بعض الوثائق كمعاصر لنقميبا ملك أمورو، هو والد نيقمادو الثاني، ونحن لا نعلم بالضبط السنة التي جلس فيها على العرش ولكنه كان معاصراً للملكين الحثيين شوبيلوليوما الأول ومورشيلي الثاني وامنحوتب الثالث والرابع اخناتون وربّما أيضاً خلفاء هذا الملك المصري.

أما عن علاقاته مع القوى المحيطة به، فيبدو أنه عقد صلحاً مع عزيرو الذي تحرش بالمقاطعات الجنوبية لأوجاريت وخاصة سيانو، ودفع له خمسة آلاف شيقيل فضة، مقابل تعهد عزيرو بمساعدة أوجاريت ضد أعدائها المحيطين بها من جهات مختلفة (موكيش

---

[1]- إسماعيل، خالد: مقدمة في قواعد اللغة الأوجاريتية، اربد، 1998، ص1-9.

ونوخاشي ونيا). وبعد ذلك عقد هذا الملك معاهدة مع الملك الحثي شوبيلوليوما الأول. وقد نصت المعاهدة على أن يقدم نيقمادو جزية سنوية للملك الحثي عبارة عن مقدار محدد من الفضة والصوف الأرجواني وملابس للملك وللملكة الحثية ولبعض كبار رجال الدولة. وبالمقابل ضُمت إلى مملكة أوجاريت أراضٍ كانت تتبع فيما مضى لجارتيها ومنافستيها الشمالية موكيش والشرقية نيا ([2]).

ويبدو لافتاً للانتباه في هذه المعاهدة، أن الملك الحثي لم يطلب من أوجاريت إرسال أية قوات عسكرية في حال تعرضت خاتي لخطراً ما. وبالمقابل لم تتضمن المعاهدة كفالة من الحثيين بشأن توارث العرش الأوجاريتي ([3]).

وقد خلفه على العرش ابنه أرخالبا الذي حكم لفترة قصيرة من الزمن عُزل بعدها عن العرش ليُولى أخاه نيقميبا.

يبدو أن نيقميبا أصبح ملكاً على أوجاريت في العام التاسع من حكم مورشيلي الثاني، وقد عاصر من الملوك الحثيين كلٌ من مووآتلي الثاني ومورشيلي الثالثوخاتوشيلي الثالث وبينيتشينا ملك أمورو وعبدي عناتي مملك سيانو.

وقد أُبرمت بينه وبين مورشيلي الثاني معاهدة تبعية رسمية تشبه تلك المعقودة مع ملوك أمورو وغيرهم من الأمراء السوريين الشماليين. ومن الأمور المميزة لهذه المعاهدة أن الملك الحثي خفّض الجزية المفروضة عليه بعد أن فصلت منطقة سيانو و(أوشناتو) عن مملكة أوجاريت وأصبحتا تتبعان مباشرةلنائب الملك الحثي المقيم في كركميش. وخلال عهد نيقميبا تم زواج ابنة ملك أمورو بينيتشينا من عميشتمرو بن نيقميبا.

جلس عميشتمور الثاني على عرش أوجاريت خلفاً لوالده نيقميبا، وعاصر كلاً من خاتوشيلي الثالث وتودخاليا الرابع ملوك حثي، وإني تيشوب ملك كركميش وشاوشجاموا

---

[2]- درورو، مرغريت. س: أوجاريت في القرنين الرابع عشر والثالث عشر ق 0م. ترجمة منال حمدان في كتاب أوجاريتيات، إشراف وتحرير عمر الغول. اربد، عام1997، ص8-9.
[3]- كلينغل: المرجع السابق، ص154-155.

ملك أمورو. وقد أعفى مرسوم أصدره تودخاليا الرابع، أوجاريت من إرسال أية فرق عسكرية لدعم جيوشه مقابل إرسال كميات كبيرة من الذهب (خمسين مينة)، وقد وقع خلاف بين عميشتمرو واخوته وتدخل هنا أيضاً الملك الحثي الذي منح الأخوة حصتهم من ميراث أبيهم مقابل انتقالهم إلى جزيرة قبرص. وعندما وقع الخلاف بين عميشتمرو وزوجته ابنه ملك أمورو وتم الطلاق بينهما وتحول الخلاف العائلي إلى خلاف بين تابعين للملك الحثي، حُسم الأمر من قبل الملك الحثي ونائبه في كركميش، وكانت نقطة الخلاف الأساسية تتعلق بابن الأميرة الأمورية والذي كان ولياً لعهد أوجاريت. فكان قرار الملك الحثي، أنه إذا اختار الأمير الذهاب مع أمه إلى بلاد أمورو فله ذلك ولكن يفقد حقه في ولاية العهد.

ويبدو أنه كانت لعميشتمرو زوجة أمورية ثانية وقد اتهمت هذه الزوجة التي تسمى في النصوص « ابنة السيدة العظيمة » نقول اتهمت هذه الزوجة «بالإثم الكبير» ويبدو أن هذا الإثم كان الزنى وقد قضى عليها عميشتمرو بالموت، ففرت إلى أمورو ولجأت إلى أخيها شاوشجاموا، ووقعت مشاكل أخرى بين الدولتين بسبب هذه المشكلة، وكانت نتيجة حكم الملك الحثي بهذه القضية أن تعاد الزوجة الخاطئة إلى زوجها، ويكون من حق هذا الزوج أن ينفذ حكم الإعدام فيها، إن كان ذلك من حقه القانوني. ولكن كان عليه أن يدفع لملك أمورو مبلغاً كبيراً من المال على سبيل التعويض ([4]).

وخلف أبيرانو والده عميشتمرو على عرش أوجاريت. يبدو أن ملك أوجاريت تخلف عن الظهور أمام « الملك الشمس » وإرسال الهدايا له ولحاشيته، الأمر الذي استجوب تدخل نائب الملك الحثي في كركميش، الذي أرسل رسالة تأنيب للملك الأوجاريتي لقاء تصرفه هذا ([5]) وقد عاصر أبيرانو كلاً من الملكين الحثيين تود خاليا الرابع وخليفته أرنو واندا الثالث، وورثه على عرش أوجاريت أبنه نقمادو الثالث الذي لا نملك

[4] - درور: المرجع السابق، ص13.

[5]- كلينغل: المرجع السابق، ص 159-160.

معلومات أكيدة عن النشاطات السياسية لعهده، كما لا نعلم أي تزامن بينه وبين حكام آخرين من خلال المعلومات المتوفرة إلى الآن.

إن آخر ملوك أوجاريت المعروفين من خلال المحفوظات هو عمورابي الذي لا يذكر في محفوظات أوجاريت أنه كان ابناً لسلفه نقمادو الثالث، وبالمقابل عثر في المدينة على ترنيميتن دينيتين تربطانه مع أسلاف ملكيين وتطلبان السلام له ولزوجته ولمدينته ولبيته ولأبوابه ([6]).

ومن المحتمل أن يكون عمورابي هذا معاصراً للملك الحثي شوبيلوليوما الثاني ونائبه في كركميش تالمي تيشوب، الذي حكم في النزاع الذي نشب بين الملك الأوجاريتي وزوجته الأميرة الحثية. فحكم لها ببائنتها على أن تترك القصر الملكي.

وشهد عصر عمورابي نهاية مملكة أوجاريت، هذه النهاية التي نعرف أشياء عنها من خلال الألواح الطينية التي عثر عليها في فرن شي الألواح. وتشكل هذه الألواح مجموعة رسائل (أو نسخ عنها) واردة وصادرة من أوجاريت في أيامها الأخيرة. فنعلم منها مثلاً أن الإمبراطورية الحثية كانت في ضائقة شديدة من الناحية الغذائية، فالملك الحثي يطلب من ملك أوجاريت إرسال سفن محملة بالحبوب إلى ميناء أورا في كيليكيا. وملك آلاشيا (قبرص) أرسل يخبر الملك الأوجاريتي عن تحركات لأعداء هاجموا أناساً وسفناً من أوجاريت ويطلب منه اتخاذ الحيطة والحذر، ولكن جيش أوجاريت كان في ذلك الوقت (أو على الأقل جزء منه موجود في بلاد الحثيين عند السيد الأعلى) ([7]).

لقد كان السائد في أوساط الدارسين حتى وقت قريب أن هذا العدو الذي تشير إليه رسائل ملك قبرص والمعروف حالياً باسم شعوب البحر أنه المسؤول عن دمار أوجاريت والمدن التابعة لها ([8]).

---

[6]- كلنيغل: المرجع السابق، ص 162.

[7]- كلينغل: المرجع السابق، ص 164.

[8]- حول هذا الموضوع وموضوع الرسائل المتبادلة، أنظر في ساندرز، ن.ك: الأزمة في شرق المتوسط، تعريب مهدي الزعبي في كتاب أوجاريتيات، إشراف د. عمر الغول، ص 22-26.

ولكن ظهر فيما بعد رأي آخر يقول أن أوجاريت « التي كان يعيش فيها أفراد ينتمون إلى مناطق جاءت منها شعوب البحر، استطاعت أن تتفاوض مع هذه الشعوب، ونجحت في أن تبقى في معزل عن كل نزاع يقع بينها وبين الشعوب المذكورة، ولكنها أي أوجاريت، سقطت في نفس الوقت ضحية لزلزال رهيب لم تستطع بعده أن تنهض من بين الأطلال والمناطق المجاورة التي قضى عليها الجفاف ودمرتها الحرب » ([9]).

ثالثاً– الحياة الاقتصادية :

تلقي النصوص المكتشفة في أوجاريت الضوء على مجمل النشاطات الاقتصادية التي كان يمارسها الأوجاريتيون، وسنبدأ هنا أولاً بالزراعة.

1– الزراعة :

من خلال مجموعة كبيرة من النصوص المكتشفة في أوجاريت نعلم أن الملك وأسرته كانا من أكبر ملاك الأراضي في أوجاريت، وكان الملك يقوم بإهداء قطع من هذه الأراضي لأشخاص مختلفين لقاء خدمات كانوا يؤدونها له. وكان بعض الأشخاص يؤدون للملك أحياناً لقاء هذه الهبات هدايا جوابية غالباً ما تكون كميات من الفضة. فمثلاً تذكر إحدى الوثائق أن عبدو بن عبد نرجال تلقى هبة من الملك وهو مقابل ذلك التزم بتأدية مبلغ سنوي قدره عشر وزنات من الفضة، أما اوتينو وأحفاده الذين حصلوا على بيت المرأة شوبي، فقد قدم للملك ألفي وزنة من الفضة، وهذا بالواقع يمثل ثمناً لما حصل عليه ولا يمكن اعتباره هدية.

وكان الكثير من الأشخاص يملكون أراضي زراعية مختلفة المساحة ولهم الحق في التصرف بها كيفما يشاؤون بيعاً وإهداءً وتوريثاً. لقد فرضت طبيعة الأرض في أوجاريت

---

[9]- البعثة الفرنسية المنقبة: رأس الشمرة (1929-1979)، ترجمة فهمي الدالاتي، مطبوعات المديرية العامة للآثار والمتاحف، دمشق 1980، ص98.

نوعية المزروعات المناسبة لزراعتها، حيث غلبت زراعة الأشجار المثمرة وخاصة الزيتون والعنب، وتأتي بالدرجة الثانية الحقول المزروعة بالحبوب.

2- الحرف والتعدين :

لقد ازدهرت الحرف في أوجاريت ازدهاراً كبيراً، فمن خلال التنقيبات الأثرية وُجدت مجموعة كبيرة من اللقى الفخارية التي تغطي فترات تاريخية مختلفة تبدأ منذ الألف السادس ق0م. ومع دخول منطقة المشرق العربي القديم عصر البرونز، تبدأ بالظهور في أوجاريت مصنوعات برونزية مختلفة: فؤوس، خناجر، نهايات رماح، وكذلك مجوهرات للزينة: أساور، أقراط، أطواق، وعندما بدأت الوثائق بالحديث بدأت بذكر حرفيين من مختلف الاختصاصات: الخزافزن والحجارون والسباكون والبناؤون والخبازون والنساجون والدباغون. ومع ازدياد النشاط التجاري البحري لسكان أوجاريت ازدهرت صناعة المراكب البحرية. ويبدو أن الدولة في أوجاريت كانت توزع على الحرفيين المواد الأولية وكان هؤلاء الحرفيون يقومون بتصنيعها ويقدمون لقاء ذلك جزءاً من منتجاتهم لصالح خزينة الدولة.

ونشير أخيراً إلى الكشف الهام الذي تحقق في موقع رأس ابن هانئ والذي كان جزءاً من مملكة أوجاريت، وتمثل هذا الكشف بالعثور على منشأة مخصصة لإنتاج السبائك النحاسية، مما يشير إلى أهمية صناعة التعدين في حياة أوجاريت ([10]).

3- التجارة :

إن للتجارة دوراً على غاية من الأهمية في حياة أوجاريت. وكانت هذه التجارة بحرية بالدرجة الأولى مع مصر وقبرص وبلدان بحر إيجة، وبرية مع داخل سورية وصولاً إلى بلاد الرافدين.

---

[10]- دراسات أوجاريتية: مجموعة من الباحثين الفرنسيين، ترجمة نور الدين خضور، ط1، 1985، ص 75.

أما عن صادرات أوجاريت فلا شك أن الزيتون والخمور كانتا المادتين الرئيسيتين من بين المنتجات الزراعية التي تصدرها أوجاريت، إلى جانب الأصبغة والصوف المصبوغ بالأرجوان، ولقد ساعد قرب الغابات من أوجاريت على ازدهار صناعة حرفية خشبية وفخارية ترافق نموها مع صناعة عاجية محلية كانت تستخدم مواد محلية (عاج فرس النهر) أو مستوردة (عاج الفيل) لتصنيع قطع الأثاث والعلب وأدوات الزينة التي كانت تصدر بلا ريب إلى المدن المجاورة وإلى قبرص، أما خشب البناء فكان يصدر إلى مصر وبلاد الرافدين ([11]).

وأما واردات أوجاريت فقد اقتصرت على المواد الكمالية بسبب اكتفائها الذاتي من المواد الغذائية. وكان من ضمن هذه المواد المستوردة، الأحجار الثمينة والأوعية والحلي الخزفية والذهب المصنع، إضافة إلى الخامات المعدنية التي كانت تفتقر إليها أراضي أوجاريت، وكانت هذه المواد المستوردة تصل إلى أوجاريت من مصر وجزر بحر إيجة وسورية الداخلية وقبرص وغيرها.

ولقد اكتسبت العلاقات التجارية بين أوجاريت ومصر وبين أوجاريت والإمبراطورية الحثية أهمية خاصة.

ففيما يتعلق بالعلاقة مع مصر فهناك دلائل على أنها تعود إلى مطلع الألف الثاني ق0م على الأقل، فقد وُجد في أوجاريت وفي مكان ليس ببعيد عن معبد الإله داجانِ عقْدٌ من التمائم يحمل رأس الملك المصري سنوسرت الأول (1971-1928ق0م)، وقرب مدخل معبد بعل وُجد تمثالان لأبي الهول يحملان رسماً لرأس أمنحوتب الثالث (1405-1367ق0م).

ووجدت هنا أيضاً منحوتات مستوردة من مصر، منها منحوته سنوسرت أنحا وزوجته وحماته. ويعتقد شيفر منقب أوجاريت أن سنوسرت هذا كان سفيراً لمصر لدى

---

[11]- المرجع السابق، ص 67-68.

ملك أوجاريت. وعثر في أحد البيوت السكنية الواقعة إلى الشرق من القصر الملكي على سيف يحمل رسم مرنبتاح (1224–1213ق0م)، وإبان الحفريات التي جرت في العام 1973م اكتُشف بالقرب من القصر الملكي الكبير بيت تعود ملكيته إلى شخص مصري أقام في أوجاريت إقامة دائمة، وكان من الموجودات ضمن البيت قطع من أصص وأكواب وغيرها من المصنوعات المصرية.

أما عن العلاقات مع الحثيين، فبحكم علاقات التبعية التي كانت تربط أوجاريت بالإمبراطورية الحثية، فإن الصلات كانت وثيقة بين الطرفين، وكثيراً ما كانت الإمبراطورية الحثية تستعين بالاسطول الأوجاريتي، سواءً العسكري أو المدني لتلبية احتياجاتها المختلفة، ويبدو أن بعض التجار الحثيين حاولوا استغلال علاقة التبعية هذه لتحقيق مكاسب شخصية، مما استدعى تدخل ملك أوجاريت نيقميبا لدى الملك الحثي خاتوشيلي الثالث الذي حل هذه المشكلة عن طريق رسالة أرسلها إلى أوجاريت ([12]).

وتوجد دلائل كثيرة على وجود تجار من بلاد الرافدين بمختلف مناطقها في أوجاريت. فإحدى الوثائق التي تتحدث عن توزيع خمور من مستودعات القصر الملكي كان من بين الذين حصلوا عليها أناس من آشور ومصر وغيرهم.

وأما عن الصلات مع بلدان بحر إيجة فتعود إلى بداية الألف الثاني ق 0م على الأقل، حيث عثر في مقابر العصر البرونزي الوسيط في أوجاريت على كسرات أصص تحمل الأسلوب الكامارسي وكوب مزخرف بزخرفة متعرجة ومزين برسومات لنباتات ذات ألوان حمراء وبيضاء على خلفية بنية اللون. ويتعقد شيفر أنه يمكن إعادة تأريخ المواد التي اكتشفت في الطبقة الأوجاريتية الثانية إلى القرنين التاسع عشر والثامن عشر ق.م.

ومن أجل تنظيم أمور التجارة وخاصة الخارجية منها، وحماية حقوق التجار الأجانب في أوجاريت وحقوق التجار الأوجاريتين في الخارج، فقد عقد ملوك أوجاريت

---

[12]-حول هذا الموضوع، انظر بالتفصيل: كلينغل: المرجع السابق، ص153.

معاهدات مع حكام الدول المجاورة لتحقيق هذه الغاية. وقد وصلنا نص إحدى هذه الاتفاقيات وهي الموقعة بين عميشتمرو الثاني ملك أوجاريت وإبني تيشوب ملك كركميش ([13]).

رابعاً- الحياة الاجتماعية :

كان المجتمع الأوجاريتي في ذلك كباقي المجتمعات القديمة مقسماً إلى فئتين أساسيتين هما الأحرار والعبيد.

الأحرار هم السكان الأصليون والذين يملكون أراضي زراعية أو يقومون بممارسة الحرف، طبعاً بالإضافة إلى الأسرة المالكة وكبار رجال الدولة. وكان ضمن هذه الفئة أناس يطلق عليهم « أناس الملك » وقد دخل ضمن هذه الفئة العاملون في المشاريع الملكية المختلفة ولاسيّما من التجار والكتاب إلى جانب بعض الأجانب المقيمين في أوجاريت.

أما العبيد فقد أطلق عليهم في الوثائق المكتوبة بالأوجاريتية تسمية (ʿBD) ولكن لم يكن جميع العبيد بنفس المستوى، فمن خلال الوثائق نرى مجموعة منهم تشكل مجرد ملكية خاصة لساداتهم، يباعون ويشرون سواءٌ بشكل فردي أو جماعي، وفي بعض الأحيان مع الأماكن التي يعملون فيها (حقول، ورشات...الخ).

وإلى جانب هؤلاء العبيد، كان هناك نوع آخر من العبيد الذين نلحظ من خلال الوثائق قيامهم بنشاطات اقتصادية متنوعة ولاسيّما التجارة، ويوصف بعض هؤلاء العبيد بأنهم عبيد الملك. وكان بإمكان هؤلاء أن يشتروا ويمتلكوا عبيداً خاصين بهم.

ولما للعبيد من أهمية في حياة المجتمعات القديمة ومنها أوجاريت، وما كان يمكن أن يسببه فرارهم من مشكلات، فقد وقع ملوك أوجاريت عدداً من الاتفاقيات مع حكام

---

[13]- حول هذه المعاهدة انظر بالتفصيل في كتاب شيفمان: مجتمع أوجاريت، ترجمة حسان إسحاق، دمشق 1988، ص87 وما بعدها.

الدول المجاورة، نص بعضها على ضرورة إعادة العبد الفار إلى المكان الذي فر منه. ويفيدنا في هذا المجال، المرسوم الذي أصدره الملك الحثي خاتوشيلي الثالث المتعلق بهذا الموضوع ([14]).

وتوجد وثيقة في محفوظات أوجاريت، هي عبارة عن رسالة موجهة من نيقميبا ملك ألالاخ إلى ابيرانو ملك أوجاريت، يطلب فيها ملك ألالاخ إعادة عبدكان قد فر من ألالاخ ومعه ثلاثة جياد في حال ظهوره على أراضي أوجاريت.

وكان بإمكان العبد أن يتحرر من عبوديته إذا شاء سيده، ويبدو أنه لم تكن هناك ضرورة لأية مراسيم أو طقوس خاصة لتحرير العبد أو الأمة، فيكفي إعلان صاحبه عن تحريره ومنحه وثيقة بذلك.

وكان للمرأة مكانة عالية في أوجاريت وعلى مختلف الصُعُد، فعلى الصعيد السياسي كثيراً ماكانت أم الملك أو زوجته تشارك ابنها أو زوجها في اتخاذ القرارات الهامة. وعلى الصعيد الاقتصادي شاركت المرأة الأوجاريتية بفاعلية في الحياة الاقتصادية فكانت تملك حق التملك والبيع والشراء والإرث سواءٌ من أبيها أو زوجها في حال عدم زواجها بعد وفاة زوجها.

خامساً- الحياة الدينية :

لقد قدمت لنا محفوظات أوجاريت مجموعة من النصوص، التي من خلالها تمكن الباحثون من إعادة رسم صورة للحياة الدينية في أوجاريت في أواسط الألف الثاني ق.م. وبالحقيقة فإن هذه المجموعة من النصوص تعتبر الأغنى والأكثر ثراء من بين ما قدمته لنا محفوظات المدن السورية المختلفة. وتبين أن الديانة الأوجاريتيةكانت ذات بنية مميزة، فكل إله يتميز عن سواه بالاسم والسمات والشخصية الخاصة، ويكون له نشاط في مجال

---

[14]- انظر نص هذا المرسوم في شيفمان: المرجع السابق، ص 190.

معين. وبالطبع فإنه ما من شك في أن ما وصل إلينا في هذه النصوص يمثل الديانة الرسمية كما قررها كهنة أوجاريت وكما كانت تتجلى في الاحتفالات التي تقام بحضور الملك في المعابد بقرب الأكروبولوس ([15]).

ولكن مما يؤسف له، هو أنه لم يعثر ضمن محفوظات أوجاريت على نص أو أسطورة تتحدث عن خلق الكون تتشابه في موضوعها وشموليتها مع ملحمة الخلق البابلية.

ومع ذلك فإن الملحمة المسماة « مولد الآلهة » تشير إلى أن الإله الأكبر في أوجاريت، الإله إيل، كان صاحب الفضل الأكبر في تشكيل الكون كما هو عليه.

وهذا يقودنا للحديث عن مجمع الآلهة الأوجاريتية. فقد كان يقف على رأس هذا المجمع الإله إيل وهو يشبه الإله « إيا » في بلاد الرافدين عندما يُصوَّر ممسكاً آنية ينبثق منها الماء. وهو سيد الأمواج والمياه المحيية، ومسكنه عند منبع النهر والينابيع، حيث ينبثق المحيطان الأرضي والسماوي أي مركز الكون. وإيل هو خالق كل ما هو حي يوصف بالثور وهذا ما يجعله على صلة بعمليات الإخصاب والتكاثر، وأهم صفاته الحكمة والخير والتسامح. وكانت زوجته الإلهة عشيرة وكان له مجموعة من الأبناء أهمهم بعل الذي عينه والده حاكماً على الآلهة، وهو راكب الغيوم وإله العواصف والمطر، وأسلحته الدبوس والفأس. وأما الابن الآخر المهم لإيل فهو الإله « موت » الذي يدخل في صراع مع بعل مما يؤدي إلى تعاقب فصول الخير والعطاء والجفاف، ومن الآلهة المهمة في أوجاريت الإله « داجان » والذي يوصف بأنه « أبو بعل » ويبدو أنه كان ذا طبيعة زراعية وكان له معبد خاص به مساوٍ من حيث الحجم لمعبد بعل. وأما الآلهة المؤنثة في أوجاريت فهي « عنّاة » وهي الشريكة الرئيسة لبعل ومساعدته في أعماله وهي في الوقت نفسه أخته وعشيقته، وأما صفتها فهي « العذراء والبتول » وهناك الإلهة عشتروت إلهة الحب

---

[15]- كاكو وسنيتسير: الديانة الأوجاريتية، في كتاب أوجاريتيات، ترجمة منال حمدان وآخرون، ص 68 وما بعدها.

والخصب. وطبعاً هناك مجموعة أخرى من الآلهة التي يرد ذكرها في الأساطير الأوجاريتية مثل رشف وشفش وعثتر وغيرها كثير.

ولقد كان للملك دورٌ هامٌ في الديانة الأوجاريتية، فهو كان الوسيط بين الآلهة والناس. فهو يمثل رعيته أمام الآلهة، ويتصرف باسمها إزاء رعيته. وكان على الناس أن يقدموا الأضاحي لآلهتهم في أيام محدودة من الشهر. وكان نوع الأضحيةالمقدم محدداً لكل عيد. وأما الأضاحي فشملت الحيوانات والخمر وأواني الذهب والفضة.

سادساً- الحياة الثقافية :

لقد عُثر بين أطلال أوجاريت على العديد من النصوص ذات الصفة الأسطورية. وتعكس هذه النصوص تصورات الأوجاريتيين عن خلق الكون والحياة والموت والصراع بين الآلهة. وكنا قد أشرنا آنفاً إلى الملحمة المسماة « مولد الآلهة » على اعتبارها تمثيلاً لتصور الأوجارتيين عن الخلق. ومن الأساطير الأخرى الهامة ملحمة البعل وعنّاة وهذه تمثل الصراع بين البعل والآلهة المعارضة له ولاسيّما « يم وموت » اللذين أثارهما موافقة الإله إيل كبير الآلهة على بناء بيت خاص للإله بعل. وهناك أسطورة كارت وهي تتحدث عن ملك صالح اسمه كارت (قرت) ليس له ولد ويرجو الآلهة أن ترزقه بولد. وبعد معاناة طويلة يُرزق بهذا الولد، ولكنه وبينما هو جالس على عرشه يدخل عليه ابنه طالباً منه التخلي عن العرش لأنه أصبح عجوزاً مريضاً لا يستطيع الحكم بالعدل. وهناك اسطورة « دانيل وأقهت » وهذه تمثل أيضاً تمثيلية هدفها إعادة الخصب والحياة إلى الأرض ([16]).

---

[16]- حول الأساطير الأوجاريتية انظر: فريحة، أنيس: ملاحم وأساطير من أوجاريت (رأس الشمرا)، دار النهار للنشر، بيروت، 1980.

الفصل السادس

سورية في الألف الأول ق0م

يتميز تاريخ سورية في الألف الأول ق 0م ببروز مجموعة من دويلات المدن الفينيقية على امتداد شاطئ البحر المتوسط، وقيام مجموعة من دويلات المدن الآرامية على امتداد ساحة سورية الداخلية، وتواجد المؤابيين والعمونيين والأدوميين في مناطق في مناطق فلسطين والأردن.

وقد ساعد الضعف الذي حل ببعض الدول الكبرى التي كانت فاعلة على الساحة السورية في نهاية الألف الثاني ق0م (مصر والدولة الآشورية)، أو القضاء على هذه الدول نتيجة هجوم شعوب البحر (الإمبراطورية الحثية)، عن قيام مجموعة الدويلات هذه وازدياد مكانتها نتيجة دورها الرئيسي في عمليات التجارة الدولية (تجارة المرور) وذلك بسبب وقوع أغلب هذه الدويلات على طرق القوافل التي كانت تمر من سورية أو في نهاية هذا الطرق على شاطئ البحر المتوسط قبل أن تتابع إلى بلدان أخرى.

أولاً– الآراميون ([1]):

الآراميون من القبائل البدوية التي كانت تجوب منطقة البادية السورية ولاسيّما في النصف الثاني من الألف الثاني ق 0م، قبل أن يشكلوا مع مطلع الألف الأول ق 0م مجموعة من الدويلات، غطت أرجاء واسعة من سورية الداخلية ومناطق الجزيرة إضافة إلى جنوب بلاد الرافدين.

---

[1]- اعتمد في هذ البحث على رسالة الدكتوراه التي أعدها د. جباغ قابلو في جامعة تبيليسي عام 1991 تحت عنوان: « العلاقات بين الآشوريين والآراميين في شمال سورية حتى منتصف القرن التاسع ق.م »، حيث توجد هناك المراجع المتعلقة بالآراميين حتى تاريخ إعداد الرسالة.

وقبل الدخول في دراسة تاريخ هذه الدويلات لابد من التطرق لمسألة الأحلامو، هذه القبائل التي تذكرها وثائق الألف الثاني ق 0م، في البداية منفردة ثم مترافقة مع اسم الآراميين مع صعود تيجلات بلاصر الأول العرش الآشوري (1114-1075ق0م) مما دفع العلماء للبحث في العلاقة بين هاتين المجموعتين.

1- مشكلة الأحلامو :

يُذكر الأحلامو في وثائق الدول المختلفة التي كانت قائمة في بلاد الرافدين وآسيا الصغرى، كجماعات بدوية تسكن البادية السورية وتشكل خطراً على الطرق التجارية الواصلة بين مختلف أنحاء الشرق القديم المارة من البادية السورية.

ففي وثائق بلاد الرافدين، ورد ذكرهم في إحدى نصوص ماري من خلال سياق يفيد في أن أفراداً من الأحلامو كانوا يردون إلى ماري من أجل المتاجرة معها. ومن الجنوب الرافدين: لدينا رسالتان موجهتان من حاكم نفّر خلال العهد الكاشي إلى حكام البحرين يذكر فيهما الأحلامو وتعرضهم للقوافل التجارية.

وكذلك يرد ذكرهم في وثائق من مدينة سيبار وتعود على ما يبدو لفترة حكم الملك البابلي عمي صدوقا (1646-1626ق0م) ([2]).

كما ورد ذكرهم في وثائق من إيمار (مسكنة على الفرات) تعود إلى القرن الرابع عشر ق0م. ومن نفس الفترة تقريباً يُذكر اسمهم في إحدى وثائق تل العمارنة في مصر ولكن في سياق غير واضح بسبب تشوه النص (EA200: 8-10). ومن الرسائل الهامة التي تذكرهم من هذه الفترة وتوضح دورهم في تهديد طرق التجارة الدولية تلك التي وجهها الملك الحثي خاتوشيلي الثالث (1282-1250ق0م) إلى قدشمان أنليل الثاني الكاشي حيث هناك شكوى من أن الطرق بين البلدين أصبحت غير آمنة بسبب هذه القبائل (Kbo, 1-10 الأسطر 36-38).

---

[2]- Van Lerberghe, K: Sippar – Amnanum, The Ur-Utu Archive.

ويبدو أن هؤلاء لم يكتفوا بالتعرّض للقوافل، بل عرضوا خدماتهم الحربية لمن يحتاجها، أي عملوا كمرتزقة لدى حكام الدول المختلفة، وهذا ما نتبينه من نص يعود وجود إلى شلمناصر الأول الآشوري (1273-1242ق0م) يذكر فيه أنه هزم شاتاوازا الميتاني وحلفاءه من الحثيين والأحلامو. أما خليفته تيكولتي نينورتا الأول (1242-1207ق0م) فيذكر أنه استولى على جبال الأحلامو([3]).

إن النصوص العائدة لهذين الملكين الآشوريين تمكننا من الافتراض أن جزءاً من قبائل الأحلامو كان يعيش في أعالي بلاد الرافدين. أما نصوص تيجلات بلاصر الأول فتعطينا فكرة أوضح عن موطنهم ومناطق انتشارهم، كما أنها تذكر لأول مرة الأحلامو مترافقين مع الآراميين. ففي أحد النصوص التي تتحدث عن حملاته تجاه سورية نقرأ ما يلي:

« بمساعدة الإله آشور، سيدي، العربات وجنودي أخذت، إلى الصحراء وصلت إلى (قلب) مركز الأحلامو الآراميين أعداء الإله آشور سيدي أنا توجهت (البلاد) من سوحي حتى مدينة كركميش في بلاد خاتي في يوم واحد أنا دمرت، جنودهم قتلت، غنائمهم وثرواتهم وممتلكاتهم بكميات كبيرة أنا نقلت. ومتتبعاً الجنود الذين من الخوف من أسلحة الإله آشور (سيدي) هربوا واجتازوا نهر الفرات، أنا خلفهم بمراكب من الجلد، عبرت نهر الفرات، ستة من مدنهم التي عند سفوح جبل بشري أنا استوليت عليها، أحرقتها بالنار، حولتها إلى رماد ودمار وثرواتهم إلى مدينتي آشور نقلت ».

وبالحقيقة فإن هذا النص يعطينا فكرة عن مناطق انتشار قبائل الأحلامو وهي مناطق وسط الفرات وسفوح جبل بشري التي عدت الموطن الذي اتخذته هذه القبائل لها عند دخولها البادية السورية قبل أن تنتشر فيما بعد إلى مناطق وجهات مختلفة.

وهنا يجب التوقف عند عبارة « ستة من مدنهم » الواردة في النص والتي لا يجب أن يفهم منها مدن بالمعنى المتعارف عليه للمدن القديمة. فهي لم تكن أكثر من معسكرات

---

[3] - قابلو، جباغ: الأحلامو حتى مطلع القرن الحادي عشر ق 0م، الحوليات الأثرية العربية السورية، المجلدان45-46، للعام 2002-2003، ص 83 وما بعدها.

خيام أو ما شابه ذلك على اعتبار أن الأحلامو الآراميين في هذه المرحلة من تاريخهم لم يكونوا قد انتقلوا بعد إلى مرحلة الاستقرار وتأسيس المدن.

إن ذكر الأحلامو مترافقاً مع الآراميين في نصوص تيجلات بلاصر الأول فتح باب النقاش في أوساط الدارسين حول العلاقة بين هذين الاسمين أو هاتين المجموعتين. هل هما اسمان لمجموعتين بشريتين مختلفتين؟ أم أن الاحلامو جزء من الآراميين؟ أم العكس أي أن الآراميين هم جزء من قبائل الأحلامو؟ وقد ذهب الدارسون في تفسير ذلك مذاهب شتى. ولكن على الأغلب فإن الاحلامو هم من العشائر الآرامية التي احتكت بها الدول المجاورة للبادية السورية في البداية قبل أن تحتك بالمجموعة القبلية ككل. وعلى ذلك فإن هذا الاسم اختفى من الوثائق ليحمل الاسم العام والأشمل فيما بعد ألا وهو الآراميون.

2- تأسيس دويلات المدن الآرامية :

عند دراستنا لتاريخ الدولة الآشورية في الباب الأول، ذكرنا أن الدولة الآشورية في عهدها الوسيط، دخلت مرحلة الضعف بعد وفاة آخر الملوك المحاربين في هذا العهد تيجلات بلاصر الأول، وقد استغلت قبائل الأحلامو الآراميين هذا الضعف لتوسع مناطق انتشارها ونفوذها حتى تحولت آشور إلى دولة صغيرة تحيط بها المجموعات الآرامية من كل ناحية، أو كما يقال جزيرة آشورية وسط بحر آرامي. ولذلك فإن آشور عندما استعادت عافيتها وأرادت العودة لممارسة دورها على الصعيد الدولي كان عليها أولاً مواجهة مجموعة الدويلات الآرامية هذه وكسر طوق الحصار المفروض عليها من قبلها.

إن المسار الذي أدى في النهاية إلى ظهور الدويلات الآرامية يبقى مجهولاً بالنسبة لنا، بسبب انعدام المصادر الكتابية التي يمكن أن تفيدنا في هذا المجال.

ولكن يمكن المقارنة بين ما حدث في بلاد الرافدين وسورية في نهاية الألف الثالث ق0م، عندما بدأت القبائل الأمورية بالتغلغل في هذه البلاد في نهاية عصر سلالة أور الثالثة. أي أن القبائل الآرامية وضعت في البداية قوتها في خدمة الحكام المحليين كقوات

مرتزقة يمكن الاعتماد عليها في حماية أنفسهم من هجمت أعدائهم والقيام بعمليات الإغارة والنهب لصالحهم. ومن ثم تمكنت هذه القبائل من فرض سيطرتها على هؤلاء الحكام بفضل ما تملكه من قوة عسكرية، وتحول زعمائها إلى حكام على المناطق التي استولوا عليها.

وكانت أغلب تسميات الدويلات الآرامية تبدأ بكلمة (بيت كذا) مثل بيت أجوشي، بيت عديني..الخ. ويفسر هذا الأمر، بأنه إذا قامت الدولة الآرامية الجديدة في منطقة لم تكن فيها في السابق دولة معروفة أو كانت حدود هذه الدولة الجديدة لا تتطابق مع حدود دولة معروفة فإن التسمية لهذه الدولة الجديدة كانت تبدأ بكلمة « بيت كذا» نسبة إلى الشخص الذي أسس هذه الدولة أو اسم العشيرة التي أسستها.

أما إذا قامت الدولة الآرامية الجديدة مكان دولة معروفة كانت قائمة في المنطقة نفسها، فإن الدولة الجديدة كانت تأخذ اسم الدولة القديمة، ولم تسمَّى باسم جديد يبدأ بكلمة « بيت » مثل آرام حماة وآرام دمشق.

ومن خلال بعض النصوص الآرامية والنصوص الآشورية، نعلم أن نظام الحكم في هذه الدويلات كان ملكياً وراثياً، وكان يساعد الملك في أداء وظائفه ممثلون عن الهيئات المدنية والعسكرية. ولكن ما يبقى مجهولاً بالنسبة لنا، هو الصلاحيات التي كانت تتمتع بها هذه الهيئات أو المهمات التي كانت مناطة بها.

وكنا قد أشرنا إلى أن الآراميين قد أسسوا مجموعة من الدويلات أو الإمارات في أنحاء متفرقة من المنطقة السورية. وسنحاول فيما يلي أن نلقي الضوء على أهم هذه الدويلات.

1- بيت بخياني :

قامت هذه الدويلة الآرامية في منطقة منابع الخابور، وكانت جوزن (تل حلف حالياً في محافظة الحسكة) عاصمة لها. وأما أراضيها فربما امتدت من حدود إمارة نصيبين شرقاً

إلى حدود بيت عديني غرباً، وأما جنوباً فكانت عند مناطق البادية القريبة من جبل عبد العزيز.

إن معلوماتنا عن بيت بخياني نستقيها بشكل كامل من النصوص الملكية الآشورية، وكذلك من خلال اللقى التي حوت نصوصاً والتي عثر عليها أثناء أعمال التنقيب الأثري التي جرت في الموقع من قبل بعثة ماكس فون أوبنهايم في مطلع القرن الماضي.

إن أول ذكر لهذه الإمارة في النصوص الآشورية، يأتي في نص للملك أدد نيراري الثاني (911-891 ق0م) ومؤرخ بالعام 894 ق0م ويذكر فيه استلامه لجزية من حاكم جوزن المدعو أبي سلامو.

وأما آشور ناصر بال الثاني (884-859 ق0م) حفيد أدد تيراري الثاني فيذكر في نصوصه استلامه الجزيةمرتين من حاكم جوزن دون أن يذكر اسم هذا الحاكم.

وربما سد النقش المكتوب بالآشورية والذي عثر عليه في الموقع، بعض النقص في معلوماتنا حول حكام جوزن. فالنص يعود لحاكم جوزن كبّاره والذي يصف نفسه بأنه كباره بن خديانو حاكم بلاد بيت بخياني. وبما أن الإمارة تسمى باسم مؤسسها يكون بخياني هو الاسم الأول في سلسلة حكام هذه الإمارة يليه خديانو ومن ثم أبي سلامو، ولابد من أن يكون هؤلاء الحكام قد حكموا في فترة ما بين نهاية القرن الحادي العاشر ومطلع القرن التاسع ق0م. وأما التمثال الذي كُشف مصادفة في العام 1979 قي موقع تل الفخيرية والذي دونت على وجهه الأمامي كتابة آشورية وعلى الخلفي كتابة آرامية، فلقد أفادنا في التعرف على حاكمين آخرين من حكام بين بخياني. فالتمثال يعود للملك هديسعي ملك جوزن وأرزن وسيكان ابن شمش نوري ملك جوزن ويتوضع حكمهما في منتصف القرن التاسع والربع الثالث منه.

ومن المعلوم أن الدولة الآشورية شهدت تمرداً كبيراً قرب نهاية حكم شلمناصر الثالث (858-824 ق0م) وكانت من المناطق الثائرة منطقة جوزن والتي قاد الثورة فيها

شخص اسمه زدنت ولكن التمرد قضي عليه مع اعتلاء أدد نيراري الثالث (811-782ق0م) العرش الآشوري وعُين على جوزن والياً آشوريا اسمه «مانوكي آشور» ويبدو أن هذه الولاية كانت خاضعة لإشراف والي نصيبين.

2ً- بيت زماني :

تنسب هذه الإمارة إلى مؤسسها زماني، الذي ارتحل بعشيرته الآرامية إلى مناطق منابع الدجلة وأسس هناك سلطة له متخذاً من آمد (ديار بكر حالياً) عاصمة له.

وأول ذكر لهذه الإمارة يأتي من خلال نصوص توكولتي نينورتا الثاني (891-884ق0م) وكان حاكماً عليها حينئذ عمي بعلي. وكان هذا موالياً ومخلصاً للآشوريين إلى أقصى حد. وعندما تمرد عليه سكان إمارته وأزاحوه عن السلطة ونصبوا مكانه بورامانو أمير سينابو، تحركت القوات الآشورية وكان الملك حينئذ آشورنا ناصر بال الثاني وقضت على التمرد وصلبت بورامانو وأجلت عدداً كبيراً من سكان المنطقة الآراميين من مواطنهم. وعين الآشوريون حاكماً آخر موالياً لهم اسمه إيلانو. وعندما تكررت التمردات على النفوذ الآشوري في المنطقة، عمد آشور ناصر بال إلى القضاء على ما تبقى من استقلال الإمارة وحولها إلى مقاطعة آشورية.

3ً- بيت عديني :

انتشرت إمارة بيت عديني بين وادي البليخ شرقاً ومناطق الباب واخترين غرباً، وكان موقعها على غاية من الأهمية، فقد كانت تسيطر على أفضل مناطق عبور نهر الفرات من ضفته الشرقية إلى الغربية. ويبدو أن الآراميين قد استقروا في هذه المنطقة منذ القرن الثاني عشر ق.م، ولكنهم في هذه الفترة لم يكونوا أي كيان سياسي خاص بهم. وفي عهد الملك الآشوري آشور ربي الثاني (1010-970ق.م) استولوا على مدينتين كانتا تابعتين

للآشوريين وطردوا منها الحاميات الآشورية وهاتان المدينتان هما بيترا الواقعة إلى الجنوب من كركميش عند مصب نهر الساجور بالفرات، والثانية هي موتكينو الواقعة على الضفة اليسرى لنهر الفرات.

وعندما بدأ الملك الآشوري أدد نيراري الثاني حملاته نحو الغرب، سارع حاكم بيت عديني إلى تقديم الولاء للملك الآشوري حتى قبل أن يصل إلى إراضي دولته. واستمر الأمر على هذا النحو خلال عهد الملكين الآشوريين التاليين توكولتي نينورتا الثاني وآشور ناصر بال الثاني. ولكن الحال بدأ بالتحول مع صعود آخوني العرش في بيت عديني وتولي شلمناصر الثالث مقاليد الأمور في الدولة الآشورية.

فلقد وقف آخوني سداً منيعاً في وجه التوسع الآشوري نحو سورية وبدأ بتوحيد قوى الإمارات السورية لإحباط المخططات الآشورية المتعلقة بالمنطقة السورية، مما دفع شلمناصر الثالث لتكريس سنوات حكمه الأولى للتخلص منه. في البداية تلقى آخوني الدعم من باقي دول شمال سورية مثل باتنا وكركميش وشمأل وغيرها. إلا أنه في السنوات التالية اضطر لمواجهة جيوش شلمناصر الثالث وحيداً.

ويبدو أن شلمناصر الثالث اتبع خطة تقتضي القضاء على المدن والمواقع المحصنة التابعة لآخوني قبل التفرغ بشكل نهائي للعاصمة تل برسيب (تل أحمر حالياً على الضفة الشرقية لنهر الفرات). ولما وقعت العاصمة بيد قوات شلمناصر الثالث، فر آخوني مع أفراد عائلته وحاشيته وجزء من قواته واعتصم على قمة جبل على الضفة الغربية لنهر الفرات. ولكن شلمناصر الثالث تبعه إلى هناك « في العام التالي (لحكمي) في عام آشور – بونايا – أتور، أنا تتبعته. في جبل شيتا مرات، على قمة الجبل (الواقعة) على ضفة النهر، هو بنى قلعته كالغيوم المعلقة في السماء. بأمر آشور، آمري العظيم، ونرجال الذي يتبعني، أنا دنوت من جبل شيتا مرات، وصعدت إلى المكان الذي لا أحد من الملوك آبائي صعده. وخلال ثلاثة أيام أخضع الجيش الجبل آخوني معتمداً على جيشه الكبير توجه لحربي. ألحقت أنا الهزيمة به. قطعت رؤوس جنده، بدمائهم أنا حمّرت (طليت)

الجبل. خضت معركة مرعبة وسط المدينة، شعور الهلع أمام آشور سيدي تملكهم، هبطوا إلى الأسفل وقبلوا قدمي. آخوني مع جنوده، عرباته الحربية، مشاته، ثروات قصره التي لا تحصى ظهر أمامي. أنا نقلت الغنائم عبر نهر دجلة إلى مدينتي آشور ».

إثر هذه النهاية المحزنة لآخوني حوّل الآشوريون أراضي بيت عديني إلى ولاية آشورية وبدلوا اسم العاصمة من تل برسيب إلى « كار شلمناصر » أي حصن شلمناصر.

لقد كان لسقوط بيت عديني نتائجه الخطيرة بالنسبة لباقي دول سورية، إذ أصبح الطريق مفتوحاً أمام الجيوش الآشورية لعبور الفرات والوصول إلى قلب سورية في أي وقت. وكان الهدف الثاني لشلمناصر الثالث بيت آجوشي.

4ً- بيت آجوشي :

إحدى أهم الدول الآرامية التي قامت في المنطقة السورية. كانت عاصمتها أرفاد (تل رفعت حالياً في محافظة حلب). وقد امتدت رقعتها ما بين بيت عديني شرقاً وشمأل شمالاً وحماة ولغش جنوباً وغرباً.

وككل الدول الآرامية فإن مصادرنا الأساسية عنها تأتينا من النصوص الآشورية ومن بعض اللقى المحلية.

إن أول ذكر لهذه الدولة يأتينا من نص يعود إلى عهد الملك الآشوري آشور ناصر بال الثاني يقول فيه إنه استلم الجزية من جوشي الياحاني أثناء وجوده في مدينة كونولوا التابعة لمملكة باتنا الواقعة في منطقة العمق. وبذلك يكون جوشي مؤسس الأسرة الحاكمة في هذه الدولة. أما ياحان فعلى ما يبدو هو اسم المنطقة القديم الذي قامت فيه هذه الدولة. وكان خليفته على العرش آرامو أو أدرامو الذي سار على نهج سلفه فدفع الجزية للآشوريين مفضلاً السلامة على الدخول في حرب ضدهم، حتى إن اسمه لا يرد في قائمة الملوك والحكام السوريين الذين تصدوا للملك شلمناصر الثالث في معركة قرقر

853 ق0م. إلا أن أحداث العام العاشر من حكمه أي 849 ق0م، تذكر قيامه (أي شلمناصر الثالث) بتدمير عدد كبير من المدن التابعة لبيت آجوشي.

وبعد وفاة هذا الملك الآشوري، يبدأ موقف هذه الدولة الآرامية بالتغير نحو المساهمة الفعالة في الأحداث التي تجري في سورية وجوارها، فنصب زكور ملك حماة ولعش الذي عثر عليه في قرية آفس بجوار سراقب يذكر اسم برجوشي (ابن جوشي) إلى جانب برهدد الدمشقي كزعماء لتحالف حاصر ملك حماة في إحدى مدنه الملكية وهي حزرك. في حين يذكر أدد نيراري الثالث (810-783ق0م) أنه غزا أرفاد عاصمة بيت آجوشي، وهذا أول ذكر لهذه العاصمة في النصوص الآشورية، وكان الملك وقتئذ عترسمك، لذلك يمكن القول إن أدرمو وبرجوشي ربما حكما قبل أدد نيراري الثالث أي في النصف الثاني من القرن التاسع ق 0م، وتكون فترة حكم عترسمك واقعة في مطلع القرن الثامن ق 0م. ونشير هنا إلى نشر نصوص آشورية تعود إلى عهد هذا الملك الآشوري وتبين دوره الهام في المنطقة السورية، النص الأول والذي يعرف باسم مسلة انطاكية ويذكر فيه أدد نيراري أنه قام ومعه قائد الجيش شمشي إيلو بتحديد الحدود بين زكور ملك حماة وأترسمكي (عتر سمك) بن ادرمو، صاحب أرفاد. والنص الثاني هو أيضاً حجر حدود ويسمى نقش مرعش ويعرض النص لتحالف ضم دولاً في شمال سورية كان على رأسه أترشومكي أيضاً وكان هذا التحالف موجهاً ضد أوشبيلولوما ملك الكوموخيين. ولكن هذا التحالف تعرض للهزيمة بسبب تدخل أدد نيراري لصالح الملك الكوموخي. ومن ثم عمد ملك آشور إلى تحديد الحدود بين كوموخ وجرجوم أحد أطراف التحالف، والمهم في هذا النقش أنه يطلعنا على الدور الهام الذي كانت تؤديه أرفاد في شمال سورية في عهد هذا الحاكم ([4]).

---

[4]- فرزت، حرب: العلاقات السياسية بين مملكة أرفاد الآرامية وآشور في أواسط القرن الثامن ق.م، مجلة دراسات داخلية، العددان45-46، 1993.

Damascus University

إن أهم ملوك أرفاد هو بلا شك متع إيل الذي التي تزعم الحلف الشمالي المعادي للتوسع الآشوري في سورية، مما دفع آشور نيراري الخامس (754-745ق.م) لتوقيع معاهدة أجبره فيها على أداء يمين الولاء والخضوع لآشور وعدم الوقوف مع أعدائها. وعلى العكس من ذلك عليه أن يقدم المساعدة للآشوريين إذا ما احتاجوا إليها.

إلا أن متع إيل لم يكن ينوي الوفاء بقسمه هذا، إذ سرعان ما استغل تقدم الملك الأوراتي ساردوري الثاني نحو شمال سورية ليتحالف معه ضد الآشوريين، مما اضطر تيجلات بلاصر الثالث (745-727ق0م) لمواجهة هذه التحالف في معركة جرت في نواحي كركميش وانتهت بانتصار الآشوريين على قوى التحالف، وتابع تيجلات بلاصر زحفه إلى أرفاد فحاصرها بين عامي 742-740 ق0م إلى أن سقطت بيده وجعل منها مقاطعة آشورية ([5]).

ونرى قبل أن نختم موضوع بيت آجوشي أنه لا بد لنا من أن نعرض للمعاهدة التي وقعها متع إيل حاكم بيت آجوشي مع حاكم غير معروف ودولة غير محددة، فالحاكم هو برجايه (ابن الجاه) والدولة هي كتك، وهذه المعاهدة تعرف باسم معاهدة السفيرة باعتبار أن الأنصاب التي دونت عليها نصوص المعاهدة عثر عليها في منطقة السفيرة في محافظة حلب.

ومنذ العثور على هذه النصوص في أربعينيّات القرن الماضي ونشرها من قبل العالم الفرنسي دوبون سومير، نشرت بحوث كثيرة وكلها تسعى إلى تحديد شخصية برجايه ودولته دون الوصول إلى نتيجة حاسمة في هذا المجال ([6]).

5- مملكة شمأل :

---

[5]- قابلو، جباغ: التنافس الآشوري الأوراتي للسيطرة على شمال سورية، مجلة دراسات تاريخية العددان 63-64 عام 1998.

[6]- حول هذا الموضوع بالتفصيل، انظر أبو عساف، علي: الآراميون تاريخاً ولغة وفناً، طرطوس، 1988، ص42 وما بعدها.

تقع هذه المملكة في منطقة جبال الأمانوس، وأطلالها اليوم تسمى زنجرلي عند منابع نهر الأسود.

وقد أجريت تنقيبات أثرية في هذا الموقع في الفترة الواقعة بين 1888-1902. من قبل بعثة أثرية ألمانية أدت إلى الكشف عن أسوار مزدوجة كانت تحيط بالمدينة إلى جانب القصور والمعابد. ولكن أهم ما أمدتنا به المدينة بالنسبة لتاريخها هو مجموعة من الكتابات التي تمكننا من إلقاء الضوء على أوضاعها الداخلية من مختلف النواحي إلى جانب سلسلة ملوكها. وتتم الصورة من خلال الكتابات الآشورية التي تتحدث عن علاقة هذه المملكة بالآشوريين. ولعلّ من أهم الكتابات التي كشف عنها في الموقع، الكتابة المنسوبة إلى الملك كيلا موا، وتنبع أهمية هذه الكتابة من أنها تعرفنا على أسلاف هذا الملك الذين حكموا قبله في شمأل، حيث يذكر في مطلع كتابته « أنا كيلاموا بن حيّا. كان جبار ملكاً على يأدي (*) ولم يفعل شيئاً وكان بمّه (أيضاً) ولم يفعل شيئاً وكان أبي حيّا ولم يفعل شيئاً وكان أخي شئيل ولم يفعل شيئاً » (7).

وليست بحوزتنا أية معلومات عن الملكين الأولين جبار وبمّة اللذين على ما يبدو ليسا قريبين أولاً وإلى حيّا والد كيلاموا ثانياً.

أما حيًّا فمعروف لنا من خلال نقوش الملك الآشوري شلمناصر الثالث الذي يذكره من ضمن الملوك الذين أدوا له الجزية في عامي 858-853 ق.م. ولقد شارك هذا في التحالف المعادي للآشوريين الذي واجه شلمناصر الثالث في العام الأول من حكمه والذي ضم إلى جانب شمأل كلاً من بيت عديني وكركميش و باتنا وغيرهم.

ويبدو أن حاكم شمأل بعد تعرض هذا الحلف للهزيمة على يد قوات شلمناصر الثالث آثروا عدم الدخول في تحالفات أخرى ضد الآشوريين. ومما زاد من تبعية شمأل

---

* ربما كانت هذه التسمية القديمة للمنطقة الني قامت فيها الدولة.

7- إسماعيل، فاروق: اللغة الآرامية القديمة، منشورات جامعة حلب، 1997، ص22.

للآشوريين، التهديد الذي بدأت تتعرض لها من جانب « الدانونيين » جيرانها من ناحية الغرب، مما حدا بكيلاموا لطلب المساعدة من شلمناصر الثالث.

ويتضح لنا من خلال كتابة أخرى لهذا الملك أن الأوضاع في مملكته لم تكن مستقرة تماماً بسبب انقسام المجتمع إلى فئتين هما المشكبيم والبعرريم. وقد اختلف الدارسون حول معنى هاتين التسميتين ومدلولاتهما الاجتماعية. ولكن من الممكن القول الآن إن تسمية المشكبيم تشير إلى الناس المتحضرين المستقرين وهؤلاء كانوا سكان البلاد الأصليين قبل وصول الآراميين إليها، وإلى هؤلاء الآراميين البداة يشير مصطلح البعرريم. وكما يقول كيلاموا في كتابته فإن تمكن من تحقيق الانسجام بين هاتين الفئتين من السكان. ونشير هنا إلى أن فترة هؤلاء الحكام الأول قد غطت فترة القرنين العاشر والتاسع ق 0م. وتنقطع معلوماتنا عن هذه المملكة بعد عهد كيلاموا، إلا من بعض الإشارات الواردة في بعض النقوش من المناطق المجاورة، فمن نقش الملك زكور ملك حماة ولعش نعلم مثلاً أن شمأل كانت من بين الدول التي تحالفت ضده وربما كان السبب وراء انضمام شمأل لهذا التحالف خشيتها من السياسة التوسعية التي بدأ ينتهجها ملك حماة.

وتشير كتابة ترجع إلى الملك فنموا الأول وتؤرّخ بالربع الثاني من القرن الثامن ق.م إلى استلامه السلطة في شمأل من بعد والده المدعو قرل، ولذلك نقول إن هذين الملكين حكما في شمأل من بعد كيلاموا وكانت فترة حكمهما تغطي نهاية القرن التاسع والنصف الأول من القرن الثامن ق0م ([8]).

ومن كتابة للملك برراكيب (732-720ق0م) نعلم عن قيام تمرد في شمأل أدى إلى مقتل فنموا الأول وابنه برصور وسبعين من رجال دولته.

ومن خلال نصوص الملك الآشوري تيجلات بلاصر الثالث يتضح أن هذا الحاكم الجديد لشمأل والتي لا تأتي النصوص على ذكر اسمه، لم يكن موالياً للآشوريين على

[8] - اسماعيل، فاروق: المرجع السابق، ص23-24.

خلاف حكام شمأل السابقين وأنه كان من المشاركين في تحالف دول شمال سورية مع ملك أورارتو ساردوري الثاني. وبعد هزيمة هذا التحالف عمد ملك آشور إلى تعيين ملك جديد على شمأل من الموالين للآشوريين وهو الذي عرف بإسم فنموا الثاني والد برراكيب وتتضح مدى تبعيته للآشوريين من خلال مشاركته بحملة تيجلات بلاصر الثالث ضد آرام دمشق عام 733-732 ق.م والتي قتل فيها فتموا الثاني. وتسلم الحكم بعده ابنه برراكيب الذي كان آخر حكامها.

ويفتخر برراكيب هذا في كتاباته بالازدهار الذي حققه في بلاده وبالمباني التي أنشأها. وقد تحولت شمأل في عهد شاروكين الثاني إلى مقاطعة آشورية تحكم من قبل ولاة آشوريين.

6- مملكة حماة الآرامية :

على خلاف العادة، فإن أول الأخبار عن هذه الدولة الآرامية تأتينا من العهد القديم وليس من النصوص الآشورية. فسفر الملوك الثاني (8: 9-10) يذكر أن توعي ملك حماة كان في حالة حرب مع هدد عازر بن رحوب ملك صوبة. وإذا كان هذا الخبر صحيحاً فلابد من أن يكون وراء هذه الحرب، رغبة هدد عازر الصوبي بتوسيع نطاق نفوذه شمالاً أي باتجاه أراضي حماة. وهذا يعطينا إمكانية تحديد قيام هذه الدولة بنهاية القرن الحادي عشر ق.م.

إن مصادر معلوماتنا عن حماة من خارج العهد القديم هي النصوص الآشورية المختلفة، وكذلك بعض النقوش الآرامية واللوفية التي عثر عليها في مناطق خاضعة لسلطة ملوك حماة.

ومن خلال تنوع النصوص المكتشفة في حماة ومناطقها ما بين نصوص آرامية ولوفية، يتّضح أن جماعات من الأناضول قد هاجرت إلى مناطق حماه إثر انهيار الإمبراطورية الحثية واستقروا فيها ومع نهاية الألف الثاني ق.م دخلتها الجماعات الآرامية.

وإذا كان الملكان الأولان اللذان حكما في حماة واللذان يرد ذكرهما في أخبار العهد القديم وهما توعي وابنه يورام هما من الآراميين فإن الحكام الثلاثة الذين تعاقبوا على عرش حماة من بعدهما كانوا من الحثيين اللوفيين، وأولهم باراتا والذي لا نعلم عنه شيئاً سوى ما ذكره ابنه أرخوليني من أنه كان الابن البكر لباراتا ملك حماة.

أما أرخوليني فهو معروف لدينا من خلال مشاركته الفعالة في التصدي لتقدم شلمناصر الثلث نحو سورية. فاسمه يرد دائماً بعد اسم هدد عزر ملك دمشق على رأس قائمة المشاركين في المواجهة التي جرت في قرقر التابعة لحماة بين قوات التحالف السوري والملك الآشوري. ويبدو أن حماة استمرت بالوقوف إلى جانب دمشق في التصدي لحملات شلمناصر الثالث التالية (849-848-846-845 ق.م) وتوقفت عن ذلك في حملاته بعد ذلك (841-838 ق.م).

وأما الملك الثالث من هذه السلالة الحثية اللوفية فهو ابن ارخوليني المدعو أوراتاني الذي حكم في النصف الثاني من القرن التاسع ق.م. وهناك نصوص آشورية تشير إلى علاقة وثيقة كانت تربطه مع دويلات منطقة الفرات الأوسط.

وقرب نهاية القرن التاسع ق.م استولى شخص اسمه زكور على السلطة في حماة، وبدأ بممارسة سياسة توسعية ولاسيّما نحو الشمال السوري، ويبدو أنه قد تمكن من ضم منطقة لعش إلى حكمه (وتعرف هذه المنطقة في نصوص الألف الثاني ق 0م باسم نوخاشي)، الأمر الذي استدعى تحرك القوى الكبرى في سورية للوقوف في وجهه وعلى رأسها دمشق (حليفة الأمس) وأرفاد وغيرهما. وقد خلد زكور أخبار هذا التحالف الذي تشكل ضده على نصب عثر عليه في آفس. وحسب النص المدون فإن قوات التحالف التي فرضت الحصار عليه في حزرك فشلت في تحقيق هدفها واضطرت لفك الحصار عنه وذلك بفضل دعم الإله « بعل شمين » له. ولكن ربما كان الدعم الحقيقي الذي تلقاه هو دعم الملك الآشوري أدد نيراري الثالث، الذي استغل فرصة الخلاف الذي دب في

أوساط التحالف السوري المعادي للآشوريين ليتقدم بجيوشه نحو سورية عدة مرات خلال فترة حكمه التي امتدت ما بين 811-782 ق0م.

أما معلوماتنا عن حماة بعد زكور فمحدودة جداً. فحماة كانت من الدول التي دفعت الجزية للملك تيجلات بلاصر الثالث وكان حاكمها حينئذ إني إيلو. وبعد وفاة هذا الملك الآشوري كانت حماة من بين المدن الثائرة على الحكم الآشوري واضطر الملك الآشوري شاروكين الثاني ليخوض معركة قرقر أخرى عام 720 ق0م ضد تحالف ضم مجموعة من الإمارات السورية على رأسها إيلو يو بيدي ملك حماة آنذاك. ولكن التحالف تعرض للهزيمة وحُولت حماة إلى مقاطعة آشورية وهُجِّر قسم كبير من سكانها إلى مناطق مختلفة من بلاد آشور وأحِلّ محلهم سكان آشوريون.

7ً– مملكة دمشق الآرامية :

لا تختلف مملكة آرام دمشق عن سائر الدول الآرامية الأخرى من حيث اعتمادنا في دراسة تاريخها على المدونات الآشورية بالدرجة الأولى، وعلى بعض الكتابات الآرامية العائدة لبعض حكامها والتي عُثر عليها خارج دمشق وكذلك على بعض الإشارات الواردة في العهد القديم، وإن كنا ننظرإلى روايات العهد القديم بكثير من الحذر، بسبب عدم الدقة التي اتصفت بها هذه الروايات من ناحية، وبسبب حالة العداء التي سادت بين مملكة آرام دمشق من ناحية وإسرائيل ويهوذا من ناحية أخرى.

والإشارات الأقدم عن آرام دمشق تأتينا من العهد القديم. حيث يذكر أن دمشق كانت تشكل جزءاً من ممتلكات آرام صوبة والتي كان مركزها في البقاع اللبناني وسلسلة جبال لبنان الشرقية. وأما عن تحول دمشق إلى مركز لأهم مملكة آرامية في سورية فيعود وحسب رواية العهد القديم نفسها إلى وقت تعرض فيه هدد عزر ملك آرام صوبا للهزيمة على يد داود فتمرد عليه « رزون بن اليداع » الذي فر من صوبا إلى دمشق مؤسساً فيها

ملكاً خاصاً به. وقد ورثه على عرش دمشق ابنه حزيون ومن ثم طب رمون. ويقدر زمن حكم هؤلاء الملوك بفترة القرن العاشر ق0م.

إن أول الملوك المهمين من دمشق والذين ترد أخبارهم في وثائق من خارج العهد القديم هو برهدد الأول الذي بدأ حكمه في مطلع القرن التاسع ق.م والذي عثر على نصب ينسب إليه في قرية البريج بجوار حلب، نذره إلى الإله الفينيقي ملقارت مما يدل على سعة نفوذ هذا الملك الآرامي. ولا بد من الإشارة هنا إلى أن دراسات جديدة صدرت في الآونة الأخيرة تضمنت قراءة جديدة لهذا النصب وأعادت نسبته إلى أحد ملوك أرفاد عوضاً عن برهدد ملك آرام دمشق ([9]).

ويذكر سفر الملوك (15: 17-22) أن برهدد هذا تدخل في النزاع بين مملكتي اسرائيلويهوذا استجابة لاستغاثة من آسا ملك يهوذا وهاجم مدن إسرائيل الشمالية.

وكان خليفته على عرش آرام دمشق ابنه برهدد الثاني والذي يذكر باسم هدد عزر. وقد سعى هدد عزر هذا لتوحيد جميع القوى الموجودة على الساحة السورية من أجل إيقاف التقدم الآشوري. وهذا ما ظهر واضحاً في معركة قرقر (853 ق0م) التي واجه فيها تحالف القوى السورية بزعامته القوات الآشورية التي كان يقودها شلمناصر الثالث، وتمكنت هذه القوى مجتمعة من إيقاف التقدم الآشوري ولو إلى حين. وقد تمرد عليه في أواخر أيامه وهو على فراش المرض رجل من خارج الأسرة المالكة اسمه حزائيل الذي اغتال برهدد الثاني وتولى السلطة مكانه، ولكنه استمر على نهجه في الوقوف في وجه التوسع الآشوري من ناحية والتدخل في الشؤون الفلسطينية من ناحية أخرى.

فشلمناصر الثالث هاجم دمشق عدة مرات أثناء حكم حزائيل لها (841-837-831 ق0م) ولكنه لم يتمكن من دخول المدينة في أي من هذه الحملات. كما لا يذكر أن حزائيل قد دفع له أي جزية على خلاف باقي حكام المدن السورية.

---

[9]-Pitard, W.T : The Identity of the Bir-Hadad of the Melqart Stela. Basor, 172, 3-21.

وقد ورثه على العرش ابنه برهدد الثالث وذلك في نهاية القرن التاسع ق 0م. وهو الذي يرد ذكره على رأس قوات التحالف التي فرضت الحصار على زكور ملك حماة ولعش في حزرك، وكنا قد أشرنا إلى أن قوات التحالف اضطرت لفك الحصار ربما بسبب تدخل الملك الآشوري آنذاك أدد نيراري الثالث.

وكان برهدد الثالث أول ملك لآرام دمشق يدفع الجزية للملك الآشوري. فبعد الضعف الذي ألم بالتحالف المعادي للآشوريين، لم تقو دمشق وحدها على الوقوف في وجه قوات أدد نيراري الثالث، مما اضطر ملكها لدفع جزية كبيرة له أثناء حملته عليها، كانت عبارة عن كميات الفضة والذهب والحديد والملابس المزركشة والعاج وما إلى ذلك.

واستمرت هجمات الآشوريين على دمشق بعد ذلك. فهوجمت عام 773 ق0م وكان ملكها شخصاً اسمه خديانو. ومع صعود تيجلات بلاصر الثالث العرش الآشوري اشتد الضغط على آرام دمشق، التي حاولت مواجهته بإعادة الحياة للحلف السوري المقاوم للآراميين وحاول ملكها ردين (رصين) أن ينصب ملكاً آرامياً على القدس مما عجَّل من هجوم تيجلات بلاصر الثالث على دمشق فاحتلها في العام (732 ق0م)، وكان أول ملك آشوري يدخل إليها وقسم أراضيها إلى عدة مقاطعات نصب عليها حكاماً آشوريين.

وقيل ختام حديثنا عن الإمارات الآرامية لا بد من الإشارة إلى وجود مجموعة أخرى من هذه الإمارات وإن كانت أقل أهمية من التي توقفنا عندها، أو أن معلوماتنا عنها أقل. ومن هذه الإمارات :

إمارة نصيبين وأهم حكامها نور هدد الذي ناصب الآشوريين العداء فترة من الزمان.

إمارة خوزيرينا « سلطان تبه جنوب شرق ماردين » وأهم حكامها ماملي.

إمارة جيدارا إلى الجنوب الغربي من ماردين وحاكمها موقورو.

بيت خالوبي عند مصب الخابور في الفرات وعاصمتها سورو (صور الحالية إلى الشرق من دير الزور).

Damascus University

لاقي: على ضفتي نهر الفرات جنوب شرق دير الزور، وأما عاصمتها فهي سيرقو (ترقا القديمة والعشارة الحالية).

صوبة : في سهل البقاع. وكانت الأساس لمملكة دمشق الآرامية.

رحوب : في الجنوب من صوبة، في منطقة مجرى نهر الليطاني

معكا: في الجنوب الغربي من دمشق في منطقة الجولان ([10]).

3- نظرة عامة على أحوال الدويلات الآرامية وعلاقتها :

من خلال استعراضنا لأهم الدويلات الآرامية التي قامت في سورية يتضح لنا انعدام الوحدة بين هذه الدويلات المختلفة. وكان أقصى ما تمكنت من الوصول إليه هو نوع من التحالفات المؤقتة التي كانت تجمع هذه الدويلات إلى جانب مجموعة أخرى من دول سورية عند اقتراب الخطر الآشوري، وسرعان ما تتفكك عرى هذه التحالفات عند ابتعاد هذا الخطر. وكثيراً ما كانت تفضل هذه الدويلات مصلحتها الآنية المتمثلة بالانحناء أمام تقدم الجيوش الآشورية على مصلحتها البعيدة المدى والمتمثلة بوقوفها يداً واحدة وقلباً واحداً أمام التوسع الآشوري. وهكذا رأينا كيف قُضي على استقلال بيت عديني دون أن يتقدم لمساعدتها أي من الدول الآرامية المجاورة لها، وكيف أن مملكة حماة سمحت للقوات الآشورية بالتقدم عبر أراضيها وهي متجهة نحو آرام دمشق دون أن تبدي أي مقاومة، والأكثر من ذلك مشاركة مملكة شمأل في حروب تيجلات بلاصر الثالث ضد دمشق. وهذا مما سهل من مهمة الملوك الآشوريين في القضاء على هذه الدويلات الواحدة تلو الأخرى. ولاحظنا من جهة أخرى كيف وقفت هذه الدول بعضها مع بعض عندما

---

[10]- حول هذه الدويلات انظر بتوسع في كتاب:

Lipinski, Edward: The Aramaeans, Their Ancient History , Culture, Religion.

وبشكل مختصر باللغة العربية، في كتابي على أبو عساف وفاروق اسماعيل المشار إليهما في الهوامش السابقة.

حاولت إحداها خرق التوازن القائم بينها وذلك عندما حاول زكور ملك حماة التوسع نحو الشمال، مما كان سيؤدي إلى خلق حالة من عدم التوازن بين الدول السورية المختلفة.

ويمكن القول هنا إن مجموعة دول سورية ارتبطت فيما بينها بعلاقات اقتصادية نشيطة بسبب وقوع أغلب هذه الدول على طرق القوافل التجارية، ومن الممكن القول أن معاهدات قد عُقدت فيما بينها تنظم العلاقة التجارية رغم عدم وجود أية وثائق تثبت ذلك.

أما على الصعيد الداخلي أي على صعيد بنية هذه الدول، فيمكن الاستنتاج من خلال بعض الإشارات الواردة في بعض النصوص الآرامية والآشورية، أن أغلب هذه الدول كانت تتمتع بنوع من النظام الفدرالي، أي اتحاد مجموعة من العشائر التي تسيطر على مناطق متقاربة وتخضع لسلطة زعيم أقوى هذه العشائر، وهذا الخضوع كان يقتصر فيما له علاقة بالعلاقات الخارجية، وأما فيما يتعلّق بالشؤون الداخلية أو بالقضايا اليومية فكان شيوخ هذه العشائر هم الذين يتولونها بأنفسهم. فمثلاً يذكر هديسعي في كتابته أنه ملك جوزن وأزرن وسيكان، وهذا ما يدفع إلى الاعتقاد بأنه كان هناك شيوخ يحكمون على الأقل في أزرن وسيكان، وهؤلاء الشيوخ كانوا يعترفون بالسلطة العليا لملك جوزن هديسعي عليهم. وأما زكور ملك حماه فيصف نفسه بأنه ملك حماه ولعش. وتيجلات بلاصر الثالث يذكر أنه استولى على مناطق دمشق الستة عشرة فهل كانت هناك المناطق مدناً تحكم من قبل ولاة معينين من قبل ملك دمشق، أم كانت مناطق تنتشر فيها عشائر آرامية وتحيط بالمدينة (أي دمشق) وكان يحكمها شيوخ هذه العشائر الذين يخضعون لسيادة ملك دمشق؟ في الحقيقة من الصعب الإجابة عن ذلك، وإن كنا نعتقد أن هذه المناطق كانت تتمتع بنوع من الاستقلالية الذاتية، ولكنها كما أشرنا أنفاً، لم تكن تمتلك حق الاتصال بالآخرين أو تحريك الجيوش إلا بأمرة السيد الأعلى الذي كانوا يخضعون له.

4- الحياة الاقتصادية للدويلات الآرامية :

من الصعب علينا دراسة الأحوال الاقتصادية للدويلات الآرامية السورية بسبب انعدام الوثائق المباشرة التي تتطرق لهذا الموضوع والصادرة عن الدويلات الآرامية نفسها. ولذلك فإن البحث في هذا الموضوع يستند إلى دراسة توضع أو أماكن انتشار هذه الدويلات من ناحية، وعلى النصوص الآشورية التي تعدد الهدايا التي تلقاها الملوك الآشوريون من هذه الدويلات أو الجزيات التي فرضوها عليها، مما يعطينا فكرة عن الأسس المادية التي قامت عليها اقتصاديات هذه الدول. كما أن النقوش الآشورية والكتابات الآرامية التي عثر عليها في مناطق كانت قائمة عليها دول آرامية وخضعت الآن للسيطرة الآشورية تسمح لنا بتبيان النشاطات التي كان يمارسها الآراميون الساكنون في هذه المناطق، مثل الكتابات الآشورية التي عُثر عليها في جوزن والكتابات الآرامية التي كشف عنها في أرسلان طاش (خداتو) وتل شيوخ فوقاني في محافظة حلب وتل الشيخ حمد (دور كاتليمو القديمة) في محافظة دير الزور. وهذه الكتابات تعود بمعظمها للقرن السابع ق0م.

إن العودة إلى خارطة توزع الدول الآرامية على امتداد الساحة السورية، يسمح لنا بملاحظة أن جميع هذه الدول كانت تقع إما على امتداد الخطوط التجارية التي كانت تعبر سورية قادمة من بلاد الرافدين، أو في أماكن قريبة من مناطق استخراج المواد الأولية الهامة في ذلك الوقت.

فبيت عديني مثلاً كانت تتحكم بالمعابر عبر نهر الفرات وبالتالي كانت تتحكم بالطريق التجاري القادم من بلاد الرافدين إلى سورية، وبيت آجوشي كانت تقع في منطقة سهول حلب الخصيبة من ناحية والقريبة من جبال الأمانوس الغنية بالأخشاب من جهة أخرى. هذا عدا عن أهميتها على طرق القوافل التجارية. وآرام دمشق كانت محطة

أساسية للقوافل التجارية المتجهة جنوباً نحو فلسطين ومصر، وغرباً إلى الموانئ الواقعة على شواطئ المتوسط.

إن وقوع الدول الآرامية على هذا الطرق التجارية أكسبها مكانة اقتصادية كبيرةً وثراءً مادياً كبيراً بفضل ما كانت تفرضه على القوافل التجارية المستخدمة لهذه الطرق من ضرائب تمثل جزءاً من بضاعتها. وكان أهم ما تحصل عليه هذه الدول المعادن (الحديد) الذي أخذ يؤدي دوراً متزايد الأهمية منذ نهاية الألف الثاني ق 0م ولاسيّما بعد أن دخل في مجال صناعة الأسلحة ([11]).

وأما أهم المنتجات الحرفية التي ازدهرت في هذه الدول فكانت صناعة النسيج، وهي صناعة مشهورة تاريخياً هنا من أيام مملكة إبلا ويمحاض، وكذلك الصناعة التعدينية وهذه كانت تعتمد بشكل أساسي على المعادن المستوردة من خارج سورية وكذلك صناعة الحلي والأشياء الثمينة، وهذه كانت نصف محلية بمعنى أن بعضاً من موادها الخام كان متوافراً هنا (الفضة مثلاً) وبعضها الآخر كان مستورداً ([12]).

وسوف نذكر هنا مثلاً واحداً عن الجزية التي أخذها الملك الآشوري آشور ناصر الثاني لنعلم مدى الغنى الذي كانت تتمتع به الدول الآرامية السورية « في اليوم الثامن من شهر أيار انطلقت من مدينة كلخو، اجتزت نهر الفرات باتجاه مدينة كركميش في بلاد خاتي، توجهت (أخذت الطريق) اقتربت من بيت بخياني. جزية من سكان بخياني: عربات حربية. خيول، فضة، ذهب، قصدير، نحاس، أوانٍ نحاسية، موائد من عاج الفيل، أسرّة من عاج الفيل.... خشب، عاج، أنا تسلمت...»

وفي كتابة أخرى يذكر استلامه جزية من جوشي رجل بيت آجوشي « في الوقت نفسه جزية من جوشي، رجل بلاد ياحان : فضة، قصدير، قطعان ماشية، ألبسة من الصوف، ألبسة كتانية أنا أخذت ».

---

[11] - حول التجارة عن الآراميين، انظر: Lipinski، المرجع السابق، ص543-551.

[12] - حول الصناعة والحرف، انظر : Lipinski، المرجع السابق، ص531 وما بعدها.

ولما كنا نعلم أن هذه المعادن غير متوافرة في الأراضي التابعة لهذه الدول، ندرك أنها كانت تحصل عليها من تجارة « الترانزايت » كضرائب تفرضها على القوافل التجارية المارة عبر أراضيها. كما أن هذه النصوص تعطينا تصوراً عن ازدهار بعض الصناعات أو الحرف في الدويلات الآرامية ولاسيّما الصناعات النسيجية والخشبية (المفروشات).

ونشير أخيراً إلى ما تذكره بعض الكتابات الآرامية عن بعض الزراعات وأهمية الرعي في حياة بعض هذه الدول، فمثلاً كتابة الملك هديسعي من جوزن تذكر زراعة الشعير في موضع يدل على أهمية هذه الزراعة « ولو زرع ألفاً من الشعير يجني حفنة منه » كما أن كتابة بناموه ملك شمأل تأتي على ذكر الحنطة والكروم في موضع مشوه من النص، أما كتابة كلاموه ملك شمأل أيضاً فتورد افتخاره بإحلاله السلام في مجتمعه وبعد ذلك يقول « من لم ير قبلاً شاة جعلته مالك قطيع. ومن لم ير بقرة جعلته مالك بقر » طبعاً هذه إشارات يمكن الاستفادة منها في تبيان أهمية الرعي في حياة هذه الدولة بالدرجة الأولى والزراعة من بعدها. ويمكن أن يكون هذان النشاطان الاقتصاديان (الرعي والزراعة) قد أديا دوراً أساسياً في الحياة الاقتصادية لمختلف الدويلات الآرامية إلى جانب التجارة.

5- اللغة والكتابة الآرامية :

تنتمي الآرامية إلى الفرع الشمالي الغربي من مجموعة لغات المشرق العربي القديم. وقد تكلمت بهذه اللغة مجموعة القبائل الآرامية التي انتشرت في مناطق سورية وبلاد الرافدين منذ منتصف الألف الثاني ق 0م. وما زالت بعض التجمعات السكنية في هذه المناطق تتكلم بلهجات آرامية مختلفة.

وخلال أكثر من ألفي عام تعرضت اللغة الآرامية بمفرداتها وقواعدها للكثير من التطور ودخلتها مفردات من لغات الأقوام التي جاورها الآراميون أو عاشوا بين ظهرانيها عندما انتشروا مع تجارتهم ولاسيّما شرقاً.

وقد قسم الدارسون اللغة الآرامية حسب العصور التي مرت بها إلى أرامية قديمة ووسيطة وحديثة. وأما حسب اللهجات فقسمت إلى لهجتين أساسيتين شرقية وغربية (وهذا التقسيم لا يشمل الآرامية القديمة) وقسمت كل واحدة منهما بدورها إلى مجموعة من اللهجات الفرعية نذكرها فيما يلي:

المجموعة الشرقية وتضم اللهجات التالية: السريانية والمنداعية ولهجة تلود بابل واللهجة الحرانية.

المجموعة الغربية وتضم اليهودية الآرامية والآرامية المسيحية الفلسطينية والنبطية والتدمرية.

وأما لهجات الآرامية الحديثة فصنفت في المجموعات التالية:

– الآرامية المركزية أو الوسطى وتضم لهجات منطقة جبال طور عابدين.

– الآرامية الشرقية وتضم اللهجات السريانية المتعددة وبعض (اللهيجات) مثل لهجة الموصل وبحيرة فان...الخ.

– الآرامية الغربية: ونمثلها لهجات القرى الثلاث في سورية معلولا وجبعدين والصرخة (بخعا سابقاً) ([13]).

وأما الأبجدية التي كتبت بها اللغة الآرامية، فقد أخذ الآراميون حروفهم الأولى من جيرانهم الفنيقيين، ثم بدؤوا بتطوير قلمهم الخاص بهم والذي عرف باسم الخطيدوي، ومن ثم ظهر الخط المربع الذي تبناه أحبار اليهود عندما أرادوا تدوين كتبهم المقدسة.

ويبلغ عدد أحرف هذه الأبجدية اثنين وعشرين حرفاً تكتب من اليمين إلى اليسار. ولقد انتشرت الأبجدية الآرامية انتشاراً واسعاً ولاسيّما في المناطق التي كانت خاضعة للإمبراطورية الأخمينية الفارسية بين القرنين السادس والرابع ق.م عندما كانت اللغة الآرامية لغة المراسلات الدولية ولغة الدواوين في هذه الإمبراطورية. وأسهمت الأبجدية

---

[13]- تسيريتيلي، كونستانتين: اللغة الآرامية، تبليسي، 1982، ص110-115.

الآرامية في ولادة عدة أبجديات عندما انهارت الإمبراطورية الأخمينية نتيجة هجوم الاسكندر المقدوني ([14]).

ولقد وجدت كتابات آرامية في مناطق مختلفة من العالم وتغطي فترة تاريخية تمتد من مطلع الألف الأول ق 0م حتى القرون الأولى الميلادية. ويجب أن ننتبه هنا إلى أن بعض هذه الكتابات لم تكتب باللغة الآرامية وإنما استخدم فيها الخط الآرامي فقط([15]).

وقبل أن نختم حديثنا عن اللغة والكتابة الآرامية نشير إلى أن كُتّاب العهد القديم استخدموا أولاً اللغة الآرامية وكتابتها لتدوين العهد القديم قبل أن يترجموه إلى لغتهم. وما بقاء أجزاء من ذلك العهد (سفر دانيال وعزرا) مكتوبة بالآرامية إلا دليل علىذلك.

ثانياً– الفينيقيون :

إن قدوم الفينيقيين من شبه الجزيرة العربية أمر متفق عليه بين أغلب الدارسين وذلك في حدود منتصف الألف الثالث ق.م. مع أن بعض هؤلاء الدارسين يرى أن الفينيقيين قدموا من البحرين تحديداً مستندين في ذلك إلى نتائج أعمال التنقيب الأثري التي أثبتت وجود تشابه بين المقابر التي عثر عليها في البحرين وتلك التي عثر عليها على الشاطئ الفينيقي.

وأما هيردروت فيروي أن الفينيقيين قدموا من البحر الآرتيري (البحر الأحمر) عبر البحر الميت إلى ساحل المتوسط.

أما تحديد حدود فينيقيا فلا يوجد عليه اتفاق أيضاً ففي حين يرى بعضهم أن كل الساحل السوري الفلسطيني هو ساحل فينيقيا يرى بعضهم الآخر أن هذا أمر مبالغ فيه ولا تؤيده الخلافات في بعض المظاهر الحضارية بين الأجزاء المختلفة لهذا الساحل، وعلى

---

[14]- فريد ريش، يوهانسن: تاريخ الكتابة ترجمة د.سليمان الضاهر، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 2004، ص197 وما بعدها.

[15]- مثل أرشيف العاصمة البارثية نيسي القديمة المكون من أكثر من ألفي وثيقة مكتوبة بالخط الآرامي وبلغة فارسية متوسطة (فهلوية).

ذلك فإنهم يستثنون بعض أجزاء الساحل السوري (أوجاريت) وأجزاء من الساحل الفلسطيني (جنوب عكا) من فينيقيا.

وأما أصل التسمية فعلى أغلب الآراء تعني اللون الأحمر، أو الأرجواني وهو اللون الذي اشتهرت به الأنسجة الفينيقية وكان أول من استعمل هذه التسمية الشاعر الإغريقي هوميروس. وهناك من يرى أصل هذه الكلمة في التسمية المصرية « فنخو » التي ترد في وثائق وكتابات الدولة القديمة للدلالة على شعب كان يسكن في أحد الأقاليم السورية.

وتتميز فينيقيا بأنها شريط ساحلي ضيق محصور بين البحر المتوسط في الغرب وجبال لبنان والكرمل في الشرق. وهذا الساحل كان مقسماً طبيعياً بوساطة نتوءات جبلية تصل إلى ساحل البحر إلى عدة أقسام كان الاتصال فيما بينها صعباً إلا عن طريق البحر. وقد قامت على طول هذه الشاطئ عدة مدن هامة كان لها دورها في التاريخ السياسي والحضاري لسورية لعل أهمها أوجاريت وأرواد وجبيل وصيدا وصور وعكا. وكانت كل واحدة من هذه المدن تتمتع بالاستقلال مع محاولة كل واحدةفرض سيطرتها على جيرانها. مع خضوعها كلها بين الحين والآخر لجيرانها الأقوياء (آشوريين ومصريين) لقد اشتهر جبال لبنان بغناها بالأشجار (الأرز، الصنوبر، السرو وغيرها)، كما اشترت الدويلات الفينيقية بغناها التجاري مما جعلها محل أطماع الدول الكبرى، وبما أن هذه الدويلات لم تخف لنا كتابات تاريخية مهمة فإن أغلب معلوماتنا عنها نستقيها من كتابات جاءت من هذه الدول الكبرى التي أرسلت بعثاتها وجيوشها إليهنا.

1- الدويلات الفينيقية :

1ً- أرواد :

تقع أرواد في شمال الساحل الفينيقي وهي مقسمة إلى قسمين: أرواد الجزيرة وأرواد الداخلية وهي الواقعة على شاطئ البحر. وكانت الج زيرة تحصل على مياه الشرب من نبع ماء عذب موجود تحت البحر. إضافة إلى تجميع مياه الأمطار. وعلى الرغم من صغر مساحة أرواد، فإنها تمكنت من فرض سيطرتها على بعض المدن المجاورة لها مثل سيميرا وماراتوس (عمريت). وقد اشتهر الأرواديون بأنهم ملاحون ماهرون وبأنهم كانوا يملكون أسطولاً قوياً استخدموهم في أغراضهم التجارية والعسكرية كما وضعوه في بعض الأحيان تحت تصرف الجيوش الغازية التي استخدمته ضد باقي المدن الفينيقية.

ً2- جبيل:

تعد واحدة من أقدم المراكز الحضارية على ساحل البحر المتوسط. حيث يمكن الحديث عن نشوء دولة هنا منذ منتصف الألف الثالث ق.م. وقد عثر فيها على كتابات مصرية تعود إلى عهد الدولة القديمة. وفي النصف الثاني من الألف الثالث ق.م بنى المصريون في جبيل معبداً لآلهتهم حاتحور والتي ماثلوها مع الإلهة المحلية بعلة جبيل، سيدة جبيل. ومنذ الألف الثالث ق.م كانت المدينة محاطة بأسوار حجرية وفيها شوارع مبلطة بحجارة كبيرة وكانت هذه الشوارع عريضة إلى الحد الذي يسمح بمرور العربات. كما تبدأ في هذا الوقت بالظهور أبنية ضخمة غالباً ما كانت تمثل معابد مبنية على أساسات حجرية. وقد عثر في معبد بعلات على أوانٍ عليها كتابات مصرية وكذلك مجموعة أدوات منزلية « سكاكين وصحون وفؤوس وخرزات » وفي جبيل عثر على أطول النقوش الفينيقية وهو النقش المكتوب على تابوت ملكها أحير ام الذي حكم نحو العام 1000 ق.م والذي أمر بوضعه ابنه إتو بعل تكريماً لوالده.

ً3- صيدا:

تقع صيدا في منتصف المسافة بين بيروت وصور. وهناك من يرى أن اسمها مشتق من الجذر « صيد » بمعنى صيد السمك الذي كان الحرفة الرئيسة لسكانها منذ نشأتها. وقد ورد ذكرها في المصادر الآشورية باسم « صيدونا » وفي رسائل العمارنة المصرية الأقدم باسم « صيدونو » وفي بعض الأحيان كان يطلق اسم الصيدونيين على سكان الساحل الفينيقي مما يدل على المكانة والنفوذ اللذين تمتعت بهما صيدا في إحدى فترات تاريخها حتى إن سيطرتها شملت جارتها الجنوبية مدينة صور.

4- صور:

تعد من أهم مدن الساحل السوري في مطلع الألف الأول ق.م. ومثلها مثل أرواد فإن صور كانت مؤلفة من قسمين: قسم يقع في جزيرة تبعد عن الشاطئ عدة كيلومترات وقسم آخر مبني على شاطئ البحر. وكان الاتصال بين القسمين يتم بواسطة القوارب والسفن الصغيرة إلى أن قام الإسكندر المقدوني وأثناء حصاره المدينة ببناء جسر يصل بين قسميها. وهذا ما سهل عليه عملية احتلال المدينة. لأن سكان صور قبل ذلك كانوا عندما يتعرضون لأي هجوم خارجي يتحصنون في جزيرتهم ويحصلون على ما يحتاجون إليه من مؤن ومياه بوساطة البحر. وقد بلغت صور أعلى مراتبها في عهد ملكها حيرم (980 . 936ق.م) الذي كان معاصراً لسليمان وأمده حسب رواية العهد القديم بالأخشاب والحرفيين من أجل مشاريعه العمرانية وبالبحارة والسفن من أجل المشاريع التجارية البحرية.

2- الحياة السياسية للمدن الفينيقية:

لقد شكلت كل مدينة فينيقية كياناً سياسياً مستقلاً، يشمل المدينة نفسها وما يحيط بها من أرياف مع أن بعض المدن وفي بعض الأوقات مدت سيطرتها خارج هذه الحدود لتشمل مدناً أخرى إلا أن هذا الأمر كان عارضاً ولم يتخذ صفة الاستمرار. ومثلهم كمثل جيرانهم الآراميين في الداخل فإن بعض الأحلاف جمعت في بعض الأحيان هذه

المدن لمواجهة خطر يتهددها. أو شاركت غيرها من المدن السورية في نشاطات هذه الأحلاف.

وكان الحكم في كل مدينة ملكياً وراثياً. ومن مدونات الملوك الفينيقيين نستطيع أن نعيد تركيب تعاقب الأسر الحاكمة في هذه المدن. فمثلاً شفط بعل ملك جبيل يذكر بمناسبة بنائه سوراً لمدينته ما يلي: « هذا السور بناه شفط بعل ملك جبيل، بن إيلي بعل ملك جبيل، بن يحيملك جبيل، من أجل سيدته بعلات جبيل »([16]).

وكانت للملك عدة وظائف يشغلها فهو القائد للجيش وهو الكاهن وهذا الأمر نلحظه بشكل واضح من خلال النصوص الفينيقية فملك صيدا تبنيت يذكر في كتابة له ما يلي: « أنا تبنيت كاهن عشترت ملك الصيدونيين، ابن أشمن عزر كاهن عشترت ملك الصيدونيين »([17]). وبهذه الصفة كان الملك يحتفظ بعلاقات وثيقة مع الآلهة ويقدم لها ولمعابدها الهدايا والمنح « هذه الصورة (اللوحة النذرية) حضرها (جلبها) أبي بعل ملك جبيل، ابن يحيملك ملك جبيل في مصرر (مصر) لبعلة جبيل آلهته »([18]).

وكانت الملكة تتمتع بأهمية كبيرة في حياة المدن الفينيقية. ونستدل على ذلك من شغل الملكة أم عشترت والدة ملك صيدا أشمن عزر منصب كاهنة الإلهة عشترت «.. أنا أشمن عزر ملك الصيدونيين، ابن الملك تبنيت ملك الصيدونيين، حفيد الملك أشمن عزر ملك الصيدونيين وأمي أم عشترت كاهنة عشترت ربتنا الملكة، بنت أشمن عزر ملك الصيدونيين..»([19]).

وقد حكمت أم عشترت في صيدا كوصية على ابنها الطفل عدة سنوات. ووضعت النقوش باسمها واسم ابنها معاً « إننا نحن من شيد معبد أشمون، الأمير المقدس..» ([20]).

---

[16]- الحضارة الفينيقية ـ موسكاني ص60.

[17]- حامدة، أحمد: الملك والأسرة المالكة في فينيقية، دراسات تاريخية، السنة15، العددان49-50، آذار، حزيران، 1994، ص142.

[18]- حامدة: المرجع السابق، ص142

[19]- حامدة: المرجع السابق، نفس الصفحة.

[20]- موسكاني: الحضارة الفينيقية، ص61.

وإلى جانب الملك كان هناك مجلس يساعد الملك على أداء وظائفه وربما تألف هذا المجلس من كبار التجار الذين كانوا يشكلون طبقة متميزة في المدن الفينيقية المختلفة. وتشير المعاهدة التي أبرمها أسرحدون مع مدينة صور إلى هذا المجلس عندما تذكر « شيوخ بلادك الذين ضمهم المجلس »([21]). وكان هذا المجلس بصلاحية اتخاذ القرارات في غياب الملك عن مدينة صور ويشير ديودوروس إلى أن عدد أعضائه في مدينة صيدا كان مئة عضو. وقد طرأ تحول على شكل الحكم في صور في العصر البابلي الجديد حيث حل محل الملوك قضاة إلا أن هذا الأمر لم يدم طويلاً وسرعان ما عادت الأمور إلى ما كانت عليه في السابق.

3- العلاقات الخارجية للمدن الفينيقية:

بسبب الغنى الذي كانت تتمتع به المدن الفينيقية والانقسام الذي كانت تعاني منه فإنها كانت محط أطماع الدول الكبرى المحيطة بها. وبما أن أقرب الدول وأقواها إلى الساحل الفينيقي كانت مصر، فإن هذه المدن خضعت منذ البداية (أي منذ الألف الثالث ق.م) بشكل أو بآخر للنفوذ المصري، سواءٌ أكان هذا النفوذ مباشراً أم غير مباشر. فمدينة جبيل منذ عهد الدولة القديمة كانت مركزاً للنفوذ المصري على الساحل السوري ففيها كانت تجمع الأخشاب والزيوت والخمور التي ستشحن إلى مصر. وإليها كانت ترد البضائع المصرية المراد المتاجرة بها مع سورية وبلاد الرافدين. وفيها كان يقيم ممثل الفرعون المصري وكانت فيها جالية مصرية كبيرة وقد بني فيها معبد للآلهة المصرية حاتحور.

وقد ضعف النفوذ المصري نسبياً في هذه المنطقة أثناء حكم الهكسوس لمصر. ولكن هذا النفوذ سرعان ما عاد بقوة أكبر بعد أن تحررت مصر من حكم الهكسوس وسعت نحو إقامة إمبراطوريتها العالمية الأولى. فحملات الفراعنة المصريين أجبرت المدن الفينيقية

---

[21]- موسكاتي: المرجع السابق، ص62.

المختلفة على دفع الجزية. كما أن تحوتمس الثالث الذي أراد محاربة الميتانيين صنع السفن اللازمة لعبور الفرات في مدينة جبيل. وفي عصر العمارنة، ومع اشتداد المنافسة المصرية الحثية على سورية حافظت بعض المدن الفينيقية على ولائها للمصريين ولاسيّما جبيل وصور في حين أن صيدا كانت متحالفة مع عبدي عشيرنا وابنه عزيرو حاكم ي أمورو المناهضين للمصريين. وكثيرة هي الرسائل التي أرسلها رب عدي حاكم جبيل وأبيملكي حاكم صور ويطلبان إرسال المعونات لهما للوقوف في وجههما وحماية الممتلكات المصرية في سورية: « عزيرو وأخوته، موجودون في دمشق أرسل رماة السهام. من أجل إلقاء القبض عليه » وفي رسالة أخرى إلى امنحوتب الرابع يخبر رب عدي «أبناء عبدي عشيرتا استولوا على خيول وعربات الملك. وهم يتفوهون بكلمات معادية للملك، وأنا كتبت للملك عن كلماتهم». وأما أبيملكي فأرسل يشكو من خيانة ملك صيدا زيمريدا «زيمريدا، ملك صيدا، يكتب في كل يوم إلى المجرم عزيرو، ابن عبدي عشيرنا..» وفي رسالة أخرى يذكر ما يلي: « زيمريدا من صيدا وعزيرو، أعداء الملك، وأناس أرواد حلفوا يميناً، وجددوا اتفاقهم، ووحدوا سفنهم وعرباتهم ومشاتهم من أجل أن يستولوا على صور »([22]).

لكن الأمور لم تستمر على هذا الحال. فمع عودة مصر إلى تأدية دورها بعد وفاة أخناتون وصعود مجموعة من الملوك الأقوياء على العرش المصري في ظل الأسر من الثامنة عشرة إلى العشرين لا بد أن تكون منطقة الساحل الفينيقي قد عادت لتدور في فلك النفوذ المصري وبخاصة بعد معركة قادش واتفاق السلام الذي عقد بين مصر والحثيين.

لقد أثر هجوم شعوب البحر بصورة متفاوتة على المدن الفينيقية فبعضها تعرض لدمار شديد (صيدا) وبعضها الآخر كان نصيبه من الدمار أقل. ولذلك تمكن من النهوض بسرعة والعودة إلى ممارسة نشاطاته السابقة مثل جبيل وصور. وبشكل عام فإن

---

[22]- العلاقات الدولية والدبلوماسية في الشرق القديم، ص73.

العصر الذي تلا هذا الهجوم حتى بداية الهجوم الآشوري الكبير مع عهد نيفلات بلاصر الثالث (745 - 727ق.م) يمكن عده عصر استقلال تمتعت به المدن الفينيقية تجاه الدول الكبرى مع أنها أدت في بعض الأحيان الجزية للملوك الآشوريين: آشور ناصر بال الثاني (884 – 859 ق.م) وشلمناصر الثالث (859 – 824 ق.م) إلا أن هذين الملكين قنعا بالجزية ولم يحاولا القضاء على استقلال هذه المدن. ونستطيع أن نتأكد من الاستقلالية التي تمتعت بها المدن الفينيقية، من خلال المعاملة المهينة التي عامل بها ملك جبيل رسل الفرعون المصري الذين حضروا إلى جبيل كالعادة من أجل تأمين الخشب اللازم لبناء القارب المقدس للإله أمون. حيث طلب حاكم جبيل دفع ثمن الخشب أولاً وخاطب الرسول (واسمه وينامون) قائلاً: « ولا أنا خادم الذي أرسلك». هذا إذا أخذنا في الحسبان أن جبيل معروفة تاريخياً بولائها التقليدي لمصر.

في هذا العصر تزايدت مكانة صور حتى أصبح لها الكلمة العليا بين سائر المدن الفينيقية. وكانت لها علاقة وثيقة مع سليمان وأمدته كما ذكرنا آنفاً بالأخشاب واليد العاملة الماهرة لتنفيذ مشاريعه العمرانية. كما كانت هناك مشاريع تجارية بحرية مشتركة بينهما.

ولكن الأمور بالنسبة للمدن الفينيقية بدأت تسوء مع وصول الجيوش الآشورية مجدداً إلى الساحل الفينيقي ولاسيّما مع آشور ناصربال الثاني الذي يذكر في إحدى كتاباته: « سرت يومئذ محاذياً جبل لبنان، وطلعت إلى البحر الكبير في بلاد العموريين. في البحر العظيم غسلت أسلحتي، وقربت القرابين للآلهة. جبيت الجزية من ملوك الساحل، من أهالي صور وصيدا وجبيل وأرواد.. »([23]). والشيء نفسه يكرره شلمناصر الثالث الذي يذكر أنه جبى الجزية « من أهالي صور وصيدا ». وتفاقم الوضع أكثر مع صعود تيغلات بلاصر الثالث العرش الآشوري والذي سعى إلى تحويل المدن الفينيقية إلى ولايات آشورية

---

[23]- موسكاتي: الحاضرة الفينيقية، ص40.

تحكم من قبل حكام آشوريين ولكن المدن الفينيقية لم ترض بالخضوع للآشوريين، إذ كثيراً ما نسمع عن ثورات قامت في هذه المدن أو تحالفات تشكلت فيما بينها للوقوف في وجه الآشوريين. فمثلاً سنحريب (705 – 681ق.م) يقص علينا أخبار حلف تشكل ضده وكيف واجهه « وفي حملتي الثالثة توجهت إلى بلاد الحثيين (سورية) ولولي ملك صيدا استولى عليه الرعب من عظمة سلطاني فانطلق هارباً في البحر، وهناك مات. صيدا الكبرى، وصيدا الصغرى، بيت زطي، شريفتا، محليبا، أوشو، عكزيب، عكا.. أجلست توبعلو على العرش ملكاً عليها...» ([24]). وفي عهد أسرحدون (681 – 338ق.م) ازداد الضغط الآشوري على المدن الفينيقية، وحولت صيدا إلى ولاية آشورية باسم كار أسرحدون بعد أن حاولت الانتقاض على الآشوريين «عبدي . ملكوتي، ملك صيدا، الذي لم يرهب جلالتي، لم يكترث لكلمة شفتي، وثق بالبحر المخيف وخلع عنه نيري، صيدا، مدينته حاميته. التي تقع في وسط البحر، سويتها مع الأرض، أسوارها وبيوتها دمرتها ورميتها في البحر. الموقع محوته..» ([25]). والملاحظ في هذه المرحلة تحول صور عن موقعها السابق المعادي للآشوريين إلى حلفاء لهم في حربهم ضد صيدا، وربما اتخذت صور هذا الموقف طمعاً في الحصول على بعض المكاسب. وبالفعل فد ضم أسرحدون بعض أملاك صيدا إلى مدينة صور.

وفي هذه المرحلة أصبح الملوك الآشوريون يعينون حاكماً آشورياً إلى جانب الملك الفينيقي. وانحصرت مهمة هذا الحاكم في مراقبة تصرفات الملك ومدى تقيده بتنفيذ ما هو مفروض عليه. وكذلك تفسير الأوامر الذي كان يرسلها الملك الآشوري. فالمعاهدة المعقودة بين أسرحدون وبعل ملك صور تضم خطاباً موجهاً إلى ملك صور على النحو

---

[24]- موسكاتي: الحاضرة الفينيقية، ص40.

[25]- موسكاتي: المرجع السابق، ص48.

التالي: « كل رسالة أرسلها إليك يجب ألا تفتحها بدون الحاكم. فإذا كان الحاكم غير موجود، يجب أن تنتظره حتى تفتحها »([26]).

عندما صعد آشور بانيبال (668 . 626ق.م) انتفضت المدن الفينيقية مجدداً، والغريب في الأمر أن صور كانت هذه المرة على رأس المنتفضين. وربما كان للمصريين دور في تحريض المدن الفينيقية على الثورة على الآشوريين، إلا أن هذه الانتفاضة لم يكن حظها أفضل من حظ سابقاتها. فآشور بانيبال قمعها بقسوة وأخذ أبناء وبنات الملوك الفينيقيين كرهائن لديه: « في حملتي الثانية زحفت على بعل ملك صور الذي يسكن في وسط البحر، عندما لم يمتثل لأمري الملكي ولم يطع كلمة شفتي، دمرت حصونه واستوليت على طرقاته بحراً وبراً... جاءني بابنته الناتجة من صلبه وبنات أخوته ليكن محظيات عندي. وابنه، ياحي . ملكي، الذي لم يسبق له أن قطع البحر أرسله إلي، لأول مرة، لكي يقوم على خدمتي.. ياكينلو، ملك أرواد، الذي يسكن في وسط البحر، أبى الخضوع للملوك آبائي، فوضعت النير في عنقه. ابنته جاء بها نينوى، ومعها بائنة ضخمة، لكي تخدمني كإحدى محظياتي »([27]).

ويبدو أن فينيقية منذ عهد أسرحدون كانت مقسمة إلى ثلاث ولايات وهي سيميرا وصيدا وأوشو، بالإضافة إلى أرواد وجبيل وصور التي كانت مستقلة ذاتياً، لكنها كانت تدفع الجزية إلى آشور.

ويبدو أن المدن الفينيقية نعمت بنوع من الاستقلالية بعد انهيار الإمبراطورية الآشورية واستمر الأمر كذلك حتى بدأت جيوش نبوخذ نصر الثاني الملك الكلداني بمهاجمة المدن الفينيقية. وكانت صور على رأس المقاومين لتقدم نبوخذ نصر الثاني واستمر حص .ارها ثلاثةعشر عاماً إلى أن تمكن من دخولها وخلع ملكها المهزوم إيتو بعل الثاني، عن العرش ونصب مكانه الملك بعلي الموالي له. والذي دام ملكه من (574 – 564) ق.م.

---

[26]- موسكاتي: الحضارة الفينيقية، ص62.

[27]- موسكاتي: الحاضرة الفينيقية، ص51.

وعندما سقطت بابل بيد الفرس الأخمينيين عام 539ق.م عدّوا أنفسهم وارثين لكل ممتلكاتها بما فيها سورية. وبالفعل فقد اعترف الفينيقيون بالسيادة الفارسية وشكل أسطولهم عماد الأسطول الفارسي الذي هاجم بلاد اليونان. وقد جعل الفرس من سور ية (مع فينيقيا وفلسطين) وقبرص ولاية واحدة هي الولاية الخامسة من ولايات إمبراطوريتهم. وفرضوا عليها جزية تعادل 350 وزنة ولم يتدخل الملوك الفرس في الشؤون الداخلية الفينيقية طالما كانت هذه المدن تدفع ما هو مفروض عليها. وفي هذا العصر كانت صديا على رأس المدن الفينيقية وكان فيها مقر الحكم الفارسي. ولكن الأمور لم تستقر كذلك حتى النهاية فالمدن الفينيقية التي كانت تتوق للحرية ما لبثت أن ثارت على الفرس بزعامة صيدا نفسها، إلا أن الفرس أخضعوا الثورة بعنف شديد ودمرت صيدا مما أجبر باقي المدن على الاستسلام.

وعندما قدمت جيوش الإسكندر المقدوني إلى سورية رحبت به كل المدن الفينيقية أرواد وطرابلس وجبيل وبيروت وصيدا ولم تقاومه إلا صور التي سقطت بعد حصار استغرب سبعة أشهر وبعد أن أنشأ الإسكندر معبراً يصل بين صور البحرية وصور الجزيرة.

4- الحياة الاقتصادية :

لقد حاول الفينيقيون استغلال الأراضي الزراعية القليلة المتوافرة في بلادهم أفضل استغلال معتمدين في الري على مياه الأمطار التي تهطل بكميات جيدة وعلى بعض الأنهار التي تجري في بلادهم ونوعوا زراعاتهم ما بين زراعة الحبوب في السهول الصغيرة المتوافرة والأشجار المثمرة في المناطق الجبلية الصخرية. ولعل أهم الأشجار التي زرعت كانت الكرمة والزيتون والتين والنخيل والرمان. وقد وجد عدد كبير من الأحجار المثوبة في العديد من المواقع الفينيقية التي يعتقد أنها كانت تستخدم كمعاصر للزيتون والعنب.

وقد مارس الفينيقيون حرفاً متعددة لعل أهمها حياكة المنسوجات وصبغها باللون الأرجواني بوساطة المادة التي يفرزها حيوان المريق وهو حيوان بحري من الرخويات كان متوافراً بكثرة غير بعيد عن شاطئهم. وهذا الحيوان عندما يموت يفرز مادة إذا وضعت فوق نسيج أبيض اصطبغ باللون الأرجواني. كما أن صناعة الزجاج كانت من الحرف المزدهرة في فينيقية وأكثر ما اشتهرت به بلاد الفينيقيين الزجاج الشفاف في حين كانت بقية البلدان تصنع زجاجاً كتيماً لا شفافية فيه. كما اشتهر الفينيقيون بالصناعات المعدنية والعاجية التي كانوا يستوردون موادها الأولية ويصنعوها ويعيدون تصديرها.

ولعل أهم النشاطات الاقتصادية الفينيقية كانت التجارة. فقد لوقوع المدن الفينيقية على شاطئ البحر دور مهم في مجال تجارة العالم القديم ولاسيما البحرية وبالإضافة إلى منتجاتهم المحلية من الأخشاب والزيوت المختلفة إلى مصر وعالم بحر إيجه وبالمقابل فإن منتجات هذه البلاد كانت تصل إلى سورية وبلاد الرافدين عبر الموانئ الفينيقية وأهم هذه المنتجات النحاس من قبرص والذهب من مصر.

5- التوسع الفينيقي:

لقد دفعت ضآلة الأراضي المتوافرة في بلاد الفينيقيين هؤلاء للتوسع خارج حدود بلادهم. ولما كانت الجبال العالية تقف حائلاً أمام توسعهم شرقاً، فإنهم اندفعوا غرباً يمخرون عباب البحر المتوسط ويقيمون مستعمراتهم على شواطئه القريبة والبعيدة ولعل المستعمرات الفينيقية في قبرص أقدم مستعمراتهم خارج حدود الساحل الفينيقي حيث يرجع تأسيس هذه المستعمرات إلى الألف الثاني ق.م وكان أهمها مستعمرة كتيون.

وفي غرب ا لمتوسط كانت قرطاجة أهم مستعمراتهم وهي تقع على مقربة من مدينة تونس الحالية ويرجع تأسيسها إلى القرن التاسع ق.م. ومعنى هذه الكلمة مشتق من الكلمة الفينيقية « قرت حدشت » بمعنى المدينة الجديدة. وفي البداية كانت قرطاجة تتبع لصور وترسل لها جزءاً من مداخيلها، إلا أنها استقلت عنها بعد الضعف الذي تعرضت

له صور نتيجة هجوم نبوخذ نصر الثاني عليها، وبدأت بعد ذلك بتأسيس مستعمرات لها مثل المستعمرات التجارية في جزيرة «إليسيا» بين سردينيا وإسبانيا إلى جانب مستعمرة أخرى على شواطئ مينوركا في جزر البليار.

ومن المستعمرات المهمة الأخرى قادس على الشاطئ الإسباني الغربي حيث كان يحصل الفينيقيون من هنا على الفضة. كما كان للفينيقيين عدة مراكز مهمة في جزر البحار لمتوسط مثل صقلية ومالطا وكورسيكا وسردينيا وغيرها.

إن التوسع الفينيقي في البحر المتوسط دل على مهارتهم البحرية وامتلاكهم المعارف التي تساعدهم على الإبحار لمسافات طويلة. وقد لجأ الكثير من حكام الدول المجاورة للاستفادة من خبرات ومهارات البحارة الفينيقيين لأغراض تجارية. ففي العهد القديم يذكر أن سليمان أرسل بالاتفاق مع حيرام ملك صور أسطولاً مشتركاً من عصيون جابر لإحضار الذهب من « أوفير ». ومن أهم الرحلات البحرية الفينيقية تلك التي قام بها بحارة فينيقيون بتكليف من الفرعون المصري « نخاو الثاني » (610 . 595ق.م) حول إفريقيا عن طريق رأس الرجاء الصالح واستغرقت هذه الرحلة ثلاث سنوات. وهناك رحلتان أخريان انطلقتا من قرطاجة قام بالأولى منها حميلكو في نحو 450 ق.م الذي أبحر حول إسبانيا حتى وصل إلى الجزر البريطانية وقام بالثانية حنون نحو 425 ق.م ويعتقد أنه في هذه الرحلة قد اجتاز أعمدة هرقل (مضيق جبل طارق) حتى وصل إلى خليج غينيا.

6- اللغة والكتابة والدين:

تكلم الفينيقيون وكتبوا نقوشهم بلغتهم الفينيقية والتي هي لهجة كنعانية وكان من أهم الإنجازات الحضارية التي حققها الفينيقيون اختراع الأبجدية التي عثر عليها في أوجاريت. وإن كانت أبجدية أجاريت تتألف من ثلاثين حرفاً مسمارياً إلا أنها سرعان ما اختزلت في جبيل إلى اثنين وعشرين حرفاً ساكناً تكتب من اليمين إلى اليسار. وقد انتقلت هذه الأبجدية إلى بلاد اليونان حي استخدمها هؤلاء في كتاباتهم ونقلوها إلى

غيرهم. كما انتقلت شرقاً بوساطة الآراميين الذين استخدموها من كتاباتهم وكانت الأساس للكثير من الأبجديات التي وضعت في مناطق الشرق القديم ([28]).

وأما عن الديانة الفينيقية فالمؤكد أنه كان لكل مدينة فينيقية إلهها الرئيسي إلى جانب مجموعة من الآلهة الثانوية وبعض هذه الآلهة كان على صلة بالطبيعة وبعضها الآخر بالكواكب وكما انتقلت الأبجدية الفينيقية غرباً إلى بلاد اليونان كذلك انتقلت الآلهة الفينيقية.

وكانت كلمة « البعل » صفة تطلق على جميع الآلهة الرئيسة في المدن الفينيقية وهي تعني « السيد، الملك » فهناك مثل بعل صيدون وبعل لبنان وغيرها وكان المؤنث منها « بعلة، بعلات » وهذه كانت الإلهة الرئيسة في مدينة جبيل وكانت تمثل الخصب والتوالد. وكان أشمون بعل صيدا وقد قرنه اليونان بـ « اسكيليوس » وهو إله الطب عندهم. أما إله صور الرئيسي فكان ملكرت أو ملقرت، بمعنى ملك المدينة أو سيدها. وهناك الإله أدون ومعنى أدون أيضاً « السيد » وهو يشبه الإله تموز الذي كان معروفاً في بلاد الرافدين. وحيكت حوله أسطورة تتعلق بوفاته وعودته إلى الحياة رمزاً لتوالي فصول السنة. وقد أطلق عليه الإغريق اسم أدونيس. ومن الآلهة الأخرى المهمة الإلهة عشتارت وهي من الآلهة الرئيسة في مدينة صيدا حيث حمل بعض ملوكها لقب كاهن عشتارت. ونشير هنا إلى انتقال عبادة هذه الآلهة إلى المستعمرات الفينيقية ولاسيّما إلى قرطاجة، التي كان أهم الآلهة فيها بعل حمون وقرينته الإلهة تانيت.

أما الأماكن التي كان الفينيقيون يمارسون فيها شعائرهم الدينية فهي الأماكن المرتفعة على مقربة من الأشجار والينابيع. وفي الختام نشير إلى دخول أسماء الآلهة الفينيقية في أسماء الأعلام ولاسيّما أسماء الملوك فهناك مثل: أشمن عزز ملك صيدا، شفط بعل ملك جبيل وغيرها.

---

[28]- للتوسع حول اللغة الفينيقية وما تركته من نقوش يمكن الرجوع إلى كتاب الدكتور أحمد حامدة ، «مدخل إلى اللغة الكنعانية الفينيقية»، جامعة دمشق، عام 1994.

ثالثاً- الاحتلال الفارسي لسورية:

كنا قد اشرنا أنفاً على أن نبوخذ نصر الثاني احتل سورية وضمها إلى أملاكه وقسمها على ولايات تحكم من قبل حكام يعينون من قبله. وعندما انهارت الإمبراطورية البابلية الجديدة نتيجة هجوم الفرس الأخمينين عليها أصبحت سورية تشكل جزءاً من هذه الإمبراطورية الجديدة وأطلق عليها اسم « البلاد التي على الجانب الآخر من النهر » أي نهر الفرات.

وقد أسهمت المدن الفينيقية في الحروب التي خاضها الفرس ضد اليونانيين وغيرهم بتقديم السفن والبحارة. وعندما قسم داريوس الأول (521-485ق0م) دولته إلى عشرين ولاية، جعل من سورية وفلسطين وقبرص ولاية واحدة كانت عاصمتها دمشق.

وعلى الرغم من الحرية النسبية التي منحها الملوك الفرس للمدن المختلفة لإدارة أمورها، إلا أن هذه المدن لم تقبل الخضوع لحكمهم إذ كانت تغتنم الفرصة بين الحين والآخرلتعلن ثورتها على هذا الحكم. وكانت أعنف هذه الثورات تلك التي نشبت عام 351ق0م وتزعمتها مدينة صيدا. وقد قمعت هذه الثورة بعنف شديد حيث دمرت المدينة وأحرقت بسكانها الذين رفضوا مغادرتها مفضلين الموت على ذلك.

ومع دخول قوات الإسكندر المقدوني إلى سوريا عام 333ق.م تنتهي العصور المشرقية القديمة، وتدخل البلاد في عهد جديد كان حكامها فيه من السلوقيين (نسبة إلى القائد سلوقس). الذي كان أحد قواد الإسكندر الأكبر واستولى على السلطة فيها بعد وفاته.

Damascus University



الباب الثالث

مصـــر


وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

الفصل الأول

الظروف الطبيعية

أطلق اسم مصر على المنطقة المشكلة من وادي النيل، هذا الوادي الذي يتراوح عرضه ما بين 1-20 كم ويدعى بمصر العليا، إضافة إلى منطقة الدلتا الواسعة التي يشكلها فرعا النيل (دمياط ورشيد) اللذان يصبان في البحر المتوسط.

إن تسمية إيجيبتوس، تسمية إغريقية أطلقها اليونان منذ عصر هوميروس على نهر النيل وكل مصر، وفيما بعد أصبحت هذه التسمية مقتصرة على البلاد دون النهر. أما المصريون فكانوا يسمون بلادهم « كيمة » بمعنى « الأرض السوداء »، وذلك نسبة للون الطمي الذي كان يخلفه النهر على الأرض في منطقة الدلتا بعد فيضانه السنوي، في حين أطلق اسم « الشرة » أي « الأرض الصفراء » على الأراضي المحيطة بالوادي، ويقصد بذلك الصحراء في شرق الوادي وغربه. وأما التسمية مصر، فتذكر في النصوص الرافدية والسورية القديمة بصيغ مختلفة (مصري، مصرم، ...الخ)

ومن الناحية الجغرافية، فإن مصر تتوضع في الزاوية الشرقية من القارة الإفريقية، وهي متصلة مع آسيا بوساطة برزخ السويس.

لقد نُسب إلى هيرودوت القول أن « مصر هبة النيل » وهذا يشير إلى أهميةالنهر الاستثنائية في حياة المصريين، فالنهر استخدم لربط مصر مع المناطق المجاورة لها، فعبره كانت تتم الاتصالات مع النوبة والبلدان الواقعة في قلب القارة الإفريقية، وعبر هذا النهر كانت مصر تتصل بشواطئ البحر المتوسط ومن هناك بالجزر الواقعة في هذا البحر من ناحية، وبالموانئ السورية من ناحية أخرى.

ومنذ العصور المبكرة استخدم المصريون الوديان المنحدرة، من هذا النهر باتجاه الشرق، أي باتجاه البحر الأحمر، كطرق برية ومن هناك كان بالإمكان المتابعة بحراً إلى شبه الجزيرة العربية أو إلى شبه جزيرة سيناء، وأيضاً كان يمكن الوصول من هذه الشواطئ إلى البلاد الواقعة إلى الجنوب من البحر الأحمر، أو ما يسمى ببلاد البونت في الوثائق المصرية.

وكما نرى فإن نهر النيل يشكل طريقاً لا غنى عنه يربط مصر بمحيطها القريب والبعيد، ولكن هذه الصلات لم تكن ممكنة دائماً بسبب الظروف الطبيعية الصعبة في مصر، فصعوبة اجتياز الشلالات عرقلت حركة المصريين باتجاه الجنوب، والصحراء المحيطة بالوادي أعاقت انتقال المصريين غرباً نحو الشمال الإفريقي وشرقاً نحو سورية وفلسطين، أما مستنقعات الدلتا فجعلت من الصعوبة بمكان الوصول إلى شواطئ البحر المتوسط، وإضافة إلى ذلك فإن القبائل البدوية التي كانت تعيش في الصحراءين الشرقية والغربية كانت تتحين الفرص للدخول إلى مصر مما زاد من عزلتها في مراحل تاريخها المبكرة، ومن ناحية أخرى فإن هذه العزلة أدت إلى تشكل الحضارة المصرية كظاهرة تاريخية أصيلة.

وإلى جانب دور نهر النيل كوسيلة للاتصال بين أطراف البلاد وخارجها، فإنه كان المصدر الوحيد للمياه في مصر. فكما نعلم فإن هطول الأمطار في مصر قليل، وبفضل ذوبان الثلوج فوق هضاب أثيوبيا حيث توجد بعض منابع نهر النيل كانت مياه النهر تبدأ بالارتفاع في مجراه لتفيض بعد ذلك غامرة أراضي واسعة على طول مجرى النهر، وكان بدء الفيضان يُعدّ بدء العام الجديد في مصر.

ونظراً لأهمية الزراعة في حياة المصريين القدماء، فقد قسموا العام إلى ثلاثة فصول وذلك حسب الأعمال الزراعية التي كانوا يقومون بها.

أول هذه الفصول كان يدعى « فصل الفيضان » ويبدأ عادة في منتصف تموز ويستمر حتى منتصف تشرين الثاني، ليبدأ بعده « فصل الزرع » وهو الفصل الذي تتم فيه مختلف العمليات الزراعية من البذار حتى الحصاد، وهذا الفصل يستمر حتى منتصف

أيار عندما يبدأ « فصل الجفاف »، وهو الفصل الذي تترك فيه الأرض حرة لترتاح، ويمتد هذا الفصل نحو شهرين من منتصف أيار حتى منتصف تموز حيث يبدأ موسم الفيضان من جديد.

إضافة إلى ما ذكرناه آنفاً عن دور النيل في حياة المصريين، فهناك جانب لا يقل أهمية عمّا ذكر وإن لم يكن يفوقه، ونقصد بذلك دور هذا النهر في وحدة البلاد.

لقد كان لنهر النيل دور الموحد بالنسبة للمصريين، فإلى جانب الخيرات التي كان يأتي بها النهر سنوياً ومع كل موسم يفيض فيه، هناك الكوارث التي تنجم عن زيادة مستوى الفيضان في بعض السنوات عن الحدود المعهودة، وعلى العكس عن انعدام الفيضان الناجم عن قلة الأمطار والثلوج المتساقطة على منابع النهر، وحتى تنتظم عمليات الري وتُدرأ أخطار الفيضانات وتُخزن المياه لتستخدم في سنوات الجفاف، كان لابد من القيام بمشاريع ضخمة تشمل حفر الأقنية التي توصل المياه إلى مناطق بعيدة عن مجرى النهر، ورفع المياه إلى أراض تقع فوق مستوى مجرى النهر، وبناء صهاريج تُخزن فيها المياه الفائضة عن الحاجة في بعض السنوات لتستخدم في سنوات الجفاف، كل هذه الأعمال تطلبت وجود دولة مركزية قوية للإشراف على تنفيذها وصيانتها وحشد الجهود العامة لتحقيق كل ذلك.

الأقاليم المصرية :

1- الدلتا:

يتفرع نهر النيل إلى الشمال من القاهرة الحالية إلى فرعين هما فرعا رشيد ودمياط، أما فرع رشيد فيسير باتجاه الشمال الغربي وفرع دمياط نحو الشمال الشرقي، ومن ثم يصبّان في البحر المتوسط. فالدلتا إذاً هي مثلث رأسه في الأسفل وقاعدته عند شاطئ البحر المتوسط، وهذه المنطقة من أخصب بقاع مصر بفضل الطمي الذي كان يوضعه النهر

فيها خلال فيضانه، لذلك فإنها كانت المركز الزراعي لمصر وبنفس الوقت المنطقة الأكثر كثافة من حيث السكان.

2- الصحراء الشرقية:

وهي المنطقة المحصورة بين وادي النيل غرباً وسواحل البحر الأحمر وخليج السويس شرقاً، وليس ببعيد عن شواطئ هذا البحر تمتد سلسلة جبلية موازية لشواطئه من الشمال إلى الجنوب، وتتخلل هذه السلسلة أودية تنحدر نحو البحر، اتخذ منها المصريون القدماء معابر تصلهم إلى شواطئ البحر الأحمر، وأشهر هذه الأودية وادي الحمامات ووادي قنا ووادي خريط ووادي العلاقي.

أما من حيث أهميتها الاقتصادية: فقد كانت الصحراء الشرقية مصدراً للأحجار المستخدمة في أعمال البناء المختلفة (القصور - المعابد- المدافن- الأهرام - المسلات..الخ) إلى جانب وجود بعض مناجم الذهب فيها، ولاسيّما في المناطق الجبلية.

3- الصحراء الغربية:

هي المنطقة الواقعة إلى الغرب من وادي النيل. وهي عبارة عن هضبة متوسطة الارتفاع، فيها بعض المناطق المنخفضة التي تتصل مع وادي النيل، ومن أهم هذه المنخفضات، واحة الفيوم المتصلة بالوادي بوساطة ما يسمى بحر يوسف الذي يغذي الواحة وبحيرتها المسماة بحيرة قارون، وواحة الفيوم واحدة من أقدم المراكز الحضارية في مصر، حيث عثر فيها على آثار تعود إلى العصر الحجري الحديث. إلى جانب واحة الفيوم هناك واحات أخرى مهمة في الصحراء الغربية منها الواحة البحرية والواحات الداخلة والواحات الخارجة.

4- شبه جزيرة سيناء:

تشكل شبه الجزيرة واسطة الاتصال البرية بين مصر وجيرانها في سورية وشبه الجزيرة العربية، وهي هضبة مثلثة الشكل يحدها من الشرق خليج العقبة ومن الغرب خليج السويس ومن الشمال البحر المتوسط، وقد زودت سيناء مصر بما كانت تحتاج إليه من أحجار ومعادن كالنحاس والفيروز وغيرها، وعثر المنقبون على الكثير من المناجم التي كان يعمل بها سوريون لصالح البلاط المصري، وهناك الكثير من النقوش التي وضعها بعض كبار المسؤولين الذين أرسلهم الملوك المصريون إلى هنا لجلب المعادن والأحجار الكريمة.

لقد تميز وادي النيل والمناطق المحيطة به بغناه وبتنوع الأصناف الحيوانية والنباتية التي تعيش فيه، ففي الأرض المروية كانت تزرع محاصيل متنوعة كالقمح والشعير والكتان والسمسم والنخيل والعنب، ولا ننسى هنا البردي الذي كان ينمو بوفرة في منطقة الدلتا، ولكن ما كانت مصر تفتقده هو الغابات ذات الأشجار القاسية والتي كانت تستخدم في صناعة السفن وبعض المشاريع المعمارية، وقد عوضت مصر عن ذلك بالحصول على هذه الأخشاب من بلاد الشام.

أما الحيوانات فقد ربى المصريون الأغنام والماعز والخنازير، وكانت تعيش في نهر النيل أنواع مختلفة من الطيور والأسماك إلى جانب التماسيح، أما الحصان فلم يعرف في مصر فعلياً إلا مع ظهور الهكسوس فيها بحدود القرن الثامن عشر ق0م.

أما الخامات من الأحجار والمعادن فكانت أنواع كثيرة منها متوافرة في مصر، فالالباستر موجود في وسط مصر، والحجر الكلسي حوالي منف، وأما الأحجار الصلبة فكان يؤتى بها من الصحراء الغربية، في حين افتقدت إلى القصدير اللازم لتصنيع البرونز، وكذلك افتقدت إلى الحديد.


وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

الفصل الثاني

عصور ما قبل الأسرات وتوحيد البلاد

لقد أسفر التطور البطيء وطويل الأمد الذي استمر عدة آلاف من السنين وشمل مناطق مختلفة من مصر كما رأينا في النهاية عن ظهور ما يمكن أن نسميه بدايات المدن في مصر وظهور سلالات حاكمة فيها. وقد يكون ذلك على صلة وثيقة بظهور الحاجة لوجود نظام ري، يمكّن المزارعين أولاً من كبح جماح نهر النيل وتطويع فيضانه، وثانياً الاستفادة من المياه الفائضة في السنوات التي كانت تنخفض فيها مستويات المياه في هذه النهر، وذلك ببناء خزانات تجمع فيها المياه الفائضة، وثالثاً ببناء شبكة واسعة من القنوات تساعد على إيصال مياه النهر إلى أماكن بعيدة عن مجراه وري أكبر مساحة ممكنة من الأراضي، إضافة إلى استصلاح أراض جديدة وإدخالها ضمن شبكة الري العامة للمنطقة الواقعة فيها هذه الأراضي. ولا شك أن هذا كله ما كان ليتم دون وجود سلطة قادرة على توحيد جهود السكان في هذا الإطار. وهكذا بدأ بالظهور ما يمكن أن نسميه وحدات سياسية لها مركز إداري ومركز ديني ومقر للحاكم، إضافة إلى أسوار تحميها من الأخطار الخارجية، ويعتقد بعضهم بوجود نحو الأربعين من هذه الوحدات قبل ظهور الدولة الموحدة. وفي ظل ظروف ضيق الوادي في مصر العليا، فإن كل من هذه الوحدات سواء أكانت على الضفةاليسرى أو اليمنى للنهر، فإنها كانت على تماس مع جاراتها الشمالية أو الجنوبية. في حين عزلت المستنقعات بين الوحدات في مصر السفلى.

إن المصادر التي بين أيدينا لا تسمح لنا أن نتتبع وبدقة، العلاقات المختلفة بين هذه المدن وكيف توحدت في الشمال مع بعضها مشكلة المملكة الشمالية، والمدن الجنوبية مشكلة المملكة الجنوبية، ثم المسار الذي أوصل إلى الوحدة النهائية.

ومن هذه الأزمنة البعيدة، وصلتنا لوحات طينية (دائرية الشكل) عليها منحوتات رمزية، تصور المنازعات والصدامات بين هذه المدن. كما صُوِّر على هذه اللوحات معارك دموية سواءٌ على اليابسة أو على النهر، وهناك مشاهد لأسرى مربوطين وقطعان ماشية (أغنام وماعز وغيرها) تساق. وفي مجرى هذه الصراع الطويل كانت المدن الأقوى تقوم بإخضاع جاراتها الأضعف. وكانت النتيجة ظهور مدن كبيرة قوية في مصر العليا وأخرى في مصر السفلى. ولا يمكن استثناء وجود حالات اتحاد سلمية تمت بدخول مدن ضعيفة تحت رايات مدن أخرى تفوقها قوة. وأخيراً في نحو النصف الثاني من الألف الرابع ق 0م، اتحدّت مدن الشمال والجنوب في مملكتين شمالية والجنوبية، فوحدت مدينة نخن (هيراكونبوليس) الواقعة في أقصى مصر العليا (الجنوب) تحت سلطتها مدن مصر العليا. أما في الشمال فأخذت مدينة بي (بوتو) الواقعة غرب الدلتا هذه المهمة على عاتقها.

لقد صُوِّر ملوك الجنوب وهم يرتدون تيجاناً حمراء اللون، قسمها الخلفي مرتفع يكوّن شكلاً حلزونياً دائرياً من الأمام. أما تاج الشمال فقد كان على شكل مخروط كبير أبيض اللون. وبعد أن توحدت البلاد في دولة واحدة، أصبح التاج ذو اللونين الأحمر والأبيض شعاراًللسلطة الملكية حتى نهاية عصور الشرق القديم المصرية.

لقد كان كلٌّ من جزأي البلاد يكمل الجزء الآخر من الناحية الاقتصادية ففي الشمال كانت توجد البساتين وحقول الكرمة والحقول الواسعة، في حين أن مصر العليا كانت مركزاً لتربية الماشية.

وهكذا انتهت في نهاية الألف الرابع ق 0م ما يسمى بعصور ما قبل التاريخ المصرية وأجزاء من عصور ما قبل الأسرات التي امتدت فترات طويلة بدأت مع ظهور أول المزارعين قرب وادي النيل حتى تحقيق وحدة البلاد. وفي هذه المرحلة الأخيرة وضع أساس الدولة، التي اعتمدت قاعدتها الاقتصادية على نظام ري الأراضي الزراعية على مستوى وادي النيل بكامله. وكان دليل دخول البلاد عصورها التاريخية، بدء ظهور الكتابة المصرية

التي عرفت بالهيروغليفية. ومن المؤكد أن الدافع وراء ذلك (أي ظهور الكتابة) المتطلبات الاقتصادية التي ازدادت مع ظهور الدولة الموحدة.

أولاً- توحيد البلاد والأسرتين الأولى والثانية :

كما قلنا آنفا فإن التاريخ المصري يبدأ مع ظهور أول الكتابات، وهذه أيضاً ترافقت مع ظهور الكيان السياسي الموحد للبلاد، هذه العملية التي جرت في نهاية الألف الرابع ق0م.

ولكن كيف جرت هذه العملية ومن كان أبطالها، يبقى هذا السؤال من الصعب الإجابة عنه بدقة، وذلك لتضارب المصادر واللقى الأثرية حول هذا الموضوع. ولكن المؤكد أن هذه العملية استغرقت وقتاً طويلاً وعمل عليها عدد من الملوك ولاسيّما ملوك مصر السفلى. ولكن النجاح أخيراً كان على ما يبدو من نصيب أحد ملوك الجنوب. ولكن من هو هذا الملك؟ لقد ذهب الباحثون في هذا المجال مذاهب شتى، والأسماء المطروحة على بساط البحث هي أربعة أسماء: الملك عقرب والملك مينا والملك آحا (أو عحا) والملك نعرمر.

ففي أحد المشاهد من مدينة نخن عاصمة الجنوب نرى أحد الأشخاص يتناوب على ارتداء تاج هذا الشطر من مصر وذلك بصفته الحاكم الأول. ويطلق على هذا الشخص اسم الملك « عقرب » ففي مشهد يغطيه صولجان يظهر الحاكم وهو يرتدي تاج مصر العليا وبيده مجرفة ويقف على ضفة أحد القنوات ويظهر بالقرب منه عقرب، الأمر الذي يدل على اسمه. أما على الصولجان الآخر فنرى الحاكم مرسوماً وعلى رأسه تاج مصر السفلى، الأمر الذي يدل على أنه كان يحكم المنطقتين معاً. وعُثر على مقبرة للملك عقرب في أبيدوس، كما عثر على اسمه في مقبرة حورعحا في سقارة.

أما الملك نعرمر فقد ظهر اسمه على العديد من الآثار، أهمها لوحته الإردوازية ورأس مقمعته. وقد صُور على هذه المقمعه وهو ينتصر على مصر السفلى وعلى رأسه تاج

مصر العليا ويمسك دبوساً ويذبح عدواً راكعاً أمامه. ويقف فوقه الإله حور بهيئة الصقر وهو يقدم له رمز مصر السفلى مربوطاً بحبل وهذا الرمز عبارة عن مستطيل (يرمز في الكتابة إلى كلمة " أرض") عليه ستة عيدان بردي تمثل مصر السفلى ورأساً بشرياً عُلِّقت في أنفه حلقة وقرب الرأس يقف أسير. وتحت رسم الفرعون يوجد رسم لرجلين هاربين من حصن. وخلف الفرعون يقف خادمه حاملاً قرني ثور وقد كتب بين الرأسين اسم الفرعون بالرموز التي تعني « سمكة » و« نار ».

ويتكرر مضمون هذا المشهد المجزأ إلى ثلاثة أقسام على الجهة الخلفية فنرى نعرمر على رأسه تاج مصر السفلى ويخطو باتجاه عشرة أشخاص قطعت رؤوسهم. ويقف أمامه كاتبه ووراءه رجل يحمل حذاءه وأربعة جنود يحملون الرايات. أما في الأسفل فنرى نعرمر على هيئة جاموس يدوس بحوافره عدوا ويهدم قلعة بقرونه. أما وسط المشهد فنرى خادمين يمسكان بحبلين رُبط بهما أسدان لهما عنقان على شكل أفعى. ونرى أن الأسود ذات الرقاب كالأفاعي تدل على انتصار نعرمر على ملوك بوتو. وظهر اسم نعرمر أيضاً على ختم مع العلامة (من) ونسبت إليه مقبرة في أبيدوس.

وأما الملك آحا والذي يعني اسمه المحارب، فقد عثر اسمه مكتوباً على بعض اللقى في مقبرة صغيرة في منطقة ابيدوس أيضاً. كما عثر على العديد من آثاره في مقبرة نيت حتب (زوجة الملك نعرمر) في منطقة نقادة. وعثر على العديد من الآثار العائدة له في مقبرة ضخمة في منطقة سقارة.

أما الملك مني أو مينا، فلم يرد اسمه في القوائم الملكية إلاّ ابتداء من عصر الدولة الحديثة. وقد وضعه مانيتون على رأس الأسرة الأولى، واصفاً إياه بأنه موحد شطري البلاد في دولة واحدة وعثر على أختام تحمل اسمه في ابيدوس مع اسم الملك نعرمر.

وهناك خلاف في أوساط الدارسين حول ترتيب هؤلاء الملوك وبيان تتابعهم على العرش ومن منهم الذي كان له الدور الحاسم في عملية توحيد البلاد. وعامّةً يمكن القول

أن كل واحد منهم قد أسهم بقسط وافر في هذه العملية. وإن كان النصر العسكري الحاسم على الشمال قد تم في عهد الملك نعرمر، الذي قام في سبيل توطيد سلطته على الشمال وإيجاد رابط يجعل من حكمه الشمال شرعياً، بالزواج من الأميرة الشمالية « نيت حتب ». أما الذي وضع اللبنة الأخيرة لهذه العملية فكان آحا الذي بنى مدينة (من نفر) أو منف واتخذها كأول عاصمة لمصر الموحدة. والكثير من الباحثين يعدون أن مينا هو نفسه آحا. وأن مينا هو اسمه الشخصي أي قبل توليه العرش في حين أن آحا هو اسمه الملكي. وكان المركز الذي انطلق منه آحا أو مينا في عملية التوحيد النهائي هو مدينة تين أو ثين التي كانت متوضعة في مصر العليا إلى الجنوب من القاهرة على بعد 400 كم.

وأما خليفة آحا فكان الملك جر، الذي تدل مقبرته في أبيدوس على وجود صلات مع بلاد الرافدين، وذلك من خلال تشابه عادات الدفن التي كانت تقضي بدفن مجموعة كبيرة من الأتباع مع الحكام. وهناك دلائل تشير إلى أن الملك جر قد وجه حملات عبر نهر النيل إلى النوبة، حيث عثر على اسمه مكتوباً على صخور جبل الشيخ سليمان على مقربة من بوهن أمام وادي حلفا وهو يسجل هناك انتصاره على أهل النوبة. أما عن الحدود الغربية، فقد عثر على لوحة من المرمر بمقبرته بسقارة، وقد نقش عليها صورة للملك وهو يصرع أسيراً ليبيا.

الأسرة الأولى :

1- الملك « واجيت » أو « جت » :

عُثر على اسم هذا الملك مكتوباً على صخور إحدى الطرق التي كانت تربط بين إدفو والبحر الأحمر، كما عُثر على مقبرة له في أبيدوس وعلى مقبرة أخرى في سقارة، وكشف عن 74 مدفناً للضحايا من خدم الملك في مقبرة ابيدوس، وعُثر على مقبرة ثالثة

من هذا العهد في نزلة البطران على مقربة من أهرام الجيزة، ظهر فيها اسمه مكتوباً على بعض ما فيها من قطع أثرية، وربما كانت هذه المقبرة تعود لأحد أفراد عائلته أو كبار موظفيه. ([1])

2- الملك دن :

كثيرة هي الآثار التي خلفها هذا الملك، وربّما يعود ذلك لطول فترة حكمه، كما أن حجر باليرمو يأتي على ذكره. أما عن أهم أعماله فهي محاربة البدو في شرقي مصر، حيث عثر على لوحة عاجية كتب عليها « أول مرة يُضرب فيها الشرق » ([2]). واحتفاله بعيد « السد » ([3]) أو ما يعرف بالاحتفال الثلاثيني. ومن المؤكدأنه شيّد بعض الأبنية بهذه المناسبة، أما عن مقبرته فقد عُثر عليها في سقارة، وهي المعروفة باسم مقبرة « حماكا »، أما زوجته « مريت نيت » فقد دفنت في أبيدوس.

3- الملك عج – أب :

يذكر حجر باليرمو أن هذا الملك قام بعدة حملات ضد القبائل البدوية، وأنه احتفل بعيده الثلاثين، كما أمر بإجراء إحصاء شامل في البلاد كان يتكرر كل عامين. أما عن مقبرته، فقد عثر على واحدة صغيرة في أبيدوس وكانت محاطة بمقابر ضحاياه، أما الثانية فكشف عنها في سقارة.

---

[1]- فخري، أحمد: مصر الفرعونية، الطبعة الثانية، القاهرة، ص 82.

[2]- عبد الحميد، محمود:المرجع السابق، ص59.

[3]- عيد السد أو « حب سد » على حد تعبير المصريين، ربما بمعنى عيد النهاية، وكان من المفروض أن يحتفل الفرعون به بعد ثلاثين عاماً من بداية حكمه أو من بداية اختياره لولاية العهد، ويقيم فيه مراسيم وطقوساً يشكر أربابه بها على ما وهبوه من طول العمر وطول الحكم، ويعتقد هو أو يعتقد رعاياه أنه يستطيع عن طريق هذه الطقوس والمراسيم أن يجدد بأسه ويستزيد من القدرة على مواصلة الحكم. ولم يكن الفراعنة يلتزمون بفترة الثلاثين عاماً دائماً وإنما كانوا يتحينون لعيدهم كل فرصة تَهيأ لهم فيها نصر عظيم، أو خروجاً من مأزق شديد، وربما أعادوه أكثر من مرة طالما توفر لهم امتداد الحكم وسعة الإمكانيات.

4- الملك سمر خت :

يبدو أن هذا الملك كان مغتصباً للعرش، مما أدى إلى بدء المنازعات بين أفراد البيت المالك، وهذا ما مهد السبيل لسقوط هذه الأسرة. وقد عثر على مقبرة وحيدة له في أبيدوس.

5- الملك قاعا :

وهو آخر ملوك الأسرة الأولى، وعثر على مقبرتين له أيضاً، واحدة في أبيدوس والثانية في سقارة، وتُمدنا آثار عصره بعدد كبير من أسماء موظفيه ووظائفهم، فبعضهم مثلاً كان مشرفاً على الري والآخر على الضرائب.. الخ. ويلاحظ اختفاء مقابر الضحايا من مقبرتي هذا الملك، مما يدل على اختفاء هذه العادة (التضحية بالخدم).

الأسرة الثانية :

ما زلنا نجهل الأسباب التي دفعت مانيتون إلى اعتبار الملك قاعا هو آخر ملوك الأسرة الأولى، ويبدأ من بعده بأسرة جديدة، ولكن ربّما كان مطلعاً على بعض الوثائق التي سمحت له بفعل ذلك، وهذه الوثائق لم تصلنا نحن. واللافت للنظر أنه لم يكن هناك أي خلاف بين الأسرتين في مجال تنظيم الحكومة أو الأساليب الفنية باستثناء ما تقتضيه ظروف التطور التاريخي، إلى جانب ذلك فإننا نجهل الصلة بين هاتين الأسرتين: هل هما قريبتان الواحدة من الأخرى ؟ أم لا يوجد مثل هذه الصلة بينهما؟. أما عن ملوك هذه الأسرة فهم:

1- حتب سخ موي :

يضعه مانيتون على رأس هذه الأسرة أي المؤسس لها، وقد عثر على مقبرة في منطقة سقارة نسبت إليه.

2- رع نب :

عثر على أختام طينية تحمل اسمه في الدهاليز السفلية من هرم أوناس قي سقارة مما دفع الباحثين للاعتقاد بأن مقبرته في هذا المكان ([4]).

3- ني نتر :

ورد اسمه في مختلف القوائم وعند مانيتون. أهم ما عثر عليه من آثار تعود إلى عصره تمثال صغير من المرمر، وهو يضع على رأسه تاج الجنوب الأبيض، ويرتدي رداء تقليدياً يلبس عادة في عيد « سد » ([5]).

4- سخم – إيب :

قبل الحديث عن هذا الملك لابد من الإشارة إلى أنه ومنذ بداية حكم الأسرة الأولى، كان الإله حور ويمثّل بالصقر يعتبر الإله الرئيسي في البلاد، وينسب بعض الباحثين هذا الإله إلى مجموعات بشرية دخلت مصر منذ عصر ما قبل الأسرات قادمة من بلاد الرافدين عبر الجزيرة العربية، أو بحراً عبر البحر الأحمر، وقد سيطرت هذه الجماعات على السلطة في مصر العليا، وفرضت إلهها على هذه الدولة، ولما قامت الدولة الموحدة في مصر وكان حكام الجنوب هم الذين أنجزوا هذا العمل جعلوا إلههم الإله حور إلهاً لكل المصريين، واستمر الحال على المنوال إلى عهد الملك سخم – إيب، الذي انقلب على عبادة هذا الإله، وأحل محله الإله « ست ». وتجلت مظاهر هذا الانقلاب في نواح عدة أهمها تبديل اسمه من « حور سخم – إيب » إلى « بر- إيب- ست » بالتالي أمر بان يمحى اسمه القديم من جميع الآثار التي دون عليها، وأن يوضع الاسم الجديد مكانه، كما أنه أمر بأن تحمى الرموز الدالة على الإله حور واستبدالها برموز الإله ست.

---

[4]- عبد الحميد، محمود: المرجع السابق، ص 64.
[5]- عبد الحميد، محمود: المرجع السابق، ص 64.

Damascus University

أما أسباب هذه الردة الدينية، فيمكن البحث عنها في الصراع الذي تفاقم بين أتباع الإله ست، وهم يشكلون الكتلة الأساسية من سكان مصر، وبين أتباع الإله حور الذي تمثله الأسرة الحاكمة، ويبدو أن الملك سخم إيب، شعر بقوة أنصار الإله ست وتهديدهم للسلطة الملكية، فآثر مهادنتهم، بأن انقلب على عبادة الإله حور واتخذ الإجراءات السابقة، وأضاف إليها أن أمر ببناء مقبرته في أبيدوس وليس في سقارة (في الجنوب وليس في الشمال).

ولا بد هنا من الإشارة إلى أمر مهم فيما يتعلق بهذا الانقلاب الديني فهذا الأمر لم يكن مجرد تغيير إله مكان إله، فالأمر يتعدى ذلك، إلى أن الفرعون ومنذ بداية الأسرة الأولى كان يُنظر إليه على أنه هو الإله حور، وأنه كان يعبد على هذا الأساس، وبالتالي فإن عبادة الفرعون كانت جزءاً من المطابقة بينه وبين الإله حور، فلما تخلّى الفرعون عن هذه المطابقة أصبحت عبادته محل شك، أي أن الانتقال من عبادة حور إلى عبادة ست لم تحل المشكلة في مصر وبالعكس ربما فاقمتها. ولكن هذا الانقلاب لم يستمر لما بعد سخم أيب، إذ سرعان ما عادت الأمور إلى ما كانت عليه في عهد خليفته خع سخم.

5- الملك خع سخم :

أعاد هذا الملك الأوضاع في مصر إلى ما كانت عليه من قبل، ولكن هذا الأمر لم يمر دون مقاومة الشماليين لحكمه، حيث دون على قاعدة تمثال له موجود في القاهرة أنه انتصر على أعدائه في الشمال وقتل منهم عدداً كبيراً (47209) ولكننا حتى الآن ما زلنا نجهل صلته بالملك سخم إيب. هل كان ابناً له ؟ أم أنه أحد الأمراء ؟

6- خع سخموي :

استمر في محاولة إخضاع الشمال إلى أن نجح في ذلك، إلا أنه لم يشأ أن يظهر الشماليين مغلوبين فاتخذ لنفسه شعاراً لإلهين حور وست مجتمعين. ومعنى اسمه « تجلي القوتين » فهل هي قوة هذين الإلهين أم قوة الشمال والجنوب.

مع وفاة خعع سخموي تنتهي الأسرة الثانية حسب مانيتون لتبدأ الأسرة الثالثة أو ما يسمى بعصر الدولة القديمة. ولكن وقبل الدخول في هذه الدولة سنتوقف لنتطرق لبعض خصائص العصر العتيق أو العصر الثيني.

لقد استغرق المصريون زمناً طويلاً قبل أن يصلوا إلى دولتهم الموحدة. ويطلق على عصر الأسرتين الأولى والثانية أسماء متعددة، منها العصر الثيني نسبة إلى مدينة ثين في الجنوب والتي تعتبر موطن هاتين الأسرتين والعاصمة الأولى لهم قبل نقل هذه العاصمة إلى منف، كما يطلق عليه اسم العصر العتيق تمييزاً له عن عصر الدولة القديمة التي تبدأ مع الأسرة الثالثة.

ثانياً- سياسة الحكم والإدارة :

أما عن سياسة الحكم والإدارة في هذا العصر فيمكن تلخيصها بما يلي:

كان الملك المؤله يقف على قمة هرم السلطة في مصر. وكنا قد أشرنا آنفاً إلى المطابقة بين الإله حور وبين الملك الذي اعتُبر تمثيلاً لهذا الإله على الأرض، وبالتالي عُبد من قبل المصريين على هذا الأساس. وهناك آراء كثيرة طرحت حول هذه المسالة، أي كيف توصل الملوك إلى فرض ألوهيتهم على شعبهم، وكيف رضي الشعب أن يعبدهم على أنهم آلهة.

من هذه الآراء ما يقول أن ذلك نتج عن شعور الحاكم بضرورة أن يرفع نفسه فوق مستوى البشر حتى لا ينازع سلطانه أحد بعد الصعاب والمشاق الكثيرة التي لاقاها حكام مصر الأوائل حتى توحدت البلاد في ظل دولة واحدة، وهناك رأي يقول كانت هناك آلهة تسع حكموا البلاد قبل أن يصعدوا إلى السماء، وآخر هؤلاء الآلهة الملوك كان أوزير

الذي ترك الحكم لابنه « حور » ومن حور هذا تحدر كل ملوك مصر، ومن ثم يصبح حق الملك قائماً على طبيعته الإلهية التي كانت تنتقل مع الدم. ([6])

وقد عمد هؤلاء الملوك إلى بناء عاصمة جديدة للبلاد، تكون في موقع متوسط يسمح لهم بالإشراف على كل أنحائها بسهولة، ولذلك وقع الاختيار على منف في أول الدلتا.

ولكن الملك لم يكن بإمكانه أن يحكم البلاد كلها بصورة مباشرة لذلك فقد فوّض بعض سلطاته لموظفين اختلفت مراتبهم حسب الوظيفة التي كانوا يشغلونها. فكما أشرنا آنفاً، فإن بعض اللقى التي وُجدت في القبور عرفتنا على بعض الموظفين وعلى أسمائهم، وأما عن أهم هذه الوظائف فهناك حملة الأختام ورجال بيت المال، وحكام الأقاليم والكتاب، ورجال الإحصاء والقادة العسكريين والمشرفين على حفر الترع ورعايتها.

أما عن آلهة هذا العصر، فكنا قد أشرنا إلى الإلهين الرئيسين في هذا العصر الإله حور والإله ست، مع عدم إغفال أنه كان لكل إقليم من أقاليم البلاد آلهتها الخاصة بها، وكانت هناك الإلهتان الحاميتان للجنوب والشمال، وقد دخل اسم هاتين الإلهتين في ما يعرف باللقب « النبتي للملك »، وهذا اللقب ممثل في صورة رخمة تشير إلى الإلهة « نخبت » إلهة الصعيد، وحية ترمز إلى الإلهة « واد جيت » إلهة الدلتا. ونشير هنا إلى أن الإله رع كان معروفاً في مصر منذ هذا الوقت، ودخل اسمه في أسماء بعض الملوك. كما أن اللقب « ابن رع » كان من الألقاب التي عرفت في مصر منذ عهد الأسرة الثانية.

أما عن علاقات مصر الخارجية في هذه المرحلة، فقد شن ملوك هذه الدولة عدة حروب في جهات مختلفة وخاصة نحو النوبة بهدف الحصول على بعض المواد الثمينة، وتوسيع حدود الدولة باتجاه الجنوب. وأما الجهة الثانية التي وجهوا حروبهم نحوها فكانت

---

[6]- بيومي، مهران: الحضارة المصرية – الجزء الثاني، دار المعرفة الجامعية، 2001، ص122.

الجهة الغربية حيث القبائل الليبية التي تحاول الدخول إلى منطقة الدلتا، وبالتالي يمكن القول إن الحرب في هذا الاتجاه كانت حرباً دفاعية أكثر مما هي حرب توسعية. أما فيما يتعلق بسورية، فقد كانت العلاقات تجارية بدليل العثور على لقى أثرية متعددة الأنواع (حلي – خزف – الخ) في مناطق مختلفة من سورية، كما أن الأخشاب كانت تُنقل إلى مصر.

وقبل أن نختم حديثنا عن العهد العتيق نشير إلى دور الملكات في تولي العرش وعن زواج الأخ والأخت في مصر القديمة.

فلقد ساد اعتقاد لدى المصريين بأن الدم الملكي يختلف اختلافاً جذرياً عن دماء الناس العاديين، وأن حق الملك في الحكم قائم على طبيعته الإلهية المميزة عن البشر والتي كانت تنتقل مع الدم الملكي من ملك لآخر. وفي عصر الأسرات الأوائل فإن أهم ما يؤكد الطبيعة الإلهية للملك كونه سليل حور، والملك يأخذ هذا الاسم عندما يرقى إلى العرش بهمة حور وطالما أنه من دم إلهي فإنه يصبح الصورة الحية لحور. وعلى أية حال، فإن الدم الملكي إنما ينتقل بواسطة المرأة، حيث تعدّ الزوجة الرئيسية للملك هي « زوجة الإله » وإن كانت من نسل ملكي سابق لكن قد جيء بها من صلب جسدإلهي، وهذا لا ينفي حق الملك في الزواج من أكثر من واحدة، إلا أن الزوجة الملكية الرئيسية إنما كانت أنقى الزوجات دماً، لأنها ولدت من صلب جسد إلهي وتحمل تبعاً لذلك شيئاً من الكيان المقدس. كان هذا من ضمن الأساسيات التي أسهمت في قوة « نظام الأم الملكية » والذي يُرجع فيه إلى الأم في النسب والوراثة، وبالتالي شرعية الحكم التي تجعل حق تولي العرش محصوراً على من تكون أمّه وأبوه من نسل ملكي. ([7])

---

[7]- سعد الله، محمد علي: الدور السياسي للملكات في مصر القديمة، الإسكندرية 1988، ص17-18.

Damascus University

أما عن زواج الأخ من الأخت في مصر القديمة، فبعض الباحثين يعتقدون أن الابن الأكبر والابنة الكبرى للفرعون يمثلان معاً الوريثين الشرعيين، ومن ثم فقد كان زواج الأخ الأكبر من أخته حتى يبقى إلى الأبد حقهم المقدس في الحكم، لأن مثل هذا الزواج سيحافظ على نقاء الدم في الخط الملكي. وبمعنى آخر فإنه سيضمن للأسرة الملكية أهدافها في المحافظة على امتيازها باعتبارها عائلة إلهية مقدسة ويبتعد بحكامها المقدسين عن الطامعين والمتطلعين إلى حياتهم المقدسة، ويؤكد صفاء الألوهية، فضلاً عن تقليل عدد المتطلعين إلى العرش.

والقاعدة الثانية فيمن يعتلي عرش مصر أن تسري في عروق أمه وأبيه الدماء الملكية النقية، أما إذا كان ابناً لزوجة ثانوية، في حالة عدم وجود وريث شرعي من الزوجة الرئيسية، فإنه من الواجب عليه أن يلجأ إلى الزواج من أميرة من الفرع الملكي الخالص تكون أكبر الأميرات الباقيات على قيد الحياة من بنات البيت المالك، وإذا لم توجد تقوم مقامها أرملة الملك، وبذلك يقوّي مركزه ويصبح أهلاً لتولي العرش، وفي هذه الحالة لا تقوم أسرة جديدة، وتبعاً للتقاليد المصرية فإن الأبناء ثمرة هذا الزواج، هم أصحاب الحق الشرعي في العرش.

وبمعنى آخر فإن حق العرش يتم من خلال الخط الأنثوي على الرغم من أن منصب الملك يمارس بواسطة الرجل (الملك) الذي تزوج بالوريثة، أي أن كل ملك عليه أن يتزوج بامرأة ذات مولد ملكي، ويجب أن تكون من خط أنثوي ملكي من نسل مباشر. ([8])

---

[8]- سعد الله، محمد علي: المرجع السابق، ص 25-27.

الفصل الثالث

الدولة القديمة

يبدأ عصر الدولة القديمة مع الأسرة الثالثة، ويستمر حتى نهاية حكم الأسرة السادسة. ويطلق على هذا العصر أسماء مختلفة منها عصر بناة الأهرام، وذلك لكثرة ما أشاد ملوك هذه الأسرة من الأهرامات، وإن كان أشهرها هو ما شيد زمن الأسرة الرابعة.

أولاً- أسر الدولة القديمة :

1- الأسرة الثالثة 2780–2680ق0م

تمتّ الأسرة الثالثة إلى الأسرة الثانية بصلة النسب، فزوسر مؤسس هذه الأسرة، كان ابناً لآخر ملوك الأسرة الثانية خع سخموي من زوجته « ني- ماعت- حاب » والتي كانت تدعى أيام حكم زوجها بـ « أم أبناء الملك »، وعندما تولى زوسر السلطة أصبحت تكنى بـ « أم الملك ».

وإذا ما حاولنا التعرف على الأسباب الحقيقية التي دفعت مانتيون إلى وضع زوسر على رأس أسرة جديدة، فإننا لن نجد أسباباً قوية تسوّغ ذلك. ولكن يمكن أن نأخذ بعين الاعتبار اضطراب الأمور في النصف الثاني من حكم الأسرة الثانية نتيجة لانقلاب بر- إيب – ست، إضافة إلى التجديد في المجال المعماري دافعاً لدى مانيتون لاتخاذه هذا الموقف.

Damascus University

وقد عُرف زوسر بأسماء عديدة منها « إري – خت — نثري » أي « المنتمي للجسد الإلهي » ويقرأ هذا الاسم أيضاً بصيغة «نثر — خت » ولكنه عرف منذ الأسرة الثانية عشرة باسم « جس » أي « المقدس » والذين اشتق منه الاسم زوسر ([1]).

أما أهم إنجازات عصر هذا الملك فكانت بناء أول هرم في مصر، هذا الهرم الذي عُرف باسم الهرم المدرج. وهو عبارة عن بناء حجري مكون من ست مصاطب مستطيلة الشكل وذات جوانب مائلة مبنية فوق بعضها بحيث تكون كل واحدة أصغر من التي تقوم عليها في المساحة. ويصل ارتفاعها الكلي إلى نحو 61م. وبنيت إلى جانب هذا المدرج مجموعة من المنشآت من بينها المعبد الجنزي والسرداب الخاص بتمثال الملك. وقد أحيط الهرم مع المنشآت الملحقة به بسور يصل طول محيطه إلى أكثر من 1600م وارتفاعه أكثر من 10 أمتار وكان فيه أربعة عشر باباً، واحدٌ حقيقي يمكن الدخول منه والباقي كلها مصمتة ([2]). وقد وجد تحت الهرم إحدى عشرة غرفة محفورة تحت الأرض كانت بمثابة مقبرة للملك.

وأما الذي أشرف على هذا العمل فكان الوزير « امحوتب » وقد بلغ هذا الوزير مرتبة عالية في البلاط الملكي، وكان من بين ألقابه « حامل ختم ملك مصر السفلى، الأول بعد الملك في مصر العليا، مدير البيت الكبير ».

وإلى جانب أعماله العمرانية، فقد أرسل زوسر حملات إلى النوبة السفلى حيث وجدت نقوش تذكارية عند الفانتين (جزيرة الفيلة بالقرب من أسوان) تعود إليه.

وأما الملك الآخر المهم من هذه الأسرة فهو « حوني » الذي كان آخر ملوكها. وقد ورد اسمه في قائمتي تورين وسقارة. وقد شيد لنفسه هرماً في ميدوم. ويعد تصميم هذا الهرم مرحلة انتقالية بين الهرم المدرج والهرم الحقيقي الذي ظهر في عهد الأسرة الرابعة.

---

[1]- نور الدين، عبد الحليم: تاريخ وحضارة مصر القديمة، ط3، 2000، ص 48.

[2]- الدريد، سيريل: الحضارة المصرية من عصور ما قبل التاريخ حتى نهاية الدولة القديمة، ترجمة وتحقيق مختار السويفي، الدار المصرية اللبنانية، ط3، 1996، ص125-126.

2- الأسرة الرابعة 2680-2560 ق0م

وضع مانيتون الملك سنفرو على رأس هذه الأسرة. وهناك عدة فرضيات حول الطريقة التي وصل إليه العرش. فبعض الباحثين يقول أنه تزوج من الأميرة « حتب حرس » التي كانت بنتاً لآخر ملوك الأسرة الثالثة، وكانت هي الأميرة الوارثة للعرش ([3]). والبعض يقول إنه كان ابناً لحوني ولكن من زوجة ثانوية، وهناك رأي يقول إن العرش قد آل إليه عن طريق والدته « مرس عنخ » التي كانت تحمل لقب « سات نثر » أي ابنة الإله أي أن حوني كان والداً لها ([4]).

ويتضمن حجر باليرمو ذكراًّ لنشاط تجاري واسع لاسيّما مع الساحل السوري، حيث يُذكر ورود أربعين سفينة محملة بالأخشاب خلال عام واحد من أعوام حكمه. وأما عن أعماله العسكرية، فلا بد من ذكر حملات أرسلها إلى شبه جزيرة سيناء مصدر النحاس والفيروز، حيث ترك أحد القادة صورة لسيده على أحد صخور وادي مغارة تخلد ذكرى حملة أرسلها سنفرو إلى هناك.

وأما أهم الأعمال العمرانية في عصره، فهي بلا شك إتمامه هرم والده حوني، وبناؤه هرمين أولهما لم يكتمل في قمته بالشكل المطلوب ويسمى بالهرم المنكسر أو الناقص، والثاني كان أول هرم مكتمل في تاريخ عمارة الأهرام في مصر وقد بلغ ارتفاعه تسعة وتسعين متراً.

ومن الآثار الأخرى الهامة العائدة لعصره، مقبرة زوجته « حتب حرس »، التي ضمت حليها وسريرها المصفح بالذهب وكرسيها الكبير وخيمتها المتنقلة ذات الأعمدة المصفحة بالذهب ([5]).

وحسب بردية تورين فإن سنفرو حكم أربعة وعشرين عاماً، وورثه على العرش ابنه خوفو.

---

[3]- فخري، أحمد: مصر الفرعونية، ط8، القاهرة، ص101.

[4]- عبد الحميد، محمود: المرجع السابق، ص72.

[5]- فخري، أحمد: المرجع السابق، ص106.

وقد اشتهر خوفو ببنائه لأكبر الأهرامات المصرية. وقد أقام خوفو هرمه هذا في منطقة الجيزة الحالية على مساحة مربعة بلغ طول ضلعها 227م. وكان ارتفاع الهرم عند بنائه 144 متراً أما ارتفاعه الحالي فهو نحو 137م. وإلى جانب الهرم، أمر خوفو ببناء معبد جنائزي والطريق المؤدية إليه وخمس مقابر قرب الهرم لها شكل سفن يبلغ طول كل منها نحواً من 43 متراً.

وللهرم مدخل في جداره الشمالي يرتفع عن قاعدة الهرم بنحو 17م، وكان كله مكسواً بالحجر الجبري الأبيض، وقد وجدت في الهرم ثلاث حجرات كان في إحداها تابوت لخوفو.

وقد سمح خوفو للأمراء وكبار الشخصيات أن يبنوا لأنفسهم مقابر على شكل مصاطب حول هرمه، حيث خُصص الجانب الشرقي لمصاطب الأمراء والجانب الغربي لمصاطب كبار رجال الدولة ([6]).

توفي خوفو بعد أن حكم مصر ثلاثة وعشرين عاماً حسب بردية تورين، في حين أن مانيتون يذكر أن مدة حكمه خوفو قد بلغت ثلاثة وستين عاماً.

ويبدو أنه كان لخوفو زوجات كثيرات وأبناء كثر. ويُستدل من مقابر هؤلاء الأبناء أن نزاعاً قد نشب بينهم على خلافة والدهم، فكثير من هذه المقابر لم يستكمل بناؤها، وبعضها مُحي منها اسم صاحبها، ولكن العرش كان من نصيب جدف رع.

وقد حكم جدف رع ثماني سنوات فقط، بنى لنفسه خلالها هرماً صغيراً بعيداً عن هرم أبيه ولم يبق منه الشيء الكثير. وقد نحت الفنانون له تماثيل كثيرة. وخلفه على العرش ابن آخر لخوفو هو خفرع والذي عاد إلى منطقة الجيزة ليبني لنفسه هرماً فيها. وقد اختار لبنائه مكاناً مناسباً، حيث اختار منطقة مرتفعة لتشييد هرمه، بحيث لا يحتاج البناء فوقها إلى ارتفاع كبير وبالنتيجة فقد بدا هرمه كأنه أعلى من هرم أبيه. وكالعادة، فقد بنى خفرع

---

[6]- نور الدين: المرجع السابق، ص55.

المنشآت المتممة للهرم وهي معبد الوادي حيث عثر هنا على تمثال نصفي له مع رسم للإله حور، الإله الحامي للفرعون، وبنى المعبد الجنزي.

وإلى جانب معبد الوادي العائد لهرم خفرع، يوجد تمثال أبي الهول الشهير، والذي يمثل جسد أسد رابض ورأساً بشرياً تمثل رأس الملك خفرع على الأرجح. ويعتقد أن الغاية من وضع هذا النصب في هذا المكان، كان حماية الأماكن المقدسة الواقعة خلفه وذلك وفقاً للمعتقدات المصرية القديمة.

وكان الملك منكاورع خليفةً للملك خفرع في حكم مصر. وقد بنى لنفسه هرماً صغيراً بالمقارنة مع أهرامات من سبقه من ملوك هذه الأسرة، وهو الهرم الثالث من الأهرام الجيزة.

ويعتقد أنه لم يعش ليتم بناء المعابد الملحقة بهرمه، فكان أن أتمها خلفه شبسكاف. أما شبسكاف هذا فلم يبن لنفسه أي هرم واكتفى بأن بنى مقبرة له في جنوب سقارة على شكل مصطبة مستطيلة وشيد بجوارها معبدين صغيرين يربط بينهما طريق صاعد.

ورغم قصر حكم شبسكاف، إلا أنها ارتبطت بزيادة نفوذ كهنة إله الشمس رع. وقد أراد شبسكاف أن يضع حداً لنفوذ هؤلاء الكهنة، وكان تخليه عن بناء هرم له، هذا البناء الذي هو على صلة بعبادة الشمس أحد أوجه الصراع الذي دار بينه وبين كهنة الشمس.

إن آخر من حكم من هذه الأسرة كانت الملكة « خنت كاوس » ويبدو أنها كانت شقيقة وزوجة لشبسكاف، وأنها كانت الوريثة للعرش وحملت لقب « ملك مصر العليا والسفلى » ولها صلة بنشأة الأسرة الخامسة، إذ ربما تزوجت من اوسركاف أول ملوك هذه الأسرة، وأصبحت أماً لولديه اللذين حكما من بعده وهما ساحورع ونفر إركارع ([7]).

3- الأسرة الخامسة 2560-2420 ق0م :

---

[7]- نور الدين: المرجع السابق، ص60-61.

يُعتبر الملك اوسركاف مؤسس هذه الأسرة. وكما أشرنا آنفاً فإن العرش ربما يكون قد وصله عن طريق زواجه من الملكة خنت كاوس. ولكن اوسركاف وحزبه لم يقنعوا بذلك، فقد أرادوا أن ينسبوا وصولهم إلى العرش إلى إرادة ربّانية كانت موجودة منذ الأزل. وفي هذا السبيل وضعوا رواية أرجعوها إلى أيام الملك خوفو، ملخصها أن الملك خوفو سمع عن حكيم يأتي بالمعجزات، فيستدعيه ويطلب منه أموراً عديدة يفعل بعضها ويعتذر عن البعض الآخر. ولكنه يقول له أن من يستطيع القيام بهذه الأعمال هو أكبر أطفال ثلاثة موجودين في بطن زوجة أحد الكهنة، وأن والد هؤلاء الأطفال هو الإله رع نفسه. ومن ثم يخبره أن هؤلاء الأطفال سوف يبلغون العرش في مصر، بعد أن يكون أكبرهم قد تولى منصب كبير كهنة الإله رع في مدينة أون (عين شمس الحالية). وتضيف الرواية أن خوفو خشي من هذه النبوءة، ولكن الحكيم أخبره أن الأمر لن يتم الآن، ولكن فيما سيلي من الأيام، وتعرف هذه القصة في الآداب المصرية باسم قصة خوفو والسحرة أو بردية وستكار.

وقد حمل اوسركاف لقب « إرماعت » بمعنى واضع النظام أو محق الحق. وأما عن إنجازات عصره، فمعلوماتنا عنها قليلة، ومنها انه أمر ببناء عدة معابد للشمس في أنحاء متفرقة من البلاد وبنى هرماً لنفسه في سقارة، وقد عثر في المعبد الجنزي الملحق به على رأس تمثال كبير له نُحت من الجرانيت.

أما خلفه ساحورع فقد حكم نحواً من أربعة عشر عاماً وأرسل عدة حملات، كان بعضها تجارياً إلى سيناء والبعض الآخر عسكرياً ضد القبائل الليبية وقد عادت هذه الحملة محملة بالغنائم. وقد صورت هذه الأعمال على جدران مع المعبد الجنائزي. ويذكر حجر باليرمو أن ساحورع أرسل حملة إلى بلاد البونت، وهي البلاد المحيطة بباب المندب من الشاطئين الإفريقي والآسيوي. وأن هذه الحملة عادت محملة بالبخور والذهب وبكميات من أخشاب الأبنوس الثمينة. وقد خلف ساحورع على العرش نفر إرع كارع الذي حدث في عهده تحولات عديدة نتيجة تنازلات كبيرة قدمها لصالح حكام

المقاطعات وكبار كهنة المعابد المنتشرة في البلاد، هذه التنازلات التي أثرت على مكانة الملوك وسلطتهم فيما بعد. ومما يدل على المكانة الكبيرة التي أصبح يتمتع بها كبار رجال الدولة، أن شخصاً اسمه « رع ور » كان يحمل لقب مدير القصر الملكي وكاتم أسرار الملك وغيرها، وأما مقبرته فكانت مكونة من نحو خمسين حُجرة، وكان فيها أكثر من مئة تمثال له ([8]).

وقد جلس على عرش مصر من بعده ثلاثة من أبنائه وهم شبسكارع، رع نفرف، ني وسر رع.

أما الأول والثاني فلم يخلفا آثاراً تذكر وحكما سوية ما يقرب من أحد عشر عاماً.

أما ني وسر رع فقد بلغت مدة حكمه نحو اثنين وثلاثين عاماً كانت له خلالها نشاطات عديدة معمارية وحربية واحتفالية، أما أعماله المعمارية فأهمها هرم صغير بناه لنفسه في أبو صير ومعبد للشمس في نفس المنطقة. وقد صُورت على جدران هذا المعبد احتفالات العيد الثلاثيني إلى جانب أخبار حملات عسكرية أرسلها إلى سورية وأخرى ضد القبائل الليبية.

بعد ني وسر رع جاء ملك اسمه دن كاو حر حكم نحو ثماني سنوات، وخلفه جد كارع إيزوزي الذي وضعت في عهده ما يسمى بتعاليم « بتاج حوتب » الذي كان مربياً لابن الملك. وكانت الغاية من هذه التعليم إرشاد ابن الملك وتعليمه.

أما آخر ملوك هذه الأسرة فكان الملك أوناس ويعتبر هذا الملك من أشهر ملوك هذه الأسرة لارتباطه بالنصوص الدينية المعروفة باسم « نصوص الأهرام » والتي نقشت للمرة الأولى على جدران الحجرات الداخلية لهرمه في سقارة. وتمثل هذه النصوص مجموعة تعاويذ وصلوات وشعائر دينية مختلفة، كان هدفها الأصلي مساعدة المتوفى على تجنب الصعاب التي سيلاقيها في العالم الآخر ([9]). ويتميز الطريق الواصل يين معبده الجنزي

---

[8]- فخري، أحمد: المرجع السابق، ص137-138.

[9]- نور الدين: المرجع السابق، ص 65-66.

ومعبد الوادي بمجموعة من المناظر التي نقشت على جدران هذا الطريق (نقل الجرانيت من أسوان، صناع يقومون بصناعة أوان ذهبية ونحاسية وأدوات حجرية، مشاهد صيد.. الخ).

4- الأسرة السادسة 2420-2230 ق0م

يذكر مانيتون أن أصل هذه الأسرة من مدينة منف وربما يؤيد هذا القول ما يُلاحظ من ارتفاع شأن الإله بتاح إله هذه المدينة على حساب الإله رع الإله الرئيس في الأسرة السابقة.

وأما أول ملوكها فهو الملك تتي والذي لا نعرف عنه الكثير سوى أنه بنى هرماً لنفسه في سقارة ودفن فيه. كما بنى هرمين آخرين بالقرب من هرمه أولهما لزوجة الرئيسة « إيبوت » وأخر لزوجة ثانية اسمها « خوبت » وحسب ما يذكر مانيتون فإن تتي لم يمت ميتة طبيعية، أي أنه مات مقتولاً.

وقد خلفه الملك وسر كارع والذي لم يخلف آثاراً تذكر، وكثيرٌ من النقوش والقوائم أسقطته من بين الملوك الذين حكموا مصر، فهل كان وسر كارع من أفراد الأسرة الخامسة، تمكّن من استعادة عرش أسرته ولكنه لم يصمد طويلاً لذلك اعتبره من جاء بعده ملكاً مغتصباً ؟ ([10])

وكان خليفته الملك « بيي الأول » والذي حكم فترة تزيد على الخمسين عاماً، ترك خلالها مجموعة من الآثار انتشرت في كل أنحاء مصر، كما أرسل العديد من الحملات ضد البدو في الشمال الشرقي وقام بحملة إلى فلسطين عن طريق البحر. وخلفه على العرش ابنه « مر ان رع » الذي حكم فترة قصيرة لم تتجاوز خمس أو ست سنوات، إضافة إلى بضع سنوات يُعتقد أنه شارك فيه أباه الحكم. وعندما توفي كان العرش من نصيب أخيه « بيي الثاني » الذي جلس على العرش ولم يكن قد تجاوز السادسة من

---

[10]- فخري، أحمد: المرجع السابق، ص149.

عمره ومات وهو في المئة، ولذلك يُعتقد أن فترة حكمه هي الأطول في التاريخ حتى الآن. ومما لا شك فيه أن الملك الطفل وُضع في البداية تحت الوصاية. وكانت الوصية عليه والدته حيث تذكر معه في سجل حملة أرسلت إلى سيناء في السنة الرابعة من حكمه. ويلاحظ في عهد هذا الملك ازدياد نفوذ حكام الأقاليم على حساب السلطة المركزية. وبالتأكيد فإن هذا ناتج عن ضعف شخصية الملك. حتى خارج مصر تراجعت سلطتها إلى حد كبير، ونستشهد على ذلك بما يرد في مقبرة « بيبي نخت » أحد قادة بيبي الثاني من أن الملك أرسله إلى بلاد عامو من أجل إحضار جثة القائد « عنخت » الذي كان يبن سفينة للملك هنا، ولكن العامو قتلوه مع أفراد القوة العسكرية التي كانت معه ([11]).

إن قتل قائد عسكري مصري مع أفراد حاميته له دلالاته العميقة فيما يتعلق بالضعف الذي أصاب الدولة المصرية، هذا الضعف الذي نتج عنه تجرؤ البدو على قتل هذا القائد.

وجلس عن العرش بعد بي الثاني الملك « مري إن رع الثاني » وحكم سنة واحدة، وجاءت من بعده الملكة « نيت إقرت » وذكر مانيتون أنها حكمت اثني عشر عاماً، انهارت بعدها السلطة المركزية وعمت الفوضى البلاد، وانتهى بذلك عصر الدولة القديمة وبدأت ما يسمى بالفترة الانتقالية الأولى.

وقبل طي هذه الصفحة لا بد من الحديث عن أسباب سقوط الدولة القديمة.

من المهم الإشارة أولاً إلى عدم وجود سبب واحد لسقوط هذه الدولة، بل تضافرت عدة أسباب كان من نتيجتها في النهاية سقوط للدولة.

ولعل جذور أزمة الدولة القديمة تعود إلى أيام الأسرة الرابعة، عندما أخذ كل ملك يبني لنفسه هرماً يكون مقراً أبدياً له إلى جانب مجموعة المعابد التابعة له، إضافة إلى

---

[11]- عبد الحميد، محمود: المرجع السابق، ص90.

أهرامات ومقابر فخمة لأفراد أسرته، مما أدى في النهاية إلى إرهاق خزينة الدولة بشكل كبير، وهذا أسهم في خلق أزمة اقتصادية خانقة لم تستطع الدولة في المراحل التالية تجاوزها. ويرى باحثون آخرون جذور الأزمة في سياسة الأسرة الخامسة الدينية التي تمثلت بفرض عبادة الإله رع على البلاد وبناء معابد الشمس في كل مكان تكريماً لهذا الإله. وقد بدأ ملوك هذه الأسرة بفقد المكانة الكبيرة التي كانوا يتمتعون بها في نظر أتباعهم فعوضاً عن « الملك الإله » الذي كان، أصبح الآن هناك « الإله رع » الخالق وهناك الملك ابن الإله. وبالتالي فإن أي جهاز أو إدارة أصبح تجسيداً للنظام الذي وضعه الإله رع. ولكلّ من هذه الإدارات أو الأجهزة سلطات محددة أصبح مصدرها الإله وليس الملك. وعلى ذلك سعى حكام المقاطعات وبقوة للاستقلال والتحرر من تبعيتهم للحكومة المركزية. ونتيجة تحول الوظائف إلى وظائف وراثية فقد حصل الحكام على استقلاليتهم الاقتصادية. وفي نهاية حكم الأسرة الخامسة استحدث منصب « حاكم مصر العليا » والذي من واجبه الحد من سلطات الإدارات المحلية والحؤول دون تمزق البلاد وتجزئتها. ولكن هذه الخطوة لم تحقق النتائج المرجوة منها حيث أصبح في الوقت نفسه عدة أشخاص يحملون هذا اللقب. وسرعان ما فقدت هذه الوظيفة أي اعتبار لها، ولكن الامتيازات التي كانت تمنح لحاملها بقيت كما هي. ولدينا أمثلة على مكانة هؤلاء الحكام من خلال الألقاب التي أصبحوا يحملونها وخاصة في ظل حكم الأسرة السادسة حتى أصبحوا يلقبون بـ « حاكم المقاطعة العظيم »([12]).

وفي نهاية هذه الفترة أيضاً بدأ الصدام بين القصر والمعبد، فالهدايا التي كان يقدمها الفراعنة للملوك والإعفاءات من الضرائب وأعمال السخرة، كل ذلك أدى إلى ازدياد نفوذ الكهنة. ويبدو أن الأساس في النزاع بين الطرفين كان رغبة الكهنة في تطوير العبادات المحلية. وقد نتجت هذا الرغبة عن تخلي الفراعنة عن موقفهم السابق والقاضي

---

[12]- تاريخ الشرق القديم: الجزء الثاني، مصر القديمة، ص 250 وما بعدها.

بأن يكونوا هم الوحيدين الذين يملكون حق نشر العبادات. إن المراسيم المتعلقة بحصانة بعض المعابد التابعة لآلهة محلية، لم يكن الغرض منها نشر عبادة هذه الآلهة، ولكن تمتين السلطة الملكية في مناطق انتشار هذه العبادات، إن منح الامتيازات للمعابد المحلية القائمة وبناء معابد جديدة، يمكن النظر إليه كطريقة من طرائق النزاع بين الملوك وحكام المناطق، وكانت الأداة في هذا الصراع مجموعة الكهنة. وبالمحصلة فقد سار الكهنة والمعابد على عكس رغبة الملوك، ساروا على نهج حكام المقاطعات، وتحولوا إلى قوة تهدد بتمزيق وحدة الدولة ([13]).

ثانياً- جوانب من الحياة زمن الدولة القديمة :

1- الحياة السياسية :

في عرضنا للحياة السياسية في الدولة القديمة سنتعرض للسياستين الداخلية والخارجية لملوك هذه الدولة.

في مجال السياسة الداخلية، كنا قد أشرنا عند حديثنا عن الدولة في عصرها العتيق أن الملك المؤلّه يقف على رأس الدولة. وقد بدأ هذا الأمر يتبدّل منذ عهد الملك منكاو رع عندما بدأ الملك بالسماح لأبناء كبار موظفيه بتلقي تعليمهم مع أبنائه. وأما شبسكاف فقد زوج إحدى بناته من رجل لا ينتمي إلى الأسرة المالكة وكانت هذه سابقة لا مثيل لها ([14]).

أما التحول الأهم في مفهوم السلطة الملكية فقد حدث في الأسرة الخامسة عندما جعل ملوك هذه الأسرة من أنفسهم أبناء للإله رع، وقد اعُتبرت هذه الخطوة بمثابة ضربة للسلطة الإلهية، إذ بدأت تفقد الكثير من قداستها التي كانت تتمتع بها فيمامضى.

---

[13]- تاريخ الشرق القديم: الجزء الثاني، مصر القديمة، ص270 وما بعدها.

[14]- سليم، أحمد أمين: المرجع السابق، ص 116.

بعد الملك كان يأتي الوزير. ورغم أن أمحوتب باني هرم زوسر زمن الأسرة الثالثة، قد قام بكل أعباء هذا المنصب، إلا أننا لا نستطيع عدّه أول وزير مصري لأن هذا اللقب أطلق عليه في العصور المتأخرة، أما أول من حمل هذااللقب بشكل رسمي فكان « نفر ماعت » من الأسرة الرابعة. أما مهماته فكانت الإشراف على الإدارة المركزية للدولة، فكل الأشغال المهمة تمر عبره، فكان هو الرئيس الأعلى للعدل والقضاء ورئيس دور المحفوظات الملكية. وأخيراً كانت له الإدارة العليا في أهم إدارتين في الدولة وهما الخزينة والزراعة، وكان يعاونه « رؤساء الإرساليات » الذين كانوا يحملون أوامره وينقلون إليه تقارير الإدارات الإقليمية. ونظراً لأهمية هذا المنصب والمهمات التي كانت تقع على عاتق من يشغله، فغالباً ما كان الوزير من الأسرة المالكة نفسها.

وهناك منصب « حاكم الإقليم » وربما كان هو الذي يطلق عليه في العصر الثيني لقب « المشرف على حفر الترع ». وكانت وظائف حكام الأقاليم القيام بإحصاء عام يجري كل سنتين ابتداءً من الأسرة الثانية بانتظام، كما كانوا يشرفون على كل ما يتعلق بالإدارة الحكومية في المقاطعة من جمعٍ للضرائب وإشرافٍ على الشؤون الزراعية وحفظٍ للأمن والنظام وغيرها كثير.

وهناك من بين الموظفين الكبار في هذا العصر، موظفٌ يحمل لقب حامل أختام الإله، وكان هناك أكثر من شخص يحمل هذا اللقب، والإله المقصود هنا هو الفرعون. وهؤلاء الموظفون كانوا بمثابة مبعوثين للملك إلى المناجم أو في أسفار تجارية خارج مصر. إلى جانب هؤلاء الموظفين الكبار، كانت هناك مجموعة من الموظفين الصغار والذين كانوا يشرفون على إدارة المشاريع المختلفة العائدة للقصر الملكي أو للمعابد، وهؤلاء كانوا يحصلون على أجورهم موادّ عينية. وكانت وظيفة الكاتب من أهم الوظائف في ذلك العصر.

وأما فيما يتعلق بالسياسة الخارجية للدولة القديمة، فقد تركزت أهدافها على ناحيتين، الأولى منهما تأمين حماية حدود الدولة وذلك عن طريق صد هجمات القبائل

البدوية التي كانت تحاول اختراق الحدود المصرية من الغرب حيث القبائل الآسيوية في فلسطين. وهنا لا بد من الإشارة إلى أن معظم الأخبار التي وصلتنا عن صلات مصر مع السواحل السورية، تشير إلى علاقات تجارية كانت تربط بين البلدين، وقد استمر الأمر على هذا المنوال حتى عصر الأسرة السادسة عندما بدأت تصلنا أخبار عن حملات عسكرية أرسلت إلى هناك، لعل أشهرها تلك التي قام بها القائد أوني وأشرنا إليها عند حديثنا عن الأسرة السادسة. وأما عن الناحية الثانية التي اهتمت بها السياسية الخارجية المصرية، فكانت تأمين تجارتها مع سورية من ناحية ومع بلاد النوبة من ناحية أخرى.

إن الصلات التجارية مع سورية قديمة وتعود إلى زمن الأسرة الأولى على الأقل. وقد تطورت هذه التجارة بتطور الملاحة وفن بناء السفن الكبيرة الحجم، فالأخشاب التي وجدت ضمن هرم زوسر المدرج جلبت من سورية. والمعبد المصري في جبيل يدل على وجود جالية مصرية تعيش هناك، وكان دورها الرئيسي في ذلك الوقت ينحصر في تأمين ما تحتاجه إليه مصر من المنتجات السورية ولاسيّما الأخشاب وربما زيت الزيتون أيضاً. وأما فيما يتعلق بالنوبة فلقد حاول الملوك المصريون المختلفون تأمين الطرق الموصلة إلى هناك لأن النوبة كانت مصدراً للكثير من المواد الثمينة التي تحتاجها مصر ولاسيّما الذهب وجلود الحيوانات. ويذكر حجر باليرمو أن سنفرو في إحدى حملاته إلى النوبة استولى على عدد كبير من رؤوس الماشية وأسر نحو سبعة آلاف شخص ما بين رجل وامرأة. ([15])

وهنا لا بدّ من الإشارة إلى بدء الصلات بين مصر وبلاد البونت جنوب البحر الأحمر منذ عصر الأسرة الخامسة، وأصبحت شبه منتظمة في عصر الأسرة السادسة. فأحد رجال هذه الدولة يذكر أنه سافر إحدى عشرة مرّة إلى بلاد البونت. وقد اختلف المؤرخون حول تحديد موقع هذه البلاد. فبعض الباحثين يعتقد أن هذه التسمية تشمل

---

[15]- بيرلف، أو، د. : معطيات رقمية حول نقل سكان البلاد الخاضعة إلى مصر، في الدولة وبنائها الاجتماعي في الشرق القديم، موسكو، 1989، ص91.

الشواطئ الجنوبية للبحر الأحمر الشرقية والغربية (أي اليمن وشواطئ الصومال الحالية). فيما يرى البعض الآخر أن هذه التسمية تقتصر على الشواطئ الغربية للبحر الأحمر أي مناطق الصومال الحالية فقط ([16]).

2– الحياة الاجتماعية :

من المؤكد أن الملك وأسرته كانا يقفان على قمة الهرم الاجتماعي في مصر القديمة. ثم كانت هناك طبقة الأشراف. ويبدو أن هذه الطبقة كانت تعود بأصولها إلى الأسر التي كانت تحكم في المدن المختلفة قبل توحيد البلاد، وإلى أبناء هذه الطبقة تُسند الوظائف العليا في الجيش والإدارة سواء في المركز أو في الأقاليم. وفي أحيانٍ كثيرة كانوا يتوارثون مناصبهم، إلا في بعض الأحيان عندما كان الملوك يحاولون الحد من نفوذ كبار الموظفين وحكام المقاطعات فيعمدون إلى إلغاء وراثة المناصب.

بعد هذه الطبقة، تأتي طبقة متوسطة تتألف من صغار ملاك الأراضي الزراعية وأصحاب الحرف الممتازة والكتاب. وفي الأسفل كان هناك أفراد الطبقة الدنيا وهم الفلاحون والعمال.

والفلاحون كانوا فئتين، الأولى تملك أرضاً خاصة بها وتؤدي عنها الضريبة للدولة. والفئة الثانية تعمل في أراضي الملك أو المعبد أو كبار الملاكين. وهنا نشير إلى مرسوم أصدره الملك ببي الأول يستفاد منه أن الفلاح كان يعمل بأجرٍ بمعنى أن الفلاح لم يكن مملوكاً لصاحب الأرض.

وأما العمال فهم الذين يعملون في أعمال البناء وما يتعلق بها (في المحاجر مثلاً) وفي المناجم حيث تستخرج المعادن. وهناك نقوش وجدت في أماكن مختلفة من مصر وخاصة

---

[16]- للتوسع حول هذه المسألة انظر: سيد، عبد المنعم عبد الحليم: وسائل حضارة مصر الفرعونية في حضارة جنوب الجزيرة العربية. في كتاب: التواصل الحضاري بين أقطار العالم العربي من خلال الشواهد الأثرية، أعمال الندوة العلمية الأولى لجمعية الآثاريين العرب، القاهرة، 1999، (ص96-97).

في المقابر تشير إلى أن أصحاب هذه النقوش قد أعطوا العمال الذين عملوا لديهم كامل حقوقهم. ([17])

ونشير أخيراً هنا إلى أنه كان بإمكان المصري أن ينتقل من طبقة إلى أخرى، فالقائد أوني الذي سبق ذكره، يذكر في النقوش المدونة على جدران مقبرته أنه من أصل وضيع ولكنه ما لبث أن أصبح قائداً للجيش في عهد الملك ببي الأول.

3- الحياة الاقتصادية :

إن المصادر الكتابية والمادية العائدة لعهد الدولة القديمة تسمح لنا بتسليط الأضواءعلى بعض الأوجه المهمة للنشاطات الاقتصادية التي كانت تمارس في مصر في عهد هذه الدولة. كما تسمح هذه الوثائق بتحديد أنواعٍ من الملكيات: ملكيات ملكية وأخرى تابعة للمعابد وثالثة ملكية خاصة كانت على الغالب من نصيب كبار القادة والموظفين الذين كانوا يشغلون مناصب عليا في القصر الملكي أو في الجهاز الإداري للدولة، سواء في العاصمة أو في الأقاليم. ولقد تشكلت ممتلكات هؤلاء الموظفين الكبار من عزبة رئيسية إلى جانب ممتلكات أخرى موزعة في مناطق مختلفة من البلاد سواء في مصر العليا أو السفلى. وكان يعمل في هذه الملكيات عدد كبير من العاملين الذين كانوا يؤدون أعمالاً مختلفة: فهناك المشرفون العامون ومهمتهم كانت الإشراف العام على كل الأعمال في هذه العزبة، وتوزيع الأعمال على العاملين الموجودين فيها كل حسب اختصاصه: مزارعون، رعاة، صيادون، بستانيون، وهناك الكتبة والأطباء والنحاسون والمحاسبون والمراقبون.. الخ.

طبعاً كانت الزراعة من أهم أوجه النشاط الاقتصادي الذي كان سائداً في تلك المرحلة. وتأتي زراعة الحبوب ولاسيّما القمح والشعير على رأس المزروعات، وشغلت هذه

---

[17]- مهران، محمد بيومي : المرجع السابق، 106.

مساحات واسعة من أراضي الدلتا. إلى جانب ذلك هناك البساتين وخاصة العنب الذي نجد شواهد على زراعته منذ عهد الملك زوسر. كما ازدهرت زراعة الكتان الذي استخدم لأغرض صناعية.

أما تربية الحيوانات فشكلت مصدراً آخر لا يقل أهمية عن الزراعة حيث ربى السكان الأبقار والماعز ومارسوا الصيد وخاصّةً صيد الأسماك في نهر النيل.

وأما فيما يتعلق بالتجارة، فكنا قد تعرضنا إليها عندما تحدثنا عن السياسة الخارجية. ولكننا نعود لنؤكد أن مصر أرسلت بعثات تجارية إلى سورية وتحديداً إلى مينا جبيل، الذي كان مركزاً للنفوذ المصري على الساحل السوري. وكان الهدف الأساسي من هذه البعثات الحصول على الأخشاب القاسية (الأرز خصوصاً) اللازمة لأعمال البناء في المعابد والقصور وبناء مركب الشمس الذي كان يستخدمه الملوك في رحلة الليل والنهار برفقة الإله رع. أما من النوبة فقد حصل المصريون على الخشب الأسود وعاج الفيل وجلود الأسود والفهود والذهب وغير ذلك من المواد الثمينة. واستورد المصريون أيضاً أنواعاً من الحجارة القاسية التي كانت غير متوافرة لديهم.

وبالمقابل فإن مصر كانت تصدر الأواني والحلي وخاصة الذهب وغيرها من الأعمال الفنية.

4- الحياة الدينية :

عبد المصريون آلهة متعددة إلى حد كبير. وكان لكل مدينة آلهتها الخاصة بها مع معابدها وكهنتها. وكانت تزداد أهمية هذه الآلهة مع ازدياد أهمية المدينة التي تعبد فيها، أو مع صعود أسرة تعبد إلها معيناً على العرش المصري، كما رأينا ذلك في ازدياد أهمية رع عندما اعتلت الأسرة الخامسة العرش.

ولكن ما هي فكرة المصريين القدماء عن الكون وعن خلقه أي عن الكيفية التي نشأ بها الكون.

في الواقع، فإن هناك نظريات وضعت في أهم المراكز الدينية المصرية لنشأة الكون والإنسان. وربما تكون نظرية مدينة أون « عين شمس » أقدم هذه النظريات، إذ نستطيع تتبعها في متون نصوص الأهرامات. ملخص هذه النظرية، أنه في البدء لم يكن هناك في الكون من شيء سوى الماء الأولى، أو ما يسمى حالة العماء « نون ». ومن هذه الحالة تظهر الإله أتوم الذي تحول فيما بعد إلى الإله رع وسمي « أتوم رع » وقد صُور أتوم كهضبة ظهرت من خلال هذا الماء الأولي. ومن نفسه خلق فيما بعد الزوج الأول من الآلهة (الهواء) وزوجته « الرطوبة– الندى » وهذان الإلهان ولدا إله الأرض « جب » وإله السماء « نوت ». وهذه بدورها ولدت زوجين من الآلهة المذكرة وهما أوزير وست وآخرين مؤنثين وهما إيزيس وتفنيدو.

وكل هذه الآلهة توضع عادة في أسرة واحدة تدعى التسعة الكبار والتي نتج منها فيما بعد كل الآلهة والبشر.

وفي الأشمونين ظهرت نظرية ترى أن الكون يتألف من عناصر أربعة، الماء الأزلي (النون) والفضاء اللانهائي (الحاح) والظلام المطبق (الكاف) ثم عنصر الهواء ويسمى أمون بمعنى الخفي. وكانت هذه بمثابة آلهة ذكور ومعهم أربع إلهات مؤنثة بمثابة أزواج لهم فيصبح المجموع ثمانية وكلمة الأشمونين التي تحمل هذ الاسم حتى اليوم معناها بالمصرية ثمانية أي مدينة الآلهة الثمانية. ([18])

وأما كهنة منف فقد وضعوا نظرية تعتبر الإله بتاح هو الخالق لعالم الآلهة والبشر بكلمته، وما الأرباب الأخرى إلا صور من هذا الإله.

---

[18]- بكر، محمد إبراهيم: صفحات مشرقة من تاريخ مصر، ط2، ص50.

Damascus University

لقد فرض ملوك الأسرة الأولى على مصر كلها عبادة إلهها الحامي حور (الصقر). وذلك لم يعن استكانة أنصار الإله ست (الإله الشمالي)، والأمر الذي نلحظه من خلال اتّخاذ بعض ملوك الأسرة الثانية ألقاباً تجمع بين اسمي الإلهين حور وست. ولكن هذا الوفاق لم يدم طويلاً إذ سرعان ما خرج لقب ست من الأسماء الملكية وذلك في عهد الأسرة الرابعة، التي بدأ في عهدها أيضاً ظهور اسم الإله « رع » في الأسماء الملكية « خفرع - منكاورع » وقد تكرس هذه الأمر مع صعود الأسرة الخامسة العرش والتي كانت تعود بأصولها إلى مدينة « أون » مركز عبادة هذا الإله، ولذلك حاول ملوك هذه الأسرة دفع عبادة هذا الإله إلى المقدمة وأدخلوا اسمه في أسمائهم وألقابهم الملكية بصورة متزايدة مثل « نفر إركاع ساحورع، ني وسر رع...الخ ».

واكتسبت عبادة الفرعون أهمية خاصة، حيث عُد الفرعون ممثلاً ومجسداً للآلهة على الأرض. وعلى ذلك يمكن القول : كانت للفرعون طبيعتان بشرية وإلهية، وكانت ولادته نتيجة زواج مقدس بين إله الأب « رع » مع الوالدة الأرضية للفرعون.

وقد آمن المصريون بالحساب والثواب والعقاب في العالم الآخر. وهذا الأمر يتأكد لنا من خلال دراسة كتاب الموتى وتفحص محتويات المقابر، إلى جانب عادة التحنيط التي ربما كان من أهدافها وصول الجسد سليماً إلى العالم الآخر حتى يبعث بحالته الطبيعية. وكان الإله أوزيريس ملك العالم السفلي ورئيس محكمة الموتى حيث يؤتى بكل من غادر الحياة ليحاسب عن أفعاله، وكان يساعده اثنان وأربعون قاضياً يمثلون عدد الأقاليم المصرية.

وأما أهم مصادرنا عن الفكر الديني المصري فهي نصوص الأهرام، التي بدأت بالظهور على جدران الغرف الداخلية للأهرامات بدءاً من زمن الأسرة الخامسة وتحديداً من عهد آخر ملوكها أوناس. وهذه النصوص هي مجموعة من الأناشيد كان على الكهنة

تلاوتها على الملك المتوفى حتى يعبر العالم الآخر بسلام. وقد بلغ عدد هذه الأناشيد في النهاية نحو ستمائة نشيد. ([19])

ثالثاً– اللغة والكتابة المصرية :

لقد تشكلت اللغة المصرية مع تشكل الشعب المصري القديم. ومن الممكن تتبع هذا التطور بدءاً من نهاية الألف الرابع قبل الميلاد، أي مع الوقت الذي بدأت تصلنا معه أولى الكتابات المصرية القديمة. ويمكن تمييز أربع طبقات في هذه اللغة:

- اللغة المصرية القديمة (حتى القرن الثالث والعشرين ق0م)
- اللغة الوسطى أو التي تسمى الكلاسيكية (حتى القرن الخامس عشر ق0م)
- اللغة المصرية الحديثة (حتى القرن السابع ق0م)
- اللغة الديموطيقية (حتى القرن الخامس الميلادي)

وهذه الأخيرة تطورت إلى القبطية التي استمرت تقريباً إلى نحو القرن السادس عشر الميلادي وما تزال موجودةوتستخدمها الكنيسة القبطية كلغة شعائر ومؤلفات دينية. وعلماء اللغات يصنفون هذه اللغة في إطار ما يسمى أسرة اللغات « السامية – الحامية ».

أما الكتابة الهيروغليفية (وتعني باليونانية الكتابة المقدسة) فهي كتابة تصويرية. وكانت تقرأ أحياناً من الأعلى إلى الأسفل وأحياناً من اليمين إلى اليسار وبالعكس ويحدد اتّجاه القراءة الوجوه الموجودة في النص. وبما أنه لم يكن هناك أصوات في الكتابة الهيروغليفية، فإن الكلمة المكتوبة كان من الممكن أن تقرأ بأكثر من شكل وبالتالي يكون لها أكثر من معنى. فمثلاً الرمز p يكمن أن تقرأ per (بيت) أو pur (يخرج) لذلك كان

[19]- بري إم هرو: كتاب الموتى الفرعوني، ترجمة فيليب عطيه، القاهرة، مكتبة مدبولي، ط1 1988.

يرسم أمام هذا الرمز (بيت) إذا كان المقصود المعنى الأول أو ترسم قدم خارجة إذا ما أريد المعنى الثاني. إلى جانب هذا الخط ظهرت في مصر خطوط أخرى وهي :

– الخط الهيراطيقي: وتعني هذه التسمية الخط الكهنوتي، وذلك لشيوعها في أوساط الكهنة. وكانت الكتابات بهذا الخط تدون على أورق البردي ولذلك فإن الريشة كانت أداة الكتابة بهذا الخط.

– الخط الديموطيقي: وتعني الخط الشعبي. وقد تطور هذا الخط عن الخط الديموطيقي واستخدم بدءاً من القرن الثامن ق.م تقريباً. وقد استخدم في الأغراض اليومية ولم تدون به أية نصوص دينية.

Damascus University

الفصل الرابع

المرحلة الانتقالية الأولى2230– 2050 ق.م

تمتد الفترة الانتقالية الأولى من نهاية حكم الأسرة السادسة حتى إعادة توحيد البلاد في ظل حكم الأسرة الحادية عشرة. ولهذه الفترة ملامح سياسية واجتماعية واقتصادية محددة.

فمن ملامحها السياسية الأساسية عدم وجود سلطة مركزية واحدة تحكم البلاد، وإنما تعددت المراكز السياسية وأصبحت هناك أكثر من أسرة واحدة تحكم بنفس الوقت جزءاً من التراب المصري. وهذا ما انعكس على الواقع الاقتصادي فانهار الاقتصاد الموحد المتكامل الذي تشرف عليه إدارة مركزية واحدة وتحول إلى اقتصاديات محلية تتبع السلطات المحلية التي نشأت في هذه المرحلة.

وأما الواقع الاجتماعي فتصوره لنا بردية تنسب إلى حكيم مصري يدعى « إيبو ور ». وهذه البردية بوضعها الحالي تعود إلى زمن الأسرة التاسعة عشرة، ولكن من المؤكد أنها نُقلت عن أصل أقدم من ذلك ربما يعود إلى فترة الاضطرابات نفسها.

ويُظن أن « ايبو ور » قد عاش في أواخر أيام بيبي الثاني أو بعد ذلك بقليل، وأنه كان على صلة بمناصب الدلتا، وربما نجح بإيصال صوته إلى الفرعون نفسه وحاول أن يحمله هو وحكومته تبعة ما انتهت إليه أحوال البلاد من ضعف ودمار.

وحسب ما يصف « ايبو ور » فإن البلاد انهارت فيها القيم الاجتماعية ولم تعد هناك مكانة محترمة للطبقات التي كانت تتمتع بهذه المكانة من قبل. والأعداء في الخارج لم يعودوا يخشون من الدولة المصرية، وعلى العكس تجرؤوا عليها وبادروا إلى مهاجمتها ودخلوها وتمكّنوا من خيراتها.

ونعود الآن للحديث عن السلطة السياسية في مصر خلال هذه الفترة.

تقسم هذه الفترة إلى مرحلتين اثنتين، الأولى منهما تشمل حكم الأسرتين السابعة والثامنة، وتشمل الثانية حكم الأسرتين التاسعة والعاشرة.

ملوك الأسرتين السابعة والثامنة :

يذكر مانيتون أنه بعد سقوط الأسرة السادسة، قامت الأسرة السابعة، ويذكر أنه حكم من هذه الأسرة سبعون ملكاً خلال سبعين يوماً. ويبدو أن هؤلاء الأشخاص السبعين لم يكونوا ملوكاً وربما كانوا أعضاء في مجلس تشكل من أجل حكم البلاد. وهذا النظام لم يلق القبول من المصريين فعدلوا عنه.

وأما الأسرة الثامنة فلم تتجاوز مدة حكمها ثمانية وثلاثين عاماً، وأما العاصمة التي حكمت منها هاتان الأسرتان فبقيت العاصمة القديمة منف.

إن سلطة الملوك في هذا الوقت لم تتجاوز العاصمة. وتمكن الأموريون من دخول الدلتا والتوطن فيها. في حين وُجدت عدة مناطق مستقلة في مصر العليا مثل أبيدوس والفانتين والكوبت وغيرها.

وترسم لنا النقوش المكتوبة على جدران مقبرة (انختي في) نحو 30 كم جنوب الأقصر صورة واضحة عن المكانة التي أصبح يتمتع بها حكام المقاطعات ومدى استقلاليتهم في إدارة شؤون مقاطعاتهم، فهو يخبر أنه في سنوات شبابه عمل كقائد في جيش « نخن » وبعد وفاة والده ورث منصب حاكم نخن العظيم ومن ثم مدّ سلطته نحو منطقة ادفو المجاورة ([1]).

وقد كون حكام الأقاليم جيوشاً خاصة بهم، استخدموها في حروبهم الخاصة. وقد صُورت هذه المعارك على جدران مقابرهم. وقد عُثر على مجموعتين من تماثيل صغيرة أو نماذج خشبية تمثل حاكم مقاطعة أسيوط، وتألفتا من مجموعةٍ تسلح أفرادها بالحراب

---

[1]- فينوغرادوف: الدولة المصرية القديمة، في كتاب تاريخ العالم القديم، ج2، ص151- 158.

والتروس الكبيرة، ومجموعةٍ أخرى تسلح أفرادها بالأقواس والسهام. ولا بدّ من أن يكون بعض هؤلاء الحكام امتلكوا أساطيل صغيرة استعملوها في حروبهم النهرية ([2]).

وفي الوقت الذي كانت فيه الأسرة الثامنة قائمة، تمكنت أسرة أخرى من الوصول للحكم، وجعلت مدينة أهناسيا عاصمة لها.

الأسرتان التاسعة والعاشرة :

يصعب التكهن بالأسباب التي أدت إلى انهيار الأسرة الثامنة وقيام أسرة جديدة هي الأسرة التاسعة، ومؤسسها الملك « خيتي الأول » وقد أعطى هذا لنفسه نحو العام 2160 ق.م لقب ملك مصر العليا ومصر السفلى، مؤسساً بذلك أسرة جديدة هي الأسرة التاسعة التي تبدأ معها المرحلة الثانية من الفترة الانتقالية الأولى.

امتدّت سلطة هذه الأسرة من أسوان حتى منف إلا ان وضعها الداخلي كان مضطرباً وساد فيها شعور بعدم الثقة، ولم يتمكن حكامها من فرض سلطتهم على الدلتا بكاملها.

وفي هذا الوقت ازدادت قوة حكام طيبة. هذه المقاطعة التي كانت تتألف في هذه المرحلة من منطقتي الأقصر والكرنك الحاليتين. وشكلّ حكامها الأسرة العاشرة من الأسر التي حكمت مصر ([3]).

---

[2]- زابلوتسكا: تاريخ الشرق الأدنى في العصور القديمة، موسكو، 1989، ص122 ومابعدها.
[3]- زابلوتسكا: المرجع السابق، ص180-182.

Damascus University



الفصل الخامس

الدولة الوسطى

أولاً- الأسرة الحادية عشرة وإعادة توحيد البلاد (1991.2134ق.م)

أصل هذه الأسرة من مدينة طيبة ، ولم تكن هذه المدينة تتمتع بأية مكانة في ذلك الوقت، فهي تقع في الإقليم الرابع من أقاليم مصر العليا حتى إنها لم تكن المدينة الأكثر أهمية في هذا الإقليم، فحاضرة الإقليم كانت مدينة إرمنت.

وقد اعترف حكامها الأُوَل والذين حملوا اسم انيوتف بالسيادة العليا لملوك أهناسيا عليهم. وأول الحكام المه مين من هذه الأسرة هو انيوتف الرابع الذي بدل اسمه أو لقبه إلى منتو حتب. ومنتو هو إله الحرب في طيبة معنى اسمه (منتو راضي). ونعلم من ألقابه: « سرغخ إيب تاوي » بمعنى « محيي قلب الأرضين » وربما في هذا إشارة إلى محاولته إعادة توحيد البلاد. ولكن هذه الوحدة كانت من نصيب خليفته منتوحتب الثاني (2061. 2010ق.م).

عندما تولى منتوحتب السلطة في طيبة، كانت تسود فترة من الهدوء بين البيتين المتنافسين الطيبي في الجنوب والأهناسي في الوسط. ولكن النزاع تجدد بين الطرفين عندما سعى حكام أهناسيا لفرض سيطرتهم على مدينة « ثيني » الهامة على الحدود بين الدولتين، وانتهى النزاع هذه المرة بنجاح منتو حتب بالاستيلاء على أهناسيا، وكان ذلك في العام التاسع من حكمه. ولذلك يعتبر المؤرخون أن بداية حكم الأسرة الحادية عشرة هو العام التاسع من حكم منتوحتب الثاني.

ولم تكن مهمة منتوحتب الثاني قاصرة على محاربة الأهناسيين ، بل كان عليه التعامل أيضاً مع البدو في الشرق والغرب، والأهم من ذلك التعامل مع حكام المقاطعات بحكمة ودبلوماسية. فهؤلاء الحكام تعودوا خلال الفترة السابقة على أن يكونوا مستقلين تماماً عن أي سلطة عليا، ولم يكونوا جاهزين الآن للخضوع لسلطة ملكية مركزية.

كان منتوحتب يحمل قبل توحيده البلاد لقب « نب . حج » أي « سيد التاج الأبيض » وهو تاج الجنوب. ولكنه بدءاً من العام التاسع من حكمه بدء يحمل لقب « سام تاوي » أي « موحد القطرين » ([1]).

وقد تميز عهده بنشاط عمراني واسع وخاصة في مصر العليا. وبنى لنفسه مقبرة فريدة من نوعها جمعت بين المقبرة والمعبد والهرم في مسطح واحد ([2]).

وعندما توفي منتوحتب الثاني، كانت مصر تنعم بالاستقرار الداخلي وبالقوة في الخارج.

وقد حكم من بعده عدد من الملوك أهمهم منتوحتب الرابع، الذي أرسل وزيره امنمح ات ومعه عشرة آلاف جندي بحملة إلى وادي الحمامات لجلب الأحجار من هناك. وتتحدث الأخبار عن بعثة أخرى قام بها شخص آخر اسمه حننو وكان عدد أفرادها ثلاثة آلاف رجل، وكانت الغاية منها تأمين الطريق إلى شواطئ البحر الأحمر([3]).

ثانياً– الأسرة الثانية عشرة (1991 . 1778 ق.م):

يبدو أن حالة الفوضى التي سادت البلاد قرب نهاية حكم الأسرة الحادية عشرة، هي التي دفعت مانيتون إلى اعتبار ا منمحات الأول، مؤسساً لأسرة جديدة في التاريخ المصري هي الأسرة الثانية عشرة . وأما عن ا منمحات نفسه فربما كان وزيراً في أواخر أيام

---

[1]- نور الدين، عبد الحليم: المرجع السابق، ص85.

[2]- حول هذه المقبرة راجع: فخري، أحمد: المرجع السابق، ص190-199 .

[3]- صالح، عبد العزيز: المرجع السابق، ص166.

الأسرة الحادية عشرة، ولما انهارت السلطة الملكية أعلن نفسه ملكاً على البلاد. وعلى كلٍّ، هناك بردية محفوظة الآن في متحف مدينة سانت بطرس بورج في روسيا الاتحادية، تدعى تنبؤات نفروحو أو نبوءة نفرتي، وقد وضعها رجال ا منمحات نفسه لإقناع الشعب المصري بأن جلوسه على العرش كان أمراً قد قررته الآلهة منذ زمن بعيد، وأنه هو المنقذ والمخلص للبلاد من مشاكلها والفوضى التي تسودها. كما تلقي هذه النبوءة بعض الأضواء على جوانب من حياته قبل توليه العرش ([4]).

أما عن أعمال هذا الملك، فهي كثيرة سواء على الصعيد الداخلي أم الخارجي.

فعلى الصعيد الداخلي، كان نقل العاصمة من طيبة في الجنوب إلى منطقة منف عند حدود الدلتا من أهم أعماله التنظيمية. ومن خلال الاسم الذي أطلقه على هذه العاصمة الجديدة وهي «إتثت . تاوي» ومعناها « القابضة على الأرضين » يمكن الاستنتاج أن الملك أراد عاصمة في مكان متوسط من البلاد يسمح له بالوصول إلى أي من أرجائها خلال وقت مناسب. أو ربما أراد التقرب من سكان الدلتا الذين شعروا بالظلم من جراء نقل العاصمة إلى الجنوب في ظل الأسرة السابقة. وهناك من يرى في هذه الخطوة رغبة من امنمحات الأول في إعادة النفوذ المصري إلى بعض أنحاء سورية ([5]). فقرب العاصمة الجديدة من الحدود السورية، كان من الممكن أن يسهل من تحقيق هذا المسعى. ولكن في ظل انعدام المعطيات المؤكدة، فإن هذا الأمر يبقى مجرد افتراض.

وعمل امنمحات على تحصين حدود دولته ضد الأخطار الخارجية وخاصة ضد هجمات البدو على الحدود الشرقية والغربية، فأقام الحصون على طول هذه الحدود للتصدي لمثل هذه الهجمات.

وفي العام العشرين من حكمه أشرك معه ابنه سنوسرت الأول في الحكم، وأرسله في عدة حملات ضد القبائل الليبية والنوبية.

---

[4]- حول هذه البردية ومضمونها انظر في كتاب: عبد الحميد، محمود: المرجع السابق، ص105-106.
[5]- سليم، أحمد أمين: في تاريخ الشرق القديم، مصر وسورية القديمة، 1989.

وقد انتهت حياة هذا الملك بالقتل على يد مجموعة من المتآمرين في القصر الملكي، استغلوا غياب ولي العهد في حملة ضد القبائل الليبية ليقوموا بتنفيذ الاغتيال.

وبما أن سنوسرت جلس على العرش بعد أبيه تكون ا لمؤامرة قد فشلت في الإطاحة بالأسرة الحاكمة وإحلال أسرة أخرى مكانها.

1- سنوسرت الأول (1962 . 1928 ق.م) :

نُصِّب سنوسرت الأول ولياً للعهد في العام العاشر من حكم أبيه، وهي السياسة التي اتبعها ملوك هذه الأسرة لتدريب أبنائهم على شؤون الحكم، ولضمان ولايتهم للعرش، حتى لا تنشب الخلافات العائلية التي تزلزل كيان الأسرة ([6]).

وقد تابع سنوسرت الأول سياسة والده على الصعيدين الداخلي والخارجي.

فعلى الصعيد الداخلي تابع سياسة والده تجاه حكام الأقاليم، ولاسيّما أولئك الذين حافظوا على ولا ئهم له بعد اغتيال والده، واستمروا بتقديم ما هو مفروض عليهم من الجند الذين كانوا يدخلون في قوام الحرس الملكي.

وأما على صعيد المنشآت، فقد أكثر سنوسرت الأول من أعمال البناء التي شملت أنحاء مختلفة من البلاد. فقد شيد هرمه بالقرب من هرم أبيه في العاصمة اثت تاوي. وشيد معبداً جديداً للإله رع في مدينة أون. وعندما احتفل بعيده الثلاثين أقام أمام هذا المعبد مسلتين من الجرانيت.

وأما على الصعيد الخارجي، فيعتقد أنه فرض النفوذ المصري حتى الشلال الثالث. وإلى عهده يرجع أول ذكر لمملكة كوش التي قامت في منطقة النوبة خلال الفترة الانتقالية الأولى.

كما أنه قام بحملات عسكرية ضد قبائل التمحو والتحنو الليبية ، وعمل على تأمين المواصلات مع الواحات التي كانت تمر بها القوافل التجارية ورسل الملك. وتعد قصة «

---

[6]- نور الدين: المرجع السابق، ص92.

سنوهي » مصدراً هاماً لمعرفة العلاقات التي كانت تربط سورية مع مصر في هذه المرحلة، وسنوهي هذا كان من كبار رجال الدولة عندما وقعت المؤامرة واغتيل الملك امنمحات الأول. ولما خاف أن يتهم بالمشاركة في المؤامرة فرّ إلى سورية حيث عاش بين قبائلها. وهو يصف في قصته طريقة عيش هذه القبائل والفارق الكبير في الحياة بين البلدين.

2- امنمحات الثاني (1928 – 1895ق.م) :

خلف والده على العرش بعد أن كان قد شاركه في الحكم كولي للعهد. وقد تابع سياسة أسلافه فبنى لنفسه هرماً في منطقة دهشور، واتجه نحو تعزيز الصلات التجارية مع بلاد النوبة والبونت، إلى جانب استمرار استثمار المناجم والمحاجر في الصحراء الغربية والشرقية.

3- سنوسرت الثاني (1895 – 1877ق.م)

بما أن الأوضاع كانت مستقرة في الداخل والخارج فإن سنوسرت الثاني وجه اهتمامه نحو الأعمال العمرانية والمنشآت ذات الطابع الاقتصادي. ولعل أهم مشروع بُدئ به في عهده وإن لم يتمه، كان البدء باستصلاح الأراضي في إقليم الفيوم ([7]).

وأما عن أعماله العمرانية، فقد أنشأ هرماً عند مدخل الفيوم. وشيد على مقربة من الهرم مدينة صغيرة للمهندسين والعمال الذين عملوا في بنائه. وترجع أهمية هذه المدينة إلى أنها أقدم مدينة مصرية حُفظت شبه كاملة وتمكن الآثاريون من التعرف على أبنيتها ومحتويات هذه الأبنية ([8]).

وعُثر على آثار كثيرة سواء في سورية (أوجاريت تحديداً) أو في مصر تدل على نمو الصلات التجارية بين المنطقتين في عهد هذا الملك.

4- سنوسرت الثالث (1877 . 1843ق.م)

---

[7]- سليم، أحمد أمين: المرجع السابق، ص114.

[8]- صالح، عبد العزيز: المرجع السابق، ص179.

من أعظم ملوك الأسرة الثانية عشرة، ومن الملوك العظام في تاريخ مصر القديمة. وبقيت ذكراه حية في ذاكرة الأجيال اللاحقة، حتى إن تحوتمس الثالث الذي حكم بعده بما لا يقل عن أربعة قرون وضع نصباً تخليداً لذكرى هذا الملك العظيم.

وكان أهم إنجازات هذا الملك على الصعيد الداخلي، الحد إلى درجة كبيرة من نفوذ حكام المقاطعات، حتى إن من الباحثين من يرى أن سنوسرت الثالث قد ألغى هذا المنصب تماماً واستعاض عن هؤلاء الحكام بإدارة مركزية في العاصمة تتشكل من ثلاثة مكاتب واحد للشمال وآخر لمصر الوسطى وثالث لمصر العليا ([9]). وعمل على إقامة جيش دائم قوي للبلاد خاضع للسلطة الملكية وبعيد عن نفوذ حكام الأقاليم وسلطتهم.

وعلى صعيد المنشآت، فقد بنى لنفسه هرماً في دهشور إلى جانب معبدين كبيرين أحدهما في أبيدوس والآخر في أهناسيا.

وأما عن سياسته العسكرية، فقد أولى سنوسرت أهمية كبيرة لمنطقة النوبة، وتوجه إليها مع قواته عدة مرات. ومهد لذلك بشق قناة عند الشلال الأول لتسهيل عبور السفن المصرية. وشيد هنا مجموعة من القلاع والحصون لمراقبة الحدود وتأمين التجارة وحدد المنطقة التي لا يسمح للنوبيين بتجاوزها نحو الشمال وهي منطقة سمنة ([10]).

ولم تقتصر حروبه على النوبة، بل امتدت إلى سورية ، ففي بداية حكمه شن حملة توجه في بدايتها إلى سيناء ثم توغل في جنوب فلسطين وصولاً إلى سكم (بالقرب من نابلس الحالية).

قبل وفاته، أشرك سنوسرت الثالث ابنه امنمحات الثالث معه في الحكم.

5- امنمحات الثالث (1843 . 1797ق.م) :

---

[9]- هبو، أحمد ارحيم: تاريخ الشرق القديم، مصر، دار الحكمة اليمانية، صنعاء، 1995، ط1، ص165.

[10]- مهران، محمد بيومي: تاريخ السودان القديم، دار المعرفة الجامعية، ط1 1996 ص226-234.

كما أشرنا قبل قليل، فقد شارك والده في الحكم ، وجنى ثمار جهوده الحربية ، وأُنجز في عهده أحد أهم مشاريع الري في مصر القديمة، وذلك ببنائه سداً عند مدخل بحيرة الفيوم جاعلاً من منخفض الفيوم خزاناً طبيعياً للمياه الزائدة من نهر النيل.

وأرسل البعثات إلى جهات متعددة لإحضار ما تحتاج إليه مشاريعه العمرانية الكثيرة وأهمها هرمان باشر ببنائهما له في دهشور وحواره، ومعبد جنائزي ضخم أطلق علي .ه الأغريق اسم اللابيرانت (التيه)، ووصف هذا المعبد كل من هيرودوت وديودور الصقلي ولكن مع الأسف فإن هذا العمل العمراني الضخم لم يصل إلى أيامنا ([11]). واستمرت في عهده العلاقة الجيدة مع الساحل السوري ، حيث عُثر في أوجاريت على تمثال مجنح لامنمحات الثالث على هيئة « أبو الهول » في مدخل معبد الإله بعل، وعثر في جبيل على صدرية ذهبية تمثل امنمحات الثالث وهو يرضع من الإلهة حاتحور ([12]).

6- امنمحات الرابع (1798 . 1790ق.م)

خلف والده على العرش، وحكم وفق بردية تورين تسع سنوات وبضعة أشهر ، والأخبار عنه قليلة. والآثار التي خلفها محدودة ، هذا ولم يعرف بعد أين دفن هذا الملك. ولكن يبدو أنه دفن في هرم بني في منطقة مزغونة، حيث عثر بداخله على مومياء لأخت له تدعى «بتاح نفرو» التي يبدو أنها ماتت في عهده ([13]).

ويبدو أن الدولة من أيامه بدأت تدخل في مرحلة الانهيار مؤذنة بأفول نجم هذه الأسرة.

7- الملكة سبك نفرو (1790 . 1786 ق.م)

---

[11]- صالح، عبد العزيز: المرجع السابق، ص181.

[12]- هبو، أحمد ارحيم: المرجع السابق، ص170.

[13]- نور الدين: المرجع السابق، ص100.

هي آخر ملوك هذه الأسرة، وربما كانت شقيقة وزوجة لامنمحات الرابع، وقد تجاهلت بعض قوائم الملوك فترة حكمها، ولم تترك إلا آثاراً قليلة تتمثل في بضع كتل من الأحجار تحمل اسمها ولعلها أضافت شيئاً إلى معبد اللابيرانت حيث وجد اسمها هناك.

ومع نهاية عهد هذه الملكة ينتهي عهد الدولة الوسطى، ودخلت مصر في فترة انتقالية ثانية، خضعت خلالها لحكم الملوك الأجانب الذين عرفوا باسم الهكسوس.

ولكن ما الأسباب التي أدت إلى سقوط هذه الأسرة؟

كان سقوط الأسرة الثانية عشرة القوية أمراً غير متوقع. فهذه الأسرة كانت تستند إلى قاعدة اقتصادية متينة أساسها استمرار تدفق الذهب النوبي من ناحية، واستمرار استغلال مناجم سيناء من ناحية أخرى، إضافة إلى المساحات الزراعية الجديدة الواسعة التي دخلت مرحلة الاستثمار نتيجة استصلاح أراضي واحة الفيوم.

ولقد اعتمد ملوك هذه الأسرة على جيش قوي محترف، إلى جانب طبقة من كبار الموظفين الأكفاء والموالين الذين انحدر أغلبهم بأصوله من مدينة طيبة مسقط رأس هذه الأسرة. وعمل الملوك من هذه الأسرة على إلغاء وراثة المناصب العليا ولاسيّما حكام الأقاليم، مما حدّ من سلطة هؤلاء الحكام وعزز من سلطة الملوك ([14]).

لذلك نرى الباحثين يجهدون لمعرفة أسباب سقوط هذه الأسرة. فمنهم من أرجع ذلك إلى عدم وجود وريث شرعي من الذكور يعتلي العرش بعد وفاة آخر ملوك هذه الأسرة.

ومنهم من يرجع ذلك إلى دخول مجموعات آسيوية إلى مناطق الدلتا زعزعت استقرار الدولة. ويستدل هؤلاء على رأيهم هذا بالعادة التي كانت متبعة في مصر والتي كانت تقضي بكتابة أسماء الأعداء على أوان صغيرة، أو صنع دمى تمثل هؤلاء الأعداء، ويقوم الملك بتحطيم هذه الأواني أو الدمى منفذاً بذلك شعائر دينية سحرية هدفها

---

[14]- تاريخ الشرق القديم، ج2، ص410.

Damascus University

سحق العدو المكتوب اسمه على هذه الأواني. وقد ازداد في هذه الفترة عدد أسماء الآسيويين المكتوبة أسماؤهم على مثل هذه الأواني ([15]). ولكننا بالمقابل نقرأ عليها أسماء مصرية، مما يدل على وجود أعداء داخليين من ناحية، وعلى عجز الملوك المصريين على التصدي لأعدائهم بالقوة فحاولوا قهرهم عن طريق الممارسة السحرية من ناحية أخرى.

ثالثاً- الملكية وأجهزة الدولة الإدارية :

إذا ما عدنا إلى ما ذكرناه عن الملكية في عصر الدولة القديمة وعن الملك المؤله، واطلعنا على نصوص الدولة الوسطى المتعلقة بالملوك ووظائفهم وعلاقتهم بشعوبهم، للاحظنا تطوراً كبيراً في هذا المجال. فالهوة الواسعة التي كانت تفصل الملوك المصريين عن شعوبهم بدأت تضيق إلى حد كبير. فامنمحات الأول يفاخر بعدالته فيقول: « لا جائع في عهدي ولا ظمآن تحت سلطاني ». والحكيم نفرتي لا يصف الفرعون بأنه ابن الإله، بل يصفه بأنه « ابن الإنسان »، فالفرعون أصبح أمل المصريين في الخلاص من الظلم والقهر وفي تحقيق العدالة الاجتماعية ([16]).

وأما عن علاقة ملوك مصر مع حكام المقاطعات، فتعرضت هي أيضاً لتبدلات كبيرة خلال عصر هذه الدولة. فملوك الأسرة الحادية عشرة لم يحاولوا المساس بنفوذ هؤلاء الحكام الكبير طالما بقوا موالين للسلطة الملكية. ولكن الملك امنمحات الأول أول ملوك الأسرة الثانية عشرة عمد إلى تحديد حدود المقاطعات حتى لا يتجرأ حكام المقاطعات الكبيرة على التعدي على حكام المقاطعات الأصغر. ولكن الضربة الأكبر لنفوذ هؤلاء الحكام جاءت من سنوسرت الثالث الذي حولهم إلى موظفين كبار مرتبطين بالإدارة المركزية في العاصمة ([17]).

---

[15]- عبد الحميد، محمود، المرجع السابق، ص117-118.

[16]- سيد، عبد المنعم عبد الحليم: حضارة مصر الفرعونية، دراسة تحليلية، دار المعرفة الجامعية، ط1، 1998.

[17]- مهران، محمد بيومي: الحضارة..، ص169 وما بعدها.

أما باقي أجهزة الدولة فلم يحدث فيها تغيير كبير. فالوزير ظل على رأس الإدارة المركزية ورأس القضاء. إلا أن الملاحظ الآن، هو كثرة أعداد الموظفين من ذوي الرتب الصغيرة في الجهاز الإداري للدولة، وربما كان ذلك ناشئاً عن ازدياد دور الدولة في إدارة شؤون المجتمع المصري.

ومن الظواهر الجديدة في عصر هذه الدولة أيضاً استخدام ما يشبه « بطاقات الإحصاء ». فكل رب أسرة كان ملزماً بأن يقيد على هذه البطاقة عدد أفراد أسرته ومواشيه ويقسم بأن ما ورد فيها صحيح. وكانت هذه البطاقات تجمع في مكتب الوزير ربما لاستخدامها في تنظيم جباية الضرائب من المواطنين ([18]).

رابعاً- الحياة الاقتصادية:

عند حديثنا عن ملوك الأسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة تعرضنا لجهود هؤلاء الملوك فيما يتعلق بإعادة صلات مصر مع الأقطار المجاورة، هذه الصلات التي انقطعت خلال الفترة الانتقالية الأولى. وقد نجح ملوك مصر في هذا المسعى. ونلاحظ أنه بدءاً من عهد سنوسرت الثالث جرى تنظيم لأمور التجارة مع النوبة، فحُددت الأماكن التي يتم فيها تبادل البضائع المصرية مع منتجات هذه البلاد. وكان لا يمكن الاستغناء عن الأخشاب السورية، لذلك نرى أن الحملات المصرية خلال عهد هذه الدولة باتجاه سيناء وفلسطين، كانت على صلة بتأمين الطريق التجاري البري بين مصر وسورية.

وقد استغل حكام الأسرتين أفضل استغلال مناجم سيناء، حيث كان يُحصَّل منها الفيروز والنحاس وبعض أنواع الحجارة القاسية. وكذلك الأمر بالنسبة للصحرا وين الشرقية والغربية التي كان يُستخرج الذهب من مناجمها.

---

[18]- سليم، أحمد أمين: دراسات في حضارات الشرق القديم، حضارة مصر القديمة، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، 1996، ص140.

ونشير هنا إلى اتساع أعمال المالية العامة في هذا العصر، بسبب اتساع الصلات التجارية الداخلية والخارجية. ولذلك جرى تقسيم البلاد إلى قسمين إداريين، وُضِع كل قسم منهما تحت إدارة « رئيس الخزينة » أو مدير المالية. وكانت من مهمات هؤلاء الموظفين جباية الضرائب لصالح الخزينة الملكية.

خامساً- الحياة الاجتماعية:

بقي التقسيم القديم للمجتمع المصري قائماً في عهد الدولة الوسطى فالأسرة ، المالكة بقيت تشكل الطبقة العليا في المجتمع، وتليها طبقة كبار الكهان وكبار رجال الدولة من مدنيين وعسكريين ، وهؤلاء يشكلون طبقة النبلاء في هذا المجتمع. وشكل الفلاحون والعمال الطبقة الدنيا وتليها طبقة العبيد والإماء.

وقد استعادت المرأة في هذا العصر بعضاً من مكانتها التي فقدتها خلال الفترة الانتقالية الأولى. ففي بعض المشاهد تظهر المرأة وهي تطوق عنق زوجها بذراعيها أو تصاحبه في نزهاته وإن رُسمت بحجم أقل منه. كما أنها لم تكن تملك حق التصرف في أحوالها، وإن استردت حقها في الإرث، وبقيت ولاية التصرف في أموالها في هذه الفترة للزوج أو الابن الأكبر ([19]).

وكان الكثير من النساء يتلقين تعليماً، ولاسيّما النساء من بين أفراد الطبقات العليا. ومن خلال الوثائق المتبقية من الدولة الوسطى، نرى أن هناك وظائف للنساء كانت ذات صلة بتنظيم الجهاز الإداري. وللوصول إليها، كان الأمر يستلزم التدرج بمهنة الكاتب، وكمثال عن ذلك إحدى مديرات مخزن الكتان الملكي الذي يقدم كقربان للإله.

وبالإضافة إلى ذلك تكثر أيضاً مهنة « مديرة إدارة »، مثل « إدارة الأختام » في عهد الدولة الوسطى، وأكثر حاملات هذه الوظيفة شهرة هي السيدة « تشات » وكيلة

[19]- مهران، محمد بيومي: الحضارة المصرية القديمة، ص67.

أملاك الحاكم « خنوم حتب الثاني »، « مديرة خزائن (سد جوا نيت)، والمسؤولة عن جميع أملاك سيدها » ([20]).

وكان الأبناء يشتركون في إرث والدهم بما في ذلك الأم والبنات. وإلى جانب الثروة، فقد كان المصريون القدماء يورثون مناصبهم ([21]). ومع التوريث عرف المصريون الوصية. ومن أمثلة هذه الوصايا من عهد الدولة الوسطى، الوصية التالية: « إنني أنقل وظيفتي كرئيس للجماعة إلى ابني ايم حتب بن مري المعروف باسم ايو سنب، بشرط أن يكون " عكاز شيخوختي "، فقد أصبحت عاجزاً.... وأما عن منزلي القائم في منطقة حات مادت (؟)، فهو من أجل الأبناء الذين أنجبتهم من سات نبت – نينيسو، ابنة حارس مجلس المقاطعة بكل ما يحتويه...»([22]).

ويبدو أن تعدد الزوجات كان معروفاً في مصر خلال هذا العصر وإن كان محصوراً أكثر بين أبناء الطبقات العليا.

ومن أمور التسلية من هذا العصر، ما نشاهده على جدران المقابر من مشاهد صيد وحفلات موسيقية مصحوبة برقص الراقصات والألعاب الرياضية المختلفة (مصارعة، رفع أثقال...الخ).

سادساً- الحياة الأدبية والعلمية:

لعل من أهم النصوص الأدبية التي وصلتنا من عهد الدولة الوسطى ، القصة المعروفة باسم قصة سنوهي. وكان سنوهي يصاحب ولي العهد سنوسرت في حملته على القبائل الليبية عندما اغتيل الملك امنمحات الأول. وعندما وصل الخبر إلى مسامعه، فر في جنح الظلام دون أسباب واضحة تسوّغ ذلك. وكانت وجهته إلى فلسطين، حيث حط رحاله

---

[20]- نوبلكور، كريستيان ديروش: المرأة الفرعونية، ترجمة: فاطمة عبد الله محمود ، الهيئة العامة للكتاب، 1995، ص207.

[21]- سليم، أحمد أمين: حضارة مصر القديمة، ص56.

[22]- نوبلكور: المرجع السابق، ص187.

عند إحدى القبائل الكنعانية. وقد ترقى بين أفراد هذه القبيلة إلى أن أصبح شيخاً لها. ولكن ذلك لم يخفف من حنينه ورغبته في العودة إلى مصر. وكان يأمل بالحصول على عفو ملكي يتيح له هذه العودة. وكان له ما أراد، فالملك سنوسرت الأول عفا عنه وأذن له بالعودة إلى مصر. ولما عاد إليها قصّ حكاية هروبه وإقامته في فلسطين، ووصف طبيعة الحياة التي عاشها هناك مقارناً إياها بالحياة في مصر.

وتعتبر هذه القصة كما أشرنا سابقاً مصدراً هاماً للتعرف على أحوال وطرق معيشة القبائل الكنعانية خلال هذا العصر.

ومن القصص الأخرى المعروفة من هذا العصر قصة « نجاة الملاح » و« القروي الفصيح » وهي من زمن الأسرة العاشرة، ولكنها اشتهرت كثيراً في عصر الدولة الوسطى ([23]).

وأما عن الأعمال العلمية، فقد وصلنا من عهد هذه الدولة مجموعة من البرديات ذات الطابع العلمي. فهناك بردية راندا الرياضية وبردية هيرست الطبية، إلى جانب قوائم تشتمل على تسميات جغرافية، وأخرى تتصل بعلم التشريح والتقنيات الهندسية وعلم الحيوان والنبات وأسماء المهن والحروف ([24]).

سابعاً- الجيش في عهد الدولة الوسطى :

من المشكوك فيه أن يكون هناك جيش دائم في مصر في عهد الدولة القديمة. فعندما كان يريد الملك تجريد حملة ما، كان يرسل إلى حكام الأقاليم طالباً منهم تجنيد عدد من الرجال، كل حسب عدد سكان إقليمه. وتعزز هذا الأمر خلال الفترة الانتقالية الأولى حين انعدمت السلطة المركزية، وأصبح حكام الأقاليم معنيين بأمر الدفاع عن أقاليمهم، لذلك لجؤوا إلى تجييش الجيوش في هذه الأقاليم. ولم يختلف الوضع كثيراً في

---

[23]- حول هذا الموضوع انظر في كتاب: صالح، عبد العزيز: المرجع السابق، ص345 وما بعدها.
[24]- هبو، أحمد ارحيم: المرجع السابق، ص171.

القسم الأكبر من عهد الدولة الوسطى. فكما مر معنا فإن ملوك هذه الدولة وخلال فترة طويلة حافظوا على الامتيازات التي كان يتمتع بها حكام الأقاليم وبالتالي بقيت عملية التجنيد تجري بالطريقة السابقة.

وكان الانعطاف الهام في عهد الملك سنوسرت الثالث الذي قرر تشكيل جيش دائم للبلاد، ومن المؤكد أن هذا الملك انطلق في قراره هذا من إطار سياسته المتعلقة بتقوية النفوذ المركزي في البلاد والحد من سلطات حكام الأقاليم. فلا يمكن أن تبقى إرادة الدولة بشن الحرب مرهونة بإرسال هؤلاء الحكام للمجندين عندما يُطلب منهم ذلك. ومن ناحية أخرى فإن وجود جيش تحت تصرف حكام الأقاليم، مع عدم وجود جيش مشابه تحت تصرف الملك يستخدمه متى شاء ، يضعف من موقف الملك تجاه هؤلاء الحكام. هذا عدا عن أن وجود جيش دائم يخضع لإدارة مركزية ويتلقى تدريبات مستمرة، يعطي نتيجة أفضل في ساحة القتال.

وتنفيذاً لسياسته هذه، اتجاه سنوسرت من الليشت (اثت تاوي) إلى أبيدوس ليختار المجندين من هناك. ويرد في نص ينسب إلى أحد القادة أنه كان يختار رجلاً واحداً من بين كل مئة رجل لتكوين فرقة لسيده الملك ([25]).

وأما عن المناصب في الجيش، فمما لا شك فيه أن الملك كان بمثابة القائد الأعلى لهذا الجيش، وأنه كان يقوده بنفسه في بعض الحروب. وفي حالات أخرى، كانت تعهد هذه القيادة إلى ولي العهد أو إلى أحد كبار رجالات الدولة الذي كان يحمل حينها لقب « قائد الجيش » ومن الألقاب الأخرى التي وُجدت أيام الدولة الوسطى: « قائد الصدام » و« قائد الجنود الجدد » و« مسجل الجيش » و« كاتم أسرار الملك في الجيش » ([26]).

---

[25]- مهران، محمد بيومي: الحضارة المصرية القديمة، ص197.

[26]- مهران، محمد بيومي: الحضارة المصرية القديمة، ص197-198.

وأما عن التمارين التي كان يمارسها الجنود، فكانت تشمل التمارين الرياضية وخاصة المصارعة ورفع الأثقال، إلى جانب المبارزة والرماية. وأما أدوات القتال التي يحملها الجنود، فأهمها الأقواس والحراب وفؤوس القتال. ومن أسلحتهم الثقيلة، هناك درع ضخم يحتمي خلفه ثلاثة رجال ويهاجمون به صفوف الأعداء. ويمكن بواسطة هذا الدرع مهاجمة أسوار القلاع أو أبوابها، إذ أنه كان مزوداً بقضيب ذي نهاية معدنية يحركه الجنود من داخل الدرع من ثقب به فيحطمون الأسوار والأبواب ([27]).

---

[27]- كمال، محرم: تاريخ الفن المصري القديم، ط2، 198، ص32.

Damascus University


جامعة دمشق
وقل رب زدني علما
Damascus University

الفصل السادس

المرحلة الانتقالية الثانية ودخول الهكسوس إلى مصر

إن الأسر التي حكمت في الفترة الانتقالية الثانية هي الأسر من الثالثة عشرة حتى السابعة عشرة. وتجب الإشارة هنا إلى أن هذه الأسر لم تحكم بالتتالي، وإنما حكمت بصورة متزامنة ولكن من أمكنة مختلفة. حيث إنه من المؤكد أن الأسرتين الثالثة عشرة والرابعة عشرة حكمتا في الوقت نفسه أجزاء مختلفة من البلاد.

وعصر الفترة الانتقالية الثانية يبدأ مع الأسرة الثالثة عشرة التي استمرت في اتخاذ مدينة «إثِت تاوي» عاصمة لها. وفي المرحلة الأولى من حكمها حافظت البلاد على وحدتها وبقيت النوبة على تبعيتها لمصر. ولم تشر قائمتا الملوك من سقارة وأبيدوس إلى اسم أي من ملوك هذه الأسرة. في حين أن بردية تورين تذكر أسماء بعضهم وتشير إلى أن أولهم كان يدعى امنمحت سبك حوتيب. وحسب هذه البردية فإن هذا الملك حكم نحو أربع سنوات. وشهدت نهاية حكم هذه الأسرة بداية تدهور النفوذ المصري في النوبة. وإن بقي هذا النفوذ قوياً في سورية ولاسيّما في جبيل.

وقد استغل أمراء منطقة « سخا » الواقعة في غرب الدلتا، ضعف سلطة ملوك هذه الأسرة ليستقلوا عنها مشكلين أسرة مالكة جديدة هي الأسرة الرابعة عشرة. ويذكر مانيتون أن عدد ح.كام هذه الأسرة كان ستة وسبعين ملكاً حكموا 184 سنة، وتورد بردية تورين أسماء واحد وعشرين ملكاً منهم.

أولاً- عصر الهكسوس:

ويضم هذا العصر فترة حكم الأسرتين الخامسة عشرة والسادسة عشرة. وأما كلم .ة هكسوس نفسه.ا فتتألف من مقطعين هم.ا « حقاو » و« خاسوت » بمعنى « حكام

الأقاليم الأجنبية » في حين أن مانيتون يذكر أن معنى التسمية هو « الملوك الرعاة ». إن أول ظهور لهذه التسمية في الوثائق المصرية، يعود إلى أيام الأسرة الثانية عشرة، كما يرد اسمهم في قصة سنوهي، وورد الاسم أيضاً في قبر « خنوم – حتب » أمير الإقليم السادس عشر من أقاليم مصر، حين هاجرت إليه قبيلة آسيوية يرأسها رجل لُقِّب بحاكم البلاد الأجنبية. وأطلق المصريون على الهكسوس أسماء مختلفة يشير بعضها إلى الموطن الذي قد يكونون قدموا منه، ومن هذه التسميات: منتيو – ستت وتعني البدو الآسيوين و« شاسو » بمعنى الرعاة وهذه التسمية سبق أن أطلقت على البدو الذين كانوا يعيشون على حدود مصر الشمالية الشرقية.

أما أصلهم، فعلى الرغم من أن الشكوك التي تحوم حوله والجدل الدائر حوله، فالغالب عليهم الطابع السامي وإن كان هناك بينهم من هم من خارج هذا الإطار. ولا بد من الإشارة إلى أن الفترة التي شهدت تغلغلهم إلى مصر قادمين من سورية وفلسطين كانت قد شهدت تحركات قبلية كبيرة على حدود المنطقة السورية الرافدية مثل الكاشيين والحوريين والحثيين. ولا بد من أن تكون هذه التحركات قد دفعت ببعض القبائل الموجودة في المنطقة السورية الفلسطينية إلى الانتقال إلى مصر. ولا بد من أن يكون بعض العناصر من تلك القبائل قد دخلت مصر مع القبائل السامية. ولا بد من التأكيد على أن دخول هذه القبائل إلى مصر لم يكن عن طريق هجوم عسكري واسع. وإنما كان هجرة سلمية تمت خلال زمن طويل، إلى أن أصبحت هذه العناصر القبلية تشكل قوة لا يستهان بها في فترة ضعف الأسرة الثالثة عشرة، وذلك في منطقة شرق الدلتا. ففرضت سيطرتها عليها وشرعت من ثم بمد نفوذها نحو الجنوب وكان ذلك بحدود العام 1730 ق.م. ([1])

ويروي مانيتون قصة دخول الهكسوس إلى مصر على خلاف ذلك فهو يقول: « في عهد الملك توتيمايوس، ولا أدري السبب في ذلك، أصابتنا نكبة من الله، ودون أن

---

[1]- زابلوتسكا، المرجع السابق، ص174-180.

نتوقع ذلك، جاءنا غزاة من جهة الشرق من أصل مجهول، ساروا تملؤهم الثقة في النصر ضد بلادنا، وتمكنوا بقوتهم من الاستيلاء عليها بسهولة دون ضربة واحدة. وبعد أن تغلبوا على حكام البلاد حرقوا مدننا دون رأفة، وهدموا معابد الآلهة من أساسها، وعاملوا جميع الأهالي بعداءٍ قاسٍ. فذبحوا البعض وأخذوا نساء البعض الآخر وأطفاله م، ليكونوا إماءً وعبيداً لهم. وأخيراً عينوا واحداً منهم اسمه "ساليتس" ليكون ملكاً عليهم. فأقام في منف وفرض الضريبة على شمال مصر وجنوبها وكان دائماً يترك الحاميات في أكثر المواقع المناسبة » ([2]).

وقد اتخذ الهكسوس من مدينة أواريس عاصمة لهم وذلك منذ عهد أول ملوكهم الذي يذكره مانيتون باسم « ساليتس ». وكان الإله الرئيسي في هذه المدينة هو الإله «ست» فاتخذه الهكسوس إلهاً لهم. ولكن ذلك لم يمنعهم من احترام باقي الآلهة المصرية وبخاصة الإله « رع » الذي دخل اسمه في أسماء بعض ملوكهم.

وحسب مانيتون فإن الأسرة الخامسة عشرة تتكون من ستة ملوك وهم الذين يُدعون أحياناً « الهكسوس العظام » في حين تكونت الأسرة السادسة عشرة من اثنين وثلاثين ملكاً وهم الذين يدعون « الهكسوس الصغار ». ومن الممكن أن تكون هاتان الأسرتان متعاصرتين أيضا ([3]).

ومن ملوك الهكسوس المعروفين الملك « خيان »، الذي يرد اسمه في بردية تورين تحت اسم « نياس » وكان من ألقابه « الإله الطيب إن رع، ابن الشمس، ساوسر إن رع ». وقد عثر على آثار هذا الملك في مناطق مختلفة من الشرق القديم في سورية وفلسطين وبلاد الرافدين حتى في كريت ، حيث عثر في أساسات قصر كنوسوس الثاني على غطاء آنية مرمرية نقش عليها « الإله الطيب، ساوسر إن رع، ابن الشمس خيان ». ولكن هذا الأمر يجب أن لا يؤخذ، كما يحلو لبعضهم كدليل على قيام إمبراطورية

---

[2]- فخري: أحمد، مصر الفرعونية، موجز تاريخ مصر منذ أقدم العصور حتى 332 ق.م، ص244.
[3]- تاريخ الشرق القديم، ج2، مصر القديمة، ص415-416.

هكسوسية شملت مناطق واسعة، فالأمر لم يكن يتعدى علاقات وصلات تجارية مع مناطق مختلفة من العالم المعروف آنذاك. ومن ملوكهم أيضاً الملك « أبوفيس الأول » الذي حكم أكثر من أربعين عاماً ويصف نفسه في لوح خشبي عثر عليه في الفيوم بأنه « ملك مصر العليا والسفلى، كاو سر رع ابن الشمس أبوفيس معطي الحياة، مخلداً مثل رع كل يوم، وابن الملك من جسمه، والابن المحبوب من رع ».

ومع أن الملوك العظام من الهكسوس، قد أعطوا أنفسهم لقب « ملوك مصر العليا والسفلى » فإن سلطتهم على الأغلب لم تشمل مصر كلها. وهناك من يعتقد أن نفوذهم قد وصل إلى نواحي طيبة وذلك استناداً إلى أسماء بعض ملوكهم عُثر عليها في تلك النواحي. ولعل الهكسوس في فورة انتصارتهم قد وصلوا إلى طيبة ثم اضطروا لمغادرتها بسبب مقاومة أهلها، أو أن بعض الموالين لهم قد دونوا أسماء هؤلاء الملوك ليثبتوا ولاءهم لهم.

ويبدو أن ملوك الهكسوس قد أبقوا الكثيرين من الحكام المحليين الذين قدموا ولاءهم وقبلوا بتأدية ما فرض عليهم من أتاوات سنوية.

إن سلطة ملوك الهكسوس لم تكن وراثية على الأغلب. فكثيراً ما كان الملك الجديد يأتي عن طريق انقلاب يطيح بسلفه. وغالباً ما كان الملوك يعتمدون في حكمهم على الجيش الذي كانت تشكل العناصر الآسيوية أغلب فرقه.

وأما عن مدى تأثير الهكسوس في الحضارة المصرية، فهذا أيضاً مثار جدل، وبعض الدارسين للتاريخ المصري ينفون وجود أي تأثير هكسوسي في الحضارة والحياة المصرية. ومع ذلك فلا بد من القول إن الهكسوس كان لهم تأثير واضح ولاسيّما من الناحية العسكرية. فهم الذين أسهموا في إدخال العربة الحربية ذات الدولابين ونماذج جديدة من الخناجر والسيوف المصنوعة من البرونز مقابل الأسلحة النحاسية المصرية. كما أنهم أسهموا في تعليم المصريين استخدام الخيل في الحروب على نطاق واسع، على الرغم من أن الخيل كان معروفاً قبل ذلك العصر.

كما ظهرت في هذا العصر بعض أهم الأعمال الأدبية التي إما كانت تعود إلى عهود أسبق وأعيدت كتابتها في هذه المرحلة، أو أنها كتبت في هذا العصر لأول مرة. ومن أهم هذه الأعمال « بردية وستكار » و« بردية رند الرياضية » التي دوّن عليها الملك أبوفيس عام حكمه الثالث والثلاثين.

وبالمقابل فإن الهكسوس تمصروا عن طريق تعلمهم اللغة المصرية واعتقادهم بالآلهة المصرية وإن كانوا أدخلوا عليها الكثير من صفات الآلهة الآسيوية، واتخاذ ملوكهم للألقاب الملكية المصرية، ومن ثم تبنيهم لأسلوب الحياة المصرية بشكل عام.

ثانياً– الأسرة السابعة عشرة وحرب التحرير :

في أواخر أيام الهكسوس كانت مصر مقسمة إلى ثلاث مناطق تحكم فيها أسر مختلفة:

1 – مملكة الهكسوس وتضم تحت سلطتها مصر الوسطى والدلتا.

2 – النوبة وكانت تحكم من أمير نوبي. ومنطقة حكمه كانت تقع إلى الجنوب من الفانتين.

3 – مملكة طيبة (الأسرة السابعة عشرة) وسيطرت على مناطق واسعة امتدت من الفانتين وأدفو جنوباً حتى أبيدوس شمالاً.

ومن هذه المملكة (طيبة) بدأت المقاومة للوجود الأجنبي في مصر. في البداية كان ملوك هذه الأسرة يخضعون لحكم الهكسوس ويدفعون الجزية لهم. ونعلم أن الملك أبوفيس أرسل رسولاً إلى « سقنن رع » حاكم طيبة يقول له « إن أفراس النهر في مياه طيبة تقلق نوم أبوفيس وهو في قصره في الدلتا. ولهذا فهو يطلب منه إسكاتها. وأن تهجر أفراس النهر ذلك المكان ». ولا بد أن يكون المقصود بأفراس النهر، الأصوات المعارضة للوجود الهكسوسي في مصر والداعية لمقاومته. أما كيف سارت الأمور بعد ذلك، فلا نعرف عنها إلا القليل. وسمح العثور على مومياء « سقنن رع » بمعرفة أن هذا الملك توفي نتيجة

إصابته بجروح كثيرة في صدره وضربة فأس على رأسه. مما دفع بعضهم للافتراض أن سقنن رع قتل أثناء إحدى معاركه مع ملوك الهكسوس. وبذلك يكون سقنن رع أول قائد لحركة تحرير مصر من حكم الهكسوس.

ولكن خليفته « كاموس » كان أول من بدأ حرباً منظمة هدفها طرد الهكسوس من البلاد. ولكنه بدأ أولاً بالتخلص من بعض الحكام المحليين الموالين لهم.

وأما معلوماتنا عن حرب كاموس ضد الهكسوس فنستقيها من لوح يعرف باسم لوح « كارنافون » وكذلك من لوح آخر عثر عليه عام 1904 في أساسات أحد التماثيل الضخمة في منطقة الكرنك. ومن هذه المصادر نعلم أن أول معارك كاموس كانت تلك التي خاضها ضد مدينة نفروس في إقليم الأشمونين التي كان حاكمها محالفاً للهكسوس والذي جعل من مدينته « عشاً للآسيويين ». وفي مكان آخر يقص علينا كاموس قصة حربه ضد الهكسوس فيقول: « الملك القوي في طيبة كاموس له الحياة إلى الأبد. إنه ملك صالح وقد حباه رع ليكون ملكاً حقاً وسلم إليه القوة وأيم الحق. وكان جلالته في القصر وقال للمجتمعين من كبار رجاله الذين كانوا حوله: أريد أن أعرف مدى سلطاني؟ إذا كان هناك حاكم في أواريس وآخر في كوش، وأجلس شريكاً بين آسيوي ونوبي ويحكم كل منا على جزء من مصر. إن هذا الذي يشاركني في الأرض يجعلني لا أستطيع الوصول إلى منف وهي تابعة لمصر، لأنه يتحكم في مدينة الأشمونين. والناس في غضب لأنهم جميعاً في خدمة الآسيويين. سأحاربه وسأبقر بطنه لأن رغبتي هي أن أخلص مصر وأسحق الآسيويين » ([4]). ونعلم أيضاً أن كاموس أسر رسولاً كان أرسله ملك الهكسوس إلى كوش ليحرض حاكمها على مهاجمة مصر من الجنوب أثناء انشغال كاموس بحربه في الشمال. مما دفع بكاموس إلى احتلال الواحات البحرية ليمنع أي اتصال قد يقوم بين الهكسوس من جهة وكوش من جهة أخرى. وأما كيف انتهت حياة كاموس فهذا أمر لا

---

[4]- عبد الحميد، محمود: المرجع السابق، ص130.

نعرف عنه شيئاً. فمن خلال المصادر المصرية نرى أنفسنا فجأة أمام شقيقه أحمس أو « أحموس » الذي تابع مسيرة شقيقه في حربه التحريرية. وقد تمكن أحمس من الاستيلاء على عاصمة الهكسوس في شرق الدلتا (أواريس) ودمرها وتابع فلو لهم إلى جنوب فلسطين حيث التجؤوا إلى هناك إلى قلعة شا روحين جنوبي غزة التي حاصرها ثلاث سنوات حتى تمكن من احتلالها.

لقد كان لاحتلال الهكسوس مصر، الدور الأكبر في تغيير وجهة نظر الملوك المصريين زمن الدولة الحديثة فيما يتعلق بسياستهم الخارجية وأهمية وجود جيش قوي يكون في أيديهم أداة لتنفيذ سياسة خارجية توسعية، تهدف قبل كل شيء إلى إبقاء الأخطار بعيدة عن الأراضي المصرية وذلك بضرب الأعداء في بلادهم قبل أن يتمكنوا من تجميع قواهم إلى الحد الذي يجعلهم قادرين على تهديد مصر نفسها. وبذلك ازدادت أهمية الجيش في الحياة العامة وازدادت مكانة العاملين فيه والذين أصبحوا يشكلون طبقة تتمتع بامتيازات كبيرة ولاسيّما في بداية حكم الأسرة الثامنة عشرة.

Damascus University



الفصل السابع

الدولة الحديثة (1575 . 1087 ق.م)

تبدأ الدولة الحديثة بالأسرة الثامنة عشرة، وامتد عمرها إلى ما يقرب من خمسة قرون. ويعد أحمس آخر أبطال حرب تحرير مصر من الهكسوس وموحد البلاد في ظل إدارة مركزية واحدة، مؤسساً لهذه الأسرة التي حكمت بين (1575–1308 ق.م).

أولاً– الأسرة الثامنة عشرة :

1– الملك أحمس الأول (1575 . 1550 ق.م) :

وضعه مانيتون على رأس هذه الأسرة، على الرغم من أنه ينتمي إلى الأسرة السابقة. ولكن نتيجة لتبدل أوضاع مصر في عهده من إخراج للهكسوس وإعادة لتوحيد البلاد، جعل من وضعه على رأس أسرة جديدة أمراً منطقياً.

أما عن نشاطاته، فقد سبق و أن ذكرنا إسهامه في حرب التحرير ومن ثم مطاردته للهكسوس إلى فلسطين. وجّه أنظاره بعد ذلك إلى النوبة، فقام بحملة إليها لإعادة فرض النفوذ المصري على بعض مناطقها. وعلى الصعيد الداخلي، حاول أحمس الأول إعادة بناء السلطة المركزية التي أصبح مقرها الآن في طيبة. واهتم اهتماماً كبيراً بالجيش، الذي سيؤدي دوراً مهماً في المرحلة المقبلة. فحرص على قيادته بنفسه وقدم مكافآت كبيرة للمقاتلين الشجعان، مما شجع أبناء الطبقة الوسطى على الانخراط في صفوفه.

وحمل أحمس الأول لأول مرة لقب: « ابن أمون رع » حيث أصبح هذا الإله المزدوج، إله البلاد الرئيسي في ظل هذه الأسرة. كما ظهر في عهده لقب جديد هو: « زوجة الإله أمون » وكانت تحمله عادة زوجة الفرعون.

2- امنحوتب الأول (1550 . 1528ق.م) :

حكم هذا الملك نحو عشرين عاماً، وتبنى سياسة خارجي .ة جديدة هدفها توسيع حدود مصر نحو الشرق (أي إلى سورية)، ولأول مرة يظهر في نصوصه ذكر « الميثان » أي الحوريين الميتانيين الذين كانوا بدؤوا يتحركون في سورية بفاعلية مستغلين غياب المصريين عنها. وحاول صهر منطقة النوبة بشكل نهائي في إطار الدولة المصرية، وذلك بجعلها إقليماً من أقاليم مصر، وعين على هذا الإقليم حاكم يحمل لقب: « حاكم المناطق الجنوبية »([1]).

وعلى صعيد النشاط العمراني، أقام امنحوتب الأول معبداً صغيراً في منطقة الدير البحري، ومعبداً آخر في منطقة طيبة، وبنى لنفسه مقبرة ومعبداً جنائزياً.

3- تحوتمس الأول 1528 . 1510 ق.م :

لم يكن تحوتمس الأول ابناً لامنحوتب الأول، الذي توفي دون أن يخلف ولداً ذكراً. لذلك فإن تحوتمس حتى يكتسب شرعية الحكم، فإنه تزوج من الأميرة الوارثة، وكانت تدعى أحمس. ولكنْ هناك رأي آخر يقول أن تحوتمس كان ابناً لامنحوتب الأول ولكن من زوجة ثانوية، فتزوج من الأميرة الوارثة وأصبح ملكاً على البلاد.

لقد ركز تحوتمس الأول جهده على إخراج الحوريين الميتانيين من سورية، وإعادة النفوذ المصري إليها. ففي العام السادس من حكمه جمع جيوشه وتوجه نحو الأراضي السورية. ولما لم يجد أي مقاومة فيها تابع تقدمه نحو الشمال إلى أن وصل إلى كركميش على الفرات الأوسط، وترك هنا نصباً يخلد فيه وصوله إلى هذا المكان، وقد أطلق مرافقوه على نهر الفرات اسم النهر « ذو المياه المعكوسة » أي التي تجري من الشمال إلى الجنوب، على عكس نهر النيل. وفي طريق عودته إلى مصر، توقف تحوتمس الأول في بلاد « ني » في حوض نهر العاصي لاصطياد الفيلة التي أرسل بعضها إلى العاصمة طيبة.

---

[1]- مهران، محمد بيومي: تاريخ السودان، ص263.

وكان تحوتمس الأول قبل هذه الحملة قد توجه إلى النوبة. حيث سجل في عام حكمه الثاني نقشاً على الصخور المقابلة لجزيرة « تومبوس » وراء الشلال الثالث خلد فيه ذكرى قيامه بحملة إلى هذه المنطقة وإخضاعه لحاكم كوش وتثبيته الحدود المصرية بين الشلالين الثالث والرابع. وقد كشف عن نقش آخر لهذا الملك عند قلعة كرجوس إلى الجن .وب من أسوان وقد صُوّر الفرعون على هيئة أسد أمام الإله « آمون – رع » ([2]).

أما على صعيد النشاط العمراني، فيعتقد أن تحوتمس الأول كان أول من بدأ ببناء معبد أمون في الكرنك، وأقام أمامه مسلتين من الجرانيت الأحمر مع بهو كبير فيه أعمدة مربعة على واجهتها تماثيل على شكل الإله أوزير، كما كان أول ملك يدفن في وادي الملوك.

حكم بعد تحوتمس الأول ابنه تحوتمس الثاني 1510 - 1495، الذي تزوج من أخته غير الشقيقة حتشبسوت. وقد قام تحوتمس الثاني بعدة نشاطات عسكرية سواء في فلسطين أو في النوبة استهدفت تثبيت النفوذ المصري في هاتين المنطقتين. وعلى ما يبدو فقد كان هناك خلاف بين تحوتمس الثاني وزوجته. فالأول كان ضعيفاً وغير طموح على عكس زوجته، ولا بد أن هذا الخلاف قد انعكس على أوضاع البلاد بشكلعام.

4- حتشبسوت (1495- 1468 ق.م) :

عندما توفي تحوتمس الثاني، كان ابنه الذي حمل اسمه طفلاً صغيراً ، فوضع تحت وصاية زوجة أبيه حتشبسوت.

ولما كانت هذه المرأة ذات طموح كبير، وتعتقد بأحقيتها بالعرش حتى من تحوتمس الثاني، فإنها أخذت تعمل على تركيز مكانتها واكتساب مؤيدين لها في أوساط كبار رجال الدولة ورجال الدين.

---

[2]- مهران، محمد بيومي: المرجع السابق، ص267.

Damascus University

وبعد أن اطمأنت إلى قوة مركزها نحَّت تحوتمس الثالث جانباً وانفردت بالسلطة، وأصبحت تكتب اسمها مرفقاً بكافة الألقاب الملكية ([3]).

وقد اصْطَفَتْ لنفسها مجموعة من الموظفين اعتمدت عليهم في إدارة شؤون البلاد، وكان على رأس هؤلاء « سنموت » الذي تمتع بالكثير من الصلاحيات، وشيد لنفسه مقبرة كبيرة رغم أصله المتواضع.

ولم تكتف حتشبسوت بذلك، بل ابتدعت قصة تسوّغ فيها إبعادها للملك الطفل، وأمرت بنقشها على جدران معبدها في الدير البحري. وقد ادعت حتشبسوت في هذه القصة، أن ولادتها كانت نتيجة معاشرة الإله أمون رع لأمها الملكة أحمس. وقد باركها أبوها تحوتمس الأول وطاف بها على كل معابد مصر الكبرى وأعلنها خليفة له على العرش ([4]). وهذا يعني أنها كانت تنظر إلى تحوتمس الثاني وتحوتمس الثالث كمغتصبين لحقها بالعرش.

وكان من أهم المنجزات المعمارية لعصر حتشبسوت، بناؤها معبد الدير البحري الذي صممه وأشرف على تنفيذه وزيرها سنموت. وأهم ما نقش على جدران هذا المعبد إلى جانب قصة ولادتها الإلهية التي أشرنا إليها آنفاً، قصة البعثة التجارية التي أرسلتها إلى بلاد البونت لتجلب المواد الثمينة التي يحتاج إليها القصر الملكي والمعابد من تلك البلاد ([5]).

ولم تسجل النصوص العائدة لهذه الملكة قيامها بحروب كبيرة، مع أنها تذكر حملات صغيرة إلى بلاد النوبة، ربما في محاولة لفرض وتوكيد النفوذ المصري هناك أكثر من كونها حملات توسعية نحو الجنوب.

---

[3]- جاردنر، ألن: مصر الفرعونية، ترجمة: ميخائيل إبراهيم، القاهرة، 1973، ص274-275.

[4]- أسعد، فوزية: حتشبسوت، المرأة الفرعون، ترجمة: ماهر جويجاتي، المجلس الأعلى للثقافة، 2003، ص69 وما بعدها.

[5]- ريمس، تشارلز: طيبة « آثار الأقصر »، ترجمة محمود ماهر طه ومحمد العزب موسى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1999، ص167-169.

ومع الأسف فإننا لا نستطيع التعرف على آثار هذه الملكة بشكل جيد، لأن الملك تحوتمس الثالث أمر بعد أن أصبح ملكاً بأن تحطم كلّ الآثار التي شيدتها وحطم تماثيلها. أما عن نهاية هذه الملكة، فلا نعرف إلى الآن كيف كانت، ولكنها بلا شك كانت نهاية محزنة، حيث لم يعثر على جثتها في أي مقبرة من مقابرها التي شيدتها سواء في طيبة أو في الدير البحري ([6]).

5– تحوتمس الثالث 1468 . 1436 ق.م :

حكمت حتشبسوت ثمانية عشر عاماً بصورة منفردة بعد أن اشتركت مع تحوتمس الثالث في الحكم لعدة سنين. ولكن تحوتمس الثالث لم يعترف بسنوات حكمها واعتبرها مغتصبة حقه في العرش، ولذلك فإنه كان يؤرخ لسنوات حكمه من تاريخ وفاة والده تحوتمس الثاني.

وما إن استفرد تحوتمس الثالث بالعرش، حتى بدأ حملة تطهير واسعة شملت كل من له علاقة بعمته حتشبسوت سواء من كبار الموظفين المدنيين أم العسكريين. وكما فعلت حتشبسوت عندما ألفت قصة مولدها الإلهي، فإن تحوتمس الثالث أيضاً وضع قصة خاصة به لتأكيد شرعيته في الحكم ([7]).

وعندما اعتلى تحوتمس الثالث العرش منفرداً، كان المصريون قد فقدوا تقريباً كل نفوذ لهم في المنطقة السورية، وحل محلهم النفوذ الحوري الميتاني. لذلك كان من أول أعمال هذا الملك، أن جهز حملة ضخمة هدفها القضاء على هذا النفوذ ومؤيديه من الحكام السوريين.

توجهت الحملة أولاً إلى فلسطين حيث استولى الجيش المصري على مدن غزة ويافا، وتابع بعدها مجتازاً جبال الكرمل ليقابل في مجدو (تل المتسلم حالياً) قوات تحالف الأمراء

---

[6]- أسعد، فوزية: المرجع السابق، ص213 وما بعدها.

[7]- راجع تفاصيل هذه القصة في: صالح، عبد العزيز، المرجع السابق، ص207.

السوريين الذين زاد عددهم كما يذكر تحوتمس الثالث على ثلاثمائة أمير على رأسهم أمير قادش. كما لا بد من أن يكون وراء هؤلاء الملك الميتاني الذي لم يشارك شخصياً في هذه المعركة، وتمكنت القوات المصرية من إلحاق الهزيمة بقوات التحالف، بعد أن فرضت الحصار على مجدو. إلا أن أمير قادش تمكن من الانسحاب من موقع المعركة عائداً إلى مدينته متحصناً فيها. أما أغلب الأمراء الآخرين فقد أعلنوا خضوعهم وولاءهم لتحوتمس الثالث، الذي لم يكتف بمثل هذا الإعلان فقط وإنما أخذ بعض أبنائهم كرهائن إلى مصر ([8]).

وخلال حملات لاحقة، أصغر حجماً من الحملة الأولى، تمكن المصريون من إخضاع معظم مدن الساحل، واتخاذ نقاط استناد دائمة لهم فيها.

إن استمرار الملك الميتاني في تحريض أمراء سورية ضد مصر، دفع تحوتمس الثالث إلى تجهيز حملة جديدة ضخمة استهدفت هذه المرة ليس الأمراء السوريين وحدهم، وإنما الملك الميتاني نفسه، وكانت الحملة هذه المرة برية وبحرية. وعندما وصل جيشه إلى كركميش على الفرات، عبر النهر بسفن كان قد أمر بصنعها في جبيل وحُملت مفككة على الثيران إلى شاطئ النهر، ومن ثم رُكبت وتم عبور الفرات بوساطتها إلى الضفة الأخرى. لكن الملك الميتاني توغل بجيوشه إلى عمق بلاده ولم يدخل في مواجهة مباشرة مع الجيش المصري ([9]). وفي طريق عودته إلى مصر تمكن تحوتمس الثالث من دخول قادش متزعمة المعارضة السورية للوجود المصري.

ولم يكتف تحوتمس الثالث بهذه الحملة على سورية، بل عاد إليها مرات عديدة بعد ذلك في حملات متعددة الأغراض والأهداف ([10]).

---

[8]- جاردنر، ألن: المرجع السابق، ص277، وما بعدها.

[9]- السعدي: حسن محمد محيي الدين: دراسة مرجعية للعلاقات المصرية السورية في الألف الثاني ق.م، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة الكويت، الرسالة181، الحولية 22، 2001-2002، ص38-40.

[10]- حول هذه الحملات انظر: عبد الحميد، محمود: المرجع السابق، ص158، وما بعدها.

وأما فيما يتعلق بالنوبة، فإن الأوضاع كانت مستقرة هناك ولذلك فإن تحوتمس الثالث لم يُضطر لخوض حروب حقيقية فيها. ولكنه أمر بإنشاء العديد من المباني هناك، مثل معبد « عمدا » إلى الجنوب من أسوان، وقد كرسه لعبادة « أمون رع » و« رع حور أختي »، وشيد معبداً آخر في النوبة العليا كرسه للإله النوبي « ديدون خنوم » ([11]).

توفي تحوتمس الثالث في اليوم الثلاثين من الشهر الثالث من فصل الشتاء. وكما ذكر القائد « أمون – إم — حب » في مقبرته « صعد إلى السماء واتحد مع الإله رع واندمجت أعضاؤه الطاهرة مع الذي خلقها. فلما جاء اليوم الثاني أشرقت الشمس وأضاءت السماء، جلس على عرش أبيه الملك "عا خبرو . رع" (امنحوتب الثاني) واتخذ لنفسه الألقاب الملكية »([12]).

هذا وقد دفن تحوتمس الثالث في مقبرته في وادي الملوك. وخلفه على العرش ابنه امنحوتب الثاني.

6- امنحوتب الثاني 1436 – 1413ق.م :

كان قد بلغ الثامنة عشرة من عمره عندما توفي والده، وَوُلي عرش مصر مكانه. ولقد رُبي ونُشِّئ تنشئة عسكرية رياضية، فالكثير من المشاهد تصوره وهو طفل يتدرب على مختلف فنون القتال من رماية وفروسية وتجديف.

وما إن تولى العرش حتى سمع بتمرد بعض الحكام السوريين مستغلين وفاة تحوتمس الثالث، فاندفع نحو سورية على رأس جيشه ليقمع التمرد فيه ويعيد الأوضاع إلى ما كانت عليه زمن والده. ويذكر امنحوتب في النقوش التي خلد فيها حملاته على سورية، أنه أسر سبعة من الحكام السوريين من مقاطعة تاخسي، وأنه أعدم ستة منهم في طيبة وأرسل

[11]- مهران، محمد بيومي: تاريخ السودان، ص270-272.

[12]- فخري، أحمد: المرجع السابق، ص30.

السابع إلى مدينة نباتاً في الجنوب ليعدم هناك. ومن المؤكد أن إرساله إلى هناك كان بقصد تخويف النوبيين ومنعهم من التفكير بالتمرد.

توفي امنحوتب الثاني بعد أن حكم ثلاثة وعشرين عاماً وجلس بعده على العرش ابنه تحوتمس الرابع.

7- تحوتمس الرابع 1412 . 1405 ق.م :

يبدو أن العرش لم يكن من حقه، وأنه استولى عليه بعد أن دبر مكيدة ضد أخيه الأكبر ولي العهد. لذلك نراه في عام حكمه الأول يؤلف قصة أمر بنقشها على لوحة تعرف « بلوحة الحلم »، حاول من خلالها أن يسوّغ جلوسه على العرش ([13]). ولقد أثر استيلاؤه على العرش على علاقته مع كهنة الإله آمون الذين لم يوافقوه على فعلته، فاتجه نحو الإله رع وكهنته ليجد الدعم والسند لديهم. ونجده أيضاً يشجع على عبادة قرص الشمس « أتون »، هذه العبادة التي بلغت أوجها في عهد أخناتون. وكان أول أمر واجهه على الصعيد الخارجي، ثورة قامت في سورية ضد الوجود المصري، فتوجه إليها قامعاً الثورة، وعاد إلى مصر محملاً بالغنائم والأسرى الذين بنى لهم حياً خاصاً في طيبة. كما واجه تمرداً في الجنوب قضى عليه بعنف شديد.

وفي عهد تحوتمس الرابع، تم التوصل إلى سلام مع مملكة حوري – ميتاني وكان السبب وراء ذلك، ظهور خطر الحثيين الذين بدؤوا بمضايقة الحوريين من ناحية، ومحاولة التوسع في سورية من ناحية أخرى. وكان ثمرة هذا السلام، زواج تحوتمس الرابع من الأميرة الحورية الميثانية « موت مويا » التي أصبحت أماً للفرعون المقبل امنحوتب الثالث. وقد وردت أخبار هذا الزواج في رسائل العمارنة (EA 29).

---

[13]- انظر حول هذه اللوحة في: فخري، أحمد: المرجع السابق، ص306.

لم يطل حكم تحوتمس الرابع، إذ س .رعان ما توفي وهو شاب ودفن في مقبرته في وادي الملوك، ليجلس على عرش مصر من بعده ابنه امنحوتب الثالث 1405–1367 ق.م.

كان امنحوتب الثالث ابناً لتحوتمس الرابع من زوجته الميتانية، وعندما خشي أن تعيبه أجنبية أمه، ادعى وأنصاره أن الإله أمون أنجبه منها بنفسه أو من روحه بعد أن اصطفاها وارتضاها لذاته. وقد صور هذا الادعاء في لوحات فنية كبيرة بم عبد الأقصر، وبمراحل تشبه مراحل ميلاد حتشبسوت ([14]).

لم يكن هذا الملك ميالاً للحرب. وبما أنه ورث دولة مستقرة لا يو جد ما يهدد كيانها، فقد انصرف إلى حياة الدعة والسكينة واللهو. كما أنه التفت إلى بناء المنشآت الضخمة التي تزخر بمظاهر البذخ والترف الل تي كانت تتمتع بها مصر في ذلك الوقت. فشيد لأمون معبداً ضخماً في الجهة الغربية من طيبة وكان من الحجر الجيري، وزين جميع أجزائه بالذهب وجمّل أرضيته بالفضة ووضع فيه الكثير من التماثيل الملكية من جرانيت أسوان. وبنى لزوجته « تي » والتي كانت من عامة الشعب قصراً فخماً على الضفة الغربية من النيل بالقرب من معبده الجنائزي حوى على بحيرة كبيرة ([15]). وقد تزوج امنحوتب الثالث بعدد من الأميرات الميتانيات والكاشيات ([16]).

ونتيجة لانصرافه عن الاهتمام بالسياسة الخارجية، ولاسيّما الشؤون السورية، فقد بدأ النفوذ المصري بالتقلص هنا، خ اصةً مع ازدياد نشاط الملوك الحثيين وسعيهم الحثيث لفرض سيادتهم على سورية.

وتابع امنحوتب الثالث سياسة والده الدينية ولاسيّما فيما يتعلق بتحقيق التوازن بين الآلهة المصرية المختلفة. فجعل من أكبر أبنائه وولي عهده الأمير تحوتمس كبيراً لكهنة بتاح

---

[14]- صالح، عبد العزيز: المرجع السابق، ص208.

[15]- حول هذه المجموعة المعمارية انظر في: ريمس: المرجع السابق، ص172 وما بعدها.

[16]- قابلو: العلاقات السياسية والدبلوماسية، مجلة دراسات تاريخية، العددان 79-80، 2002، ص3 وما بعدها.

وكان مقره في منف. إلا أن هذا لم يَرُق لكهنة أمون رع. ولكن القطيعة النهائية بين القصر الملكي وكهنة أمون رع لم تحدث في عهده وإنما في عهد خليفته امنحوتب الرابع اخناتون.

8- امنحوتب الرابع اخناتون 1367 . 1350 ق.م :

في الوقت الذي كانت فيه مصر بحاجة إلى ملك قوي محارب يُعيد إليها هيبتها ونفوذها اللذين فقدتهما وخاصة في سورية، جاءها ملك شاب حالم ذو نزعة دينية عميقة، أراد إحداث تغييرات دينية في المجتمع المصري، مما خلق توتراً حاداً في هذا المجتمع، وزاد من مشاكل مصر الخارجية.

ولا بد من القول في البداية، إن امنحوتب الثالث عين امنحوتب الرابع ولياً للعهد وملكاً مشاركاً معه في الحكم، بعد وفاة ابنه الأكبر تحوتمس. ومن هذا الوقت بدأ امنحوتب الرابع بنشر دعوته حول عبادة الشمس مختاراً أحد مظاهرها وهو أتون، والذي عبَّر به عن القوة الكامنة في قرص الشمس، إلهاً له وأقام له معبداً على مقربة من الكرنك.

طبعاً هذا الاتجاه لم يرض كهنة أمون الأقوياء، وتصاعد الخلاف بينهم وبين الملك إلى أن وصل درجة القطيعة. فعمد الملك في العام الرابع من حكمه إلى تبديل اسمه، باسم يدخل في تركيبه اسم الإله أتون، فاختار اسم « أخناتون » والذي يعني « أتون راضي ». وكان لهذا التغيير مغزاه الكبير، فهذا يعني التخلي عن عبادة أمون الذي كان إلهاً لمصر كلها، والذي كانت تمثل عبادته الديانة الرسمية للدولة، وإحلال عبادة أتون محل عبادته. وأمر بأن يمحى اسم أمون من أي مكان يوجد فيه وأن تغلق معابده في كل مكان وتصادر أملاكها. ولكي يبتعد عن كهنة هذا الإله الأقوياء وتأثيرهم، فإن ه نقل مقر حكمه في العام السادس من توليه العرش إلى مدينة جديدة أمر ببنائها وأطلق عليها اسم « أخت أتن » أي « مشرق أتون ». ودعى أخناتون جميع الناس لعبادة هذا الإله

الجديد. وقام بتأليف مجموعة من الابتهالات والتراتيل التي تمجد الإله أتون. كما حدد مبادئ هذه الديانة بالنقاط التالية:

أولاً – الماعت: ومعناها الحقيقة أو العدل، وهو الأساس الذي قامت عليه هذه الديانة. وتتمثل بدعوة الناس إلى عدم المنافقة والمداهنة، وتسمية الأشياء بأسمائها وإظهار الأشياء على حقيقتها.

ثانياً– التوحيد: أي أن أتون هو الإله الوحيد الذي يجب أ ن عبد في البلاد، وحُرّمت عبادة أي إله آخر.

ثالثاً– عدم تصوير الإله أتون بأية صورة من الصور الإنسانية أو الحيوانية. وتصويره فقط على شكل قرص الشمس الذي تعطي أشعته الحياة للناس أجمعين.

رابعاً– كان إخناتون هو المعلم الوحيد والملهم لهذه الديانة وهو المفسر لتعاليمها.

خامساً– لم يكن هذا الإله حكراً على المصريين. بل كان إلهاً للجميع. وكانت رحمته تطال غير المصريين كما تطال المصريين.

سادساً– إن معابد هذا الإله يجب أن تكون مفتوحة على السماء حتى يغمرها ضوء الشمس طوال النهار.

سابعاً– لم يكن لهذا الإله زوجة كما لم تكن له كاهنات ([17]).

من المؤكد أن كهنة أمون واجهوا سياسة أخناتون بمعارضة شديدة، مستخدمين في ذلك كل ما يملكونه من نفوذ في أوساط الشعب المصري، إلى جانب قوتهم الاقتصادية الكبرى، الناجمة عن غنى المعابد التي كانوا يسيطرون عليها ([18]). وساعدهم على تحقيق أهدافهم سوء الأحوال العامة في مصر نتيجة انشغال الفرعون بأمور الديانة الجديدة، وما

---

[17]- حول هذه الديانة انظر في: إرمان، أدولف: ديانة مصر القديمة، ترجمة: عبد المنعم أبو بكر ومحمد أنور شكري، القاهرة 1997، ص125 وما بعدها.

[18]- عبد الحميد، محمود: أخناتون وبلاد الشام السلطة والمعارضة، دراسات تاريخية، العددان 51-52، 1995.

نتج عنها من مشكلات داخلية وإهماله لشؤون إمبراطوريته التي كان يتدفق منها الثروات الكثيرة إلى البلاد وخاصة من سورية والنوبة.

وقد حاول الكثيرون من المخلصين تنبيه أخناتون إلى مدى سوء الأوضاع في البلاد وخارجها. وكان آخر هؤلاء أمه الملكة « تي » التي زارته في عاصمته آخت أتون، محذرة إياه من سوء الأوضاع وداعية إياه إلى التخفيف من حربه على كهنة الإله أمون ، وقد أدت هذه الزيارة إلى نتائج إيجابية، فبدأ أخناتون محاولة للتصالح مع كهنة أمون ، ولكن هؤلاء عندما شعروا بضعف موقف الملك ازدادوا في تصلبهم تجاهه.

ولقد أدى هذا التراجع النسبي في موقف أخناتون، إلى خلاف بينه وبين زوجته «نفرتيتي» التي كانت من أشد المتحمسين لعبادة أتون. وقد وصل الخلاف إلى حد أن هجر كل منهما الآخر، فبقي أخناتون في القصر الملكي، وعاشت نفرتيتي في قصر آخر في العاصمة اخت أتون ([19]).

ولقد جاء القدر إلى جانب كهنة أمون، إذ سرعان ما توفي أخناتون. ولم يكن الملوك الذين حكموا من بعده من المتحمسين لديانته، فسرعان ما انقلبوا عليها وعادت الأمور إلى ما كانت عليه في السابق.

9- مصر بعد أخناتون :

لقد خلف الزوجان الملكيان أخناتون ونفرتيتي ست بنات كان لاثنتين منه ن دورٌ في الأحداث التي جرت أواخر سنوات حكم أخناتون وبعد وفاته.

أما الأولى فهي كبرى بناته « مريت أتون » بمعنى « محبوبة أتون » وهي التي حلت محل أمها كزوجة لإخناتون بعد خلافه مع زوجته. وعادت هذه وتزوجت فيما بعد من الأمير سمنخ كا رع والذي يرى فيه الب .عض شقيقاً لأخناتون، على أمل أن يرثه على العرش. ولكن سمنخ كا رع توفي قبل أخناتون. وأم .ا الأميرة الثاني.ة فهي « عنخ اس ان با

[19]- نور الدين: المرجع السابق، ص181-182.

أتون » التي زوجها والدها من أمير آخر هو « توت عنخ أتون » ليكون وريثه في الملك ([20]).

وبالفعل، ما إن توفي إخناتون، حتى أُعلن توت عنخ أتون ملكاً على مصر. وبما أنه كان طفلاً لم يتجاوز الثانية عشرة من ع م ره، فقد وقع تحت تأثير كبار رجال الدولة والذين كانوا من أنصار عبادة الإله أمون. فأصدر الملك الجديد مجموعة قرارات نصت على إلغاء عبادة الإله أتون، وحذف اسم أتون من اسمه، واستبد اله باسم الإله أمون، وأمر بأن ترمم معابد هذا الإله وأن تعاد إلى هذه المعابد ممتلكاتها السابقة.

مات توت عنخ أمون ولم يتجاوز العشرين من عمره، ودفن في مقبرة صغيرة في وادي الملوك، وهي المقبرة التي عُثر فيها على المجموعة الأثرية الرائعة المعروضة الآن في متاحف عالمية عدة ([21]).

ومع موته، حدث أمر غريب، إذ أرسلت أرملته رسالة إلى الملك الحثي تطلب منه أن يرسل لها أحد أبنائه ليتزوجها وليكون ملكاً على مصر ، وبعد مراسلات عديدة بين القصرين وافق الملك الحثي على إرسال أحد أبنائه إلى مصر. ولكن الأمير الحثي لم يصل إلى مصر مطلقاً، حيث قُتل في سورية، مما أثار حزناً شديداً لدى والده، وتجددت الحرب بين الدولتين بسبب ذلك ([22]).

وبالتأكيد، فإن كبار رجال الدولة وقادة الجيش لم يكونوا موافقين عن هذه المسألة، لذلك فربما هم الذين كانوا وراء قتل الأمير الحثي.

وأصبح عرش مصر من نصيب قائد الجيش المدعو « آي ». الذي كان زوج.اً ل « تي » مرضعة نفرتيتي، وربما تزوج بعد ذلك من أرملة توت عنخ أمون ليكسب الصبغة

---

[20]- سامسون، جوليا: نفرتيتي، تر جمة: مختار السويفي، الدار المصرية اللبنانية ، ط1، 1992، ص200-201.

[21]- حول هذه المقبرة انظر بتوسع في: ريمس: المرجع السابق، ص162-165.

[22]- حول هذا الموضوع انظر: قابلو: العلاقات السياسية والدبلوماسية، ص17-21.

الشرعية لحكمه. إلا أن حكم هذا الملك لم يتجاوز ثلاث سنوات، جلس على العرش بعدها قائد آخر للجيش هو حور محب.

10– حور محب 1335 – 1308 ق.م :

كان قائداً للجيش منذ أيام توت عنخ أمون. ولما لم يكن لدى آي وريث للعرش، وكانت البلاد بحاجة إلى يد قوية تعيد إليها أمنها الداخلي وهيبتها ونفوذها الخارجيين، فقد وقع الاختيار على حور محب. الذي تزوج من إحدى أميرات البيت المالك السابق وهي الأميرة « موت نزم ».

لقد أولى حور محب الأوضاع الداخلية اهتمامه الأكبر، فأصدر مرسوماً منذ البداية نظم من خلاله أمور القضاء والجيش والإدارة، وسلم المناصب العليا في الدولة إلى القادة العسكريين ونقل العاصمة إلى مدينة منف ([23]).

وأما على الصعيد الخارجي فقد قام حور محب بعدة حملات إلى سورية استهدفت إعادة النفوذ المصري إلى هذه المنطقة من ناحية وتقوية حدود بلاده الشمالية من ناحية أخرى ([24]).

توفي حور محب عام 1308 ق.م بعد أن حكم نحو سبعة وعشرين عاماً، وبوفاته تنتهي الأسرة الثامنة عشرة ويبدأ عصر الأسرة التاسعة عشرة.

ثانياً– الأسرة التاسعة عشرة :

إن النشاطات المتعددة التي قام بها حور محب على الصعيدين الداخلي والخارجي مهدت السبيل أمام فترة ازدهار جديدة عاشتها مصر أيام الأسرة التاسعة عشرة.

وأما أول ملوك هذه الأسرة فهو رعمسيس الأول، الذي كان حور محب قد عينه في منصب الوزير وقائد الجيش وكخليفة له. وعندما اعتلى رعمسيس العرش كان في سن

---

[23]- حول هذه الإصلاحات انظر: فخري، أحمد: المرجع السابق ص354-355.

[24]- السعدي: المرجع السابق، ص46.

متقدمة ولذلك فإن الحاكم الفعلي كان ابنه « سيتي » ورغم قصر الفترة التي حكمها رعمسيس الأول، إلا أنه استمر في السير على سياسة سلفه، فاستمر بالتقرب من كهنة أمون، وبدأ بإنشاء بهو الأعمدة الكبير في الكرنك، وأنشأ معابد أخرى في مرف وبدأ بتشييد قبر له في وادي الملوك.

1- سيتي الأول 1307 . 1291ق.م :

كان هذا الاسم كثير التداول بين أفراد الأسرة التاسعة عشرة وهو يدل بصراحة على صلات هذه الأسرة بعبادة الإله ست في مدينة تانيس.

وقد نشأ سيتي الأول كأبيه في الوسط العسكري، وتدرج في المراتب العسكرية إلى أن وصل إلى أعلاها. فهو كان قائداً للفرسان، وشغل مناصب مدنية وعسكرية في عهد حور محب، وكان الساعد الأيمن لأبيه في الفترة التي استلم فيها العرش.

ومنذ جلوسه على العرش ركز جهوده على سورية، فما إن انتهت عملية التتويج حتى سمع عن تمرد أو ثورة قام بها « الشاسو » فوجه قواته إلى سيناء وفلسطين، وربما تابعت هذه القوات طريقها إلى لبنان، فالنقوش التي خلفها عن هذه الحملة تصور أمراء لبنانيين يقطعون شجر الأرز من أجله. وأثناء وجوده في سورية، سمع سيتي الأول بأخبار ثورة على الحدود الغربية لمصر، فتوجه من فوره إلى هناك وحارب القبائل المنتشرة على طول هذه الحدود وسجل أخبار هذه الحملة على جدران معبد الكرنك ([25]).

ولما كان هدفه الأساسي كما أشرنا قبل قليل سورية، فإننا نراه يقوم بترميم وإصلاح الحصون الواقعة على الطريق الحربي القديم أو كما يسمى طريق حوروس، وهو الطريق الذي يمتد من القنطرة الحالية شرقي مصر حتى رفح ([26]).

---

[25]- سليم، أحمد أمين: في تاريخ الشرق، ص162-163.

[26]- فخزي، أحمد: المرجع السابق، ص358.

Damascus University

تقدم بعد ذلك مرة أخرى نحو سورية ووصل إلى قادش، حيث اشتبك مع القوات الحثية، وبالاستناد إلى ما دونه على جدران معبد الكرنك فإنه عاد إلى مصر محملاً بالغنائم والأسرى ، وبالمقابل فإن المصادر الحثية تشير إلى هذه الحرب وتذكر انتصار القوات الحثية بها. ولم تجر في عهده أحداث مهمة في منطقة النوبة. وهذا دليل على أن الوجود المصري في هذه المنطقة أصبح واقعاً مفروضاً ([27]).

وأما فيما يتعلق بسياسته الداخلية، فقد حرص سيتي الأول على إعادة إعمار ما خرب من معابد أثناء فترة العمارنة، وبنى معبداً للإله أوزير في أبيدوس، وبنى معبداً جنائزياً لنفسه في القرنة عند مدخل وادي الملوك. وبنى لنفسه في هذا الوادي مقبرة تعد من أجمل المقابر الملكية بنقوشها وتزييناتها ([28]).

وعلى صعيد تثبيت الأمن، فقد أصدر سيتي الأول مرسوماً ضمنه عقوبات شديدة على كل من يحاول انتهاك الأمن الداخلي للبلاد ([29]).

توفي سيتي الأول بعد أن حكم نحو خمسة عشر عاماً وخلفه على العرش ابنه رعمسيس الثاني.

2– رعمسيس الثاني 1290 ـ 1244 ق.م :

كان رعمسيس الثاني الابن الأصغر لسيتي الأول، ولكن وفاة أخ يه الأكبر، جعلت ولاية العرش تؤول إليه. وقد ورث رعمسيس الثاني عن والده دولة وطيدة الأركان، مرهوبة الجانب من أعدائها الخارجيين، لكنه بهمته ونشاطه زاد من قوتها وعظمتها إلى أن بلغت الأوج.

---

[27]- مهران، محمد بيومي: تاريخ السودان، ص284.

[28]- بيكي، جيمس: الآثار المصرية في وداي النيل، ج 3، ترجمة: لبيب حبشي وشفيق فر يي، 1993، ص185-188.

[29]- صالح، عبد العزيز: المرجع السابق، ص229.

Damascus University

ابتدأ رعمسيس الثاني حكمه بالاهتمام باستثمار مناجم الذهب في الصحراء الشرقية. وفي العام الثاني من حكمه، تصدى لهجوم قامت به طلائع شعوب البحر الذين أطلقت عليهم حولياته اسم الشردانة (لعلهم سكان سردينيا من بعد). وفي سبيل مراقبة الحدود الغربية بنى حصناً عند العلمين الحالية ووضع فيه حامية عسكرية لمراقبة هذه الحدود.

بعد أن رتب رعمسيس الثاني أموره الداخلية وأمن حدوده الغربية وجه أنظاره إلى سورية، فقام في العام الرابع من حكمه بحملة استطلاعية وصلت به إلى مصب نهر الكلب إلى الشرق من بيروت. حيث أمر بوضع نصب يخلد وصوله إلى هذا المكان.

إن المعركة الهامة التي كان يتحضر لها الطرفان المصري والحثي من أجل حسم مسألة السيادة على سورية، جرت في العام الخامس من حكم رعمسيس الثاني، ففي هذا العام جهز الملك المصري حملة ضخمة مؤلفة من أكثر من عشرين ألف جندي، قسمهم إلى أربع فرق تحمل أسماء الآلهة المصرية الرئيسة أمون ورع وست وبتاح، إلى جانب فرق من السوريين الموالين لمصر. وقد سار رعمسيس في مقدمة جيشه على رأس فرقة الإله أمون والحرس الملكي الخاص، متقدماً باقي فرق الجيش، ووصل إلى بلاد كنعان، ثم اتجه شمالاً بمحاذاة البحر وصولاً إلى شمالي بيروت ومن هناك انحرف نحو الداخل حتى وصل إلى وادي العاصي.

وبالمقابل جمع الملك الحثي موآتيلي جيوشه وحلفاءه السوريين، وعلى رأسهم كركميش وقادش وحلب ونوخاشي وأوجاريت وغيرهم، وحشدهم إلى الشمال من قادش. وقدر عدد أفراد هذه القوات بنحو خمسة وثلاثين ألف جندي.

وقد أراد رعمسيس الثاني أن تجري المعركة في سهول حلب التي أراد الوصول إليها متجاوزاً لقادش. إلا أن الحثيين جهزوا كمائنهم في هذه المنطقة بالتحديد، مما أربك القوات المصرية وجعلها في موقف حرج. ولكن الهجوم الجريء والشجاع الذي قاده الملك المصري بنفسه جعله يخرج من طوق الحصار الذي فرض عليه. ومع وصول باقي فرق

الجيش المصري، وخاصة الموالين السوريين، بدأت موازين القوى تتعادل بين الطرفين، مما أنقذ الملك المصري من هزيمة مخجلة وربما من الوقوع في الأسر ([30]).

وعندما عاد رعمسيس الثاني إلى مصر أمر بنقش العديد من الكتابات التي تخلد هذه المعركة وبطولته والنصر الذي ادعى إحرازه ([31]).

وبالمقابل فإن الحثيين عند ر وايتهم في مصادرهم لأخبار هذه المعركة، فإنهم ينكرون أي نصر للمصريين، ويقولون إن رعمسيس الثاني لما يئس من النصر ترك أرض المعركة عائداً إلى بلاده ([32]).

ولكن يبدو أن المعركة انتهت دون تحقيق نتيجة حاسمة لأي من الطرفين. فالمصريون الذين كانوا يرغبون بالاستيلاء على قادش فشلوا في تحقيق ذلك. وبالمقابل نرى أن أمورو التي كانت في السابق خاضعة للحثيين، تحارب إلى جانب المصريين، ولكنها بعد المعركة عادت مجدداً لتدور في فلك النفوذ الحثي.

ولما كان رعمسيس الثاني غير قانع بالنتائج التي ترتبت على هذه المعركة، فإنه عاد مجدداً إلى سورية في عام حكمه الثامن بعد سماعه أخبار ثورة قامت في فلسطين، ونقرأ على جدران معبد الرمسيوم إشارات قليلة إلى البلاد التي وصل إليها في حملته هذه إلى جانب بلاد أخرى خضعت له من أمثال ختيا ونهارينا ورتنو وقطنا وكريت وقبرص ([33]).

ونتيجة لظهور أوضاع محلية ودولية جديدة، أهمها ازدياد القوة الآشورية، التي بدأت بمحاولة التوسع غرباً (نحو سورية)، وعدم حل مشكلة القبائل الكاسكية (بالنسبة للحثيين)، والتحركات المقلقة للقبائل التي كانت تعيش على جزر الحوض الشرقي للمتوسط، هذه التحركات التي كانت تشكل خطراً على الدولتين المصرية والحثية. كل

---

[30]- السعدي، حسن: المرجع السابق، ص48-49.
[31]- حول هذه النصوص أنظر: صالح، عبد العزيز: المرجع السابق، ص236.
[32]- العلاقات السياسية والدبلوماسية، ص70.
[33]- فخري، أحمد: المرجع السابق، ص372.

Damascus University

ذلك دفع الطرفين لتوقيع اتفاق سلام ينهي حالة الحرب السائدة بينهما ويحل السلام محلها.

وكالعادة فقد دعم هذا الاتفاق بزواج ملكي ، فالملك الحثي خاتوشيلي الثالث أرسل كبرى بناته لتكون زوجة لرعمسيس الثاني ([34]).

وأما عن أعمال رعمسيس الثاني العمرانية، فلا بد أن المدينة التي أنشأها وأعطاها اسمه « بر رعمسيس مري آمون » أي « بيت رعمسيس محبوب أمون » تعدّ من أهم هذه المنشآت، وقد اتخذ منه ا مقراً له، من دون إهمال العواصم المصرية التقليدية منف وطيبة.

أما أشهر آثاره المعمارية الدينية، فهي ما شيده في أبيدوس وطيبة وخاصة معبد الرمسيوم ومعبده الكبير في « أبو سمبل » وهناك المعبد الصغير الذي كرسه لعبادة الآلهة حاتحور ولزوجته الرئيسة نفرتاري. وأجمل ما في هذه المعابد هي التماثيل الضخمة التي نُحتت له ولزوجته والتي زاد ارتفاع بعضها عن العشرين متراً ([35]).

تزوج رعمسيس الثاني في حياته الطويلة الكثير من الزوجات ورزق بعدد كبير من الأبناء. وكان العرش من بعده من نصيب ابنه مرنبتاح.

3- مرنبتاح 1224 . 1214 ق.م :

كانت المهمة الأساسية التي واجهته هي التصدي لهجوم شعوب البحر الذي ن نزل قسم منها على السواحل الليبية، وحاولت من هناك مهاجمة الأراضي المصرية، وكان ذلك في العالم الخامس من حكمه. وقد تألف المهاجمون من حلف جمع خمس جماعات هي

---

[34]- قابلو، جياع: العلاقات الدبلوماسية والسياسية..، ص21-25.

[35]- حول هذه الآثار انظر: ريمس: المرجع السابق، ص141 وما بعدها.

الإكوش والتورشا والروكي والشروانة والشردانة. وقد تزعم المهاجمين شخص اسمه دير زعيم قبائل الليبو ([36]). وقد تمكن مرنبتاح من إلحاق الهزيمة بهذا التحالف.

وفيما يتعلق بسورية، فقد أرسل مرنبتاح حملة إلى هنا في تاريخ غير محدد بدقة، بهدف قمع الاضطرابات التي قامت في فلسطين وتثبيت النفوذ المصري.

4- خلفاء مرنبتاح ونهاية الأسرة التاسعة عشرة:

خلف مرنبتاح على العرش ابنه « سيتي مرنبتاح » والذي يعرف عادة باسم سيتي الثاني، وقد حكم ست سنوات، وبالرغم من ضعفه والجو المضطرب الذي حكم خلاله، فقد تمكن من تشييد عدد من المعابد.

وقرب نهاية حكم الأسرة الت .اسعة عشرة تولت زم .ام الأم .ور في البلاد الملكة «تاوسرت» التي حكمت سنوات قليلة، ثم أصاب الوهن الأسرة، وتدهورت الأوضاع، ونجح في ظل هذه الأوضاع شخص من أصل سوري يدعى « إرسو » في الإمساك بزمام الأمور في البلاد ([37]). إلى أن تمكن شخص يدعى « ست نخت » من الاستيلاء على الحكم، لتنتهي الأسرة التاسعة عشرة ولتبدأ أسرة جديدة هي الأسرة العشرون.

ثالثاً- الأسرة العشرون :

مؤسس هذه الأسرة هو ست نخت كما أشرنا آنفاً. ولكنه كان طاعناً في السن، ولذلك فإنه قدم ابنه ليتولى القيادة الفعلية في البلاد. وقد دون هذا الابن الذي عرف باسم رعمسيس الثالث حالة البلاد وظروف تسلم والده السلطة على بردية تعرف الآن باسم بردية هاريس ([38]).

---

[36]- يايلنكو، ف.ب: بلاد الإغريق القديمة والشرق الأدنى، موسكو، 1990، ص123.

[37]- نور الدين: المرجع السابق، ص197.

[38]- حول محتوى هذه البردية انظر: صالح، عبد العزيز: المرجع السابق، ص243.

ولا نعرف الشيء الكثير عن ست نخت هذا، سوى أنه والد رعمسيس الثالث، وأنه اغتصب مقبرة تاوسرت التي ذكرناها آنفاً ودفن فيها، وقد عُثر على تابوته في مقبرة امنحوت الثاني ولم يُعثر على مومياءه ([39]).

1- الملك رعمسيس الثالث 1182 . 1150ق.م :

لقد كان عصر هذا الملك عصر قوة بين عصرين فاسدين، فمصر تمكنت خلال عهد هذا الملك من التصدي لمخاطر خارجية كبيرة تعرضت لها، كما أنه أعاد إليها الأمن والاستقرار الداخليين . وتمثلت المخاطر الخارجية التي تعرضت لها مصر بهجوم القبائل الليبية من جهة الغرب، وتوغل القبائل السورية مع شعوب البحر من ناحية الشرق.

لقد دوّن رعمسيس الثالث أخبار حملاته وحروبه على جدران معبد مدينة هابو، وكانت الحرب الكبرى الأولى التي خاضها في العام الثالث من حكمه وجابه فيها القبائل الليببية التي تذكرها نقوش معبد هابو باسم الليبو والسبد والماشوش والقبيلتان الأخيرتان من القبائل الهنود أوربية التي نزلت الشاطئ الليبي وحاولت دخول مصر من هناك ([40]).

وخلال العام الثامن من حكمه تعرضت مصر لهجومين من شعوب البحر أحدهما كان هجوماً برياً والآخر بحرياً.

فشعوب البحر التي اجتاحت الإمبراطورية الحثية وأزالتها من الوجود وانحدرت جنوباً نحو سورية، وصلت إلى الحدود المصرية محاولة اختراق هذه الحدود، لكن قوات رعمسيس الثالث كانت لهم بالمرصاد، وتمكنت من إلحاق الهزيمة بهم ومنعهم من الدخول إلى الأراضي المصرية عنوة. ([41])

أما الحرب الأخيرة التي خاضها رعمسيس الثالث مع هذه الشعوب فكانت في العام الحادي عشر من حكمه. ففي هذا العام هاجمت مجموعة من شعوب البحر مصر مجدداً

---

[39]- عبد الحميد، محمود: المرجع السابق، ص219.
[40]- فخري، أحمد المرجع السابق، ص389-391.

من حدودها الغربية بزعامة شخص اسمه « مشر » ولكنت القوات المصرية تصدت لهم وهزمتهم وأسرت قائدهم. ويرد في بردية هاريس قول رعمسيس الثالث « أنا أهلكت "DNN" على جزرهم » ([42]) فهل هذا يعني أن رعمسيس الثالث قد لاحق شعوب البحر حتى مواطنها في جزر البحر المتوسط؟.

أما عن حروبه في سورية فباستثناء تصديه لشعوب البحر على الحدود المصرية الفلسطينية، فإن مدوناته تذكر حروباً خاضها ضد الأمراء السوريين في سبيل توطيد النفوذ المصري. ففي نص يؤرخ بالعام الخامس من حكمه يذكر « ملك أمور الذي أصبح رماداً »([43])

بعد الانتصارات العظيمة التي حققها رعمسيس الثالث على أعداء مصر في الخارج، فإنه انصرف إلى الاهتمام بالمشاريع العمرانية. فبنى معبدين يعتبران من أكمل المعابد المصرية التي وصلتنا. وقد بنى المعبد الأول في مدينة هابو وكرسه لعبادة أمون، والثاني في شرقي طيبة وكرسه للاحتفال بعيد جلوسه على العرش وللاحتفال بأعياد أمون. ([44])

إن الحروب الكثيرة التي خاضها هذا الفرعون ورغم ما جلبته للبلاد من ثروات إلا أنها كانت ذات كلفة كبيرة، وزاد من وطأة الأزمة الاقتصادية كلفة مشاريع البناء التي قام بها الملك، إلى جانب التحول الاقتصادي الهام الذي بدأ يشهده العالم في ذلك الوقت والمتمثل بالانتقال من عصر البرونز إلى عصر الحديد الذي لم يكن متوافراً في مصر، ومن ثم كانت الدولة المصرية مضطرة للحصول عليه من الخارج وبكلفة مادية عالية. ([45])

وقد انتهت حياة رعمسيس قتلاً، نتيجة مؤامرة دبّرتها نساء من القصر باتفاق مع كبار الموظفين. ولكن أكبر أبنائه تمكن من القضاء على المؤامرة والجلوس على العرش

---

[41]- حول نصوص هذه المعركة انظر في صالح، عبد العزيز، المرجع السابق، ص244-245.

[42]- يايلنكو : المرجع السابق، ص 124.

[43]- كلينغل : تاريخ سورية السياسي ص 205

[44]- حول معبد هابو، انظر نيمس : المرجع السابق، ص 178 وما بعدها.

[45]- سعد الله، محمد علي : المرجع السابق، ص 154-155.

المصري تحت اسم رعمسيس الرابع، وقد عمل هذا الملك على تشكيل محكمة حكمت على ولي العهد المتآمر مع ثلاثة آخرين بالإعدام، وحكم على أشخاص آخرين بجدع الأنف وصلّ الأذنين وأما الملكة الأم التي كانت وراء المؤامرة فلا نعلم الحكم الذي صدر بحقها. ([46])

2- خلفاء رعمسيس الثالث :

خلف رعمسيس الثالث ابنه رعمسيس الرابع الذي أكّد حقّه في الجلوس على العرش في لوحته الموجودة في ابيدوس « أنا الملك الشرعي لم أغتصب العرش، أنا في المكان الذي انجبني كما كان ابن ايزيس ».

ولكن أوضاع مصر في عهده وعهد من جاء بعده من الرعامسة (حمل ثمانية ملوك حكموا بعد رعمسيس نفس الاسم) استمرت بالتدهور بسبب ازدياد سلطان الكهنة وعدم قدرة هؤلاء الملوك على إيقاف التدهور الاقتصادي الذي بدأ في عهد رعمسيس الثالث. وقد أهمل هؤلاء الملوك إلى حد كبير إدارة شؤون البلاد، وتركوها بأيدي الوزير، الذي كان يشرف على هذه الإدارة من مدينة منف، في حين أن الملوك كانوا يقيمون في قصورهم في شرقي الدلتا. وقد انعكس تدهور السلطة الملكية في الداخل على نفوذ مصر في الخارج، وخاصة في سورية التي بدأ يتراجع عنها تدريجياً في فلسطين، وفي النهاية خرجت حتى فلسطين عن دائرة النفوذ المصري. في حين حافظت مصر على نفوذها في النوبة كما كان في العهود السابقة وتذكر أخبار الرعامسة المتأخرين غارات شنتها القبائل الليبية (الليبو والمشوس) على المناطق السكنية والزراعية حتى إنهم وصلوا إلى مناطق قريبة من طيبة نفسها. واستوطنت جماعة منهم في جنوبي الفيوم، وهم الذين خرج منهم ملوك الأسرة الثانية والعشرين ([47]).

---

[46]- حول هذ الموضوع انظر مهران، محمد بيومي : الحضارة المصرية، ص175 وما بعدها.

[47]- هبو، أحمد أرحيم : المرجع السابق، ص251.

وإذا ما ألقينا نظرة على أهم ما يرد في المصادر المصرية عن أفعال هؤلاء الرعامسة، لوجدنا أن أهم ما يذكر لرعمسيس الرابع بعض إنشاءات لمعابد. وأما من عهد خليفته رعمسيس الخامس فأهم ما وصلنا بردية ولبور، وتنبع أهمية هذه البردية من اعتبارها مصدراً هاماً لدراسة الضرائب وتقسيم الراضي في عصر الدولة الحديثة. ([48])

أما خليفته رعمسيس السادس فقد حكم أربع سنوات فقط وترك اسمه على الكثير من الآثار في مصر وشمال السودان. وتلاه كل من رعمسيس السابع والثامن وكانت أياماً سوداء مرت على مصر في عهديهما. أما أهم ما حدث في عهد رعمسيس التاسع فكان بدء التحقيق في سرقة مقابر الملوك الموجودة في وادي الملوك. وكانت أهم شخصية في هذه التحقيقات، كبير كهنة أمون أمنحوتب، الذي كان يتمتع بنفوذ كبير في طيبة، وحصل من رعمسيس التاسع على حق جباية أموال الضرائب عن طريق كتبة المعابد وليس كبتة الدولة، مما أدى إلى دخول إيرادات الضرائب هذه إلى خزانة المعابد دون المرور على خزانة الدولة، وحسب ما تشير إليه وثائق هذا العصر فإن أمنحوتب هذا حاول القيام بثورة ضد رعمسيس الحادي عشر ولكن نائب الملك في كوش المدعو » بنحسي « تمكن من وضع حد لحركة أمنحوتب. وخلف حريحور أمنحوتب في منصب كبير كهنة أمون في طيبة ويبدو أن من نصّبه في هذا المنصب كان بنحسي وجنوده. وقد أصبح حريحور إضافة إلى هذا المنصب مديراً للخزانة وقائداً للجيش. ومع وفاة رعمسيس الحادي عشر أعلن حريحور نفسه ملكاً على البلاد، واعتُبر مؤسساً لأسرة جديدة هي الأسرة الحادية والعشرون. ولكننا قبل الدخول في هذه الأسرة فإننا سنتوقف لنلقي نظرة على أهم جوانب الحياة العامة في مصر القديمة في عهد الدولة الحديثة.

رابعاً- الملكية والإدارة الحكومية :

---

[48]- فخري، أحمد : المرجع السابق، ص400.

عادت الملكية في عصر الدولة الحديثة إلى قوتها وسطوتها السابقة التي كانت تتمتع بها أيام الدولة القديمة. واستطاع ملوك هذه الدولة أن يكوّنوا لمصر إمبراطورية واسعة امتدت في بعض الفترات من نهر الفرات شمالاً حتى الشلال الرابع جنوباً. وقد اعتبر الناس أن الفضل في تكوين هذه الإمبراطورية يرجع إلى الإله الملك الذي قاد الجيوش في المعارك وإلى الإله أمون الذي بارك هذه الحروب، وأعار سيفه وعلمه الإلهي إلى الملك لكي يقود طريقهم في المعركة. ([49])

وبفضل الهدايا الكبيرة من الأراضي والمحاصيل والغنائم التي قدمها ملوك هذه الدولة إلى معابد الإله أمون، فقد تمتع كهنة هذا الإله بمكانة عالية ودور كبير في المجتمع المصري القديم. وبفضل الانتصارات الكبيرة التي حققها الجيش فقد ازدادت مكانة أفراده وخاصة كبار قادته وضباطه وأصبحوا يشكلون طبقة هامة في المجتمع المصري، ولاسيّما مع شغل بعض هؤلاء القادة وظائف مدنية كبيرة. لكن رغم ازدياد دور الكهان وقادة الجيش، إلا أن ذلك لم ينقص من دور الملوك وخاصة الملوك الأقوياء منهم، فقد كان الملك على رأس الكهانة و الإدارة المدينة و الجيش وهو يعتمد في ذلك على مركزه المقدس كابن للإله أمون رع. وتأكدت كذلك قدسية الملك المصري بوصفه إلها عندما جرت العادة منذ أيام الأسرة الثامنة عشرة بأن يتزوج الملك من سيدة تحمل لقب « الزوجة الإلهية لأمون » وهو لقب كان يعطى لابنة الملك التي اختيرت لتصبح فيما بعد ملكة، وبذلك تتأكد صفتها الملكية الخاصة على أساس أنها تنحدر من دماء ملكية خالصة، وهكذا يصبح ولدها حاكماً شرعياً من ورثة أمون، رب طيبة وصاحب مصر وسلطان الإمبراطورية جمعاء. ([50])

وبفضل هذه الألوهية التي كان يتمتع بها الملك، فإنه كان يعتبر حاكماً مطلقاً على البلاد، فهو المشرف على جميع إدارات الدولة من الجيش إلى الشرطة والقضاء، فهو الذي

---

[49]- مهران، محمد بيومي : الحضارة المصرية، ص146.
[50]- سليم، أحمد أمين : حضارة مصر القديمة، ص 122.

يعين القضاة بوصفه القاضي الأعلى، وهو الذي كان يعين رجال الدين في مناصبهم إلى جانب مسؤولياته الأخرى.

وظلت الشخصية الثانية بعد الفرعون، هي شخصية الوزير. ولكن ما يميز عصر الدولة الحديثة، هو وجود أكثر من وزير في الوقت نفسه، فهناك الوزير المقيم في طيبة عاصمة الدولة إلى جانب الفرعون، وكان يشرف على المنطقة الممتدة من أسوان في الجنوب إلى أسيوط في الشمال. بينما كان هناك وزير آخر يقيم في منف ويشرف على الوجه البحري والصعيد جنوباً حتأسيوط. ومن المعلوم أن منف كانت مقراً لقيادة بعض فرق الجيش وولي العهد.

ومن خلال النقوش المدونة على مقبرة الوزير « رخميرع » وزير تحوتمس الثالث، يتبين لنا أن الملك عندما كان يعين وزيراً فإنه كان يزوده بنصائحه وإرشادته ويبين له واجباته والكيفية التي يجب عليه أن يدير شؤون منصبه بها « تطلع إلى منصب الوزير هذا وكنْ يقظاً لكل ما يحدث فيه، فهو عماد الأرض كلها، لاحظ أنه ليس بالمنصب الهين، ولكنه مر المذاق..." وهو لا يعني " (مجرد) تقدير الذات واحترام الرؤساء ورجال البلاط، وليس الغرض منه أن يستعبد الوزير أفراد من الشعب...، فإذا قصدك شاك من الصعيد أو الدلتا أو من أي بقعة في الأرض، فعليك أن تتأكد من أن كل شيء يجري وفقاً للقانون والعرف وامنح كل ذي حق حقه...، ولاحظ أن من يلي منصباً كبيراً يردد الهواء والماء كل مايفعله ولا يمكن أن تستمر تصرفاته خافية..، تصرف وفقاً للعدل فالمحاباة يمقتها الرب...»([51])

وظل الوزير رأس كل الإدارات في البلاد وكان له مندبون يعملون كصلة وصل بينه وبين هذه الإدارات، ويقدمون له تقارير دورية عما يجري في البلاد. كما اختص الوزير بالإشراف على بعض النواحي الحربية، فكان من مهماته تنظيم أمور الحاميات الموجودة

---

[51]- صالح، عبد العزيز: المرجع السابق، ص209.

في البلاد التابعة لمصر، كما يتلقى تقارير القلاع والحصون عن أحوالها وعن تحركات العدو، وكان يدير شؤون البحرية باعتبارها جزءاً من الجيش. وتمتع بعض الوزراء بميزات خاصة فالوزير « رخميرع » كان مكلفاً بالإشراف على أملاك معبد الإله أمون وعلى معابد الآلهة الأخرى أيضاً. ([52])

أما عن الإدارة العامة للدولة، فقد كانت هناك الحكومة المركزية القوية التي تسيطر على البلاد وتتبع نظاماً ثابتاًو تخضع البلاد جميعاً لنظمها و قوانينها. وأصبحت الوظائف في الأقاليم تتكون أساساً من العمد أو رؤساء المدن، ويطلق القوم عليها اسم « حاتي عا » للمدن الرئيسية، وتمتد دائرة اختصاص هؤلاء العمد على المدن نفسها فضلاً عن مرافئهاعلى النيل والمنطقة الزراعية المحيطة بالمدينة. وكان هؤلاء مسؤولين أمام مكتب الوزير مباشرة وكان عليهم جمع الضرائب ونقلها، فضلاً عن إمداد دور العبادة، ولاسيّما في طيبة، بما تحتاج إليه من مؤن ومن ثم فقد كان البعض منهم يحمل لقب « المشرف على الكهنة ».([53])

وقد استمر في عصر هذه الدولة مبدأ وراثة المناصب وإن كان على نطاق أضيق مما كان عليه فيالعصور السابقة وبخاصة في مجال وظائف حكام الأقاليم، هذه الوظيفة بالذات تعرضت لتبدل عميق.

فالأساس الذي كانت تقوم عليه هذه الوظيفة في السابق وهو امتلاك بعض الأسر أراضيَ واسعة في الأقاليم جعل منها تشكل طبقة ارستقراطيةمتنفذة، وبالتالي فإن حكام الأقاليم كانوا يختارون من بين هذه الأسر. ولكن مع النصر الذي حققه الملك أحمس على الهكسوس فإنه اعتبرنفسه المالك الوحيد لكل الأراضي في البلاد، وبالتالي وضع حداً للأساس الذي كان يقوم عليه نفوذ هذه الأسر. وحلّت محل الأرستقراطية السابقة في الأقاليم، طبقة من كبار الموظفين المدنيين والعسكريين الذين يخضعون للفرعون مباشرة.

---

[52]- سيد، عبد المنعم عبد الحليم: المرجع السابق، ص96.

[53]- مهران، محمد بيومي: الحضارة المصرية القديمة، ص 178.

وأما عن إدارة أملاك الإمبراطورية خارج مصر، ففي النوبة كانت مدينة عنيبة — وربما بوهن — عاصمة للأقاليم الجنوبية، ويقيم فيها "حاكم الأراضي الجنوبية" وكانت منطقة سلطة هذا الحاكم تتغير من وقت لآخر، فبينما نراها أول الأمر تمتد من نباتا حتى أسوان، نراها بعد ذلك تمتد حتى « نخن » (البصيلية) بسبب الرغبة في جعل مناطق استغلال الذهب في كل من مصر والسودان تحت إدارة موحدة ([54]).

وأما عن الإدارة في سورية، فقد كانت الممتلكات المصرية فيها مقسمة إلى ثلاث مقاطعات كبيرة وهي أمورو وأوبي وكنعان. وكان يدير كل مقاطعة من هذه المقاطعات موظف مصري يطلق عليه بالأكادية اسم « رابيصو ».

وقد شملت مقاطعة أمورو بعض أجزاء من وسط سورية والساحل الفينيقي وكان مركزها في مدينة سيميرا (تل الكزل). أما مقاطعة أوبي فكانت في جنوب سورية وشرق الأردن ومركزها كان في كوميدي (كامد اللوز). أما كنعان فضمت فلسطين وكان مركز حاكمها في مدينة غزة. ولكن هذ التقسيم لم يعن القضاء على السلالات الحاكمة المحلية، التي كان عليها الآن أن تخضع لحاكم المقاطعة التي تقع أراضيها ضمن اختصاصه. ولم يكن لسورية حاكم مصري عام يشرف على حكام المقاطعات الثلاث، بل كان كل واحد من هؤلاء الحكام مسؤولاً أمام الفرعون عن أمور مقاطعته، وكانت أهم وظائف هؤلاء المشرفين جمع الجزيات من الحكام المحليين، ومراقبة تصرفاتهم وعلاقتهم مع القوى الأخرى الموجودة في المنطقة سواء المؤيدة لمصر أو المعادية لها. ([55])

وكان هناك بعض الموظفين العسكريين في سورية، ومهماتهم كانت تنحصر في مراقبة تحركات القوى المعادية لمصر في سورية ولاسيّما القوات الحثية. وقد حمل هؤلاء الضباط

---

[54]- مهران، محمد بيومي: الحضارة المصرية القديمة، ص179-180.

[55]- العلاقات السياسية والدبلوماسية، ص80.

لقب « أذن صاحب الجلالة في سورية » وهناك لقب أرفع وهو « المشرف على الأراضي الأجنبية الشمالية ». ([56])

خامساً- الجيش :

لقد أدّت حرب التحرير ضد الهكسوس دوراً مهماً في إذكاء الروح الوطنية عند المصريين، وبدّلت من مفاهيمهم السياسية إلى حد كبير. فقد تبلورت في هذه المرحلة وجهة نظر سياسية جديدة تتمثل بضرورة خروج مصر من حدودها وضرب الأعداء في بلادهم قبل أن يصلوا إليها. وهذا الأمر لم يكن بالإمكان تحقيقه دون وجود جيش قوي قادر على تنفيذ مثل هذه السياسة. كما أن حرب التحرير نفسها أسهمت في رفع أسهم الجيش وضباطه إلى حد كبير. وقد شكل هؤلاء الضباط طبقة اجتماعية متميّزة استمدت نفوذها وأهميتها من المهمات الكبرى التي ألقيت على عاتقها في المجالين المدني والعسكري. وقد أوكل ملوك الأسرة الثامنة عشرة إلى بعض القادة العسكريين الوظائف العليا في الدولة. وفي نهاية عهد هذه الأسرة تمكن عدد من هؤلاء القادة من الوصول إلى سدّة العرش (آي وحور محب ورعمسيس الأول وابنه سيتي).

لقد كان الفرعون هو القائد الأعلى للقوات المسلحة. وغالباً ما كان يقود الجيش بنفسه في المعارك ولاسيّما في المعارك الهامة (تحوتمس الثالث ومعركة مجدو ورعمسيس الثاني ومعركة قادش). وفي بعض الأحيان كان ينيب عنه ولي عهده في قيادة الجيوش. وكان الوزير يقوم بمهام وزير الحرب. وقد أحصي في النصوص والوثائق المختلفة نحو 63 لقباً ورتبة عسكرية تمثل التسلسل الهرمي للمناصب والرتب العسكرية في كل من سلاح المشاة والفرسان والمركبات الحربية والأسطول الحربي.

56- العلاقات السياسية والدبلوماسية، ص85

وكان سلاح المشاة يشكل العماد الرئيسي للجيش المصري، وكان ينقسم إلى قسمين: المشاة العادية ومشاة القوات الخاصة، إلى جانب المرتزقة الأجانب، وأما عن الوحدة الأساسية في تشكيل الجيش فكانت السرية والتي تنقسم بدورها إلى فصائل وهذه إلى جماعات، وتتكون الجماعة من عشرة أفراد ويتلقى قائدها أوامره من قائد الفصيلة الذي يحمل لقب « قائد الخمسين » فالفصلية كانت تتألف من خمسين جندياً. وهناك السرية أو حامل اللواء، ثم أركان حرب السرية ثم كاتبها. وكانت كل سريتين تشكلان كتيبة. هذا وكان أفراد المشاة ينقسمون إلى رماة وحملة الرماح.

أما سلاح المركبات الحربية فقد ظهر منذأيام تحوتمس الثالث، وكان لكل عربة قائد ومقاتل الواحد يقود الخيل والآخر يرمي السهام من قوسه. وكان على رأس كل فصيلة صغيرة نسبياً من المركبات « قائد كتيبة العربات » يشرف عليه ضابط قديم يسمى « قيم الاصطبل الملكي » ويعاونه ضباط ومدرّبون لهم خبرة بالخيول يعرفون باسم « رؤساء الاصطبل ».([57])

وأما عن نظام التجنيد فلا نعرف عنه الشيء الكثير، وإن كان هناك مايشير إلى أن كاتب المجندين كان يختار رجلاً من بين عشرة رجال، ثم سرعان ما أسند اختيار المجندين إلى مجلس عسكري وإن كانت الأولوية والأفضلية في التجنيد من نصيب أبناء أفراد القوات المسلحة.

وذكرنا سابقاً شغل العسكريين مناصب مدينة كبيرة، فمثلاً منصب « نائب الملك وحاكم النوبة » كانت تغلب عليه الصفة العسكرية، بحيث كان من المستحيل أن يتولاه أحد الموظفين المدنيين. وكان « توري » أول المعروفين من الذين تولوا هذا المنصب « قائد منطقة بوهن ». وفي عهد امنحوتب الثالث تولى هذه الوظيفة ضابط كبير اسمه «

---

[57]- مهران، محمد بيومي: الحضارة المصرية القديمة، ص 200.

مرمس » وكان يحمل لقب « حامل المروحة على يمين الملك » وكنا قد أشرنا إلى بعض المناصب العسكرية في سورية.

وكان اشتراك أمراء البيت المالك في السلك العسكري من الملامح المميزة للجيش الإمبراطوري المصري في عصر الأسرة الثامنة عشرة. ولم يكن اشتراكهم رمزياً أو شرفياً وإنما كانوا يعملون بالفعل في الخدمة العسكرية وكانوا يحملون رتباً عسكرية باعتبارهم من الضباط العاملين المقاتلين، ولاسيّما الأمراء الملكيين من الدرجة الثانية في الأسرة المالكة.

ولما كان الجيش الذي تكون في عصر هذه الدولة في حاجة إلى المزيد من القوى البشرية، فقد اعتمد تدريجياً على تجنيد و تسخير الجنود النوبيين والآسيويين. وفي مقبرة «نب أمون » الذي عمل تحت قيادة امنحوتب الثاني نرى الجنود النوبيين مزوّدين بالأسلحة نفسها التي زوّد بها الجنود المصريون. كما أنهم يرتدون الملابس نفسها التي كان يرتديها الجنود المصريون.

سادساً- الحياة الاجتماعية :

في حديثنا عن الحياة الاجتماعية في عهد الدولة الوسطى، كنا قد أشرنا إلى انقسام المجتمع المصري إلى طبقات ثلاث هي العليا والوسطى والدنيا. وقلنا إن الملك بما له من مكانة دينية كان يمثل قمة الهرم في المجتمع المصري ولم يتغير هذا الحال في عهد الدولة الحديثة، بل ربما ازدادت مكانة الملوك و خاصة في بداية عهد هذه الدولة، بفضل الجهود التي بذلوها في سبيل تحرير البلاد من حكم الهكسوس، ومن ثم الانتصارات العسكرية التي حققوها ولاسيّما في سورية و النوبة. ومع ذلك فإن شهرة هؤلاء الملوك لم تحل دون ذيوع شهرة بعض كبار رجال الدولة. ولم يتردد هؤلاء الكبار بوصف أنفسهم علناً بما كانوا يعتقدون أنهم أهل له من الشهرة والكفاية.

و من هؤلاء مثلاً القائدان أحمس بن أبانا و أحمس بانخبة وسنموت صفي حتشبسوت و مربي ابنتها و كبير مهندسيها الذي قال معتزاً بنفسه « ابتدعت أموراً من تلقاء نفسي فيما نفذته في عملي.. » أما حاجب الفرعون تحوتمس الثالث المدعو انتف فإنه يصف نفسه بأنه « الحكيم المجتبى بالمعرفة.. وأنه يتكلم عن بصيرة وبوحي من رأيه الخاص..، خادم للفقير، أبٌ لليتيم » ([58])

ولكن نفوذ هؤلاء الأشراف لم يصل إلى ما وصل إليه نفوذ حكام المقاطعات في الدولة الوسطى مثلاً. فقوة ملوك الدولة الحديثة وسطوتهم جعلتهم قادرين على الحد من نفوذ موظفيهم وقادتهم مهما علا شأنهم.

وقد حافظت الطبقة الوسطى على وضعها في المجتمع، وكما أشرنا آنفاً فإن هذه الطبقة كانت تتألف من صغار الملاكين وبعض الحرفيين والفنانين وأفراد من رجال الجيش، وإن لم يكن ما يمنع من ترقي أفراد هذه الفئة إلى فئة الأشراف والنبلاء، ولكن نتيجة لارتفاع مكانة الجيش وأفراده في عصر هذه الدولة فإن بعض الحرف التي كانت لها مكانة كبيرة فيما مضى، تراجعت أهميتها الآن. من هذه الحرف، حرفة الكاتب. ولكن الكتّاب لم يستكينوا لهذا الأمر، و بدؤوا يدونون المقطوعات الأدبية التي تمجد مهنتهم وتبين مدى فضلها على باقي المهن وأهميتها بالنسبة للمجتمع المصري. فمثلاً يرد في « تعاليم آني » التي وضعت على ما يبدو في عهد الأسرة التاسعة عشرة، فيما يتعلق بالنُصح على تعلم الكتابة « اكتب بيدك، اسمع بقلبك، اقبل النصيحة. لا تُضِع يومك في الكسل وإلاّ ترهل جسمك. تعمق في فهم أساليب مدرّسك وأطع تعاليمه. كن كاتباً »([59]). وفي موضع آخر يقول « يرسو الكاتب على شاطئ النهر ليشرع في تقدير الضريبة على المحصول، في الوقت الذي يحمّل فيه الحاضرون الحبال، والنوبيون النخيل، إنهم يقولون سلم الحبوب؟

[58]- صالح، عبد العزيز: المرجع السابق، ص210.

[59]- جيمز، ت0ج: الحياة أيام الفراعنة، ترجمة أحمد زهير أمين، القاهرة، 1997، ص 116.

لكن لا حبوب فيضربونه بلا هوادة.. لكن الكاتب هو سيّد الجميع فهو يُعفى من الضرائب، لذلك ليست عليه ضرائب تحتاج إلى تسوية »([60]).

وأما أبناء الطبقة الدنيا من العمال والفلاحين، فأوضاعهم لم تكن على ما يرام، وإن كان هناك ما يشير إلى أن أحوال طبقة العمال قد تحسنت في الدولة الحديثة. وكان هناك تقسيم للعمال حسب الاختصاصات إلى فرق عليها مشرفون. فعمال مقبرة طيبة مثلاً كانوا يقسمون إلى فرق، وكل فرقة إلى قسمين على رأس كل واحدة منهما مقدم عمال كان يلقب «كبير الفرقة أو الجانب » وكان لكل مقدّم وكيل يعاونه في مهمته. كما كان هناك كاتب يسجل ما أنجز من عمل وأسماء العمال الحاضرين والمتغيبين وأسباب تغيبهم. وكان العمال يُمنحون عطلة في كل شهر ثلاثة أيام، إلى جانب إجازات تمنح لهم في بعض المناسبات كأعياد الآلهة الرئيسة. أما أجور هؤلاء العمال فكانت عينية، حيث يقدم لهم الشعير مثلاً كل شهر، وفي بعض المناسبات الهامة كان يقدم لهم النبيذ واللحم وغير ذلك. ([61])

إذن، إن هؤلاء العمال لم يكونوا مسخرين لهذا العمل، وإنما كانوا يتقاضون أجوراً ومكافآت لقاء عملهم. فهذا سيتي الأول يذكر أن بعض عماله كان يتقاضى أربعة أرطال من الخبز وجزمتين من الخضروات وقطعة من اللحم المشوي كل يوم، وثوباً من الكتان النظيف مرتين كل شهر ([62]).

وربما كانت أخبار الإضراب الذي وصلنا من عهد رعمسيس الثالث، هي أول أخبار عن إضراب وصلتنا أخباره في العالم القديم، فالعمال الذين يعملون في مقبرة طيبة والذين لم يستلموا مستحقاتهم تجمهروا وصاحوا بأنهم جياع ولم يعودوا إلى منازلهم إلا عندما حل الليل. وفي اليوم التالي تقدموا حتى وصلوا البوابة الشمالية لمعبد الرمسيوم. وفي

---

[60]- جيمز : المرجع السابق، ص 118.
[61]- مهران، محمد بيومي : الحضارة المصرية، ص 108.
[62]- مهران، محمد بيومي: الحضارة المصرية، ص 109–110.

اليوم الثالث وصلوا إلى المعبد نفسه وقضوا الليل عند بوابته ثم دخلوا المعبد نفسه، عند ذلك صُرفت لهم مخصصات الشهر السابق، ولكن لما تأخر مرة أخرى صرف مستحقاتهم عاود العمال الإضراب مجدداً.

إن الحروب الكثيرة التي خاضتها مصر في عهد الدولة الحديثة أدى إلى تدفق أعداد كبيرة من الأسرى إلى البلاد. وهؤلاء الأسرى كانوا يُوزعون للعمل في مرافق الدولة المختلفة (القصور الملكية– المعابد) إضافة إلى توزيع بعضهم على قادة الجيش وكبار موظفي الدولة. كما أن الوثائق المصرية تؤكد وجود عبيد عند بعض الأفراد حصلوا عليهم من مصادر مختلفة منها عمليات بيع كانت تجري في المجتمع.

وأما عن أسعار هؤلاء العبيد، فالمعلومات عنها قليلة، وإن كانت بعض الوثائق ذكرت أموراً تتعلق بذلك. ففي نص من العام الرابع من حكم أخناتون يُذكر فيه ثمن عبد 210 غ من الفضة. ونص آخر يعود إلى ما بعد العام الخامس عشر من حكم رعمسيس الثاني يُذكر بيع عبد 373 غ من الفضة. وللمقارنة نذكر أنه في نص مؤرخ بالعام الثاني من حكم امنحوتب الثاني يُذكر فيه أن أجار يوم عمل أحد العبيد كان خمسة عشر غ من الفضة. ([63])

ويبدو أن ثمن العبيد كان يتقلّب حسب الجنس والعمر والقوة البدنية والأحوال العامة السائدة في البلاد، إلى جانب توفر العبيد في الأسواق.

واستمرت في هذا العصر المكانة المميزة للمرأة المصرية، وقد تمتعت نساءٌ كثيرات بمكانة عالية وكان لهم تأثير مباشر على مجرى أمور الدولة، من مثل الملكة تي زوجة أمنحوتب الثالث والملكة نفرتيتي زوجة إخناتون، التي يعتقد الكثير من الباحثين أنه كان لها دور كبير في الانقلاب الديني الذي جرى في عهده.

---

[63]- بوغو سلو فسكي: حول منتجي المقدرات المادية والقين الروحية في مصر في النصف الثاني من الألف لثاني ق0م في كتاب: مشاكل العلاقات الاجتماعية وأشكال التبعية في الشرق القديم، تحرير: داندا مابيف، موسكو، 1984، ص53.

ولم تقتصر هذه المكانة العالية على نساء الأسرة المالكة، فالمرأة في مصر عامّةً تمتعت بمثل هذه المكانة، فكان هناك نساء متعلمات يجدن القراءة والكتابة ويتبادلن الرسائل فيما بينهن من ذلك الرسائل التي وجهتها امرأة تدعى « سيتكا » وهي موسيقية حاتحور، إلى « سخمت نفرت » موسيقية أمون وتصف لها فيها زيارتها لمدينة منف. ([64])

و نشير أخيراً في هذا المجال إلى ورود أسماء أعداد كبيرة من النساء اللاتي وُجِدْنَ في جبّانة طيبة، و حصلن على مواد غذائية متنوعة، فمثلاًهناك امرأة اسمها خات خار ماج، تذكر ضمن قائمة أسماء حصل أصحابها على حبوب وخبز قرابة منتصف حكم الأسرة العشرين ([65]). ويبدو أن هؤلاء النسوة كن من العاملات في هذه الجبّانة.

سابعاً- الحياة الدينية :

في حديثنا عن الحياة الدينية في الدولة القديمة، ذكرنا أن مكانة بعض الآلهة كانت ترتفع مع ارتفاع شأن بعض المدن التي تعبد فيها هذه الآلهة، أو مع وصول أسرة إلى الحكم تعبد إلهاً معيناً وتتخذه إلهاً خاصاً بها. وأفضل مثال يُضرب في هذا المجال، ما حدث في عصر الدولة الحديثة من ارتفاع لشأن الإله أمون مع تولي الأسرة الثامنة عشرة الحكم مطلع الدولة الحديثة.

وهذا الإله من الآلهة المعروفة في مصر منذ عهد الدولة القديمة حيث وُجد اسمه مكتوباً على أثر يرجع إلى أيام « بيبي الثاني » من الأسرة السادسة. وفي زمن الأسرة الثامنة عشرة مُزج هذا الإله مع الإله رع بغية أن يكتسب أمون صفات رع ونفوذه القوي بين الناس، مستذكرين هنا، أن الأسرة الثامنة عشرة تعود بأصولها إلى مدينة طيبة موطن هذا الإله. ([66])

---

[64]- مهران، محمد بيومي الحضارة المصرية، ص60.

[65]- بوغوسلو فسكي: حول منتجي..، ص103 وما بعدها.

[66]- حول هذا الإله وتطور عبادته، انظر ديماس، فرانسوا: آلهة مصر، ترجمة زكي سواس، القاهرة، 1998، ص60 ومابعدها.

ونتيجة الثروات الكبيرة التي أغدقت على معابد هذا الإله فقد ازدادت مكانة كهنته في المجتمع إلى حد كبير، وازداد تأثيرهم على مجمل الحياة العامة في مصر. وقد بلغت مكانة هؤلاء الكهنة الأوج في نهاية عصر الأسرة العشرين، عندما تمكن كبير كهنته من الوصول إلى عرش مصر.

ومع المكانة الكبيرة التي تمتع بها الإله أمون في الدولة الحديثة إلا أن هناك آلهة كثيرة حافظت على مكانتها في المجتمع المصري من مثل الإله ست الذي ظهر في الأسرة التاسعة عشرة كصاحب مكانة متميزة بصفته الإله المحلي لهذه الأسرة وحمل اثنان من ملوكها أسماء على صلة باسم هذا الإله وهما سيتي الأول والثاني، والإله أوزير الذي حافظ على مكانته التي تمتع بها طوال التاريخ المصري القديم.

و من الآلهة التي تمتعت بمكانة كبيرة في عصر هذه الدولة، الإله بتاح، فقد حرص أمراء البيت المالك من أمثال « مرنبتاح » قبل توليه العرش على شغل منصب الكاهن الأكبر للعجل جي (أبيس) رمز هذا الإله فضلاً عن أن اسم مرنبتاج يعني « محبوب بتاح ». ([67])

ونشير في هذا المجال إلى أن الجيش المصري الذي توجه إلى قادش كان قد قسّم إلى أربع فرق رئيسية تحمل أسماء هذه الآلهة الأربع وهي: الإله أمون والذي انطلقت فرقته من طيبة، وفرقة بتاح من منف وفرقة ست من بر رعمسيس والإله رع من الدلتا.

ونشيراً أخيراً على الوظيفة الجديدة التي ظهرت في هذا العصر وكانت لها أهمية كبيرة وهي وظيفة « زوجة الإله » أو « زوجة الأله أمون »، وقدتمتعت حاملة هذا اللقب بمكانة عالية، وكانت هذه الوظيفة تستند إلى الملكات حصراً مما زاد من مكانتهن ودورهن في الحياة العامة المصرية.

---

[67]- ديماس: المرجع السابق، ص108 وما بعدها.

ومن الألقاب الهامة من عصر هذه الدولة التي لها علاقة بالإله أمون، منصب « الكاهنة الثانية لأمون »، وكان محصوراً أيضاً في نساء الأسرة المالكة. وللتدليل على أهمية هذا اللقب فإن الملك أحمس الأول، ولّى زوجته هذه الوظيفة في صورة بيع ليعطي للملكة لقباً لا يمكن لأحد أن يغتصبه منها والملك نفسه كان ضامناً لهذا البيع، وتم الإعلان عن ذلك في لوحة الكرنك بالمعبد. ([68])

ثامناً- الحياة الأدبية :

ظهرت في هذا العصر مجموعة من الأعمال الأدبية المتنوعة الاتجاهات، ما بين الأدب الأسطوري وأدب الحكمة والقصة والرحلات.

فمن أمثلة الأدب الأسطوري لدينا ما يسمى قصة « الحق والبهتان ». وتعتبر هذه القصة تكراراً لقصة « إيزيس وأوزيريس »، ولكن القصة تُعطي الآن الأخوين اسمين معنويين هما « الحق والبهتان » وتصور الأسطورة كيف أراد البهتان أن أحد يكيد لأخيه الحق عن طريق إدعائه بأن أخاه الحق قد استلب منه خنجراً يبلغ طوله ارتفاع الجبل وتتالى المكائد إلى أن توقع الآلهة العقاب على الحق، ولكن الحقيقة لا بدّ من أن تظهر وعندها تتراجع الآلهة عن خطئها وترفع العقاب عن الحق وتوقعه على البهتان. ([69])

ولدينا من أدب القصة « قصة الأخوين » التي تعود إلى القرن الثاني عشر ق 0م، وهي تصور ما يمكن أن تأتيه أنثى لعوب في بيت ريفي صغير. وأسهبت القصة في وصف الحياة الريفية، وجمعت ما يمكن أن يحدث في واقع الحياة وبين ما لا يحدث إلا بالمعجزات وفي عالم الخيال. أما أبطال القصة فهم « ابنو صاحب المزرعة وزوجته الفاتنة وشقيقه الصغير باتا ». ([70])

---

[68]- سعد الله، محمد على: المرجع السابق، ص 56.

[69]- صالح، عبد العزيز: المرجع السابق، ص348.

[70]- صالح، عبد العزيز: المرجع السابق، ص352.

Damascus University

وأما من أدب الحكمة أو النصيحة، فلدينا نصائح الحكيم « أني » الذي عاش في القرن السادس عشر ق 0م، وهي نصائح وجهها إلى ابنه يرشده فيها إلى مقومات السعادة في الأسرة قائلاً « لا تمثل دور الرئيس مع زوجتك، ولاتقس عليها في دارها..، تعلم كيف تمنع أسباب الشقاق في بيتك، إذ لا مبرر لخلق النزاع في البيت..، لكن احذر أن تمشي في طاعة أنثى أو أن تسمح لها بأن تسيطر على رأيك » وكما أوصاه بزوجته أوصاه أكثر بأمه قائلاً : «ضاعف الخبز لأمك، واحملها إن استطعت كما حملتك، فطالما تحمّلت عبئك ولم تتركه علي..، ومنذ ولدت أسلمت ثدييها لفمك خلال ثلاث سنين متحملة قاذوراتك..، فإذا شببت واتخذت زوجة واستقررت في دارك، ضع نصب عينيك كيف ولدتك أمك وكيف كانت تربيتك كلها ». ([71])

وأما عن أدب الرحلات، فلدينا قصة « وينامون »، فكبير كهنة أمون حريحور، أرسل وينامون عبر الدلتا إلى جبيل لإحضار أخشاب الأرز اللازمة لبناء قارب مقدّس جديد للإله أمون، وقد أرَّخ وينامون رحلته باليوم السادس من الشهر الرابع من صيف العام الخامس للنهضة التي أعلنها حريحور كبير كهنة آمون، ولم يؤرخه بأعوام حكم الملك رعمسيس الحادي عشر الذي كان حينذاك لا يزال يعتلي العرش وإن كان مسلوب السلطة. وعلى العكس من المبعوثين المصريين السابقين الذين كانوا يلقون كل ترحاب أينما حلوا فإن وينامون لم يجد إلا الصد والمهانة أينما حل، لذلك فإنه عندما عاد إلى بلده سجل كل ما مر به من لحظة خروجه إلى حين عودته إلى بلده بكل أمانة وصدق.

وإلى جانب صيغتها التقريرية أو الإدارية، فإن هذه القصة تعتبر من عيون أدب الرحلات في العصور القديمة ونموذجاً لأسلوب الكتابة المصرية القديمة في عصورها الأخيرة ([72]).

---

[71]- صالح، عبد العزيز: المرجع السابق، ص 361.

[72]- محمد عبد الغني، محمد السيد: العلاقات المصرية الفينيقية حتى أوائل العصر البطلمي. في كتاب أعمال الندوة العلمية الأولى لجمعية الأثاريين العرب. القاهرة، 1999، ص220 وما بعدها.


وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

الفصل الثامن

مصر في عصورها المتأخرة

تتميز هذه الفترة بازدياد أهميته العناصر الليبية ومكانتها التي تمكن بعض أفرادها من الوصول إلى الحكم، وكذلك بخضوع مصر لحكم أسرة نوبية حبشية، واحتلال الآشوريين لها، وحكمت في هذه الفترة الأسرات 21-25.

الأسرة الحادية والعشرون (1080-946ق0م) :

وجدت مصر في ظل هذه الأسرة، تحكم من قبل أسرتين، أولاهما تحكم في الدلتا وتتخذ من تانيس مقراً لها. وكان أول ملوكها سيمنديس، في حين أن حريحور الذي كان كبيراً للكهنة في طيبة عندما قدم إليه آخر الرعامسة، استغل فرصة وفاة رعمسيس الحادي عشر ليتوج نفسه ملكاً على البلاد وليمارس الآن بصورة رسمية الوظائف التي كان يمارسها فيما سبق وإن كان بصفة غير رسمية. وقد شملت سلطة حريحور مناطق مصر الوسطى والعليا أي من الشلال الأول حتى واحة الفيوم، وتميزت العلاقة بين البيتين الحاكمين يالسلام والود.

خلف حريحور في منصبه في الصعيد ابنه بعنخي الذي وثق علاقاته بالبيت الحاكم في الشمال وكان الحاكم هناك « بوسنس الأول » فزوج أكبر أبنائه « باي نجم الأول » من « ماعت كارع » ابنة بوسنس الأول، الأمر الذي متن من روابط الإلفة والصداقة بين العاصمتين. وعندما توفي بوسنس الأول، أصبح باي نجم الأول الحاكم الأوحد لمصر كلها. ومن المعروف عن باي نجم عنايته بترميم المعابد والهياكل، وكان له ولدان توفي أحدهما أثناء حياته في حين أن الآخر وهو « من خبر رع » والذي كان كبيراً للكهنة أصبح ملكاً بعد وفاة والده. أما كيف انتهت هذه الأسرة فهناك الكثير من الأشياء

الغامضة في هذا المجال. ولكن لابد من أن يكون بعض المغتصبين قد استولوا على العرش، قبل أن يتمكن قائد إحدى القبائل الليبية من الوصول الى السلطة ويؤسس أسرة جديدة هي الأسرة الليبية أو الأسرة الثانية والعشرون.

الأسرة الثانية والعشرون :

عهدت مصر على مدى قرنين من الزمان أو أكثر بالدفاع عن حدودها الى متطوعين من الليبيين، بينما كان الجنود الوطنيون يقومون بالمحافظة على الأمن في الداخل. ثم أخذ الجند الليبيون يحترفون الحراسة حتى غدت شؤونها من اختصاصهم وأخذت الأسرة الحادية والعشرون تحلّهم محل الجنود الوطنيين في هذا المجال. وقد شكّل هؤلاء جاليات خاصة بهم قبيل انتهاء حكم الأسرة الحادية والعشرين. وكانت أقوى هذه الجاليات الأسر تلك الموجودة في مصر الوسطى والتي خرجت منها أسرة » بويو واوا « الذي استطاع أحد أبنائها شيشنق نحو 950 ق.م أن يستولي على السلطة في مصر الوسطى وأن يمدّ نفوذه الى الأشمونيين « أهناسيا » والذي عدّ مؤسساً للأسرة الثانية والعشرين.

ومن المؤكد أن شيشنق الأول تلقى دعم العناصر الليبية كافة التي كانت تقيم في مصر. وتمكن بمساعدتها من فرض سيطرته على كل مصر. ففي السنة الرابعة من حكمه مد نفوذه إلى الجنوب وعين ابنه « آيو بوث » كبيراً لكهنة أمون في طيبة. وكان هدفه من ذلك الإشراف المباشر على هذه الوظيفة الهامة. أما هو فأقام في مدينة « بوباسيتس « أو « بوبسطة » مفضلاً إياها على تانيس. وقد شيّد الكثير من المباني كان معظمها في الدلتا. غير أن أهم ما شيده كان معبد في الكرنك ويتمثل بالمدخل الذي أقامه ويؤدي إلى رحبة المعبد الرئيسي والصرح الأول.

وأما على الصعيد الخارجي فقد وجّه شيشنق الأول حملة إلى فلسطين عام 931 ق.م استهدفت إعادة بعض النفوذ المصري إلى هذه المنطقة. وقد أمر بنقش الجزية التي

تقاضاها من الحكام الفلسطنيين ومن النوبة على جدران معبدالكرنك، ويعد هذا النقش من أهم المراجع التاريخية المتصلة بهذه الفترة لقلّة ما عرف عنها.

توفي شيشنق الأول عام 929 ق0م وخلفه ابنه وسركن (أوسركون) واستمر حكمه حتى عام 893 ق0م. وكانت أمور مصر عندما تولاها مستقرة سياسياً وتعيش فترة نهوض اقتصادي. ومن أهم الآثار التي عثرعليها وتخصه يعض المباني في معبد أتوم في بوباستيس، وهيكل أقامه في منف تكريماً للإله با ست وغيرها من المنشآت في مناطق مختلفة من البلاد ([1]).

وخلف « تلكوت الأول » والده على العرش المصري، ولم يعثر إلاّ على آثار قليلة في الكرنك تعود إليه. وخلفه على العرش أوسركون الثاني نحو 870 ق0م. والذي شيد العديد من المباني في بوباستيس وتانيس ومنف والكرنك، إلا أنه يلاحظ استخدامه في مبانيه الأحجار من مباني أسلافه ولاسيّما رعمسيس الثاني.

بعد وفاة أوسركون الثاني، خلفه ابنه تلكوت الثاني الذي اتخذ لنفسه لقباً حورياً جديداً هو « حارسيس » كما اتخذ الألقاب التالية « الفحل، القوي، الظاهر في طيبة ». وفي عام حكمه الحادي عشر نصب ابنه أوسركون كبيراً لكهنة أمون في طيبة وقائداً لكل البلاد والقائد العام للجيش وحاكم الجنوب. و حكم بعد تلكوت الثاني، شيشنق الثالث، الذي حكم مدة تزيد على الخمسين عاماً وشيّد الكثير من الآثار في الدلتا، وعين ابنه كاهناً أعلى للإله آمون في طيبة.

وفي أواخر عهده نشأت أسرة ملكية أخرى في مدينة « ليونتوبوليس ».

وقد خلف شيشنق الثالث على العرش ابنه « بجاي » وانتهت الأسرة بحكم شيشنق الرابع.

---

[1]- سليم، أحمد أمين: المرجع السابق، ص182-183.

الأسرة الثالثة و العشرون :

بدأت هذه الأسرة كما ذكرنا بالحكم في نهاية حكم شيشنق الثالث،عندما بدأ « بدوباست » يؤرخ الأحداث طبقاً لسنوات حكمه وذلك في مدينة « ليونتوبوليس »، مما يشير إلى أنه كان يعد نفسه مساوياً لشيشنق الثالث الذي تمكن من إنهاء سلطة الأسرة الثانية والعشرين في أهناسيا ونصب ولده كاهناً أكبر لآمون في طيبة. ومن أهم أحداث عصره فيضان مرتفع للنيل أغرق معبد الأقصر وأحدث أضراراً بالغة فيه.

بعد وفاته خلفه ابنه تلكوت الثالث الذي انقسمت السلطة في مصر في عهد خلفائه بين العديد من الذين ادعى كل منهم الملك في منطقته. واستمرت هذه الأحوال المضطربة في عهد الأسرة الرابعة والعشرين.

الأسرة الرابعة والعشرون :

ومؤسسها هو « تف نخت » الذي تمكن من السيطرة على النصف الغربي من الدلتا. وأخذ يعمل على إخضاع الأمراء المحليين في مصر العليا متجنباً الصدام بملوك شرق الدلتا في أول الأمر. وبعد أن فرض نفوذه على مصر الوسطى عاد فمدّ نفوذه على شرق الدلتا ووسطها. أي أنه أصبح ملكاً بالفعل على الوجه البحري ومصر الوسطى حتى بني حسن ولم تقاومه إلا أهناسيا. وقد عاصرت هذه الأسرة حكم الأسرة الخامسة والعشرين التي اتخذت من مدية نباته عاصمة لها وكان أول ملوكها بعنخي.

الأسرة الخامسة والعشرون والاحتلال الآشوري لمصر :

تعود هذه الأسرة إلى أصول نوبية كوشية وكانت عاصمتها في نباته، وتمكّن بعنخي من مد سيطرته على مصر العليا ووصل بجيوشه حتى الدلتا وتمكّن من دخول منف التي كان (تف نخت) من الأسرة الرابعة والعشرين قد تحصّن فيها، ودخل معبد بتاح حيث اعترف بم كهنته ملكاً، ثمّ توجّه نحو أون حيث اعترف به كهنة رع ملكاً. وبدأ بعد ذلك دور ملوك وأمراء الدلتا الذين حضروا إليه وقدموا له الخضوع والولاء، وأخيراً خضع له تف

نخت بعد انصراف أعوانه عنه، وهكذا خضعت مصر كلها من الشلال الرابع حتى البحر المتوسط لحكم بعنخي الذي عاد إلى عاصمة نباتة محمّلاً بالهدايا والغنائم.

إلا أن تف نخت إستغل فرصة عودة بعنخي إلا الجنوب ليعاود إعلان نفسه ملكاً على منطقة الدلتا.

ورث بعنخي على العرش شقيقه شباكا (716 – 701 ق.م) الذي استطاع أن يعيد إخضاع منطقة الدلتا وعمد إلى اتخاذ منف عاصمة له ليتمكن من إدارة البلاد بصورة أفضل. وخلفه على العرش شقيق آخر هو (شبا تاكا) الذي حاول إيقاف التوسع الآشوري في فلسطين ولكن دون جدوى.

انتهى حكم شباتاكا عام 688 ق0م واعتلى العرش بعده طهارقا وهو ابن بعنخي كما يقول بعض الدارسين، ويقال أنه أجبر شباتاكا على التنازل عن العرش واستمر حكمه لمصر ثلاثة عشر عاماً.

وأثناء حكمه كان أسر حدون قد اعتلى العرش الآشوري (681-669 ق0م) ونتيجة استمرار تحريض ملوك مصر للحكام السوريين والفلسطينيين ضد الآشورين، فقد قرر أسر حدون احتلال مصر نفسها.

وصل أسر حدون إلى الحدود المصرية أول مرة عام 674 ق0م، ولكنه لم يتمكن من دخولها إذ تعرضت قواته للهزيمة. إلا أن أسر حدون لم ييأس وكرر المحاولة عام 670ق0م وفي هذه المرة تمكن من احتلال منف وسيطرت قواته على الدلتا، فهرب طهارقا إلى الجنوب إلى موطن أسرته.

عمد أسر حدون إلى تنظيم شؤون المناطق التي سيطر عليها معطياً المدن المصرية أسماء آشورية، وأمر بترحيل جماعات من الأطباء والسحرة والكتبة وغيرهم إلى آشور.

بعد مغادرة أسر حدون مصر، عاد طهارقا وزحف من الجنوب إلى الشمال بعد أن تلقى تأكيدات من حكام المناطق هناك بأنهم سيقدمون له المساعدة. وتمكن من دخول منف وطرد الحامية الآشورية منها وعزل الأمراء الذين عينهم الآشوريون. وعندما علم

أسرحدون بهذه الأنباء أراد العودة إلى مصر إلا أنه توفي وهو في طريقه إليها، وخلفه على العرش الآشوري ابنه آشور بانيبال (668-626ق0م) الذي أمر الحملة بمتابعة طريقها إلى مصر ودعمها بجيش من السوريين، وهاجم مصر براً وبحراً وتمكن من إلحاق الهزيمة مرة أخرى بقوات طهارقا الذي انسحب مجدداً إلى مدينة طيبة. فتبعه الآشوريون إلى هناك حيث تمكنت قواتهم من الاستيلاء عليها ونهب كنوزها. ففر منها طهارقا إلى نباتة حيث توفي هناك ليخلفه في حكم النوبة « تانوت أمون ». في حين عين الآشوريون نخاو حاكماً على الدلتا وكان مقره سايس وعيّنوا ابنه بسماتيك أميراً على أتريب.

لم تستقر الأوضاع للآشوريين في مصر على الرغم من كل المحاولات التي بذلوها في هذا السبيل. إذ سرعان ما تزعم تانوت أمون مقاومة الوجود الآشوري في مصر. فجمع جيوشه وسار نحو الشمال ودخل طيبة ثم حاصر الحامية الآشورية في منف وسيطر عليها، وحينها تقدم جيش معاد طوق تانوت أمون في منف مما اضطره للهرب إلى طيبة فتعقبه إلى هناك ودخل الآشوريون مجدداً طيبة ودمروها في هذ المرة. فغادرها تانوت أمون إلى نباته.

أما عن الكيفية التي طرد فيها الآشوريين من مصر فليس لدينا الكثير من المعلومات عن ذلك. ولكن قد يرجع ذلك إلى الضعف الذي أحاط بالمملكة الآشورية وانشغالها بمحاربة الدول التي كانت قد نشأت على أطرافها الشمالية والشمالية الشرقية. وقد استغل بسماتيك بن نخاو الفرصة ليطرد الآشوريين ويعلن استقلال مصر من جديد، وعلى ذلك فإن بسماتك يعد مؤسس الأسرة السادسة والعشرين.

الأسرة السادسة والعشرون (664–525ق.م) :

مؤسس هذه الأسرة هو بسماتيك الأول، الذي حكم نحو 54 عاماً وفي عهده جرت محاولة إحياء التقاليد في اللغة والدين وأساليب الدولتين القديمة والوسطى في الفنون، بسبب شعور المصريين بأن عصر الدولة القديمة هو نقطة الأوج في التاريخ

المصري. وقدبقيت مدينة منف عاصمة ملكية لإدارة للدولة، في حين أن موطن هذه الأسرة مدينة سايس بقيت عاصمة ملكية حيث دفن فيها بسماتيك وخلفاؤه من بعده، ولكن يؤخذ على بسماتيك اعتماده بشكل كبير على الجنود المرتزقة ولاسيّما الإغريق، وهو أول من سمح لهم بتأسيس المستعمرات التجارية على الأراضي المصرية حتى أصبح للتجار اليونان أحياء خاصة بهم في بعض المدن المصرية الهامة.

وقد خلف بسماتيك الأول على العرش ابنه نخاو الثاني عام 610 ق0م. وقد عمل هذا الملك على التدخل في الشؤون السورية، كما أنه أرسل جيشاً لمساعدة الآشوريين على التصدي للهجوم الميدي الكلداني الذي قضى على الدولة الآشورية. إلا أنه ظهور نبوخذ نصر الثاني الكلداني في سورية حد من تحرك نخاو الثاني على الساحة السورية، على الرغم من استنجاد بعض حكام فلسطين به في مواجهة تقدم جيوش نبوخذ نصر الثاني.

وقد اهتم نخاو الثاني بأمور البحرية، فجهز بعثة بحرية فينيقية دارت حول افريقيا خلال ثلاث سنوات. ومن ناحية أخرى فإنه أمر بشق قناة تربط النيل بالبحر الاحمر.

وخلف بسماتيك الثاني والده نخاو الثاني (595- 589ق0م) الذي أرسل حملة إلى الجنوب وصلت إلى الشلال الخامس أو السادس. واستعان بالإغريق لتكوين أسطول ضخم.

وعندما توفي بسماتيك الثاني جلس على العرش المصري أبريس (أبري)(589-570 ق0م) الذي استغل انشغال نبوخذ نصر الثاني بحروبه مع الميديين ليهاجم الساحل الفينيقي. وأثناء حكمه ظهرت بعض الاضطرابات في صفوف الجيش بسبب الامتيازات الممنوحة للمرتزقة الأجانب. وقام الجيش بتعيين أحد قادته « أحمس الثاني » ملكاً على البلاد وحكم في الفترة الواقعة ما بين العامين (570-526 ق0م). ورغم ما حققه أحمس الثاني لمصر من نجاحات سواء على الصعيد الداخلي حيث حصن حدودها بإقامته للحصون والحاميات سواء في مناطق الواحات أو على شاطئ البحر المتوسط، أو

على الصعيد الخارجي حيث حاول تدعيم السلطة المصرية في سورية كما قام باحتلال جزيرة قبرص وفرض عليها جزية كبيرة، نقول مع كل ذلك إلا أن سياسته المتعلقة بمنح الامتيازات الكبيرة لليونانيين والتي فاقت كل ما كانوا قد حصلوا عليه من قبل أساءت إليه بشكل كبير، وأدت إلى اضطراب أوضاع البلاد الداخلية. وبالإجمال يمكن القول إن عصر أحمس الثاني كان عصر ازدهار كبير عاشته مصر قبل أن يحتلها الفرس.

الغزو الفارسي لمصر (525–404 ق.م) والأسرة السابعة والعشرون:

بدأ الفرس دخولهم منطقة المشرق القديم، مع قضائهم على الإمبراطورية البابلية الجديدة واحتلالهم بابل عام 539 ق0م وذلك في عهد الملك قورش الثاني.

ومع اعتلاء قمبيز العرش الفارسي عام 530 ق.م وضعت الخطط للاستيلاء على مصر.

فعلى ما يبدو كان قمبيز مطلعاً على أحوال مصر المضطربة وعدم صلابة السلطة الملكية فيها ولاسيّما بعد وفاة أحمس الثاني واعتلاء ابنه بسماتيك الثالث العرش، فجهز حملة سارت عبر سورية ووصلت إلى غزة في ربيع عام 525 ق.م، وجرت المعركة بين القوات المصرية والفارسية في الفرما « بلوزيوم » (نحو 40 كم شرق بور سعيد الحالية)، ولكن المصريين لم يتمكنوا من الصمود طويلاً فانسحبوا إلى منف وتحصنوا فيها، فتبعهم قمبيز إليها وضرب الحصار عليها. وأخيراً اضطر المصريون للاستسلام، ولقد أحسن قمبيز معاملة بسماتيك الثالث وأطلق سراحه إلا أن بسماتيك الثالث حاول أن يثير المصريين ضد الفرس فقُبض عليه وقُتل.

بعد ذلك اتجه قمبيز بقواته نحو طيبة واستولى عليها وانتقلت السلطة في مصر بذلك إلى أيدي الفرس الذين يمثلون الأسرة السابعة والعشرين لدى مانيتون.

بعد موت قمبيز انتقل العرش الفارسي إلى دارا الاول الذي حكم من (522-486 ق.م) وأمر بكتابة « القانون الكامل لمصر حتى حكم أحمس الثاني » كذلك أمر بتنظيف وإتمام قناة نخاو الواصلة بين البحر الأحمر ونهر النيل.

لكن المصريين لم يستكينوا لحكم الفرس إذ سرعان ما قامت الثورات المقاومة للوجود الفارسي والطامحة لإعادة السيادة الوطنية والاستقلال للبلاد. وكانت أول هذه الثورات تلك التي قادها شخص اسمه « خباش » الذي تمكن من احتلال منف وسايس، إلا أن ثورته أخمدت في عهد ملك « أكسركسيس » الذي خلف دارا الأول على العرش الفارسي (485-464ق0م). وفي عام 460 ق0م قامت ثورة كبرى في مصر تزعمها شخصان أحدهما من مدينة مريوط والآخر من سايس. وقد تلقت هذه الثورة مساعدة الأثينيين وحققت نجاحات كبيرة وتمكّنت من فرض الحصار على منف، إلا أن الثورة لم تتمكن من الصمود أمام تدفق القوات الفارسية على مصر. ولكن هذا لم يعن نهاية الثورة. إذ سرعان ما تجددت الثورة في عهد دارا الثاني (434-404ق0م) وكانت هذه المرة بزعامة « أمون حر الثاني » واستمرت من عام (410-404 ق.م) وانتهت بطردالفرس بشكل نهائي من مصر.

الأسرة الثامنة والعشرون:

يُقصر مانيتون الأسرة الثامنة والعشرين على « أمون حر الثاني » زعيم الثورة التي أخرجت الفرس من مصر وحمل بعدها الألقاب الفرعونية. وجعل من مدينة سايس عاصمة له. وقد حكم أمون حر الثاني مدة ست سنوات فقط وبوفاته تنتهي أسرته لتحل محلها الأسرة التاسعة والعشرون.

الأسرة التاسعة والعشرون (398-378 ق.م) :

أصل هذه الأسرة طبقاً لما نيتون من مدينة منديس وأول ملوكها نفرتيس الذي قد يكون من زملاء أمون حر في الثورة الأخيرة على الفرس. أو ربما كان أحد أبناء العائلات

القوية واستطاع أن يغتصب العرش بعد وفاة أمون حر الثاني. وقد حكم نفرتيس هذا ست سنوات حاول فيها أن يدعم السلطة الملكية في مصر، والتفت للقضايا الداخلية ولاسيّما الأعمال العمرانية حيث عثر على بعض الآثار التي تحمل اسمه في الكرنك وتانيس.

من الملوك المهمين في هذه الأسرة « أخوريس » الذي حكم ثلاثة عشر عاماً، وقد وجه الفرس في عهده حملة إلى مصر لإعادة احتلالها إلا أنه تمكن من ردهم عنها، ومد سيطرته بعد ذلك نحو فلسطين وجنوب فينيقية. ولقد عثر على آثار له في مناطق مختلفة من مصر أهمها هابو والكرنك والكاب. وبعد وفاته جلس على العرش المصري نفرتيس الثاني الذي لم يحكم سوى بضعة أشهر، انتقلت السلطة بعدها إلى شخص اسمه « نخت - نب – إن » والذي عُدّ مؤسساً للأسرة الثلاثين.

الأسرة الثلاثون (380–342 ق.م) :

كما ذكرنا فإن « نخت نب إن » هو أول ملوك هذه الأسرة، وقد شيد الكثير من المباني ولاسيّما في الفيلة. وقد حاول الفرس في عام 373 ق0م احتلال مصر عن طريق حملة قادها والي سورية الفارسي إلا أن الفرس الذين تمكّنوا من دخول مصر اضطروا للانسحاب عنها بسبب فيضان نهر النيل بشكل كبير في هذا العام. خلف « نخت نب إن » ابنه « جد حر » الذي أنفق أموالاً طائلة على إعداد جيش كبير من الوطنيين والمرتزقة وكذلك أسطول كبير دخل به إلى سورية محاولاً إعادة أمجاد الدولة المصرية. وأثناء وجوده في سورية ثار عليه أخوه في مصر مستدعياً القوات المؤيدة له الموجودة مع شقيقه في سورية إلى مصر. وبعد فترة من الفوضى اعتلى العرش المصري « نختبو الثاني » الذي أكثر من العمائر الدينية وصدّ هجوماً آخر للفرس على مصر عام 350ق0م.

الأسرة الحادية والثلاثون وعودة الفرس إلى مصر (343–332 ق.م):

تمكن الفرس بنتيجة حملة كبرى قاموا بها في خريف عام 343 ق 0م وكان على رأسها الفارسي أرتاكسركسيس الثالث من دخول مصر وجعلها ولاية فارسية مجدداً.
واستمر وجود الفرس فيها إلى أن دخلها الاسكندر المقدوني عام 332 ق 0م حيث استسلم له الوالي الفارسي، وقد أحسن الاسكندر معاملة المصريين وأكرم آلهتهم واعترف به الكهنة ملكاً على البلاد.

ومع دخول قوات الاسكندر المقدوني إلى مصر تنتهي عهود الشرق القديم المصرية لتبدأ العصور الكلاسيكية (الهلنستية) الرومانية والبيزنطية فيما بعد، هكذا حتى دخلها العرب المسلمون فاتحين عام 640م.

Damascus University



الباب الرابع

الجزيرة العربية

Damascus University



الفصل الأول

جغرافية شبه الجزيرة العربية

شبه الجزيرة العربية هي المنطقة المحصورة بين بادية الشام شمالاً ، والمحيط الهندي جنوباً، والبحر الأحمر غرباً، والخليج العربي وبحر عمان شرقاً فهي شبه جزيرة تحيط بها المياه من ثلاث جهات، وتعد أكبر شبه جزيرة في العالم من حيث المساحة.

وقد سماها جغرافيو العرب القدامى جزيرة، وأدخلوا فيها بلاد الشام والعراق. وعللوا ذلك بقولهم: » وإنما سميت بلاد العرب الجزيرة لإحاطة البحار والأنهار بها من أقطارها وأطرارها (أو أطرافها)، فصاروا منها في مثل الجزيرة من جزائر البحر، وذلك أن الفرات القافل من بلاد الروم يظهر بناحية قنّسرين، ثم انحط على الجزيرة وسواد العراق حتى دفع في البحر من ناحية البصرة والأُبلة وامتداد البحر من ذلك الموضع مغرباً مطيفاً بلاد العرب، منعطفاً عليها، فأتى منها على سفوان وكاظمة، ونفذ إلى القطيف وهَجْر وأسياف البحرين وقطر وعُمان والشحر، ومال عنه عنق إلى حضرموت وناحية أبين وعدن ودهلك، واستطال ذلك العنق فطعن في تهائم اليمن وبلاد فرسان وحكم والأشعريين وعَكّ، ومضى إلى جدة ساحل مكة والجار، وساحل المدينة ساحل الطور، وخليج إيلة وساحل راية حتى بلغ قلزم مصر وخالط بلادها، وأقبل النيل من غربي هذا العنق من أعلى بلاد السودان مستطيلاً معارضاً للبحر معه حتى دفع من بحر مصر والشام، ثم أقبل ذلك البحر من مصر حتى بلغ بلاد فلسطين فمر بعسقلان وسواحلها وأتى صور وساحل الأردن، وعلى بيروت وذواتها من سواحل دمشق ثم نفذ إلى سواحل

حمص، وسواحل قنّسرين حتى خالط الناحية التي أقبل منها الفرات منحطاً على أطراف قنّسرين والجزيرة إلى سواد العراق. ([1]).

ومنهم من ذهب إلى اعتبار نهر الفرات في الشمال وانعطافه إلى مسافة قريبة من البحر المتوسط عند مدينة قنّسرين، هو الحد الشمالي لجزيرة العرب، أي عدّوه حدّاً طبيعياً شمالياً لها، مما يمكن تسميتها بالجزيرة.

وتختلف بلاد العرب من حيث طبيعتها باختلاف أجزائها، فبعضها تغطيه كثبان الرمل، والبعض الآخر مكسو بالصخور، وبعضها منخفض، والآخر مرتفع.

أما القسم الشمالي من هذه المنطقة، أي بلاد الشام والعراق فيختلف اختلافاً كبيراً من الناحية الطبيعية والمناخية عن القسم الجنوبي، أي شبة الجزيرة العربية، مما كان له أثر كبير في ظهور المستوطنات البشرية، والمدن والممالك، وتحقيق المنجزات الحضارية.

فعرفت الزراعة والاستقرار البشري منذ الألف الثامن قبل الميلاد في الشام والعراق ومع الزمن تحولت المستوطنات والقرى الأولى إلى مدن وعواصم لممالك ودول وامبراطوريات كأور وأوروك وبابل وآشور وماري وحلب وأوجاريت ودمشق وغيرها وحقق الإنسان الكثير من المنجزات الحضارية كاختراع الكتابة والأبجدية، ومعرفة المعادن والفنون المختلفة. ولكن هذا لا يعني أن شبه الجزيرة العربية كانت في معزل عن كل هذه التطورات، فعلاقاتها مع بلاد الشام والعراق قديمة جداً، تشهد عليها المكتشفات الأثرية التي تمت خاصة في أطرافها الشرقية، وتعود إلى الألف الخامس قبل الميلاد على الأقل. كما أن بعض مناطقها الشرقية كديلمون (البحرين) وماجان (عُمان) وتذكر في نصوص رافدية تعود إلى الألف الثالث قبل الميلاد. ومن المحتمل جداً أن تؤدي الدراسات والحفريات الأثرية المستقبلية في شبه الجزيرة العربية إلى الكشف عن صفحات مجهولة في

---

[1]- الهمداني، أبو الحسن بن أحمد بن يعقوب، صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن علي الأكوع الحوالي، صنعاء، 1990، ص84.
الحموي، ياقوت: معجم البلدان، ط1، دار صادر، بيروت، المجلد الثاني، مادة جزيرة العرب، ص137.

تاريخ هذه المنطقة، ولاسيّما وأن هناك مؤشرات كثيرة تدل على وجود استيطان بشري في بعض مناطق اليمن منذ العصر الحجري الحديث (ما بين الالف الثامن والخامس قبل الميلاد)، وأن المناخ الصحراوي السائد لم يكن كذلك في تلك العصور الموغلة في القدم.([2])

أولاً- الأقسام الجغرافية لجزيرة العرب :

1- عند الأغريق والرومان :

لم تكن كل أقسام بلاد العرب في نظر الجغرافيين القدامى معروفة تماماً، وخاصة عند جغرافيي اليونان والرومان الذين قسموها إلى ثلاثة أقسام.

1- بلاد العرب الصخرية (Arabia Petraea) :

وتقع في الشمال من بلاد العرب، جنوبي غربي بادية الشام، حيث مملكة الأنباط ومركزها البتراء. وقد سميت بهذا الاسم نسبة إلى طبيعتها الصخرية.

2- بلاد العرب الصحراوية (Arabia Deserta) :

وتشمل بادية الشام، وبعض الصحارى الداخلية من شبه الجزيرة العربية التي تعيش فيها القبائل البدوية.

3- بلاد العرب السعيدة (Arabia Felix)

وتشمل الجزء الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة العربية والمقصود بها بلاد اليمن أو الأرض الخضراء.

وبلاد العرب الصحر اوية في الواقع هي أكبر هذه الأقسام، لكثرة صحرواتها في الوسط والشمال والجنوب، والصحراء العربية تتنوع وتختلف من موضع إلى آخر وتنقسم إلى ثلاثة أقسام :

---

[2]- انظر: مرعي، عيد: تاريخ الجزيرة العربية القديم، مكتبة الخبتي بيشة، 2004، ص6.

Damascus University

- الحرار، جمع حرة وتنتشر في مناطق كثيرة من الجزيرة.
- صحراء الجنوب « الدهناء » وتشغل مساحة كبيرة من شبه الجزيرة.
- صحراء النفوذ، وتقع في شمال الجزيرة العربية.

2– عند العرب :

لقد قسم الجغرافيون العرب شبه الجزيرة العربية إلى خمسة أقسام كبرى وهي : تهامة والحجاز ونجد والعروض واليمن. ([3])

أ– تهامة :

وهي المنطقة الساحلية الضيقة الموازية للبحر الأحمر والممتدة من اليمن جنوباً إلى العقبة شمالاً، ويحجزها عن داخل شبه الجزيرة العربية سلسلة جبال السراة أعظم جبال العرب. وسميت بهذا الاسم من التهم، وهو شدة الحر وركود الريح وتسمى أيضاً بالغور لانخفاض أرضها، وفيها كانت تمر القوافل التجارية التي تسلك الطريق الغربي الذي يمتد متاخماً للبحر الأحمر أكثر أجزاء تهامة رملي شديد الحرارة قليل الإنبات ، وتقع فيها الكثير من المرافئ العربية مثل جده وينبع في الحجاز، والحديدة ومخا في اليمن.

ب– الحجاز :

سمي حجازاً لأنه يقف كحاجز بين نجد وتهامة، ويقال أيضاً إنه سمي بهذا الاسم لأنه يحجز بين الشام واليمن ([4]).

ويتألف الحجاز من سلسلة جبال السراة التي تمتد من اليمن إلى الشام وقسمت هذه السلسلة إلى ثلاثة أقسام: مدين في الشمال، والحجاز في الوسط، وعسير في الجنوب .

---

[3]- الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص 84. ياقوت الحموي: معجم البلدان، مجلد 2، مادة جزيرة العرب، ص137.

[4]- المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ط2، إيران، 1984، مج2، ص35.

Damascus University

وتعد مكة والمدينة أهم مدن الحجاز ففي الأولى الكعبة، ومكان ولادة الرسول (ص) ، والمدينة هي مكان هجرته ويؤوي ترابها جسده الطاهر ([5]).

ج– نجد :

وتشمل المنطقة الوسطى التي تقع شرقي الحجاز وتمتد حتى الخليج العربي. وحدودها غير واضحة وهي عبارة عن الهضبة التي تقع في وسط جزيرة العرب، و تتخلل هذه الهضبة أودية وتلال ترتفع عن سطحها بضع مئات من الأقدام، وأعلى أراضيها أرض نجد الغربية المحاذية للحجاز، ثم تأخذ هذه الهضبة في الانحدار كلما اتجهت نحو الشرق حتى تتصل بأرض العروض، لذلك أطلق العرب على الأجزاء الشرقية المنخفضة من نجد اسم السافلة، أما المناطق الغربية فقد أطلقوا عليها اسم العالية أو عاليّ نجد. ([6])

د–العروض :

وتشمل اليمامة والبحرين وما والاهما، وسميت عروضاً لأنها تعترض بين اليمن ونجد والعراق ([7]). أغلب أراضي العروض صحارى، وسهول ترتفع في الجهات الغربية.

واليمامة حسب الجغرافيين العرب، منطقة خصبة تكثر فيها العيون والآبار والمزارع ، وخاصة منطقة الخرج التي تعد من أشهر المناطق الزراعية في المملكة العربية السعودية.

أما البحرين، فهو أقليم فسيح قريب من الخليج العربي، قاعدته هجر ([8])، وتمتد من البصرة شمالاً إلى عُمان جنوباً، ويتألف من قطر والاحساء، وقصبة هجر الاحساء الغنية بالآبار والعيون، وتوجد بالقرب من ميناء العقير الصغير القريب من القطين خرائب وآثار الميناء التجاري الهام « الجرهاء » الذي ازدهر في العصرين الهلينستي والروماني. ([9])

---

[5]- العاقل، نبيه: تاريخ العرب القديم، ط4، جامعة دمشق، 1991، ص26.

[6]- ياقوت الحموي، دار صادر، مادة نجد، ج5، ص245.

[7]- ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج5، مادة عروض، ص112.

[8]- الحموي، الحموي: معجم البلدان، المصدر السابق، مادة هجر، ص 442.

[9]- مرعي، عيد: تاريخ الجزيرة العربية، ص11.

Damascus University

هـ– اليمن :

هي القسم الجنوبي من بلاد العرب، ويحدها المحيط الهندي من الجنوب ، والبحر الأحمر من الغرب، والحجاز من الشمال، وعُمان من الشرق، ويقول الهمداني « سميت اليمن الخضراء لكثرة أشجارها وثمارها وز روعها والبحر مطيف بها من المشرق إلى الجنوب فراجعاً إلى المغرب، ويفصل بينها وبين باقي جزيرة العرب خط يأخذ من حدود عُمان ويبرين إلى حد ما بين اليمن واليمامة فإلى حدود الهجيرة وتثليث ». ([10])

فاليمن من اليُمن والخير والبركة، وهي حضرموت وعُمان وما بينه ما وفيه التهائم والنجد ([11]). وهناك من يرى « أنها سميت باليمن لأنها تقع على يمين الكعبة، أو هناك من يرى أنها سميت بذلك لتيامن العرب إليها، أو لأن الناس قد كثروا بمكة فلم تحملهم فالتأمت بنو اليمن إلى اليمن، وهي أيمن الأرض فسميت بذلك » ([12]) ويبدو أن اسم (يمن) يرجع إلى كلمة (يمرات) الواردة في لقب شريهرعش، مؤسس المملكة الحميرية الثانية (270-310م) الذي سمى نفسه نحو (290)م « ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمرات ».

تمتاز اليمن باعتدال مناخها وخصوبة ترب تها، وسقوط كميات كبيرة من الأمطار الصيفية مما أتاح قيام زراعة مزدهرة فيها ، حيث زرعت بالحبوب والفواكهة واللبان والمر والبخور وغير ذلك، وقد سمّاها الجغرافيون القدماء اسم « العربية السعيدة ».

ثانياً– التضاريس :

10- الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص90.

11- البكري، ابي عبد الله بن عب د العزيز، معجم ما استعجم، تحقيق مصطفى الس قا، عالم الكتب ، بيروت، ج1، ص9.

12- الحموي، ياقوت: المصدر السابق، مج5، مادة يمن، ص447.

تتكون أغلب أراض الجزيرة العربية من بواد وسهول يغلب عليها الطبيعة الصحراوية، باستثناء أقسامها الجغرافية الشرقية والجنوبية الغربية والغربية، حيث ترتفع الجبال العالية المتمثلة في الجبل الأخضر في عُمان، وجبال اليمن، وجبال السراة في المملكة السعودية، وأشهر الصحاري وأكبرها النفوذ في الشمال، والدهناء في الشرق، والربع الخالي في الجنوب.

وتكثر الحرار (مفردها حَرّة) في شبه جزي.رة العرب، ولاسيّما في المن.اطق الغربية والجنوبية الغربية، وهي عبارة عن أرض ذات حجارة نخرة سود تشكل من الحجارة والمعادن المصهورة التي قذفتها البراكين عبر الزمن، وأشهر الحرار في بلاد العرب :

حرة العويرض شمال مدائن صالح، وحرة النار قرب خيبر شمال يثرب ، وحرة واقم التي سميت بها وقعة الحرة زمن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان ، وحرة ارحب شمال صنعاء التي كان يستخرج الناس منها حجارة سوداء لبناء البيوت ، وحرة ضروان في اليمن حيث كان الناس يقدسونها ويحتكمون إليها خوفاً مما كانت تقذفه من نيران وحمم.

ومن الجدير بالذكر أن التربة في هذه الحرة خصبة، صالحة للزراعة، والمياه متوفرة بالقرب من السطح، مما مكن الإنسان من استثمارها بشكل جيد، كما في حرة النار قرب خيبر التي اشتهرت بزراعتها وبساتينها الكثيفة.

ثالثاً- المناخ والمياه :

يختلف المناخ في شبه الجزيرة العربية باختلاف الأقسام الجغرافية، وبما أن معظم أراضيها بادية يغلب عليهاالجفاف وشدة الحرارة وعدم انتظام مواسم الأمطار ، وعلى الرغم من إحاطة البحار بها من ثلاث جهات، فإن الجو البحري لم يخفف من شدة الحرارة فيها، أو يتغلب على جفافها، وتهب على الجزيرة أنواع مختلفة من الرياح عامة وموسيمية ومحلية باردة، وحارة ممطرة وجافة، وأَحَبُّ الرياح في الجزيرة العربية رياح تهب من

المشرق ويدعونها الصبا لرقتها ويقال لها القبول، وهي ريح طيبة مقبولة، والنفس تصبو إليها وأكثر هبوبها على أقليم نجد، وأحبها العرب لأنها تجيء بالسحاب والمطر وفيها الري والخصب.

وأكره الرياح هناك رياح السموم فهي اللهب الذي تنفثه الصحراء ([13])، يقول المسعودي: إن الرياح أربعة، أحدها تهب من جهة الشرق وهي القبول والثانية من المغرب وهي الدبور، والثالثة من اليمن ، وهي الجنوب، والرابعة من التيسر وهي الشمال ([14]).

أما الأمطار فهي قليلة عامّةً وتسقط شتاءً في الوسط والشمال، حيث تؤدي إلى نمو غطاء نباتي بسيط صالحاً للرعي، أما الأمطار الصيفية فتسقط بغزارة في اليمن نتيجة سيادة المناخ المداري. ولا توجد في شبه الجزيرة أنهار دائمة الجريان، بل نجد الكثير من الأودية التي يعتقد بعض الباحثين أنها ربّما كانت أنهاراً في يوم ما ([15]).

وأشهر هذه الأودية هي: وادي الحمض، وادي السرحان، وادي الرمة ، وادي مور، وادي الدواسر، وادي حنيفة، وادي بيشة، وادي مأرب.

وللاستفادة من مياه الأمطار الصيفية الغزيرة، لجأ العرب إلى بناء السدود في اليمن وكان أشهرها سد مأرب.

فقد كان لتنوع المناخ أثره في نمط حياة الناس، وأماكن استقرارهم ونشاطاتهم، لذا تركز الاستقرار الحضري في المناطق الجنوبية الغربية حيث تسقط كميات كبيرة من الأمطار في فصل الصيف، وفي مناطق الواحات حيث توجد المياه الجوفية، بينما انتشر البدو في المناطق الصحراوية.

رابعاً– النبات والحيوان في الجزيرة :

---

[13]- زكار، سهيل: خربوطلي، شكران، تاريخ الوطن العربي القديم، جامعة دمشق، 2000، ص47.

[14]- المسعودي، مروج الذهب، ج2، ص221.

[15]- جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج1، بيروت، 1968م، ص157-158.

لقد ترك المناخ أثره في حياة النباتات والحيوانات التي عاشت في شبه الجزيرة العربية، فزُرع اللبان والبخور والصمغ في اليمن، والحبوب الكروم والمشمش والتفاح في الحجاز وبعض الواحات، أما النخيل فقد زرع في معظم المناطق وكان غذاءً أساسياً للسكان. ويبدو أن زراعتها أدخلت إلى شبه الجزيرة العربية من جنوبي بلاد الرافدين، حيث عُرفت هناك منذ الألف الثالثة قبل الميلاد، ونظراً لأهميتها الاقتصادية نظر إليها السكان نظرة قدسية، ووضعوا لها الأناشيد والترانيم في مدحها،وذكرت في بعض قوانينهم التي دونوها، مثل قانون حمورابي ([16]).

وكانت تنمو في الصحراء بعض الأنواع من الأشجار والنباتات البرية كالأثل والطلح والسدر والأراك الذي يصنع منه المسواك، أما شجرة البن التي اشتهرت بها اليمن في العصور اللاحقة، فقد أدخلت إليها في القرن الرابع عشر الميلادي.

وبالنسبة للحيوانات فأهمها وأشهرها الجمل ، الذي استخدم لحمل الأثقال وقطع المسافات الطويلة بسبب مقدرته الفائقة على تحمل العطش أيام اً طويلةً في الجو الحار لذلك سمي (سفينة الصحراء).

وكان معروفاً في الشرق القديم منذ الألف الثانية قبل الميلاد، وعرف العرب الحصان، ولكن في زمن متأخر، كما عرفت بعض الحيونات الأخرى كالحمير والبغال والأبقار والأغنام والماعز ، إضافة إلى الحيونات البرية كحم ار الوحش والنمور والأسود والذئاب والوعل والثعالب والخنزير ... وغيرها . ومن الطيور الكواسر في الجزيرة ، العقاب والباز والصقر إلى جانب الحمام والقطا والغراب وغير ذلك، كما نجد الحشرات السامة كالثعبان والعقرب ويكثر الجراد في الصحراء.

16- مرعي، عيد: تاريخ الجزيرة العربية، ص8.

الفصل الثاني

مصادر تاريخ العرب القديم

أولاً – المصادر المادية :

وتشمل كل المخلفات الأثرية من أوابد معمارية كبقايا المعابد والسدود والأسوار والمساكن والمقابر، إضافة إلى المنحوتات والأواني الحجرية والفخارية والمعدنية، فهذه الآثار هي الشاهد الصادق على حضارة أصحابها فمن دراستها، نستطيع أن نعرف مدى الرقي والتقدم الذي وصل إليه الأقدمون، كما يمكننا أن نكوّن صورة واضحة الملامح عن بعض مظاهر الحضارة العربية القديمة.

ثانياً– النقوش :

وتشمل كل النقوش والكتابات العربية القديمة، التي عثر عليها في شبه الجزيرة العربية وما حولها. وقد كتبت إما بخطوط المسند ، أو الخط الآرامي أو الخط العربي الخالص . وقد فاق عدد النقوش المكتشفة في جنوب الجزيرة العربي .ة عشرة آلاف نقش مكتوبة باللهجات (السبئية والمعينية والحميرية وغيرها) والغ البية العظمى من هذه النقوش مكتوبة على الحجر وبعضها الآخر على البرونز، موضوعات هذه النقوش متنوعة منها ما يتعلق بتنظيم الحياة العامة وهذه مراسيم أصدرها ملوك الدول اليمنية المختلفة تتعلق بتوزيع الأراض الزراعية وتنظيم عمليات الري، وبعض النقوش دينية، وهذه تشغل الحيز الأكبر من مجموع النقوش اليمنية، ومن أهمها نقوش الهبات والقرابين والاحتفال بإنهاء بناء بعض المعابد أو ترميمها، ومنها أيضاً النصب الجنائزية وشواهد القبور.

تتصف هذه النقوش عموماً أنها قصيرة وفقيرة بالمعلومات، وتقتصر على الأمور الشخصية، لكنها مع ذلك تقدم لنا معلومات مهمة كأسماء بعض الملوك والآلهة والمعابد، وبعض الأحداث التاريخية.

النقوش اليمنية القديمة :

وهناك نصوص تتعلق بالممتلكات، وهي بالدرجة الأولى تتعلق بمناسبة أقامة منشآت أو توسيعها وبنفس الوقت تحدد حقوق الأشخاص فيها، وقد تكون هذه المنشآت عبارة عن مساكن وملحقاتها أو آبار وسدود وقنوات، وتنصم إلى هذه الفئة النصوص المحددة للملكية العقارية التي تحرم دخولها على الغير، وأخيراً هناك النصوص التذكارية التي تمجد الملوك أو بعض الشخصيات الهامة في الدولة لقيامهم ببعض الأعمال الهامة، وخير مثال على ذلك: نقش النصر الذي خطه المكرب- السبأي (كرب إل وتر) الذي يذكر فيه الانتصارات التي حققها على دولة أوسان... الخ ([1])

ومن الجدير بالذكر أن النقوش العربية الجنوبية كتبت بالخط المسند وهو خط أبجدي يتألف من تسعة وعشرين حرفاً، اخترعه عرب الجنوب في بدايات الألف الأول قبل الميلاد، أما اللغة المستخدمة في كتابة هذه النقوش فهي عربية جنوبية تفرعت إلى لهجات سميت بأسماء الدول والممالك التي قامت في اليمن (معينية وسبئية وحميرية..الخ) وقد أرخت تلك النقوش بسنوات حكم الملوك والزعماء حتى جاء الحميريون، فاعتبروا سنة وصولهم إلى السلطة بداية تقويم جديد يوافق العام 115 أو 109 ق0م.

بالنسبة للنقوش العربية الشمالية فقد كُتبت بلغة عربية شمالية، ولكن بخطوط مشتقة من الخط المسند (النقوش الثمودية واللحيانية والصفوية والإحسائية) أو بالخط الآرامي- النبطي المتأخر (النقوش العربية القديمة المكتشفة في سورية كنقوش النمارة وأم الجمال وزيد

---

[1]- انظر: الجرو، أسمهان: التاريخ السياسي لجنوب الجزيرة العربية، مؤسسة حمادة، الأردن، 1996، ص40 وما بعدها.

وأسيس وحران.. الخ) الذي توصل الحروف فيه، والذي تطور عنه الخط العربي الشمالي اللاحق.

نذكر فيما يلي بعض النقوش العربيةالقديمة ([2]) :

أ- نقش من عهد شرحبيل يعفر « ملك سبأ وذي ريدان وحضر موت ويمنات وأعرابها في الجبال والسواحل » يتحدث عن تصدع سد مأرب والإجراءات التي قام بها الملك لإصلاحه.

نقرأ في النص أن شرحبيل يعفر جدد بناء السد ورممه على مقربة من « رحب » وعند » عبرن « وأصلح أجزاء منه حتى موضع "طمحان"، وحفر مسايل المياه، وبنى القواعد والجدارن بالحجارة.

تاريخ النص هو العام 564-565 من التقويم الحميري، أي ما يوافق العام 449-450 ميلادي.

ب- نقش حصن الغراب: الذي جاء فيه أن الأحباش احتلوا أرض حمير وقتلوا ملكها وأقياله الحميريين والأرحبين في سن 640 من التقويم الحميري الموافق لسنة 525 ميلادية. ويرد فيه ذكر السميفع أشوع الذي نصبه نجاشي الحبشة ملكاً على اليمن بعد احتلاله في العام 525م.

ج- نقش النمارة: وهو أهم نقش عربي شمالي، عثر عليه الفرنسي رينيه ديسو في منطقة النمارة الواقعة على بعد نحو 120 كم إلى الجنوب الشرقي من دمشق، وهو محفور في شاهدة قبر ملك الحيرة اللخمي امرئ القيس بن عمرو بن عدي (288-329م). وكُتب بالخطالآرامي النبطي، لكن بلغة عربية شمالية، ويرقى تاريخه إلى العام 328م.

---

[2]- اعتمدنا في هذه الفقرة على ماورد عند د. مرعي، عيد: تاريخ الجزيرة العربية، ص15 وما بعدها.

د- نقش أم الجمال الأول :عثر عليه في منطقة أم الجمال في حوران جنوبي سورية، وقد دُوِّن على قبر أحد أتباع ملك الحيرة جذيمة المدعو « فهر بن سلي مربي تنوخ »، ويعود تاريخه إلى العام 250م.

هـ- نقش زبد: عُثر عليه في موقع زبد قنسرين والفرات جنوب شرقي حلب، هو نقش ثلاثي اللغة trilinpua (العربية والسريانية والاغريقية)، ويعود إلى العام 512م.

و- نقش جبل أُسَيْس: الذي عُثر عليه في جبل أسيس الواقع في حرة بركانية إلى الجنوب الشرقي من دمشق. ويتحدث عن رسول اسمه إبراهيم بن مغيرة الأوسي أرسله الملك الغساني الحارث بن جبلة بمهمة عسكرية في العام 528م.

ز- كتابات الفاو: عثرت عليها بعثة أثرية سعودية برئاسة الأستاذ الدكتور عبد الرحمن الأنصاري موقع الفاو الحالي بالقرب من وادي الدواسر شمال شرقي نجران. وتضم نقوشاً عربيةً شمالية بالخط المسند ونقوشاً سبيئية تسمى الوقع باسم « قرية ذات كهل » نسبة إلى كبير آلهتها كهل. ([3])

ثالثاً- الوثائق الرافدية :

لم تكن هناك حدود فاصلة بين شبه الجزيرة العربية وبلاد الرافدين ط وال العصور التاريخية المختلفة. فالقبائل البدوية كانت تتحرك باستمرار، وتدخل بلاد الرافدين عندما تسنح لها الفرصة المناسبة. ويرد ذكر أسماء بعض المناطق الشرقية من شبه الجزيرة العربية في الوثائق السومرية منذ الألف الثالث قبل الميلاد كديلمون (البحرين) وماجان (عُمان).

غير أن أول ذكر للعرب في وثائق رافدية (وقديمة على الاطلاق) يعود إلى العام 853 قبل الميلاد، وبالتحديد في تقرير للملك الآشوري شَلْمَنَصَّر الثالث (858-

---

[3]- الأنصاري، عبد الرحمن : أضواء جديدة على دولة كندة من خلال آثار قرية الفاو ونقوشها، في دراسات في تاريخ الجزيرة العربية- مصادر تاريخ الجزيرة العربية، الجزء الأول، الرياض ، 1979، ص7 ومايليها.

Damascus University

824ق0م) عن معركة قَرْقَر التي جر ت بالقرب من مدينة حماة في سورية. ويذكر شلمنصر الثالث بين ملوك التحالف الآرامي الذين وقفوا ضده "جندب" العربي ومعه ألف راكب جمل، دون أن يعطي أية معلومات أخرى عن العرب أو عن المنطقة التي كانوا يعيشون فيها في بلاد الشام آنذاك.

تؤكد لنا هذه المعلومة أن العرب لم يكونوا محصورين في شبه الجزيرة العربية، بل انتشروا في المناطق المجاورة منذ زمن مبكر، هو أقدم بكثير من تاريخ هذا النص الآشوري.

يتكرر في العصور التالية ذكر العرب في النصوص الآشورية بشكل واضح. فتيكلات بيلصر الثالث (745-727ق0م) الذي أخضع بلاد الشام للحكم الآشوري يذكر في إحدى الكتابات ملكتين عربيتين هما زبيبة وشمسي، في قائمة من كان يدفع الجزية له، وذلك بعد هزيمتهما أمام الجيش الآشوري.

ويذكر أيضاً أسماء بعض القبائل والمدن العربية في شمال غربي شبه الجزيرة العربية كمسأة وغيفة وسبأ وتيماء، والتي دفعت له الجزية طوعاً للحفاظ على مصالحها التجارية في هذه المنطقة. أما الجزية فتألفت من الجمال بالدرجة الأولى ثم التوابل و الأفاوية وأحياناً الذهب والفضة.

وعندما اعتلى شاروكين الثاني العرش في آشور (722-705ق0م) تابع الجهود بمحاربة القبائل العربية التي تنشر الاضطراب عندأطراف امبراطوريته. فيذكر أنه قضى على أربع قبائل عربية، (من بينها قبيلة ثمود) هجَّر أفراد اً منها إلى منطقة السامرة. وقام ابنه وخليفته سنحريب (705-681ق0م) بإخضاع أدوماتو (دومة الجندل) في العام 688ق0م، وطارد ملكاً عربياً اسمه خزائيل مع حليفته الملكة تعلخونو اللذين هربا إلى دومة الجندل. وتستمر ملاحقة القبائل العربية ومحاربتها في عهود الملوك الآشوريين اللاحقين، أسر حدّون و آشور بانيبال، فتذكرهم النصوص المكتوبة، وتصورهم اللوحات الحجرية والأنصاب أعداء أشداء للملوك الآشوريين الذين بذلوا جّل طاقتهم للحفاظ

على أمن وسلامة الطريق التجارية القادمة من اليمن والعابرة لشمال غربي شبه الجزيرة العربية حيث كانت تقيم قبائل عربية متعددة.

يرد في النصوص الآشورية كما لا حظنا ذكر العديد من الملكات العربيات. وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على مكانة المرأة المتقدمة في المجتمع العربي القديم.

قامت في بلاد الرافدين، بعد سقوط الامبراطورية الآشورية الحديثة في العام 612ق0م، المم لكة البابلية الحديثة (الكلدانية). يتحدث نابونيد، آخر ملوك هذه المملكة، (555-539ق0م) عن قيامه بهجوم على واحة تيماء الواقعة في شمال غربي شبه الجزيرة العربية، وقتله ملكها، وتشريد أهلها، واتخاذها مقراً له نحو سنوات، هاجراً بذلك عاصمته بابل، ودون ذكر أية أسباب لتصرفه الغريب هذا. ولم يعد إلى بابل إلا بعد ظهور الملك الفارسي قورش الثاني أمام بواباتها.

يتضح مما تقدم أن مناطق شمال غربي شبه الجزيرة العربية كانت تتمتع بأهمية كبيرة الأمر الذي جعل الملك البابلي يختارها مقراً لإقامته.

رابعاً- الوثائق الفارسية – الأخمينية:

يظهر العرب في بعض وثائق الامبراطورية الفارسية – الأخمينية التي قامت على أنقاض الامبراطوريات الشرقية القديمة. فعندم ا سار قمبيز لاحتلال مصر في العام 525ق0م عقد اتفاقاً مع القبال العربية الموجودة في سيناء ينص على تقديمهم الجمال والماء والأدلاء للجيش الفارسي عند عبوره سيناء إلى مصر. وتظهر فرق عربية مقاتلة في الجيش الفارسي في العصور التالية.

خامساً- التوراة:

بقيت التوراة، كتاب اليهود الديني، حتى منتصف القرن الثامن عشر الميلادي المصدر الرئيس لتاريخ الشرق القديم، بما في ذلك تاريخ العرب القديم، وذلك لأنها تتضمن في بعض اسفارها معلومات عن قبائل وشخصيات وممالك عربية قديمة كالمديانيين والأنباط والسبئيين وغيرهم. غير أن الوضع أخذ بالتغير تدريجياً نتيجة الاكتشافات الأثرية، والعثور على نقوش وكتابات قديمة كثيرة قدمت معلومات جديدة وأكثر ثقة ومصداقية عن تاريخ العرب القديم. فتراجعت بالتالي مكانة التوراة كمصدر تاريخي لتصبح مصدراً ثانوياً من مصادر تاريخ العرب قبل الإسلام.

سادساً- كتابات المؤرخين والجغرافيين الاغريق والرومان :

تحدث العديد من المؤرخين والجغرافيين الرومان في مؤلفاتهم عن بلاد العرب وعن القبائل العربية التي احتكوا بها، أو سمعوا عنها. واستقوا أخبارهم عن ذلك، إما من زياراتهم ورحلاتهم الشخصية التي قاموا بها إلى بعض مناطق بلاد العرب، أو من خلال اشتراكهم في بعض الحملات العسكرية ضد بلاد العرب، أو من التجار والبحارة الذي ن تاجروا مع بلاد العرب. ومن أشهر هؤلاء هيرودو ت (Herodot) المؤرخ الاغريقي الشهير الملقب بـ « أبي التاريخ » الذي عاش في ا لقرن الخامس قبل الميلاد (490-435ق0م)، وزار معظم أرجاء الشرق القديم (مصر وبلاد الشام وبلاد الرافدين وفارس)، وكرس مؤلفه « التواريخ » للحديث عن الحروب الفارسية - الاغريقية (490-479ق0م) لكنه تحدث أيضاً عن مصر وبلاد الرافدين وسورية وعن القبائل العربية التي كانت تقيم في المناطق القريبة من سيناء وشمال غربي شبه الجزيرة العربية. ووصف بلاد العرب بقوله: « إن أريج الطيوب يملأ جو هذه البلاد، والعرب يتاجرون بهذه الطيوب والتوابل مع البلدان الأخرى ». وهناك الجغرافي ثيوفراست (Theophrast) (371-287 ق0م) الذي يتحدث في كتابه عن النباتات، عن بلاد العرب، وبخاصة الجنوبية منها، التي كانت تصدر التمور واللبان والبخور والمر. وظهر في العصر الهلنستي (333-

30 ق. م) اهتمام أكبر بشبه الجزيرة العربية، ولاسيّما بعلاقاتها التجارية. ومن أبرز الجغرافيين الذين ظهروا في هذا العصر إراتوشنيس (Eratosthenes) (إرتسطين عند العرب) (275-194ق0م) الذي شغل منصب أمين مكتبة الاسكندرية. وتتميز المعلومات التي يوردها عن شبه الجزيرة العربية في كتاباته با لجدية والعلمية، وهي معلومات اقتصادية بالدرجة الأولى ويذكر كذلك الأقوام الأربع الرئيسة التي كانت تعيش في جنوبي شبه الجزيرة العربية وهي :المعينيون والسبئيون والقتبانيون والحضارمة.

ويتحدث بالتفصيل عن مواردهم الاقتصادية، ويعطي، للمرة الأولى، هيكلاً عاماً للخطوط التجارية البرية والبحرية التي تصل جنوبي شبه الجزيرة العربية بميناء أيله (العقبة حالياً) شمالاً، والجرهاء على الخليج العربي في الشمال الشرقي.

ويصف الجغرافي أغاثارخيديس (Agatharchides) في كتابه الذي ظهر في الثلث الأخير من القرن الثاني قبل الميلاد، والمعروف باسم « الطاف حول البحر الارتيري » السواحل الغربية لشبه الجزيرة العربية المطلة على البحر الأحمر، ويسهب في وصف منطقة سبأ ومواردها وثروتها وحياة البذخ التي كانت تعيشها الطبقة الأرستقراطية فيها.

أما الجغرافي سترابون (Strabon) (64-ق0م-19م) فقد أقام في مصر نحو خمس سنوات، ورافق صديقه إليوس غالوس (Aelius Gallus) أول والي روماني على مصر في حملته على جنوبي شبه الجزيرة العربية في العام 24ق0م، والتي كان هدفها السيطرة على طرف التجارة العالمية التي كانت تمر ببلاد العرب الجنوبية آنذاك. توجد معلوماته عن جنوبي شبه الجزيرة العربية في الكتاب السادس عشر من مؤلفه « الجغرافية » (Geographica)، الذي وصف فيه مدن العرب وقبائلهم في أيامه. واهتم بالحديث عن الأحوال الاجتماعية والتجارية، ولاسيّما التغيير الذي حصل في عصره في مسار الخطوط التجارية البحري ضمن البحر الأحمر. وتحدث بالتفصيل عن حملة إليوس غالوس، أسبابها، والاستعدادات التي سبقتها، والطرق التي سلكتها، والمدن التي مرت بها. وعزا فشلها إلى خيانة الوزير النبطي صالح (سيليوس) وزير الملك النبطي عُبادة الثالث، الذي

رافق الحملة كدليل لها كما أسهب سترابون بالحديث عن جغرافية مصر ونهر النيل والأقاليم المصرية في الدلتا والصعيد، وأشار إلى مقياس ارتفاع مياه النيل الموجود في جزيرة فيلة، الذي كان يُستخدم لقياس ارتفاع مستوى المياه في النيل على مدار السنة.

ويقدم بلينيوس الأكبر (Plinius) (23/24- 79م) في موسوعته « التاريخ الطبيعي » (Historia Naturalis) معلومات مستفيضة عن شبه الجزيرة العربية، مساحتها وثرواتها وما فيها من المدن والواقع والرؤوس والخلجان والجبال والقبائل والأقوام وأسمائها، والأوضاع الاقتصادية لهذه القبائل، والمناطق التي تقطنها، وطرق التجارة في شبه الجزيرة العربية، والمسافات بين بعض المراكز التجارية، وكذلك تحقيقاً علمياً عن طيوب شبه الجزيرة وتوابلها. فاللبان مثلاً لا يوجد في غير شبه الجزيرة، وهو لا ينتج إلا في حضر موت بالذات. أما القرفة والقصيعة فيحصل التجار العرب عليها من بلاد أخرى ويعيدون تصديرها.

ونجد في كتاب « جغرفية بطليموس » للجغرافي الشهير بطليموس الذي عاش في الاسكندرية في القرن الثاني الميلادي، والذي عرف بـ بطليموس القلوذي أو بطليموس الجغرافي، معلومات كثيرة عن بلاد العرب، وخاصة حضر موت ومدنها وأحوالها وزراعاتها وتجارتها. وأخيراً نشير إلى المؤرخ اليهودي فلافيوس يوسيفوس (Flavius Josephus) (يوسف بن متى) الذي عاش في القرن الأول الميلادي، وعمل في خدمةالرومان في فلسطين. لم يكتب يوسيفوس عن العرب بشكل مباشر وإنما من خلال حديثه عن تاريخ اليهود وعلاقتهم بالرومان، وذلك في كتابيه: « تاريخ حرب اليهود ضد الرومان » و « أخبار اليهود القديمة ». وقد تحدث خاصة عن الأنباط وعلاقتهم باليهود، وعن وزيرهم صالح الذي رافق الحملة الرومانية على بلاد العرب الجنوبية في العام 24ق0م كدليل لها ويذكر خططه للحلول مكان سيده عباده الثالث على عرش مملكة الأنباط.

سابعاً- المصادر العربية الإسلامية:

وتشمل القرآن الكريم، والحديث الشريف، وكتب السيرة المغازي، والمؤلفات التاريخية والجغرافية، ومصنفات اللغة والأدب والشعر.

1- القرآن و الحديث:

يعد القرآن مصدراً هاماً من مصادر تاريخ العرب قبل الإسلام. فهو بالإضافة إلى كونه كتاباً مقدساً، ودستوراً للمسلمين، ومصدراً أولاً للشريعة الإسلامية، فإنه يتضمن معلومات هامة عن قبائل وممالك عربية قديمة كعاد وثمود وسبأ، فضلاً عن إشارته إلى أحداث تاريخية قديمة كقصة أصحاب الفيل (حملة أبرهة الحبشي على بلاد العرب)، وقصة أصحاب الأخدود، وسيل العرم (سد مأرب)، والاسكندر الكبير والطوفان، والحرب بين فارس وبيزنطة، وغير ذلك من الحوادث التي أكدتها الاكتشافات والدراسات الحديثة.

وتتمتع الأخبار التاريخية التي ترد في القرآن الكريم بمصداقية مطلقة لا يرقى الشك إليها أبداً، لأن القرآن تنزيل العزيز الحكيم، ﴿ لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾ ([4]).

أما الحديث الشريف فتأتي أهميته في دراسة تاريخ العرب قبل الإسلام بعد القرآن الكريم. ويتضمن بعض المعلومات عن مظاهر حياة العرب القدماء، مثل الحديث الذي يقول : انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً، قيل يارسول الله أنصره مظلوماً فكيف أنصره ظالماً. قال بأن تنهاه عن ظلمه. ففي هذا الحديث إشارة إلى العصبية القبلية التي كانت سائدة قبل الإسلام في المجتمع العربي.

2- كُتب السيرة والمغازي:

[4]- سورة فصلت: آية 42.

وهي الكتب التي تتحدث عن حياة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، وعن غزواته. وقد مهد لها مؤلفوها بالحديث عن تاريخ العرب قبل الإسلام، واستشهدوا بالكثير من الشعر الجاهلي. لذلك يجد المرء فيها معلومات مفيدة عن بعض جوانب حياة العرب قبل الإسلام.

من أشهر كتَّاب السيرة والمغازي أبان بن عثمان (توفي عام 95–أو 105هـ)، ومحمد بن شهاب الزهري (توفي عام 124هـ)، ومحمد اسحاق (توفي عام 151هـ)، وابن هشام (توفي 213هـ)وغيرهم.

3– المؤلفات التاريخية والجغرافية:

انصب اهتمام العرب عندما بدؤا بكتابة التاريخ في العصر الأموي على سيرة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، وعلى غزواته وأحاديثه الشريفة. ولم يعيروا أخبار ما قبل الإسلام اهتماماً إلا بقدر ما لها من علاقة بالدين الجديد، أو لتكون مقدمة للكتب التاريخية التي وضعوها.

وتنقسم أخبار ما قبل الإسلام عندهم إلى نوعين، الأول يتضمن أخبار العرب القدماء البعيدة كأخبار عاد وثمود وطسم وجديس وغيرهم ....الخ، وهي مجموعة من القصص والأساطير والخرافات المختلفة أو المتأثرة بالتوراة مثل :كتاب اليمن وأشعارها وأنسابها لعُبيد بن شرية الجرهمي، وكتاب الملوك المتوجين من حمير لوهب بن منبه (توفي عام 110هـ). ويمثل عُبيد بن شريه الجرهمي ووهب بن منبه خطاً واحداً في الكتابة التاريخية العربية يقوم على تمجيد عرب الجنوب والاعتماد على التوراة. ([5]) أما النوع الثاني من أخبار ما قبل الإسلام فيتضمن أخبار العرب في الفترة السابقة لظهور الإسلام مباشرة، كأخبار الحروب والنزاعات القبلية المختلفة المعروفة بأيام العرب، وأنساب العرب

---

[5]- لتفصيلات أكثر عنهما انظر: سالم، السيد عبد العزيز : تاريخ العرب قبل الإسلام، الإسكندرية دون تاريخ، ص 31-33.

وأحوالهم ومناطق سكناهم وما إلى ذلك. وهي أخبار تتمتع بمصداقية أكبر لقرب المؤرخين منها زمنياً، ولأنها مازالت حية في أذهان الناس وأشهر من كتب في هذا المجال هشام بن محمد بن السائب الكلبي (توفي عام 204هـ) صاحب كتابي « الأصنام » و « الجمهرة في الأنساب ». وهناك مؤرخ وجغرافي يمني كبير اهتم بتاريخ شبه الجزيرة العربية وجغرافيتها قبل الإسلام هو أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب المعروف بابن الحائك الهمداني (توفي عام 334هـ) الذي يعدّ كتاباه « صفة جزيرة العرب » و « الإكليل » من أهم مصادر التاريخ العرب قبل الإسلام، ولاسيّما تاريخ اليمن، وذلك لدقته البالغة في وصف الآثار، واعتماده على الشاهدة ومعرفته بالخط المسند التي ساعدته على قراءة الكتابات والنقوش القديمة التي شاهدها في المواقع التي زارها. ([6])

4- مؤلفات اللغة والأدب والشعر:

تعد مؤلفات اللغة والأدب والشعر أحد مصادر تاريخ العرب قبل الإسلام، حيث يجد الدارس في ثناياها معلومات متنوعة عن حياة العرب القدماء. وقيل عن الشعر إنه « ديوان العرب » لأنه سجل لأخلاقهم وعاداتهم وديانتهم وعقليتهم، به حُفظت الأنساب وعُرفت المآثر، وفيه ذكر لأيام العرب ووقائعهم ([7]) فهو بالتالي يقدم لنا صورة صادقة عن أحوال العرب السياسية والاجتماعية والدينية وغيرها، لا بل يمكن أن يعطي معلومات جغرافية أيضاً، ويروي أن ابن عباس نصح بال رجوع إلى الشعر الجاهي لتفسير ما التبس فهمه من آيات القرآن الكريم: « إذا أعياكم تفسير آية من كتاب الله فاطلبوه في الشعر، فإنه ديوان العرب، به حفظت الأنساب، وعرفت المآثر، ومنه تعلمت العربية، وهو حجة فيما أشكل من غريب كتاب الله، وغريب حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وغريب حديث صحابته والتابعين »([8]).

---

[6]- المرجع السابق، ص36 وما بعدها.

[7]- المرجع نفسه، ص38.

[8]- السيوطي، جلال الدين: المزهر في علوم اللغة، ج2، ص 470.

من الجدير بالذكر أن بعض الشعراء عاش في بلاطات ملوك الحيرة والغساسنة، وتركوا أوصافاً عنها في شعرهم، ومنهم النابغة الذبياني وعمرو بن كلثوم وغيرهما.

وعلى الرغم من قلة ما وصل ودُوِّن من الشعر الجاهلي، ووجودشك في أصالته ([9])، فإنه يقدم لنا معلومات لا بأس بها عن تاريخ العرب القديم. ومن أشهر شعراء الجاهلية امرؤ القيس وطرفة بن العبد وعنترة بن شداد وغيرهم.

أما مؤلفات اللغة والأدب، فهي على الرغم من أنها وضعت في عصور لاحقة على بداية الدعوة الإسلامية، إلا أنها تقدم صورة صادقة عن تطور الفكر والحضارة عند العرب قبل الإسلام. فمفردات اللغة ليست مجرد كلمات فقط، وإنما هي رموز تدل على المعارف المختلفة التي حصَّلها الإنسان. من أشهر معجمات اللغة العربية لسان العرب لابن منظور، والقاموس المحيط للفيروز ابادي، وتاج العروس للمرتضى الزبيدي.

ثامناً- المصادر السريانية والبيزنطية:

اهتم بعض المؤرخين السريان (وهم سكان بلاد الشام المسيحين قبل الإسلام) بالكتابة عن ظهور المسيحية وانتشارها خاصة في بلاد العرب، وأوردوا كذلك أخباراً عن مملكتي المناذرة والغساسنة وعلاقاتهما مع الفرس والبزنطيين، نذكر منهم على سبيل المثال شمعون الأرشامي مؤلف كتاب « رسائل الشهداء الحميريين » الذي يتحدث عن ملاحقة الملك الحميري يوسف أسأر ذي نواس لنصاري نجران، وزكريا الملكي ويوحنا الأفسوسي، وميخائيل السرياني الذين أوردوا أخباراً عن النزاعات بين المناذرة والغساسنة.

وأورد المؤرخون البيزنطيون أخباراً عن العرب ايضاً، وخاصة عن علاقة الغساسنة والمناذرة مع بيزنطة وفارس، و أشهره.م يوزبيوس القيصري (264-349م) الملقب بـ « أبي التاريخ الكنسي » وبـ « هيرودوت النصاري »، وبروكوبيوس (توفي عام 565م)

---

[9]- انظر تفاصيل ذلك عند: مهران، محمد بيومي: دراسات في تاريخ العرب القديم، ص 46 وما بعدها.

المؤرخ الكنسي لعصر الامبراطور لبيزنطي جستنيان (527–565م) الغني بالأحداث، ومؤلف كتاب « تاريخ الحروب » الذي تحدث فيه عن الحروب التي دارت رحاها بين الغساسنة والمناذرة، وعن غزو الأحباش لبلاد اليمن.

تمتاز الأخبار التي تقدمها هذه المصادر عن تاريخ العرب قبل الإسلام بدقة ومصداقية كبيرتين، على الرغم من صفتها الدينية. وتكمن أهميتها في أنها تورد معلومات لا توجد في مصادر أخرى.

Damascus University

الفصل الثالث

ممالك شبه الجزيرة العربية في الجنوب

أولاً– بدايات الاهتمام بآثار اليمن وحضارته :

لقد بدأ الغرب الاهتمام باليمن مع عصر النهضة الا وربية عندما ظهر ميل شديد للدراسات الدينية فاتجهت الأنظار نحو اليمن للتحقق من الروايات التي ذكرتها الكتب المقدسة وخاصة (التوراة).

فإن أول بعثة استكشافية أوروبية نظمت لزيارة الي م ن كانت عام 1762م موّلها ملك الدنمارك « فريدريك الخامس » ضمّت خمسة من العلماء وبتخصصات مختلفة ، وهؤلاء العلماء هم : البرفسور فريدريك كريستيان فون هافن، د انمركي متخصص في فقه اللغة والدراسات الشرقية، والبرفسور بي تر فور سكال، سويدي جمع بين علمي الطب والنبات، والطبيب كارل كرام ر، د انمركي متخصص في الجراحة وعلم الحيوان، والسيد جورج ويلهم باورن فيتد، الرسام، والضابط المهندس كارستين نيبور.

غادرت البعثة كوبنهاغن على ظهر طراد حربي « جريند لند » في الرابع من كانون الثاني 1761م متجه إلى مصر، وبعد استراحة، واصلت البعثة رحلتها فوصلت إلى سواحل الجزيرة العربية في اكتوبر / تشرين الأول / 1762م، فمرّت بجدة والقنفذة واللحية، وأخيراً وصلوا إلى بيت الفقيه، وكان آنذاك مركزاً لتجمع الـبن في اليمن، ومنه تفرقوا في شتى أنحاء اليمن كلّ في حقل اختصاصه، فتجول ن يبور في اقليم تهامة، وصعد فورسكال إلى الهضبة ليجمع النباتات ، وأوغل الآخرون في الداخل، و عادوا في بداية الصيف ليلتقوا جميعاً في بيت الفقيه ثم المخا ميناء اليمن. وأصيبت البعثة بوفاة المستشرق

فون هافن في المخا متأثراًبحمى المناطق الاستوائية، وكان يعد من أعلى رجال البعثة مكانةً وأكثرهم علماً بالعربية.

أقامت البعثة في تعز فترة ثم اتجهت إلى صنعاء تلبية لدعوة إمام اليمن آنذاك العباس المهدي 1747-1776م وفي الطريق إلى صنعاء مات عالم النبات فورسكال بسبب متاعب السفر، ولما وصل بقية أعضاء البعثة صنعاء أحسن الإمام وفادتهم وبقوا فيها عشرة أيام. ثم عادوا بعدها إلى المخا حيث استقلوا سفينة تنقلهم إلى بومباي ، وفي عرض البحر مات الرسام باورن فيند ثم توفي بعد عدة أيام من وصولهم إلى بومباي الطبيب كارل كرامر، وهكذا لم يبق من أفراد البعثة على قيد الحياة سوى الضابط كارستين ني بور الذي أخذ على عاتقه تنفيذ المهمة وعدم العودة إلى الوطن قبل تنفيذ الخطة التي رسمتها أولاً، وقد بر بوعده ولم يعد إلى كوبنهاغن إلا عام 1767م، بعد أن قطع رحلة طويلة ماراً بالبصرة وبغداد والموصل وحلب والقدس وقبرص واستانبول.

وعلى الرغم من موت أربعة من أعضاء البعثة الخمسة فإن النتائج التي توصلت إليها هذه البعثة كانت أفضل نتائج البعثات العلمية في ذلك الوقت وما زالت المعلومات التي دونها (نيبور) مرجعاً أساسياً عن اليمن حتى الآن، فضلاً عن أنه لفت أنظار العلماء إلىالنقوش اليمنية، إلى جانب ما قدّمه من خرائط لأماكن مجهولة من بلاد اليمن. وقد سجل هذا الرحالة نتائج رحلته في مجلدين بالألمانية الأول بعنوان « وصف بلاد العرب» ([1]) والثاني « وصف رحلة إلى بلاد العرب والبلدان المجاورة ».

وقد شجعت أخبار هذه الرحلة ونتائجها الكثير من الباحثين على القيام برحلات مماثله، ويمكن اعتبار هذه البعثة فاتحة الدراسات العلمية عن بلاد العرب الجنوبية.

في سنة 1810م وصل المستشرق الألماني أورليخ جيسبار فون سيتزن إلى ميناء الحديدة للبحث عن النقوش التي ذكرها (ني بور) سابقاً، وذهب من هناك إلى ظفار

[1]- انظر جاكلين بيرين: اكتشاف جزيرة العرب، ترجمة قدري قلعجي، بيروت، دون تاريخ.

وضواحيها كما زار مأرب، وأرسل رسالة إلى صديق ه في أوربا تضمنت صوراً لبعض النقوش التي عثر عليها و بفضل هذه الرسالة عرفت أوربا ولأول مرة ماهية الكتابة اليمنية . ولما استأنف رحلته إلى الداخل ضاع أثره فقال بعضهم إنه قتل من قبل البدو قرب مدينة تعز، بينما يروي آخرون أنه وصل صنعاء، وأن الإمام هو الذي أمر بدس السم له في الطعام.

وكان لاختفاء سينتزن والمصير الحزين الذي انتهى إليه، أثره على البعض مما جعل الكثيرين يحجمون عن السفر إلى بلاد العرب الجنوبية، وظلت هذه الرهبة قائمة في نفوس المكتشفين والأثريين الأوربيين مدة ثلاثين عاماً، ثم توبعت الرحلات بعدها إلى اليمن وكان من بين من زارها الضابط الانكليزي جيمس ولسد الذي اكتشف حصن الغراب، ونسخ النقش الذي وجده فيه.

وفي عام 1843م وصل الصيدلي الفرنسي جوزيف أرنو إلى صنعاء مدعياً أنه طبيب عند الأتراك، ومن صنعاء اتّجه نحو مأرب، فزار خرائب صرواح، وشاهد بقايا أسوار مأرب ورسم مخططاً له، كما زار معبد (المقة) إله القمر الواقع خارج مأرب، والذي يسميه اليمنييون «محرم بلقيس » كما تسلل إلى عدة خرائب ونسخ ستة وخمسين نقشاً، نشرت بعد سنتين في المجلة الاسيوية (Journal Asiatigue) في عام (1845م) مع بعض الشروح والتعليقات فأحدث ضجة كبيرة في الأوساط العلمية والتاريخية في فرنسا والعالم.

وفي العام 1860 اشترى الضابط الانكليزي كوغلان (Coglan)، مجموعة كبيرة من النقوش والآثار، وكان قد تم العثور عليها في أنقاض بلدة عمران العام 1854 ومن بينها منحوتات وأحجار تحمل نقوشاً وألواح من النحاس لا يقل عددها عن الأربعين.

وفي هذه الفترة أدت جهود الباحثين الأوربيين المختصين في تاريخ العرب القديم إلى فك رموز الكتابة العربية الجنوبية وسموها « الحروف الحميرية ». ولكن تبين فيما بعد أن

هذه النقوش ليست كلها حميرية، بل بينها نصوص معينية وأخرى سبئية، وأن الكتابة أوالخط هو المسند.

بعد ذلك أخذ الاهتمام بتاريخ اليمن يأخذ أبعاداً علمية منظمة، ففي العام 1869 رأت أكاديمية الفنون والآداب الجميلة في باريس إصدار مجموعة النقوش السامية (Copus Inscriptionum Semiticarum)، واختارت المستشرق الفرنسي اليهودي جوزيف هاليفي (J. Halevy) لقيادة بعثة إلى اليمن للحصول على نقوش جديدة.

بدأ هاليفي رحلته في العام 1870م، وحينما وصل إلى عدن تلقى معونة الجالية اليهودية فيها، ثم تزيا بزيّ يهودي فقير جاء من القدس، بعد ذلك قام بزيارة كنيسة « القُليس » التي كان أبرهة الحبشي قد بناها في صنعاء. ثم قام بزيارة معظم مناطق اليمن ومنها مأرب والجوف ونجران، وعاد إلى فرنسا ومعه 686 نقشاً جمعها من 37موقعاً. غير أن أهم اكتشافات هاليفي كان العثور على خرائب مدينة « قرناو » عاصمة مملكة معين، والمعروفة اليوم، والتي كانت تقع على مرتفع حصين تحيط به الأسوار والأبراج.

وفي العام 1882 زار المستشرق النمساوي سيغفريد لانغر (S.Langer) بعض المواقع اليمنية القديمة حيث عثر على عدد من النقوش الحميرية. وفي العام نفسه بدأ مواطنه إدوارد غلازر (E.Glaser) برحلاته الأربع إلى اليمن والتي استمرت حتى العام 1894، زار خلالها العديد من المناطق اليمنية ونسخ عدداً كبيراً من النقوش يزيد على ستمائة نقش، من بينها نحو مئة نقش من عصر مملكة قتبان كانت أول النقوش التي تتحدث عن هذه المملكة اليمنية القديمة.

عثر غلازر أيضاً على مجموعة كبيرة من التحف الفنية والنقود العربية القديمة، ووضع مخططات لبعض المعابد كمعبد « المقة » إله القمر في مأرب.

وبعد فترة انقطاع دامت من بداية الحرب العالمية الأولى (1914) إلى بداية الثلاثينيات من القرن العشرين، استؤنفت رحلات المستشرقين الأوربيين إلى اليمن فقام

كل من كارل راتيز وفون فيسمان برحلات متعددة إلى الحبشة وحضر موت واليمن في عامي 1931-1932م أسفرت عن جمع بعض المعلومات الجغرافية والأثرية.

وفي العام 1931م نجح الرحالة الانكليزي برترامتوماس (B.Thomas)، الذي كان يشغل آنذاك منصب وزير المالية في حكومة سلطان مسقط، نجح في اجتياز صحراء الربع الخالي، أو « مفازة صهيد » كما كانت تسمى قديماً، خلال مدة ثمانية وخمسين يوماً، فكان بذلك أول أوربي يقوم بذلك. وقد شاهد هناك آثار بحيرة مالحة، عثر على بعض الآثار القديمة، التي لم يُعرف عنها شيء حتى الآن. ([2])

أسفرت رحلات وزيارات الرحالة والمستكشفين الأوربيين إلى بلاد العربية الجنوبية عن نسخ أكثر من سبعة آلاف نقش عربي قديم كشف عن وجود تاريخ للعرب عمره ألف وخمسمائة عام، ويمتد من القرن التاسع قبل الميلاد إلى الأقل إلى القرن السادس الميلادي.

أما بالنسبة للعرب فقد بدأ اهتمامهم باليمن وأخباره في العام 1936 عندما قام الصحفي السوري نزيه مؤيد العظم بزيارة م أرب ([3]) ونسخ بعض ا لنقوش التي درسها ونشرها فيما بعد ريكمانز. ([4])

وفي العام نفسه ترأس الدكتور سليمان حزين بعثة علمية أرسلتها جامعة القاهرة إلى اليمن لدراستها من النواحي الجغرافية والزراعية والجيولوجية و الأثرية. وعندما غزت اليمن أسراب من الجراد في العام 1945 طلبت حكومتها المساعدة من مصر، فأرسلت جامعة القاهرة بعثة برئاسة محمد توفيق (أحد أعضاء بعثة العام 1936) لدارسة ظاهرة الجراد إلى بلاد العرب الجنوبية. انتهز محمد توفيق الفرصةفزار منطقة الجوف وشاهد آثارها ونسخ عدداً كبيراً من النقوش، وأخذ صوراً فوتوغرافية لها ([5]).

---

[2]- انظر عن المستشرقين ونشاطاتهم: العقيقي، نجيب: المستشرقون، القاهرة، 1964.

[3]- العظم، نزيه مؤيد: رحلة في بلاد العرب السعيدة، جزءان، القاهرة، 1938.

[4] - Ryckmans, G. , Inscriptions Sud – Arabes , 7eme Series , Le Museon , 55 , 1942.

[5]- توفيق، محمد : آثار معين في جوف اليمن، وكذلك: نقوش جربة معين، منشورات المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، 1951-1952.

وقام الدكتور خليل يحيى نامي بنشر نقوش خربة براقش على ضوء مجموعة محمد توفيق في مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة في العام 1954.

وفي العام 1947 قام الدكتور أحمد فخري بزيارة مناطق صرواح ومأرب وما حولهما، وجميع مراكز الحضارة المعينية في منطقة الجوف وقد عثر على نحو مائة وعشرين نقشاً جديداً لم تكن معروفة من قبل وصوّر كل ما رآه من آثار([6]). وعاد من جديد إلى اليمن في العام 1959 حيث زار مأرب ونجح في العثور على نقوش جديدة.

وفي ستينيات القرن العشرين قام أحمد حسين شرف الدين بزيارات متعددة إلى مناطق اليمن الأثرية المختلفة (كمأرب والجوف وظفار وبيحان و ذمار وهمدان وأرحب) عاد منها وبحوزته مئات من الصور الفوتوغرافية والمخططات والخرائط ونسخ النقوش وأصدر أوّل كتاب له عن لغة الخط المسند في العام 1968، كما أصدر في العام 1975 كتاباً آخر عن اللغة العربية في عصور ما قبل الإسلام، ضمنه نماذج من نقوش حضرمية وسبئية ومعينية.. الخ ([7]). أما الأمريكان فقد دخلوا ميدان البحث العلمي والأثري في اليمن على يد « المؤسسة الأمريكية لدراسة الإنسان » (The American Faundation For The Study of Man)، التي أرسلت في العام 1950 و1952 بعثتين علميتين برئاسة وندل فليبس (W. Philips)، وعضوية الآثاري المشهور وليم أولبرايت (W. Albright) إلى اليمن. وعلى الرغم من الصعوبات التي اعترضت عمل هاتين البعثتين، فقد تم الكشف عن بعض الآثار والمعابد القصور والنقوش القديمة. ([8])

لم تنحصر زيارات الرحالة والمستكشفين الأوربين في جنوبي شبه الجزيرة العربية، بل امتدت لتشمل شمالي شبه الجزيرة العربية وبلاد الشام والعراق ومصر، لكثرة المواقع الأثرية فيها، ورغبة في التعرف على أحوالها وأحوال سكانها. ففي العام 1807 وصل إلى جدة الرحالة الاسباني بادیايي لبلخ باسم علي بك العباسي مدعياً أنه مسلم، وآخر أمير من

---

[6]- فخري، أحمد: اليمن ماضيها وحاضرها، القاهرة، 1957.

[7]- شرف الدين، أحمد حسين، اللغة العربية في عصر ما قبل الإسلام،القاهرة، 1975

[8] - Philips, W., Qataban and Sheba, London , 1955.

نسل الخلفاء العباسيين. وقداستطاع تحديد الواقع المختلفة التي مر بها على سواحل البحر الأحمر مثل ينبع وجدة وغيرها وكذلك مكة على خريطة العالم، وأعطى وصفاً دقيقاً لمكة والأماكن المقدسةفيها وشعائر الحج.

وفي العام 1809 وصل إلى سورية الرحالة السويسري يوهان لودفيغ بوركهارت، ثم انتقل من هناك إلى الحجاز باسم الشيخ إبراهيم بن عبد الله ليزور الحرمين الشريفين ويقدم وصفاً دقيقاً لشعائر الحج، وكتب عن مكة والمدينة كتابه علمية. واكتشف في العام 1812 م مدينة البتراء عاصمة الأنباط في جنوبي الأردن. ([9])

وفيما بعد انتقل إلى مصر وتوفي في العام 1817م في القاهرة ودفن في سفح جبل المقطم. وفي عام 1815م زار نجد المستشرق جورج أوغسطس فالين للقيام ببعض الدراسات اللغوية. وفي العام 1853م زار السير رتشارد بورتون (R. Burton) الحرمين الشريفين متنكراً في زي مسلم يدعى الحاج عبد الله، وكتب وصفاً لرحلتهذه.

وقامت الليدي آن بلنت (Anne Blunt) في العام 1789م برحلة إلى شمالي بلاد العرب ووصلت حتى نجد، حيث كانت مولعة بدراسة الخيول العربية. ثمّ توالت رحلات المستكشفين والمستشرقين الأروبيين حتى بدايات القرن العشرين عندما أخذت تلك الرحلات أبعاداً أكثر مما سبق. وأفضل من ظهر تلك الفترة ألويس موسل الذي زار بلاد العرب الصخرية وشمالي الحجاز، ونجد وبادية الشام، وتدمر ومنطقة الفرات الأوسط، وكتب عدة مؤلفات عنها. ([10])

ثم هناك كتابات جوسين (Jaussen) وسافيناك (Savignae) عن آثار الحجاز وخاصّة آثار مدائن صالح والعلا.

وكان أكثر الرحالة نشاطاً في نجد وأواسط شبه الجزيرة العربية الانكليزي هاري سان جون بريدغر فيلبي (H.St. J. B. Philby) الذي أطلق على نفسه اسم الحاج عبد

---

[9] - Burckardt. J. L., Travels in Syria and the Holy Land , London, 1822.

[10] - Mosil , A. , The Northern Heghas , N. Y. 1926 , The Middle Euphrates , N. Y. 1927.

الله، وكان يعمل م ستشاراً لجلالة الملك عبد العزيز آل سعود مؤسس المملكة العربية السعودية. وقد أتاح له ذلك القيام برحلات كثيرة داخل شبه الجزيرة العربية كان آخرها تلك التي قام بها في شتاء العام 1951-1952 بصحبة العالم البلجيكي ريكمانز وشملت المثلث الواقع بين جدة ونجران والرياض، والتي أثمرت عن العثور على ألف ومائتي نقش، منها تسعمائة نقش ثمودي، أما الباقي فهي نقوش لحيانية وسبئية.

واعتباراً من منتصف القرن العشرين أخذ الاهتمام بالآثار في شبه الجزيرة العربية شكلاً علمياً بحتاً تمثّل في البعثات العلمية التي أرسلتها الجامعات الأوربية والأمريكية إلى الدول التي نشأت حديثاً في شبه الجزيرة العربية، وفي اهتمام المؤسسات العلمية والجامعات المحلية بالقيام بحفريات أثرية وإنشاء المتاحف. ([11])

ثانياً- الممالك في الجنوب :

1- مملكة سبأ :

قامت مملكة سبأ في غربي رملة السبعتين، شمال شرقي اليمن. وامتدت أراضيها المركزية على ضفاف وادي أذنة (ذنة) بين جبلي البَلَق الشمالي والأوسط، واتسعت حدودها في فترات تاريخية لتغطي مساحات واسعة من اليمن.

أدّى الوادي – الذي يعدّ ميزاب اليمن الشرقي- دوراً اساسياً في ازدهارها الاقتصادي بالإضافة إلى مرور طريق اللبان البخور التجاري بأراضيها.

كانت عاصمتها تدعى (م ر ب، م ر ي ب) « مأرب »، ويلفظ اسمها حالياً دون الهمزة أيضاً. وتشير التنقيبات الأثرية إلى منطقة مأرب شهدت رياً زراعياً منظماً منذ الألف الثالث ق0م، وكانت المدينة عاصمة سياسية ومحطة تجارية ومركزاً دينياً مهماً.

إنها اكبر الممالك اليمنية القديمة وأقدمها، ويصعب تحديد بدايات تاريخها السياسي بدقة، ولكن يبدو أنها كانت كياناً سياسياً متميزاً خلال القرن الثامن ق 0م، ولها شهرتها

[11] - مرعي، عيد: تاريخ الجزية العربية القديم، ص29.

الواسعة ومكانتها المهمة بين ممالك الشرق القديم، وبذلك ورد ذكرها في النقوش المسمارية الآشورية ذكراً يدل على علاقاتها بمملكة آشور. وقد ظلت سبأ مستقلة حتى أواخر القرن الثالث الميلادي.

مرت المملكة بثلاث مراحل تاريخية رئيسية، وهي :

أ- عصر المكربين (نحو 800-675ق0م)

تلقب أوائل حكام بلقب « مُكَرِّب » المشتق من الفعل (ك ر ب) « جمع حشد »؛ أي المجمِّع وكان اللقب يطلق على من يتولى رئاسة حلف قبلي يضم عدة شعوب (قبائل). وقد عدّ المكربون أنفسهم نواباً للحكام الفعلي، وهو إله القمر المقه، ويمثلونه على الأرض وهم وسطاء بين الإله و الشعب. وكانت عاصمة بلاد سبأ في هذا العصر هي صرواح الواقعة على بعد نحو 40 كم جنوب غربي مأرب التي صارت في العصر التالي عاصمة ملكية.

يعتقد أن أقدم المكربين هو سمه علي الذي حكم نحو 800 ق0م، وربما يكون مؤسس الحكم المستقبل في بلاد سبأ. أما أبرز المكر بين الذين حكموا بعده، ونعرف من النقوش الكتابية معلومات عن أعمالهم وإنجازاتهم فهم:

(يدع إل ذرِح) (نحو 780ق0م) تتحدث نقوش كثيرة عن إنجازته في مجال العمارة، ولا سيما المعابد المخصصة للإله إلمقة. كما تشير إلى أنه حقق الوحدة بين القبائل التابعة لسيادته، ووسّع مناطق حكمه بعد انتصارات حربية. واهتم أيضاً باستصلاح الأراضي وإقامة مشاريع الري، وينسب إليه أول سد لحجز مي اه الوديان في اليمن؛ وهو سد رحبة جنوب غربي مأرب.

سمة علي ينف (أواسط القرن الثاني ق 0م) ورد اسمه مدوناً على سد مأرب (العرم)، مما يدل على إسهامه في بنائه.

يثع أمر بين (أواخر القرن الثاني ق 0م) هو ابن المكرب السابق، معاصر الملك الآشوري شَرَّكين الثاني (722–705 ق0م).

تحدث النقوش عن أعماله العمرانية؛ إذ ذكرت أنه بنى الجزء الجنوبي من سد مأرب، وأقام حصن (ح ر ب) « حريب ». كما اهتم بالزراعة، وازداد النشاط التجاري في عهده؛ واتسع نطاق علاقاته الخارجية، ووصلت هداياه إلى ملك آشور سنة 715ق0م.

كرب إل وتر (مطلع القرن السابع ق 0م) آخر المكربين، ومعاصر الملك الآشوري سنحريب (704–680ق0م)، وصاحب نقش النصر المكتشف في معبد الإله إلمقة في العاصمة صرواح. ويدل محتوى النقش على أنه وحد شعوب بلاد سبأ، وحقق ازدهار اً اقتصادياً، ثم قام بحملات عسكرية واسعة النطاق وصلت حتى أطراف نجران شمالاً ووادي ميفعة شرقاً وساحل أبين جنوباً والمعافر (الحجرية، جنوبي تعز) في الجنوب الغربي.

ويتضح من النقش أيضاً أن خصمه الأكبر كان مرتع ملك أوسان الذي كان يشكل خطراً على الممالك المجاورة له (قتبان، حضر موت). وقد حقق كرب إل وتر انتصارات مذهلة ترافقت بالعنف والقتل والتدمير، وأعاد تقسيم مناطق ممالك جنوبي البلاد، واستفاد من ذلك في إعلاء كلمته وتقوية سلطته، وبات الحاكم الأقوى. ولذلك شعر بأن لقب المكرب لم يعد مناسباً له، فراح يتلقّب بلقب « ملك »، وبهذا التحول انتهى عصر المكربين، وبدأ عصر الملوك خلال العهد نفسه.

وينسب إليه بناء مدينة نشق (البيضاء، في وادي الجوف) وقصر سلحين في مأرب، وإصلاح منشآت الري في سبأ ووادي بيحاب، وبناء أسوار عدد من المدن مثل سور كتل (خربة سعود) وسور يثل (براقش) في وادي الجوف.

ب– عصر الملوك (نحو 675–115ق0م)

تطلب لقب كرب إل وتر الجديد، وتخليه عن المصدر الإلهي لحكمه، اختيار عاصمة جديدة له، هي مأرب. ويبدو أنه بعد الحملة الموصوفة في نقش النصر تطلع إلى العالم

الخارجي، ورغب في تحسين علاقاته مع القوى السياسية الكبيرة في الشرق القديم، وضمن هذا السياق كانت الهدايا والوفد الذي أرسله إلى سنحريب ملك آشور. أما على الصعيد الداخلي فقد وطد الأمن في مملكته التي اتخذت إطاراً جغرافياًً جديداً، وأحدث مناصب إدارية جديدة.

لا نعرف بدقة متى انتهى حكمه، ومن خلفه. فالنقوش اليمنية تتضمن أسماء ملوك كثيرين حكموا في الفترة اللاحقة، ولكنها لا تذكر معلومات عن أحداث فترات حكمهم، كما تساعد على ترتيبهم.ولذلك فإن تاريخ اليمن خلال بقية القرن السابع والقرن السادس يبقى غامضاً، ولا يمكن التفصيل فيه. وزمن أبرز ملوك تلك الفترة : سمه على ذريح وابنه إلى شرح.

في القرن الخامس ق 0م مرت سبأ بمرحلة ضعف، وقويت بالمقابل ممالك الوديان الأخرى، وتمكنت قتبان– التي كانت قد خضعت لسبأ في عهد كرب إل وتر– من التحرر؛ بل وسعت حدودها ضمن مناطق سبأ، وألحقت بها أضراراً. كما خرجت حضر موت عن نفوذ سبأ أيضاً.

وبرزت في سبأ مشاكل داخلية لم تنته إلا بعد أن اغتصبت العرش الملكي أسرة همدانية كان موطنها الأصلي في ناعط شمالي صنعاء، وبدأت بإصلاحات عامة وبنشر أفكار دينية واجتماعية جديدة. ولكن حكمها لم يدم طويلاً، وتوالت بعدها على حكم سبأ أسر أخرى، وعادت المملكة إلى ضعفها.

شهدت اليمن في القرن الرابع ق 0م نزاعات قبلية وصراعات سياسية حادة. وفي عهد الملك يثع أمر وتر بدأت مدن وادي الجوف تتحرر من النفوذ السبئي، وتكونت هناك مملكة معين المستقلة. وبرع المعينيون في التجارة، وسيطروا على طريق اللبان والبخور، وساعدهم في ذلك ملوك حضر موت. كما قويت قتبان ووسعت حدودها في مناطق سبأ الجنوبية. أما أوسان فقد ظلت منذ ما بعد حملات كرب إل وتر ضعيفةً ولا

شأن لها حتى نهاية هذا القرن. كما استغل زعماء القبائل المستقلة (الأقيال) ([12]) هذه الأوضاع، وكوّنت تحالفات قبلية كبيرة، أبرزها الاتحاد الثلاثي الذي ضم أهم قبائل شمال غربي مأرب (ذي هَجَر ومركزها شبام سخيم، حاشد ومركزها ناعط، حُمْلان ومركزها حاز)، واستقل هذا الاتحاد بحكم مناطقه.

وبدءاً من أواخر القرن الرابع وخلال القرن الثالث ق 0م برزت أطم .اع الإغريق (اليونان) في ثروات الجزيرة العربية التجارية التي كانت القوافل توزعها في شتى الأرجاء. وأرسل الإسكندر المكدوني الذي احتل معظم مناطق المشرق العربي (333 – 323 ق0م) في عامه الأخير بعثات بحرية للتقصي إلى سوا حل شبه الجزيرة العربية وبعد وفاته تفككت إمبراطوريته، وانقسمت بين قائديه: سلوقس (في سورية وبلاد الرافدين) وبطليموس في مصر. وقام البطالمة في مصر بإنعاش التجارة البحرية، ثم تجديد بعض موانئ البحر الأحمر وإنشاء موانئ جديدة عليه، وزيادة عدد الأساطيل العسكرية لحماية السفن التجارية هناك، كما شجعوا التجار الإغريق والمحليين على الاه تمام بالتجارة البحرية بدلاً من البرية الخاضعة لنفوذ العرب في اليمن والحجاز.

ولم تظهر نتائج هذا التحول السلبية في اليمن مباشرة، وظلت التجارة البرية قائمة حتى أواسط القرن الثاني ق 0م، حيث بات انتهاء أهميتها أمراً واضحاً، وانعكس ذلك في سوء الأوضاع الاقتصادية والداخلية عامّةً.

وفي مأرب تولت أسرة همدانية جديدة منذ مطلع القرن الثاني ق 0م، واشتد صراعها مع السلالة الملكية القديمة، وتأثرت البلاد بذلك ، فغاب الأمن والاستقرار، وعمّ الخراب الدمار، وساءت أحوال الزراعة والأوضاع المعيشية.

---

[12]- الأقيال مفرده قيل. وهو مصطلح أطلق على من يقوم بإدارة شؤون إقليم أو مخلاف أو مقاطعة باسم الملك. وكان هؤلاء عادة من أسر ذات شأن، ويستغلون ضعف الحكم المركزي فيستقلون بحكم مناطقهم، ويلقبون بالملوك والتسمية مشتقة من الجذر اللغوي (ق و ل) وتعني : المتكلم، المدافع، النافذ القول والأمر.

اعتمدنا في كتابة هذه الفقرة على :

إسماعيل، فاروق، اللغة اليمنية القديمة، تعز، 2000، ص10 وما بعدها.

بينما استفادت من ذلك المناطق الساحلية القريبة منها، وانتفعت اقتصادياً، وقوي شأنها. أواخر القرن (115ق0م) تمكنت القبائل الحميرية (الريدانيون)من تأسيس مملكة جديدة مركزها ظفار، وصارت تنافس سبأ، وتحد من قوتها وشأنها وتعد تلك السنة بداية (التقويم الحميري) وتحولاً في تاريخ اليمن القديم ومطلع عصر جديد.

ج- عصر الصراع السبئي - الحميري (نحو 115ق0م _ 280م)

يسمى هذا العصر عصر ملوك سبأ وذي ريدان، والعصر السبئي الثالث، وعصر المملكة الحميرية الأولى أيضاً، وهو أغنى العصور التاريخية القديمة في اليمن بالمصادر الكتابية، وأكثرها تعقيداً وتشابكاً من حيث التطورات العامة والأحداث السياسية الحربية. وعلى الرغم من ذلك يصعب الحديث بشكل مفصل عن بعض مراحلهويصعب ترتيب أسماء الملوك الكثيرين الذين حكموا خلاله ترتيباً متسلسلاً تاريخياً. والأهم من ذلك صعوبة فصل تاريخ كل من مملكة سبأ التي ظلت تقاوم للحفاظ على مكانتها القديمة، ومملكة حمير الناشئة التي بذلت جهوداً كبيرة حتى استطاعت التفرد بحكم اليمن آخر هذا العصر.

خلق ظهور حمير بقوة اضطراباً عاماً في اليمن خلال القرن الأول ق 0م، فقد قاد الحميريون حروباً مؤثرة ضد قتبان وحضر موت المجاورتين لها، و أضعفوا سبأ ذات المجد الغابر، ودخلوا في أراضيها، واقتطعوا أجزاء منها. كما صارت قتبان ومعين تتحرشان بسبأ أيضاً. وبذلك ازداد الضغط العسكري على سبأ في الجهات المختلفة وضعفت ضعفاً شديداً.

لكن سبأ استفادت من انهيار مملكة معين في أواسط القرن بعد أن فقدت الأساس التجاري لقيامها تأثّراً بالتحولات الاقتصادية المستجدة واستعادت بعض مكانتها بعد إخفاق الحملة الرومانية على اليمن 25-24 ق.م، حيث وصلت بقيادة إليوس إلى نجران والجوف وم أرب، وبعد أن حاصرت م أرب- في عهد ملكها إلي شرح - ستةأيام عجزت عن دخولها، وانسحبت إلى بلاد الأنباط بعد تفشي الأمراض بين قواتها.

لا شك في أن مقاومة الحملة أرهقت سبأ وأثرت فيها. ولكن خطراً أكبر بدأت ملامحه تظهر وتهددها، وهو ما كان نتيجة انتهاء طريق التجارة البري، إذبدأت القبائل البدوية في الشمال والشرق تغزو أراضيها وتنهب بسبب العوز والحاجة، كما اندفع إليها سكان المرتفعات من الغرب.

في القرن الأول الميلادي تراجعت هيبة ملوك سبأ وظهرت تحالفات واتحادات قبلية جديدة وازدادت سلطة القبائل في المرتفعات، وانصرفت لمحاربة سبأ طمعاً فيما تبقى لها من شأن. كما تزايدت هجمات الحميريين الخطرة عليها.

وبدأ في هذه الأثناء بعض ملوك المملكتين سبأ وحمير يتلقبون بلقب « ملك سبأ وذي ريدان « المزدوج، وذلك تعبيراً عن الطموح إلى حكم المملكتين في إطار واحد موحد، بينما اكتفى بعضهم باللقب المفرد قانعاً بحكم مملكته وحدها. وتأجج الصراع المريربين الكيانين اللذين لم ينضويا تحت حكم واحد إلا فترات قليلة قصيرة.

في عهد الملك يهقم بن ذمار على الذي يرجح أنه أول ملك سبئي تلقب باللقب المزدوج نشبت بين المملكتين حرب ضخمة دارت رحاها في « أرض حمير »، واستغلت مجموعة قبائل – أبرزها قبيلة شداد – غياب القوات السبئية، فدخلت مأرب واحتلت القصر الملكي (سلحين) فترة قصيرة من الزمن.

وفي عهد كرب إل بين تحركت قوات حضرمية إلى وادي الجوف لمحاربة سبأ من الشمال، واضطر الملك السبئي إلى إيفاد أحد قادته البارزين، وهو نشأ كرب من بني جرة، لمفاوضة الملك الحضرمي يدع إل. ولكن يبدو أنه لم يصل إلى اتفاق معه.

ثم غدا نشأكرب يهأمن يهرحب نفسه ملكاً في مأرب، وظل يحارب الحضارمة في الجوف، ويقاوم – من جهة ثانية – توسع الملك الحميري ياسر يهصدق. وبدأ خطر جديد يهدده من الشمال، يتمثل في هجمات الأعراب (أ ع ر ب) وغاراتهم المفاجئة. وتمكن الملك الحميري من احتلال المناطق الجنوبية من مملكته، ووصل إلى جنوبي « نقيل يسلح ».

في أواخر القرن تولت حكم سبأ أسرة جديدة، كان أول ملوكها هو إل شرح يحضب (الأول) الذي حمل لقب المزدوج، واعتمد على بني حرة في تصدي الحميريين.

أما في القرن الثاني الميلادي فقد تلاه في الحكم ابنه وتر يهأمن الذي لم يكن حازماً كأبيه، ولم يستطع صد حملات الحميريين، وعانى من ظهور تمردات ضمن مملكته؛ ولا سيما تمرد قبائل خولان الجديدة (العالية) في مناطق صعدة. ظل يعتمد على بني جرة، وخاصة على القيلين سعد شمس أسرع وابنه مرثد يهحمد اللذ ان كان أبوه قد تبناهما، وصارا ينسبان إليه.

ازدادت أوضاع المملكة سوءاً في أواسط القرن، وتفاقم الصراع الداخلي حول وراثة العرش، فاغتصب القيلان المذكوران الحكم في مأرب، وحظيا بالقبول العام إنقاذاً لأوضاع المملكة المضطربة، على الرغم من أنهما لم يكونا من الأسرة الحاكمة. وقد كانا جديرين بالثقة والإجماع؛ إذ قادا حرباً واسعة النطاق ضد تحالف كبير ضم حضر موت وقتبان ردمان ومضحي وخولان ومذحج في المناطق الجنوبية الشرقية، وحققا النصر على قوات التحالف في أنحاء وعلان (المعسال، شرقي رداع). ثم اتسع نطاق الحرب، ولم تنته إلا بصلحٍ توسط فيه يريم أيمن أحد أقيال همدان البارزين.

تمكن بعد ذلك الملك الحميري ذمار على يهبئر وابنه ثأران يعوب من دخول العاصمة السبئية واحتلال القصر الملكي، وراح يتلقب باللقب المزدوج. ولكن اتحاد قبا ئل سمعي تصدى له بقيادة وهب إل يحوز، بينما تخلى القيلان الجريان سعد وابنه مرثد عن الحكم وعادا إلى مركزهما السابق.

استطاع وهب إل يحوز إبعاد الحميريين من مأرب، وتسلم الحكم فيها، واكتفى باللقب الملكي المفرد. وعانى خلال حكمه من تزا يد الضغط الحميري – بعد تحالفهم مع حضر موت، وحدّ ذلك من إمكاناته، وجعله يتخذ موقفاً دفاعياً، ويحاول تخفيف الاضطرابات في بلاده، وصدّ هجمات الأعراب؛ ولاسيما على مناطق قبيلة حاشد شمالي صنعاء.

وقد عانى من ذلك ابناه اللذان تواليا على الحكم بعده، وهما كرب إل يهنعم (الثاني)، أنمار يهأمن. ومع تردي الأوضاع في سبأ برزت أسرة حاكمة جديدة أرادت إنقاذ المملكة، وهي الأسرة الهمدانية التي كان يريم أيمن أول من حكم فيها في مأرب، وذلك أواخر القرن.

في مرحلة الانتقال من القرن الثاني إلى الثالث الميلادي تولى الحكم ابنه علهان نهفان، وراح يخطط لإقامة تحالف كبير يضع حداً نهائياً للحملات الحميرية المتتالية، وينقذ المملكة من أوضاعها المتردية. فحسن علاقاته مع حضرموت، والتقى ملكها يدع إل بين في موقع ذات غيل جنوب شرقي تمنع (حالياً: هجر بن حميد)، وأعلنا تحالفهما واستمر في عهد الملك الحضرمي التالي يدع أب غيلان (مطلع القرن الثالث الميلادي)، وانضم إليهما جدرة ملك الحبشة. وقد تحقق هدف التحالف جزئياً وأثر في الحميريين، فاستعادت سبأ بعض أر اضيها، كما توسعت حضر موت غرباً، وسيطر الأحباش على أجزاء من تهامة.

وفي مطلع القرن الثالث الميلادي كان شعر أوتر يشارك أباه علهان في الحكم، ثم خلفه (نحو 210-230م). وبرز في عهد صراع جديد نتج عن بدء تدخل حلفاء أبيه الأحباش في شؤون البلاد، ووصلوا إلى أقصى الشمال (نجران)، وصاروا يهددون مناطق المملكة الغربية (ريدة حاشد...). ويبدو أنهم استمالوا قبائل يمنية تعاونت معهم، وأبرزها قبيلتا خولان (الجديدة) والسواهر (في شمالي تهامة اليمن وجيزان).

اتخذ شعر أوتر مدينة (ص ن ع) « صنعاء » عاصمة ثانية له، لتأديب القبائل المتواطئة مع الأحباش، ونجح قائده وافي أذرح في ذلك. كما ألحقت الهزيمة بالأعراب في الشمال، وغزا قرية كهل (قرية الفاو) شمال شرقي نجران، عاصمة الزعيم الكندي ربيعة من آل ثور.

وتبدل موقفه تجاه حضرموت عن موقف أبيه، وقاد إليها حملة ضخمة انتشرت في مناطقها المختلفة ووصلت حتى ميناء قنأ (قرب قرية بئر علي) على بحر العرب، ونهبت

قواته الميناء وهدمت المدينة وأسرت السكان وأحرقت سفناً كثيرة فيه. وكانت هذه الأحداث والانتصارات كفيلة بإعادة هيبة مملكته، وحاول من خلالها بسط سيادته على بقاع واسعة من اليمن وتوحيد السلطة فيها.

حكم بعده لحي عث يرخم فترة قصيرة (نحو 230-235م)، ولا نعرف أخباراً مهمة من عهده، ثم حكم فارع ينهب (225-240 م) ثم ابناه بشكل مشترك- إلي شرح يحضب (الثاني)، يأزل بين (نحو 240-265م) اللذان حملا اللقب المزدوج، وعاصرا ملك حمير شمر يهحمد. ودخلا معه معارك ضارية، وتبادل الطرفان الانتصارات. كما استمر في عهدهما الصراع مع الأحباش والأعراب ووصلت قواتهما إلى العاصمة الكندية قرية كهل للتدخل في انقلاب حصل هناك.

يبدو أن الصراع السبئي – الحميري أثقل كاهل الطرفين فعقدا هدنة، ولكنها لم تدم طويلاً، وتجددت الحروب بينهما. ولكن ت زايد خطر الأحباش دفع الملك الحميري إلى إرسال وفد إلى سبأ طلباً للصلح والتآخي وتوحيد القوى ضد الأحباش، وتحقق ذلك، وتوحدت الأصقاع اليمنية، وتكبد الأحباش وعملاؤهم خسائر فادحة.

آل الحكم في مأرب إلى نشأ كرب يأمن يهر حب (نحو 265-280م) الذي كان ملكاً ضعيفاً عسكرياً، ولم يقم بغير حملات صغيرة ضد قبيلة جولان الجديدة وانصرف إلى تحقيق الهدوءوالاهتمام بالجوانب الحضارية؛ ولاسيما الاقتصادية. أما في ظفار فقد كان الملك الحميري ياسر يهنعم وابنه شمر يهرعش يهتمان بالجانب العسكري، حتى تمكنت القوات الحميرية في نحو 280م من احتلال العاصمة السبئية مأرب نهائياً. وتحقق بذلك ما عمل الحميريون من أجله منذ نحو ثلاثة قرون، وهو حكم مملكتي سبأ وذي ريدان (حمير) معاً.

2- مملكة قتبان :

قتبان اسم مملكة وقبيلة وأرض. قامت المملكة في جن.وبي أراضي سبأ؛ جهة الوديان بيحان، حريب، جَنّة، مبلقة، وتوسطت بذلك ممالك الوديان (سبأ، حضر موت، أوسان) والمرتفعات الغربية. وكانت مدينة تمنع (هَجَر كِحْلان؛ شمال شرقي بيحان ب نحو 20كم) عاصمة لها، ومن أبرز مدنها: ذو غيل أو ذات غيل (هجر بن حميد)، هربت (هربية، في وادي حريب).

وقبيلة قتبان واحدة من الاتحاد القبلي « ولد عم » نسبة إلى معبودهم الأكبر عم وضم هذا الاتحاد قبائل أخرى، كانت أراضيها في المرتفعات الغربية من أرض قتبان، منها ردمان، مضحي، خولان الجنوبية.

تعود بدايات الاستيطان في مناطق قتبان إلى أواسط الألف الثاني ق0م: حسب ما بينت دراسات تحليل الطمي الزراعي ومنشآت الري في وادي بيجان. كما كشف في موقع هجر بن حميد عن سويات معمارية ونماذج فخارية تعود إلى القرنين الحادي عشر والعاشر ق0م، وعثر في الموقع نفسه على نقوش بدائية (مخربشات كتابية غير متقنة) يرجعها علماء الكتابات القديمة إلى القرن الثاني عشر أو العاشر ق0م.

ولكن انطلاقة قتبان كمملكة ذات كيان سياسي واضح على الأرجح في القرن الثامن ق0م. ويرد أقدم ذكر لها بصيغة « بلاد ولد عم » في نقش النصر الشهير (مطلع القرن السابع ق0م)، ويظهر في النقش أن مرتع مكرب أوسان كان قد استولى على بلاد ولد عم وشرد أهلها، فاستغل الحاكم القتباني ورو إل الحملة السبئية ضد أوسان وتضامن معها وبعد هزيمة أوسان كوفئ باستعادة أراضية؛ بل وسع نفوذه بعد ذلك حتى ساحل عدن جنوباً ومناطق عتق شرقاً والمعافر غرباً. ومن ثم ورثت قتبان معظم أراضي أوسان، وصارت تسيطر على رقعة جغرافية واسعة وخصبة، شملت عدة ودبان مثل: تبنو (تبن)، دهس (يافع)، حسان، أحور.. وعلى هذا الأساس الاقتصادي ازدهرت المملكة، كما ازدادت غنى بفضل مرور الطريق التجاري القادم من قنأ وشبوة بعاصمتها تمنع التي أصحت سوقها بمرور الزمن أهم مركز تجاري منظم في اليمن.

تلقب حكامها الأوائل (القرن السابع – الخامس ق 0م) بلقب « مكرب » ويعتقد أنهم انتقلوا من الحكم الديني إلى المدني في مطلع القرن الرابع ق 0م. ولكننا لا نعرف شيئاً جديراً بالذكر عن تاريخ المملكة السياسي حتى القرن الثاني ق 0م. ([13])

كان يدع أب ذبيان من أبرز ملوك القرن الثاني ق 0م. وقد اهتم بتنشيط التجارة في مملكته، وشق طرقاً في المناطق الجبلية الوعرة لتسهيل حركة القوافل، ومن أبرزها ممر مبلقة الواصل بين واديي بيحان وحريب. وأصدر قوانين جنائية لتثبي ت الأمن في مملكته، حدد فيها عقوبة القتل عمداً مؤكداً على السرعة في التحقيق والمحاكمة. وقد كشف عنها مدونة على البوابة الجنوبية للعاصمة.

وحكم بعده ابناه شهر يجل، ثم شهر هلال يهنعم الذي تابع نشاطات أبيه العمرانية والقانونية، وأصدر قانوناً تجارياً يهدف إلى تنظيم التجارة في سوق شمر في العاصمة، وتحديد الضرائب والرسوم المستحقة على التجار، وحماية مصالح التجار والمستهلكين، كما منع الغش، ووضع حدوداً للتجار غير القتبانيين الذين يتوجب عليهم دفع رسوم إضافية وفرض السلطة الملكية على الحركة التجارية.

وفي مطلع القرن الأول ق 0م تولى الحكم شهر يجل يهرجب بن هوف عم، واستمر الازدهار في بلاده، وتحسنت العلاقات مع مملكة معين، ونشأ بينهما تحالف للضغط على سبأ من الشمال الجنوب. ولكن معين بدأت تضعف تجارياً وسياسياً، واحتلت سبأ في أواسط القرن كثيراً من مناطقها، ثم قضت على كيانها المستقل. والتفتت سبأ بعد ذلك إلى قتبان، وأضعفتها كما استطاعت قبائل حمير أن تبسط نفوذها على مناطق قتبانية؛ ولا سيما الغربية والجنوبية منها، وبات حكم قتبان يقتصر على مناطقها المركزية في واديي بيحان وحريب.

---

13 - إسماعيل، فاروق: المرجع السابق، ص18.

وربما يكون ابنه ورو إل غيلان يهنعم خلفه قبيل الميلاد، ونعلم من شواهد أثرية أنه سك النقود في مطلع القرن الأول الميلادي، ودون عليها اسم قصره الملكي (ح ر ب) « حريب ». وحكم بعده خلال القرن الأول ملوك ضعفاء، هم أخوه فرع كرب يهوضع، شهر هلال بن ذرأكرب، شهر هلال يهقبض. وبسطت حضر موت خلال ذلك نفوذها على أجزاء من مناطق المملكة الشرقية، وفي عهد الأخير (نحو 90- 100م) تعرضت العاصمة لحريق مدمر لا يعرف سببه.

وفي القرن الثاني الميلادي استمر ضعفها؛ واضطرات إلى الوقوف مع حضر موت في صراعها مع سبأ، بل صارت أجزاء من أراضيها مسرحاً لذلك الصراع، وتراجعت اقتصادياً إلى حد كبير.

ونعرف من ملوكها في أواسط القرن نبط يهنعم، وخلال حكمه (نحو 160م) تعرضت العاصمة لحريق هائل أشعله السبئيون، ودمروا القسم الأكبر منها، وقضوا على المملكة. ثم تقاسموا أراضيها مع الحضارمة بعد أن التقى الملك السبئي علهان نهفان والحضرمي إل يدع في ذب غيل (القتبانية)، وعقدا اتفاقاً في أواخر القرن الثاني الميلادي.

3- مملكة أوسان :

امتدت المنطقة المركزية لمملكة أوسان في أنحاء وادي مرخة جنوب شرقي قتبان، وعاصمتها مسور. ويعتقد أنها كانت في الأصل إقليماً تابعاً لقتبان، انفصلت عنها وازدهرت اقتصادياً، وتوسعت جنوباً حتى وادي ميفعة شرقاً والساحل جنوباً والمعفر غرباً؛ أي مناطق تابعة في الأصل لقتبان وحضر موت، كان ذلك في عهد أقدم ملوكها حسب النقوش الكتابية المتوافرة، وهو مرتع (أواخر القرن الثامن- مطلع السابع ق0م) وكان ذلك التوسع هو الذي أثار مخاوف المكرب - الملك السبئي كرب إل وتر ورأى فيه خطراً على مصالحه في الجنوب، فجرد ضدها حملته الموصوفة في نقش النصر.

ويبدو أن إخضاع أوسان لم يكن أمراً سهلاً، واضطر الملك السبئي إلى توجيه ثماني حملات عسكرية إلى مناطقها المختلفة، وعاونته في ذلك قوات من حضر موت وقتبان، حتى تمكن من السيطرة عليها وإلحاق خسائر بشرية ومادية كبيرة بها، ودمر عاصمتها.

وذكرنا سابقاً أن حضر موت وقتبان استفادتا من ذلك، وتقاسمتا معظم أراضيها. وتقلصت أوسان ولم تعد ذات شأن فترة طويلة دامت حتى القرن الثالث ق 0م.

انتعشت أوسان في القرن الثالث ق 0م من جديد، وقويت سياسياً. ولا تعرف تماماً العوامل التي هيأت لذلك، ولكن يحتمل أ نّ ملوكاً أقوياء برزوا فيها، واستفادوا من ضعف قتبان ومن الصراع السبئي – الحضرمي، فاستعادوا مجد مملكتهم. ونعرف من أسماء ملوكها آنذاك : يصدق غل فرعم بن شرح عث وابنه معد إل سلحن، أما عاصمتها الجديدة فلم تحدد بعد، وربما تكون بين أطلال موقع هجر أمناب أو موقع هجر يهر الواقعين في وادي مرخة.

ولكن ذلك لم يدم طويلاً، بل كان الومضة الأخيرة في تاريخها السياسي. ولم يعد لها نشاط سياسي متميز كمملكة مستقلة في مطلع القرن الثاني ق 0م. وثمة نقش من محرم بلقيس يعود إلى أواسط القرن يورد اسم أوسان بين أسماء القبائل والممالك التي حاربت ملكي سبأ سعد شمس أسرع وابنه مرثد يهحمد، ولكن ذلك لا يعد دليلاً قاطعاً على استمراريتها كمملكة، بل كقبيلة ذات شأن، وهو أمر ظل زمناً طويلاً. كما أن نقش حصن العروس في قمة جبل صبر، المكتشف مؤخراً، يشير إلى سيادة شهر هلال بن يدع أب القتباني (أواخر القرن الثاني ق 0م) هناك، حيث كانت السيادة الأوسانية سابقاً ولذلك نرجح أن المملكة انتهت في القرن الثاني ق 0م، وليس في فترة قريبة من الميلاد أو في مطلع القرن الثالث الميلادي كما يرى باحثون آخرون.

4- مملكة حضرموت :

قامت مملكة حضر موت في شرقي اليمن، وشملت مناطق غربي عُمان وامتدت بين بحر العرب جنوباً وأراضي قتيان وسبأ غرباً وأطراف الربع الخالي شمالاً. وقد ورد اسمها في النقوش اليمنية بصغة مماثلة للاسم الحالي (ح ض ر مو ت، حض ر م ت).

تركز الاستقرار فيها على جانب وديان حضرموت المعشار وم يفعة، وعلى حدودها الساحلية الطويلة. وكان من أهم مدنها العاصمة (ش ب و ت) «شبوة » والميناء (ق ن أ) « قنأ »، والمدن: (م ي ف ع ت) « نقب الهجر »، (م ذ ب) « حريضة »، ومدن في إقليم ظفار في عُمان، وفي جزيرة سقطرى.

يصعب – حتى الآن – تحديد بداياتها بدقة، ويختلف الباحثون في ذلك اختلافاً كبيراً، إذ يرجعها بعضهم إلى أواخر القرن الحادي عشر ق 0م، وآخرون إلى أواسط القرن الخامس ق 0م. كما لا نعرف سوى معلومات قليلة متفرقة عن تاريخها السياسي في عصور ما قبل الميلاد، وهي توحي بارتباطها بمملكة سبأ ثم بمعين.

ذكرت النقوش مكربين سبئيين كانوا يحكمونها، عثر على آثار سبئية متنوعة فيها وذكرنا سابقاً أنها تضامنت في مطلع القرن السابع ق 0م مع سبأ خلال حملات كرب إل وتر ضد أوسان، وكوفئ ملكها يدع إل باستعادة أراضٍ له كانت قد احتلتها أوسان. ثم قويت المملكة خلال القرن السابع ق 0م وما بعده، ولكننا لا نعرف معلومات مفصلة عن هذه الفترة عدا اسمي ملكين من ملوكها، وهما صدق إل وابنه شهر علن.

ويتضح من النقوش المعينية وجود صلة وثيقة ونوع من الوحدة السياسية بين حضر موت ومعين؛ ولا سيما في القرن الرابع ق 0م، حيث نجد ملوكاً وأمراء حضرميين حكموا في معين،مثل إل يفع ابن الملك الحضرمي يدع إل الذي حكم في معين، بينما حكم ابناه معدكرب و إل يفع ريام في حضر موت. ولكننا نجهل تفاصيل أحداث تلك الفترة في حضر موت وكذلك طبيعة علاقات المملكتين. ومن ثم يمكن الحديث عن فجوة تاريخية للقصة من تاريخ حضر موت، تمتد نحو ثلاثة قرون (القرون الثلاثة ق 0م). ولكن كتابات المؤرخين الكلاسيكيين تشير إلى الازدهار الاقتصادي فيها، وإلى أنها كانت تستفيد من

غناها بأجود أنواع اللبان والبخور المر، مما أعطى عاصمتها شبوة وميناءها قنأ مكانة متميزة، وصارت مقصداً للقوافل التجارية القادمة من أماكن كثيرة.

تأثرت خلال القرن الأول ق 0م بازدياد نفوذ الح م يريين، ووضع ذلك حداً لطموحاتها التوسعية غرباً. وكانت قد مدت سيطرتها قبل ذلك على شرقي قتبان، وحاولت استغلال ضعف سبأ وانشغالها بخلافات داخلية.

في القرن الأول الميلادي كانت مملكة واسعة الأرجاءن يصل نفوذها إلى ظفار وسقطرى ووادي بيحان، وتسيطر على ساحل بحري طويل، وعلى مسافات طويلة من طرق التجارة، وتنتج أراضيها أهم ال ثروات التجارية. وقد جلب ذلك لها أطماع القبائل الحميرية والسبئية.

في النصف الثاني من القرن الثاني الميلادي اغتصب العرش فيها الملك يدع إل بين بن رأب إل، وشهدت البلاد في مطلع عهده حروباً ضارية مع مملكة سبأ، ووقفت معه قتبان وقبائل ردمان ومضحي وخولان ومذحج المقيمة في الأجزاء الجنوبية الغربية من أراضي قتبان (بين البيضاء وقانية ورداع)، ولكنه هزم هزيمة منكرة في موقعة وعلان (المعسال). ولكن علاقاتها مع سبأ تبدلت في أواخر القرن، عندما استلم عرش سبأ علهان نهفان، ونشأ بينهما تعاون ومودة، وتكلل ذلك بالتقاء الملكين في ذات غيل وإعلان التحالف.

وفي عهد الملك يدع أب غيلان، في مطلع القرن الثالث الميلادي انضم إلى التحالف جدرة ملك الحبشة، واتفقوا على محاربة الحميريين وإضعافهم، وحققوا ذلك جزئياً.

لم يدم حكم يدع أب غيلان طويلاً، ثم تلاه إل عز يلط بن عم ذخر الذي ظلت سيادته تمتد حتى منطقة ردمان. ويبدو انه نال اعتراف حمير به، حيث يرد في نقش يخلّد ذكرى سيره إلى حصن أنود (تل العقلة، شمال غربي شبوة) للتلقب بلقب « ملك » أن الملك الحميري ثأران يعوب أوفد رجلين من أشراف قومه لحضور حفل تنصيبه مل .كاً. كما توثقت علاقاته مع سبأ أكثر من ذي قبل، عندم ا تزوج : « ملك حلك » ابنة

ملكها علهان. ولكن ذلك لم يدم طويلاً وتبدلت العلاقة من المودة إلى الحرب عند استلام شعر أوتر بن علهان العرش (نحو 210-230م)، وقاد الملك السبئي الجديد حملة ضخمة ضد حضر موت، ربما لتحالفها مع أعدائه الحميريين، وجرت بينهما موقعة كبرى في منطقة ذات غيل، تم خلالها أسر الملك الحضرمي وقتل أبنائه ووزرائه. ثم استمرت الحملة حتى العاصمة شبوة، و خربتها، عدا القصر الملكي (شقر) حيث كانت تقيم الملكة الحضرمية ذات الأصل السبئي، وبعد ذلك تابعت الحملة سيرها إلى ميناء قنأ والمناطق الحضرمية الداخلية، وعاثت فيها فساداً وتخريباً، وأزالت هيبة المملكة.

في هذه الأثناء استطاعت أسرة جديدة، من أحرار (يهبئر)، أن تغتصب عرش حضر موت، ربما بمساعدة من قوات شعر أوتر. وحكم البلاد أول ملوك الأسرة يدع إل بين بن رب شمس (نحو 220م)، ثم خلفه ابناه إل رام يدم ويدع أب غيلان. ونشبت خلال ذلك حروب بين حضر موت وحمير. وفي أواخر القرن كانت حضر موت مملكة ضعيفة سياسياً واقتصادياً، ومهد ذلك الدرب أمام قوات الملك الحميري شمر يهر عش كي تحتل حضر موت، وتضم أراضيها إلى حمير الموحدة بسهولة، وذلك في أواخر القرن الثالث م. ولم تُجْدِ مقاومة سكان أطراف حضر موت، ولا دعم مملكة كندة - التي كانت تربطها علاقات وصلات نسب بالحضرميين- في استعادة مُلْكهم.

يتضح مما سبق أن معلوماتنا الوافية عن هذه المملكة تقتصر على المرحلة المتأخرة من تاريخها السياسي (أواخر القرن الثاني - أواخر الثالث ق0م). ومن اللافت للانتباه أنها لم تنعم بالاستقرار والهدوء فترات طويلة، ومع ذلك فإن الآثار الكثيرة والمتنوعة المكتشفة في شبوة وقنأ وميفعة وريبون وحريضة، وفي مواقع ضمن إقليم ظفار العماني، تدل على ازدهار حضاري شامل يعكس الثراء المادي فيها ورقي أهلها.

4- مملكة معين :

قامت مملكة معين في منطقة وادي الجوف، شمالي مم لكة سبأ. وكانت هذه المنطقة في الأصل تابعة لسبأ، انفصلت عنها، بل وثارت عليها في مطلع القرن السابع ق 0م.

وبذلك قام كرب إل وتر – حسب ما جاء في نقش النصر_ بحملتين إلى أبرز مدنها: نشان (السوداء)، نشق (البيضاء) هرم (جربة آل علي)، كمنهو (كمنا)، واستولى وخرب وأحرق وقتل، ثم أسكن سبئيين هناك واهتم بتسوير مدينتي نشق وثيل (براقش). ويبدو أن تلك المدن كانت تتمتع بش يء من الاستقلال الذاتي، وكان لكل منها ملك. وقد وردت في النقش المذكور أسماء سمه يفع ملك نشان، ويذمر ملك هرم، ونبط علي ملك كمنهو..

ويرجح أنها تنفصل ثانيةً لتش كل مملكة موحدة مستقلة، عاصمتها (ق ر ن و) « قرناو »(حالياً معين) إلا في القرن الر ابع ق0م، ودام وجودها نحو ثلاثة قرون ونصف (حتى أواسط القرن الأول ق0م).

كانت المملكة في مراحلها الأولى ذات صلة وثيقة بحضرموت، وربما يكون الدعم الحضرمي ذا دوافع اقتصادية، ولدعم تنافسها التجاري مع سبأ ، واستغل المعينيون موقعهم الجغرافي المتميز ومرور القوافل التجارية المتجهة إلى الشمال في إراضيهم، وبرزوا في ممارسة التجارة؛ ولا سيما تجارة المر ونوع معين من البخور، عُرف نسبة إليهم بالبخور المعيني.

وتمكن المعينيون في القرن الثالث ق 0م من الوصول بتجارتهم إلى مناطق بعيدة مثل الحجاز ومصر وبلاد الشام وبلاد الرافدين وبلاد الإغريق. وأقاموا في بعض منها مراكز تجارية خاصة، وبلغت المملكة أوج ازدهارها الاقتصادي، ولم يلتفت ملوكها إلى الجان ب العسكري كثيراً.

تقدم النقوش المعينية أسماء عدد من ملوكها، ولكن يصعب ترتيبهم تاريخياً، ومنهم أب يدع يثع، خال كرب صادق بن اب يدع، عم يثع نبط بن أب كرب، وقه غل يثع وابنه غل يفع يشر (من القرن الأول ق 0م) ...ولذلك فإن تاريخها السياسي مازال غير واضح المعا لم.

تأثرت المملكة بالتطورات التي حصلت خلال النصف الأول من القرن الأول ق 0م في مناطق المشرق العربي الأخرى، فقد ازدادت قوة الأنباط التجارية وسيطروا على طريق

التجارة في الشمال، وعمل البطالمة في مصر على إنعاش الطريق التجاري البحري، وفقدت معين الأساس التجاري لوجودها، واستغل ملوك سبأ ضعفها العسكري فضموها إلى مناطق حكمهم في أواسط القرن، ولذلك لم تكن قائمة عندما وصلت الحملة الرومانية إلى شمالي اليمن (24 ق0م).

5- مملكة حمير :

برز اتحاد قبائل (أو شعوب) حمير بشكل مفاجئ وقوي على مسرح الأحداث السياسية في أواخر القرن الثاني ق 0م. ويذهب كثير من الباحثين إلى أن هذه القبائل كانت تقيم في الأصل في مناطق القتبانيين، وتخضع لسيادتهم. وقد نعتوا في النقوش بأنهم « أولاد عم » أي أتباع « عم » الإله الرئيس في قتبان.

ويقترن اسم حمير في النقوش باسم ذي ريدان، وريدان اسم جبل جنوب شرقي يريم بسافة نحو (20) كم أقاموا عليه قصراً مركزيا لهم، ثم صاروا بمرور ال زمن ينسبون اليه أيضاً، ويسمون الحميريين أو الريدانيين. وقامت مملكتهم (أرض ح م ي ر م) غربي مملكة قتبان وجنوبي سبأ، وذلك في مرتفعات يافع في محافظة ذمار الحالية. وكانت ظفار الواقعة على سفح جبل ريدان عاصمة لهم.

نشأت مملكة حمير في 115ق0م، ودامت حتى الاحتلال الح بشي لليمن في 525م، أي نحو ستة قرون ونصف، ويمكن تقسيم تاريخها إلى عصرين هما:

أ- عصر الصراع السبئي- الحميري (نحو 115ق0م – 280م):

تحدثنا عنه لدى الحديث عن مملكة سبأ، وبيَّنا تداخل المملكتين في هذا العصر، لأنهما كانت الكيانين السياسيين الرئيسين في اليمن، وكان صراعهما هوالطابع الأبرز بهذا العصر، وقد انعكس ذلك في القب الملكي المزدوج « ملك سبأ وذي ريدان »، الذي يدل على تكافؤ القوتين، وسعي كلّ منهما إلى السيادة على الأخرى، بل على اعتراف ضمني متبادل بينهما. ولذلك نعتقد أن من الأفضل إعطاء كل مملكة منهما اهتماما

خاصاً بها، وعدم إلحاق تاريخ حمير بتاريخ سبأ كما يحصل في كثير من الدراسات المعاصرة.

لم تخف حدة الصراع حتى مطلع القرن الثالث الميلادي، عندما برزت أطماع وتدخلات خارجية تمثلت في تسلل الأحباش والأعراب إلى أراضي المملكتين، وتدخلها في الشؤون الداخلية. ولذلك انصرف اهتمام ملوك سبأ من .ذ أواخر عهد ش .عر أوتر (210–230م) وملوك حمير منذ عهد لعزم يهنف يهصدق (نحو 230–235م) إلى مقاومة ذلك ووضع حد له.

وتذكر أخبار الفترة نفسها أن قبائل بني جرة التابعة لسبأ وقفت مع حمير في مواجهة هجمات الأحباش على عاصمتهم ظفار، حتى تم إبعادهم عن مناطقها.

وشكل هذا الوضع الجديد دافعا إلى التفكير بالمصالحة. وقد ذكرنا أن ذلك تحقق بمبادرة من حمير، إذ مال الملك السبئي الجديد نشأ كرب يأمن يهر حب (نحو 265–280م) إلى الاهتمام بالأوضاع الداخلية والاقتصادية، بينما استمر الملك الحميري ياسر يهنعم وابنه شمر يهر عش في تقوية القدرات العسكرية. وأدى ذلك إلى خلل وتفاوت في القوى، وساعد الحميريين على احتلال عرش مأرب احتلالاً نهائياً في نحو 280 م، وباتوا القوة الكبرى الوحيدة في اليمن، إلى جانب مملكة حضر موت الضعيفة التي كانت تنازع من أجل البقاء.

ب– عصر المملكة الحميرية الموحدة (نحو 280– 525م):

يسمى هذا العصر عصر المملكة الحميرية الثانية أيضاً، كما وصفه الأخباريون العرب بـ « عصر التبابعة ». وفيه آل حكم « سبأ وذي ريدان » الموحدة إلى شمر يهر عش، وازدادت مكانته عندما تابع فرض سيطرته في تهامة غرباً، وفي حضرموت شرقاً، وأعلنت قبائل بدوية عدة في الشمال تبعيتها له، وشتت أعداءه في المناطق الداخلية والجنوبية من

البلاد، وبدءاً من نحو 295 م صار يلقب نفسه بـ « ملك سبأ وذي ريدان وحضر موت ويمنت ».

واعتمادا على اللقب الملكي المستخدم في ال نقوش يمكن تقسيم بقية العصر إلىمرحلتين هما:

1ً) عصر ملوك سبأ وذي ريدان وحضر موت ويمنت (نحو 295- 400م):

يسمى هذا العصر السبئي الرابع أيضاً. واستمر فيه شمر يهر عش بتحقيق خطوات توحيدية مهمة، ووفر الاستقرار السياسي في معظم أرجاء اليمن. ولذلك فهو يعد أو ل من جمع اليمن كلها تحت رايته انطلاقاً من ظفار، أما مأرب فقد انتهى دورها السياسي، وبقيت لها مكانتها التاريخية والدينية.

ويتضح من ذكره في نقش النمارة لامرئ القيس (328)م ومن الحملات التي سيرها بقيادة ريمان الحزفري واليه (عاقبة) في صعدة إلى بلاد فارس وأرض تنوح (مملكة اللخميين المناذرة في الحيرة) أنه توسع خارجياً، وغدا قوة سياسية في المشرق العربي، وفي مواجهة الفرس الساسانيين والروم.

حكم شمر يهر عش أكثر من نصف قرن، وفي أواخر عهده عانت المملكة من غزوات الأعراب والأحباش، وحصل انتشار واسع للأحباش في بلاده (الغزو الحبشي الأول، بين 340- 378م).

واصل خلفاؤه جهوده التوحيدية، ومجابهة الأعراب والأحباش، وكان من أبرزهم ذمار علي يهبر (345-360م) الذي بدأ في عهده انتش ار المسيحية واليهودية في اليمن، ويعتقدأنه اعتنق المسيحية التي انتقلت أفكارها من الحبشة عن طريق بعثات تبشيرية كلف بها الإمبراطور البيزنطي قسطنطين،ومن أبرز المبشرين ثيوفيلوس الذي بنى ثلاث كنائس في اليمن (في عدن وظفار وهرمز).

كما بدأ آنذاك يبرز دور الزنيين (ذي يزأن) في وادي عبدان جنوبي نصاب. وثمة نقش مكتشف في عبدان، يعود إلى 355م، يبين أن مؤسس السلالة الزنية كان يدعى

ملشان، وكان معاصراً للملك ثأران يهنعم بن ذمار على. وقد استغلهم الحميريون واستفادوا منهم في توطيد سلطتهم في مناطق حضر موت الداخلية، وفي إخماد تمردات عدة، كما سخروهم في حملات إلى مناطق مختلفة من شبه الجزيرة العربية. ويذكر أن سد مأرب (العرم) – الذي بينت الدراسات الأثرية أن أسسه تعود إلى مطلع الألف الأول ق0م– تصدع ورمم في عهده لأول مرة.

أما ابنه الملك ملكي كرب يهأمن فقد ركز جهوده العسكرية ضد الأحباش الذين تنامت قوتهم، حتى تمكن من طردهم من البلاد سنة 378م. واستمر في عهده انتشار المسيحية واليهودية، كما ظهر مذهب الأحناف الموحدين الداعين إلى « عبادة الرحمن (ر ح م ن) » إله السموات والأرض. وهو أول ملك يمني اعتنق اليهودية.

2ً) عصر ملوك سبأ وذي ريدان وحضر موت ويمنت، وأعرابهم في الطود وتهامة ([14]) (نحو 400–525م) :

السبئي كان أول ملك حمل هذا اللقب هو أبي كرب اسعد بن ملكي كرب يهأمن، وهو الذي يسمى في مصنفات الأخباريين العرب بـ « أسعد الكامل » و« التبع اليماني ».([15]) ويعبر لقبه عن سيطرته على مناطق جديدة هي مواطن الأعراب في مرتفعات عسير وما يليها ويحاذيها من سهل تهامة.

اعتنق اليهودية مثل أبيه، بل سعى خلال حكمه الطويل (أكثر من نصف قرن) إلى نشرها في اليمن. وشكلت انتصاراته في بلاد عسير خطوة تمهيدية لحملات وجهها إلى أنحاء مختلفة من شبه الجزيرة العربية، وثمة نقش كتابي يسجل وصوله ومعه ابنه حسان – إلى ديار معد في وادي مأسل الجمح (جنوب غربي الرياض) في سنة 428م. وتذكر

---

[14]- جاء اللقب الإضافي في النقوش اليمنية القديمة بصيغة (و أ ع ر ب هـ م و / ط و د م، و ت هـ م ت) أي أن الأسم (ط و د) ليس في حالة التعريف وغير مسبوق بحرف جر، كما هو متوقع. ويدل على المرتفعات التي تعرف حالياً بجبال عسير.

[15]- مازال اسمه شايعاً في الموروث الشعبي اليمني، إذ يقولون : قصر أسعد، درب أسعد، كريف أسعد.. وكل ما يقادم عليه الزمن هو « أسعدي ».
أنظر: إسماعيل، فاروق: اللغة اليمنية القديمة، مرجع سابق.

المرويات التاريخية أنه مر بمكة، وكسا الكعبة بأنطاع يمانية مذهبة. كما مر بيثرب، وقاتل أهلها. فنهاه يهوديان عن ذلك لأنها دار هجرة نبي يأتي آخر الزمان، فكف عن القتال. وتروي ان قومه قتلوه لأنه اتعبهم بالغزو، وأنه التبّع الذي نهى النبي (ص) عن سبّه.

ثم تلاه في الحكم ابنه حسان يهأمن الذي وسع نطاق حكمه، وحسن علاقاته بقبائل وحكام شبه الجزيرة العربية. ويذكر الأخباريون انه خلال ذلك عين أخاه من أمه حجر بن عمرو الملقب بـ « آكل المرار » ملكاً على مملكة كندة، ولكن ذلك لا يتناسب مع السياق التاريخي الزمني، لأن حكم حسان كان قصيراً لم يمتد حتى 480م، وهي السنة التي حكم فيها حجر. حكم بعده أخوه شرحب إل يعفرفي أواسط القرن، ومن أهم ماينسب إليه من إنجازات ترميم التصدع الثاني في سد مأرب خلال السنة 449م، ثم تصدع في العام التالي، فسخر عشرين ألف رجل من حمير وحضرموت لإصلاحه، كما نظفهوجصصه في 457م، عندما أمر ببناء قصره المسمى (هرجم).

تلي ذلك فترة غامضة تمتد نحو نصف قرن، نعرف أسماء عدد من ملوكها ولكنناجهل أخباراً مهمة عن أعمالهم.

في مطلع القرن السادس الميلادي حكم مع دي كرب يعفر، وكانت له علاقات حسنة مع ملك الحبشة، وتحول إلى اعتناق المسيحية، ولقي تأييداً تاماً من وجهاء مسيحي نجران. ومن وثائق عهده المهمة نقش يعود إلى 516م، يروي أن القبائل العربية المنضوية تحت حكم مملكة كندة في عهد ملكها الحارث بن عمرو تعرضت لهجوم قوات ملك الحيرة المنذر الثالث ابن ماء السماء، واستنجدت به. فسير حملة ضخمة ضد المنذر، ووصلت حتى سعل متع (حنوبي غرب الرياض) ثم يذكر النقش أن المنذر رضي بإبرام اتفاقية سلام معه، وبدفع جزية له.

في عام 517م تولى الحكم – ربما إثر انقلاب – يرسف أسأر يثأر المعروف في المصادر العربية باسم « ذو نواس » وتخلى عن اللقب الملكي الشائع، وتلقب بـ « ملك كل الشعوب ».

كانت المسيحية قد انتشرت قبله انتشاراً واسعاً في اليمن، وبنيت كنائس في أهم مدنها (ظفار، مأرب، حضر موت، نجران)، وكانت نجران مركزاً رئيساً لها، وفيها الكرسي الأسقفي. ولكن الملك الجديد تحول إلى اليهودية، وصار يضطهد الحميريين المس يحيين، ويحارب الأحباش والقبائل اليمنية الموالية لهم. فاضطربت أوضاع البلاد وتضررت اقتصادياً؛ ولا سيما نتيجة توقف التجار الروم المسيحيين عن التعامل مع موانئ اليمن.

وآزره في موقفه الأقيال البزنيون والجدنيون الذين كانوا سادة معظم المناطق الشرقية من مملكة حمير منذ عقود من الزمن. و أسهموا في تدمير الكنائس وق تل المسيحيين الأحباش وأعوانهم في تهامة الجنو بية. ونتيجة لهذه الأوضاع استنجد مسيحيو اليمن بنجاشي الحبشة، وكان ذلك السبب المباشر لبدء الغزو الحبشي الذي قضى على مملكة حمير نهائياً.

6- الاحتلال الحبشي (525-575م) :

كان الغزو الحبشي لليمن يتفق مع المصالح الدولية، ويشكل جزءاً من الصراع البيزنطي -الفارسي السياسي والتنافس التجاري بينهما. وقد مر بمرحلتين؛ بدأت الأولى في أواسط سرة 517م، وفي السرة الأولى من عهد الملك الحميري يوسف أسار يثأر (ذي نواس)، حيث عبرت القوات الحبشية بقيادة إلا أصبحا البحر الأحمر إلى ميناء المخا، ثم وصلت حتى العاصمة ظفار. واضطر يوسف إلى الفرار منها نحو الجبال، فسيطرت القوات الحبشية، وتنفس المسيحيون الصعداء، وانصرفوا إلى بناء الكنائس.

بعد شهور هاجم يوسف العاصمة ظفار، واحتلها، وأحرق كنيستها، وقتل كثيراً من الأحباش فيها. ثم توجه قائده شرح إل يقبل اليزني إلى من.اطق الأش.عرين وشمير (بين المخا وزبيد وتعز) لتأديبهم على تحالفهم مع الأحباش، وقطع الإمدادات عن أعدائه، ودمر وأحرق وأباد هناك، ثم سار عبر كوكبان إلى نجران في أقصى الشمال، بمشاركة قوات يزنية

وهمدانية وخولانية ومرادية وغيرها، وقام هناك بأسر وقتل الآلاف من المسيحيين وعرفت تلك الحرب- فيما بعد- بـ « وقعة الأخدود » وكانت في نهاية سنة 518م.

وهكذا استعاد يوسف الأمن والاستقرار في البلاد، واستفاد في استمرار ذلك قرابة سبع سنوات من صراعات سياسية داخل الحبشة، وأخرى بين بيزنطة وفارس.

ولكن تبدل الأوضاع هناك أعاد للاذهان ضرورة الانتقام للمسيحيين من الملك اليمني، وبدأت بيزنطة والحبشة تخططان لذلك، وضمنت بيزنطة ع دم دعم الفرس وحلفائهم المناذرة ليوسف، وسخرت أسطولها العسكري في خدمة الأحباش.

وترافق ذلك بسوء الأوضاع الاقتصادية في اليمن لتوقف التجارة في البحر الأحمر وتضررت بها الفئات الارستقراطية، وتولد لديها سخط على الوضع ال داخلي. كما أن قوة الزنيين – الجدنيين الذي باتوا يتحكموا في مناطق الساحل الغربي ازدادت، وبرزت لديهم نزعة استقلالية عن ظفار.

أما المرحلة الثانية من الاحتلال الحبشي فبدأت في أيار – مايو من سنة 525م، حيث وصلت قوات بحرية وبرية ضخمة إلى اليمن. وسرعان ما شعر يوسف بعجزه عن المقاومة، بعد أن أخفق في جمع أقيال اليمن وتوحيد موقفهم ضد الأحباش، ويذكر الطبري أنهم « أبوا »، وقالوا: « يقاتل كل رجل عن مقولته وناحيته ». ويذهب بعض الباحثين إلى حصول تفاهم سري بين الأحباش والبزنيين خلال التحضير للحملة، ولذلك وقف البزنيون محايدين تجاه دخولهم إلى البلاد، وتركوا مناطقهم الغربية عائدين إلى حصن (م و ي ت) « ماوية » المطل على ميناء قنأ (حصن الغراب حالياً).

اضطر يوسف إلى الفرار نحو الجبال ثانية، وحقق من هناك بعض الانتصارات. ولكن الأحباش عززوا قواتهم بأعداد ضخمة، وغزوا البلاد بقوة، وانتشروا في أصقاعها يحتلون ويسيطرون، وتمكنوا من قتل يوسف وأقياله الحميريين والأرحبيين.

ثم استولى نجاشي الحبشة إلا أصبحا علىصنعاء، وأقام فيها شهوراً عمل خلالها على تقوية النفوذ المسيحي، وعين سميفع إيشوع الي زني نائباً له في حكم اليمن، وترك قوات

ووجهاء أحباش لمساعدته، وعاد إلى بلاده. كان سميفع قد اعتنق المسيحية على مذهب اليعاقية القائلين بالطبيعة الوا حدة (الإلهية) للمسيح، وذلك كالأحباش. وعاد إلى استعمال اللقب الملكي الذي كان شائعاً في اليمن قبل يوسف. وخلال ذلك كان من الطبيعي أن تتحسن علاقات بيزنطة مع اليمن، واستغل القيصر جستنيانوس (527-565م) ذلك فكلف نجاشي الحبشة ونائبه في اليمن بمحاربة أعدائه الفرس تجارياً.

حكم اليمن بعده القائد الحبشي أرياط حكماً مباشراً، ثم قاد قائدآخر، هو أبرهة انقلابا ضده مخالفاً بذلك القرار الحبشي المركزي، واتخذ صنعاء عاصمة له.

أحدث أبرهة تغييرات داخلية مهمة في البلاد، وقضى على تمردات أبرزها ثورة يزيد بن كبشة الزعيم الكندي. وفي تموز - يوليو من سنة 542م كان التصدع الثالث في سد مأرب، فجمع عدداً كبيراً من القبائل اليمنية، سخرهم في ترميم السد مدة أحدعشر شهراً. وبمرور الزمن ازدادت هيبته، ودانت له قبائل اليمن، فشعر بأنه ماعاد بحاجة إلى نجاشي الحبشة، بل صار يفوقه قوة. ولذلك بدأ يتقرب من بيزنطة بشكل مباشر، ولقي الدعم منها، وبنى عدداً من الكنائس في اليمن، أشهرها كنيسة القليس في صنعاء، وقد أسهمت بيزنطة في بنائها.

صار أبرهة يعد من ملوك المشرق البارزين، وأقام علاقات خارجية مع القوى السياسية المختلفة (فارس، بيزبطة، المناذرة، الغساسنة)، وبرز لديه طموح إلى احتلال وسط الجزيرة العربية وشمالها. وبدأ بتنفيذ ذلك بأن قام بحملة إلى ديار معد الخاضعة لنفوذ اللخميين المنازرة، وأخضع أجزاء كبيرة منها، واضطر عامل المناذرة هناك الاعتراف بسلطته.

أما أخطر حملاته فكانت إلى مكة بغرض هدم الكعبة، وهي الحملة المعروفة بحملة الفيل (570-571م) التي أعقبت هدم سد مأرب النهائي بسنوات قليلة. وتذكر المصادر العربية أن هدف أبرهة كان صرف العرب عن الحج إلى مكة، وتحويله إلى كنيسة (القليس) في صنعاء. وثمة دوافع أخرى تبدو أكثر أهمية، منها رغبته في تفكيك وحدة

القبائل العربية التي تجتمع في الحج وتتحالف، وإضعافها اقتصادياً حتى ترضى بالخضوع لسلطته، إضافة إلى طموحه الشخصي في تحقيق شهرة واسعة. وربما كان ينفذ خطة بيزنطة التي تهدف إلى السيطرة على تجارة البحر الأحمر وإلى ضرب مصالح الفرس ومحاصرتهم.

أخفق أبره ة في حملته، ولم يحكم سوى فترة وجيزة بعدها. ثم تولى الحكم ابنه يكسوم الذي حكم اليمن نحو سنتين، وخلفه أخوه مسروق الذي حكم ثلاث سنوات وانتهى حكمه بثورة سيف بن ذي يزن (اليزني) التي أنهت الاحتلال الحبشي لليمن في 575م.

7- الحكم الفارسي الساساني (575-628م)

لم بعتمد سيف بن ذي يزن في ثورته على القوى اليمنية الداخلية الضعيفة، بل استنجد بالقيصر البيزنطي ليخلصهم من الاحتلال الحبشي، ولكن القيصر رفض ذلك قائلاً له « الحبشة على ديني ودين أهل مملكتي، وأنتم على دين اليهود، فكيف يمكنني أن أساعدكم على الإضرار باخوتي في الدين ».

فسار إلى الحيرة، حيث كان يحكمها النعمان بن المنذر، ليساعده في الحصول على مساعدة فارسية ساسانية. والتقى بالإمبراطور الساساني كسرى أنوشروان الذي استجار لطلبه، وأرسل قائده وهرز على رأس قوة عسكرية معظم أفرادها من الديلم، وعبر الخليج العربي حتى ساحل عدن، لمساعدة سيف في تحرير بلاده من الأحباش.

شجع ذلك القبائل اليمنية للالتفاف حول سيف، وانتهت ثورته بدخول صنعاء وقتل الملك الحبشي مسروق وطرد الأحباش من البلاد. وعين سيف حاكماً تابعاً للفرس وتعهد بدفع جزية سنوية لهم، وذلك 575م.

التزم سيف بالطاعة للفرس. ول كنه لم يحكم طويلاً؛ إذ لقي مصرعه على أيدي جماعة من الأحباش. وآل الحكم إلى ابنه معدي كرب الذي حافظ على طاعة الفرس، ولكنه لم يحكم طويلاً أيضاً.

دفع عدم الاستقرار السياسي في البلاد كسرى إلى أن يرسل قائده وهرز إلى اليمن ثانية ليحكمها حكماً مباشراً، ويقضي على كل الأحباش فيها. وبقي وهرز في الحكم حتى مات، ثم حكم ابنه وتلاه ولاة فرس آخرهمباذان الذي اعتنق الإسلام في عهد الرسول(ص). ثم ولى النبي الكريم على اليمن عدداً من الصحابة لنشر الإسلام فيها وذلك في 628م.

ثالثاً- مظاهر الحضارة العربية القديمة في اليمن :

حقق عرب جنوبي شبه الجزيرة العربية الكثير من المنجزات الحضارية التي تبرز مظاهرها متعددة منها:

1- نظام الحكم:

على الرغم من سيادة النظام الملكي في الممالك العربية الج نوبية، إلى أنه لم يكن نظاماً مطلقاً استبدادياً، فقد كان يوجد إلى جانب الملك مجلس استشاري يضم في عضويته زعماء القبائل والمناطق وكبار رجالات الدولة، ويلجأ إليه الملك عند اتخاذ القرارات الهامة.

أما البلاد فكانت مقسمة إلى وحدات سياسية كبيرة تسمى « مخاليف » (مفردها: مخلاف)، يتولى أمر كل منها له « قيل » (جمعها أقيال)، وأشهر مخاليف اليمن مخلاف صنعاء، ومخلاف نجران ومخلاف همدان وغيرها. وقد أحصى اليعقوبي عدد مخاليف اليمن فوجدها 84 مخلافاً. وتحدث الهمداني عن كل مخلاف بقراره و أوديته وجباله في كتابه المعروف « صفة جزيرة العرب ».

ويتألف المخلاف الواحد من محافد (مفردها : محفد) وينقسم المحفد إلى مدن وقرى وحصون وقصور، ويحمل صاحب المحفد أوالقصر « ذو » (جمعها أذواء)، بمعنى صاحب، فيقال مثلاً ذو غمدان، وذو معين، بمعنى صاحب غمدان معين.

ولكل مخفد حكومته الخاصة به، واشهر المحافد والقصور غمدان، وصرواح، وسلحين، وسبام وبراقش وغيرها. أما المد ن فأشهرها مأرب وصنعاء ونجران وظفار وغيرها..

2- الزراعة والسدود :

اهتم اليمنيون القدماء بالزراعة نتيجة وجود التربة الخصبة وتوافر كميات الأمطار الكافية، فزرعوا حتى سفوح الجبال التي حولها إلى مدَّرجات، وحفروا الأقنية وبنوا السدود الكثيرة وأشهرها سد مأرب الذي يعد من أعظم المشاريع المائية في العالم القديم. وقد بنى على فترات أقدمها، كما رأينا، يعود إلى العصر السبئي الأول (عصر المكربيين) (نحو 750م) وأُقيم على فم وادي « ذنة » حيث تتجمع معظم مياه السيول عقب هطول الأمطار. ويبلغ طوله نحو 800 ذراعٍ، بُني بالحجارة والتراب، وينتهي أعلاه بسطحين مائلين على شكل زاوية منفرجة تكسوها طبقة من الحصى تمنع انجراف التربة عند تدفق المياه. ويرتكز السد على جبلين، ويتفرع منه عند كل من طرفيه قنوات تعرف بالميزاب، لها فتحات تترك مفتوحة لري سطح الجلين، ثم تغلق بعد ذلك.

وقد أصلح سد مأرب ورُمم مرات متعددة في العصور التالية (449-451م على يد شرحبيل يعفر، وفي عام 542م على يد أبرهة الحبشي). لكن ضعف الدولة الحميرية الثانية الناتج عن منافسة البيزنطيين والأحباش لها في ميدان التجارة العالمية أدى إلى ضعف إمكاناتها المادية، وبالتالي إلى إهمالها السدود والمشاريع ومنها سد مأرب الذي تصدع وانهار في أواخر أيام الاحتلال الحبشي لليمن. ونتج عن ذلك تحول مساحات واسعة من الأراضي الزراعية إلى أراضٍ قفراء، وهجرة العديد من القبائل العربية، كالمناذرة والغساسنة إلى العراق والشام. ويشير القرآن الكريم إلى ذلك في سورة سبأ الآية 16 بقوله:

﴿ فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أُكُلٍ خَمْطٍ مشيءٍ من سدر قليل ﴾. يصف المؤرخ والجغرافي الهمداني أنقاض سد مأرب التي شاهدها

في القرن السابع الهجري في كتابه الأكليل، فيقول عن مشاهداته لمقاسم الماء من مداخر السد:

« كأن صانعها قد فرغ من عملها بالأمس ... ورأيت أحد الصدفين، وهو الذي يخرج منه الماء، قائماً بحاله على أوثق ما يكون، وإنما وقع الكسر في العرم، وقد بقي قسم من العرام..»

هذا وقد زار موقع السد في العصور الحديثة عدد المستشرقين من أمثال أرنو وهاليفي وغلازر، وقدموا وصفاً عنه يتطابق إلى حد كبير مع ما ذكره الهمداني.

3- التجارة:

مكّن الموقع المتوسط لشبه الجزيرة العربية بين مناطق العالم القديم المختلفة، العرب من مزاوله التجارة على نطاق عالمي، فنقلوا منتجات الصين والهند وشرقي أفريقية إلى الشام والعراق ومصر ومناطق الحوض الشرقي للبحر المتوسط، وجنوا من وراء ذلك أرباحاً هائلة، ساعدتهم على القيام بمشاريع عمرانية ضخمة وتحقيق الكثير من المنجزات الحضارية. وكانت هناك، بالإضافة إلى طرق التجارة البحرية طرق التجارة البرية ربطت أنحاء شبه الجزيرة العربية بعضها مع بعض أو مع البلدان والمناطق المجاورة. من هذه الطرق . ([16])

أ- الطريق الجنوبي الشمالي الممتدة من مأرب في اليمن إلى البتراء في جنوب بلادالشام ومر عبر نجران طائف ومكة ويثرب حتى العلا ومدا ئئ صالح والبتراء لتصل أخيراً إلى غزة على ساحل المتوسط. ويخرج منها عند مدائن صالح باتجاه العراق تيماء، وفرع آخر من البتراء إلى تدمر وقد أُضيف إلى هذين الفرعين فرع ثالث في عهد الإمبراطور الروماني تراياناTraian (98-117م) يصل بين أيله (العقبة) وتدمر، تم شقه في العام 110-111م ماراً بالبتراء وربة عمّون (عمّان حالياً) وبصرى.

---

[16]- مهران، محمد بيومي : المرجع السابق، ص134-136، برو، توفيق: تاريخ العرب القديم، الطبعة الثانية، دمشق، 1996، ص92، لطفي عبد الوهاب : العرب في العصور القديمة، بيروت ، 1979، ص214 وما بعدها.

وتعد هذه الأطوال والأهم ما بين جنوب غربي شبه الجزيرة العربية وبلاد الشام. ويذكر الجغرافي الإغريقي غرتو شنيس (275-194ق0م) أن القوافل التجارية كانت تقطع الجزء الواقع من هذه الطريق بين جنوب غربي شبه الجزيرة وأيله (العقبة) في الشمال في سبعين يوماً. كما يذكر بلينوس. (23/24-75م) أن رحلة القوافل من تمنع (عاصمة قتبان) إلى غزة كانت مقسمة إلى خمسة وستين شوطاً (تمثل بالضرورة خمسة وستين يوماً) في كل شوط منها مواقف للجمال، وأصحاب القوافل كان عليهم أن يدفعوا في كل شوط من هذه الأشواط منها ثمن الحصول على الماء أو العلف للجِم ال، أو أجر النزل الخاصرة بالمبيت، أو رسوماً لقاء السماح بالمرور أوالحماية. أما الطريق بين أيله وتدمر والتي شقت في عهد الإمبراطور ترايان فقد حظيت بعناية مستمرة من قبل الولاة الرومان الذين أقاموا عليها مركزاً ونقاطاً للحراسة والحماية امتدت باتجاه الجنوب لتصل إلى منطقة ديدان في شمالي الحجاز.

ب- طريق مأرب – الجرهاء (Gerrha) (الجرعاء):

ويخرج من مأرب إلى نجران ثم يتجه من هناك نحو الشمال الشرقي فيعبر وادي الدواسر ثم قرية الفاو، فالأفلاج، واليمامة، ثم واحة الهفوف، ليصل أخيراً إلى الجرهاء (العقير حالياً) على الساحل الشرقي لشبه الجزيرة العربية.

ج- طريق الجرهاء – البتراء : ويمر عبر الهفوف، فشمال اليمامة، فُبريدة، مخائل، فتيماء، وأخيراً البتراء.

بالإضافة إلى هذه الطرق الرئيسية كانت هناك طرق فرعية متعددة.

نشير أخيراً إلى أن الجمال كانت وسيلة النقل الأساسية على هذه الطرق.

مارس العرب، بالإضافة إلى التجارة البرية، التجارة البحرية أيضاً. والسبب في ذلك أن البحار والمحيطات كانت تحيط بشبه الجزيرة العربية من الشرق والجنوب والغرب، إضافة إلى وجود نهري دجلة والفرات من شمال الخليج العربي ونهر النيل في مصر. فاعتباراً من منتصف القرن الثالث قبل الميلاد عن قيام مدينة الجرهاء المطلة على ساحل الخليج العربي

Damascus University

بنشاط تجاري بحري عبر الخليج العربي ونهر الفرات حتى مدينة سلوقية التي أقامها السلوقيون بالقرب من موقع بغداد اللاحق على نهر الفرات. كذلك تتحدث حوليات الفترة الباكرة من عهد سلالة هان في الصين (209-220م) عن نشاط تجاري بحري بين منطقة الخليج العربي والبحر الأحمر.

أما النشاط التجاري العربي في البحر الأحمر فتوجد العديد من الشواهد عليه، منها نقش معيني عُثر عليه في مصر، ويعود تاريخه إلى النصف الأول من القرن الثالث قبل الميلاد، حُضر على تابوت التاجر المعنيي زيد إيل بن زيد، وفيه يتحدث زيد إيل عن العلاقات بينه وبين كهنة المعابد المصرية، إذ يقدم لهم المر والطيوب والبخور مقابل الحصول على الأقمشة المصري.ة الفاخرة المصنوع .ة من الكتان، ويذكر أنه استخدم « سفينته الخاصة » في نقل هذه المنتجات من بلاد العرب الجنوبية. كما يشير إلى ديْن عليه يستحق الدفع في شهر حتحور (أحد اشهر التقويم المصري القديم). ويشير في موضع آخر النقش إلى أنه سدد كل ما عليه من ديون في شهر كيهك. وتوجد نقوش عربية معينية وسبئية من القرن الثاني قبل الميلاد، عُثر عليها في جزيرة ديلوس الواقعة في بحر أيجة. وهي مقدمة إلى آلهة عربية جنوبية من قبل تجار عرب. وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على المدى البعيد الذي وصل إليه هؤلاء التجار من تجارتهم التي كانت على مايبدو عبر البحر الأحمر إلى مصر فالاسكندرية، ومنها إلى جزيرة ديلوس التي كانت ترتبط بعلاقات تجارية نشطة مع الأسكندرية في العصر البطلمي. وفي القرن الأول الميلادي يبرز العرب من جديد كتجار نشطين في المجال البحري. فمؤلف كتاب « الطواف حول البحر الارتيري » يصف ميناء ليوكي كومي (Leuke Kome) (القرية البيضاء) الواقع في القسم الشمالي من ساحل شبه الجزيرة العربية المطل على البحر الأحمر، بأنه سوق نبطية للسفن العربية المحلية. كما يذكر ميناء موز (Muza) (مخا) فيقول بأنه سوق بحكم القانون ترسو عنده السفن، وعنده نجد المكان وقد اكتظ بالعرب سواء من أصحاب السفن أو التجارة، وهم منشغلون بأمورهم التجرية، إذ أنهم كانوا

يمارسون التجارة مع الساحل البعيد (الساحل الأفريقي) ومع بريغاة (في الهند). ثم ينتقل الكاتب إلى الحديث عن قنا (Kane) (حصن الغراب حالياً) التي ترتفع في شرقي بلاد العرب السعيدة فيذكر أن أحمال اللبان والبخور كانت تصل إليها، وأن هذه المدينة التي كانت سوقاً، تتاجر كذلك مع مدن السوق الأخرى الموجودة في الجانب البعيد (الجانب الأفريقي)، كما كانت تتاجر مع بريغازة الهند (في الهند) ومع سكيثية (في وادي السند) وغيرها.

4- الإنجازات العمرانية:

يأتي في مقدمة الانجازات التي حققها عرب جنوبي شبه الجزيرة العربية بناء المدن والقصور والمعابد والكنائس وغيرها، وتدل آثارها المكتشفة على عظمتها كما أن الشعراء العرب القدامى وصفوها وتغنوا بجمالها. ويُنسب بناء العديد خطأ إما إلى سليمان أو بلقيس. ومن أشهر المدن: مأرب: التي أصبحت عاصمة المملكة سبأ منذ عصر الملوك، وتقع حالياً جنوب شرقي صنعاء. وقد ازدهرت كمركز تجاري هام على طرق القوافل البرية المنطلقة باتجاه الشمال، أو الشمال، أو الشمال الشرقي، أو الشرق. وكانت مدينة مستديرة الشكل يبلغ قطرها كيلو متر اً واحداً، ويحيط بها سور فيه ثلاث بوابات. وكان يوجد في وسطها معبد كان مخصصاًً على ما يبدو لـ المقة إله القمر (يسمى حالياً خطأ هيكل سليمان). وكان فيها قصور كثيرة أشهرها قصر سلحين، الذي كان مقراً ملكياً، وقد شاهده الهمداني عندما زار مأرب (ويسمى حالياً قصر بلقيس). ويوجد إلى الشمال الشرقي من مأرب أنقاض معبد كبير اهليلجي الشكل كان مخصصاً لـ المقة إله القمر، إله سبأ الرئيس (ويسمة حالياً حرم بلقيس) وهناك مدينة صنعاء التي أصبحت عاصمة المملكة الحميرية الأولى بعد حملة إليوس غالوس، ثم اتخذها الأحباش حاضرة لهم عندما احتلوا اليمن، وبنوا فيها كنسية القُليس الشهيرة.

وكان فيها قصر غمدان الشهير الذي، يُنسب بناؤه إلى اليشرحا بن يحضب مؤسس المملكة الحميرية الأولى في القرن الأول قبل الميلاد، والذي شاهد الهمداني أطلاله وقال إنها عبارة كل عظيم كالجبل. وبالغ الإخباريون العرب في وصفه. وقالوا إن اسمه غمدان مشتق من غمد الشيء، « فكان هذا القصر غشاء لما دونه من المقاصر والأبنية ». وقد بُني بالحجر على أربعة أوجه، كل وجه له لون يختلف عن الآخر، فوجه أبيض، ووجه أحمر، ووجه أصفر ووجه أخضر. ويختلف الروايات في عدد طوابقه، فبعضها يقول هي سبع، وأخرى تقول هي عشرون طابقاً.

تعرض قصر غمدان للحريق في عهد رسول صلى الله عليه وسلم، وبُد ئ بهدمه أيام حركة الردة، واستكمل هدمه وتخريبه في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه. وعَّبر الجغرافي ابن حوقل عن ضخامة آثاره عندما شاهدها بقوله: « وبها (صنعاء) آثار بناء عظيم قد خرب، فهو تل كبير يعرف بغمدان، وكان قصور لملوك اليمن الأخرى، وليس باليمن بناء أرفع منه على خرابه ».

ومن قصور اليمن الأخرى المشهورة قصر ناعط الذي كان عبارةعن محفد يشمل عدة مبان يصل عددها إلى عشرين، ويحيط لها سور الصخر المنحوت. واشتُهر من مدن اليمن القديمة نجران التي تعد من أهم المدن التجارية اليمنية، وكانت المركز الرئيس لانتشار المسيحية في جنوبي بلاد العرب منذ أن تمكن الراهب فيميون من نشر المسيحية بين سكانها في العام 500م، وبناء كنيسة، لعلها الكنيسة الكبرى التي سماها العرب « كعبة نجران »، ومن المدن القديمة الأخرى صرواح الواقعة بين صنعاء ومأرب، والتي كانت العاصمة الأولى لمملكة سبأ. ويعد معبدها الكبير حالياً من أهم آثار اليمن القديمة، ويرقى تاريخ بنائه إلى القرن الثامن قبل الميلاد عندما كانت صرواح عاصمة لحكام سبأ من المكربين.

ونذكر أخيراً ظفار المشهورة بقصورها السامقة التي يرد ذكرها في الشعر العربي القديم، ومن بينها قصر ذي ريدان وقصر حطان وقصر كوكبان.

5- المعتقدات الدينية :

عبدعرب الجنوب قوى الطبيعة الكبرى المتمثلة في القمر والشمس، والنجمة للزهرة. إلا أن القمر كانت له المكانة الأولى عندهم، وسموه بتسميات مختلفة، فهو « ود » عند المعينيين، و « عم » عند القتبانيين، و « سين » عند الحضارمة، و « المقة » عند السبئيين، بالاضافة إلى تسميات أخرى منها :ورخ، وشهر، وكهل باعتباره كبير الآلهة. وربما كان سبب ذلك ممارسة التجارة على نطاق واسع، فالقمر هو المرشد والدليل للتاجر، والهادي للقافلة والسفينة، والسمير للمسافر، لذلك لُقب بالحكيم والعادل والمعين والحامي.

تظهر الآلهة الثلاث الذكورة (الشمس والقمر والزهرة) في بعض النقوش على شكل عائلة مؤلفة من القمر (الزوج) والشمس (الزوجة)، وعثتر أوعطارد (الابن). ([17])

وهذا الثالوث هو الثالوث البابلي نفسه المؤلف من القمر (سين)، والشمس (شمش)، والزهرة (عشتار).

أما الشمس فهي مؤنثة سمّاها المعينيون « نكرح »، والسبئيون « ذات حميم » و« ذات بعدن » وغير ذلك. من الجدير بالذكر أن مفهوم إله هنا يدل على عبادة وثنية قائمة على وجود الكثير من المعبودات، ولا علاقة له بأية ديانة توحيدية.

---

[17]- مرعي، عيد: تاريخ الجزيرة العربية القديم.

Damascus University

مراجع البحث

1. القرآن الكريم.
2. أبو عساف، علي: الآراميون تاريخاً ولغة وفناً، طرطوس، 1988.
3. أبو عساف، علي: الزراعة في إبلا، دراسات تاريخية، العددان 43-44، لعام 1992.
4. آركي، الفونسو: ماردو (الأموريين) في نصوص إبلا، ترجمة قاسم طوير، في كتاب أضواء جديدة على تاريخ بلاد الشام، دمشق، 1989.
5. آركي، الفونسو: ملوك إبلا العشرة، ترجمة قاسم طوير في كتاب أضواء جديدة، دمشق، 1989.
6. إرمان، أدولف: ديانة مصر القديمة، تر جمة: عبد المنعم أبو بكر ومحمد أنور شكري، القاهرة، 1997
7. أسعد، فوزية: حتشبسوت، المرأة الفرعون، تر جمة: ماهر جويجاتي ، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2003.
8. إسماعيل، خالد: مقدمة في قواعد اللغة الأوكاريتية، اربد، 1998.
9. إسماعيل، فاروق : المركز التجاري (كاروم Karrom) في الألف الثـاني ق0م، في الحوليات الأثرية العربية السورية، المجلد الثالث والاربعون1999.
10. إسماعيل، فاروق : قطنه « المشرفة » في وثائق العهد البابلي القديم في الحوليات العربية السورية، المجلد 42، عام 1996.
11. إسماعيل، فاروق: أخبار جديدة عن نفوذ مملكة يمخد (حلب) في منطقة الخابور، مجلة دراسات تاريخية، العددان 45-46، 1993.
12. إسماعيل، فاروق: إرّا ملك كل البلاد، ملحمة بابلية، دار جدل، حلب، 1998.
13. إسماعيل، فاروق: اللغة الآرامية القديمة، منشورات جامعة حلب، 1997.
14. إسماعيل، فاروق، اللغة اليمنية القديمة، تعز، 2000.
15. الأنصاري، عبد الرحمن : أضواء جديدة على دولة كندة من خلال آثار قرية الفاو ونقوشها، في دراسات في تاريخ الجزيرة العربية- مصادر تاريخ الجزيرة العربية، الجزء الأول، الرياض، 1979.
16. أو بنهايم، ليو: بلاد ما بين النهرين، ترجمـة سعدي فيضي عبد الرزاق، ط 1، 1981، دار الرشيد للنشر.
17. بارو، أندريه: ماري، ترجمة رباح نفاخ، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1978.
18. برو، توفيق: تاريخ العرب القديم، الطبعة الثانية، دمشق، 1996.
19. بري إم هرو: كتاب الموتى الفرعوني، ترجمة فيليب عطية، القاهرة، مكتبة مدبولي، ط1، 1988.
20. البعثة الفرنسية المنقبة: رأس الشمرة (1929-1979)، ترجمة فهمي الدالاتي، مطبوعات المديرية العامة للآثار والمتاحف، دمشق، 1980.
21. بكر، محمد إبراهيم: صفحات مشرقة من تاريخ مصر، ط2.

22. البكري، ابي عبد الله بن عبد العزيز، معجم ما استعجم، تحقيق مصطفى السقا، عالم الكتب، بيروت، ج1.
23. بوتس، دانيال، ت: الخليج العربي في العصور القديمة، الجزء الأول، ترجمة إبراهيم خوري، المجمع الثقافي، أبو ظبي، 2003م.
24. بوغو سلو فسكي: حول منتجي المقدرات المادية والقيم الروحية في مصر في النصف الثاني من الألف لثاني ق 0م في كتاب: مشاكل العلاقات الاجتماعية وأشكال التبعية في الشرق القديم، تحرير: داندا ماييف، موسكو، 1984.
25. بيرلف، أو، د. : معطيات رقمية حول نقل سكان البلاد الخاضعة إلى مصر، في كتاب الدولة وبنائها الاجتماعي في الشرق القديم، موسكو، 1989.
26. تاريخ الشرق القديم – نشوء المجتمعات الطبقية القديمة، ج 1، «بلاد الرافدين»، بإشراف دياكونوف، موسكو، 1983، (باللغة الروسية).
27. تاريخ الشرق القديم – نشوء المجتمعات الطبقية القديمة، ج 2، آسيا الأمامية ومصر، بإشراف بونغراد – لي فين، موسكو، 1988.
28. تسيريتيلي، كونستانتين: اللغة الآرامية، تبيليسي، 1982.
29. توفيق، محمد : آثار معين في جوف اليمن، وكذلك: نقوش جربة معين، منشورات المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، 1951-1952.
30. جاردنر، ألن: مصر الفرعونية، ترجمة: ميخائيل إبراهيم، القاهرة، 1973.
31. جاكلين بيرين : اكتشاف جزيرة العرب، ترجمة قدري قلعجي، بيروت ، دون تاريخ.
32. الجرو، أسمهان: التاريخ السياسي لجنوب الجزيرة العربية، مؤسسة حمادة، الأردن، 1996.
33. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج1، بيروت، 1968م.
34. جيمز، ت.ج: الحياة أيام الفراعنة، ترجمة أحمد زهير أمين، القاهرة، 1997.
35. حامدة، أحمد: الملك والأسرة المالكة في فينيقية ، دراسات تاريخية ، السنة15، العددان 49-50، آذار، حزيران، 1994.
36. الحموي، ياقوت: معجم البلدان، دار صادر، بيروت، المجلد الثاني، مادة جزيرة العرب.
37. دراسات أوجاريتية: مجموعة من الباحثين الفرنسيين، ترجمة نور الدين خضور، ط1، 1985.
38. درورو، مرغريت. س: أوجاريت في القرنين الرابع عشر والثالث عشر ق.م، ترجمة منال حمدان في كتاب أوجاريتيات، إشراف وتحرير عمر الغول، اربد، 1997.
39. الدريد، سيريل: الحضارة المصرية من عصور ما قبل التاريخ حتى نهاية الدولة القديمة، ترجمة وتحقيق مختار السويفي، الدار المصرية اللبنانية، ط3، 1996.
40. دياكونوف: أناس مدينة أور، موسكو، 1990.
41. ديماس، فرانسوا: آلهة مصر، ترجمة زكي سواس، القاهرة، 1998.
42. روكاتي، الساندرو: كسرة حجرية تحمل أسماء سيسوستريس الأول اكتُشفت في قطنه، في كتاب تنقيبات قطنه، دمشق، 2004.

43. زابلوتسكا: تاريخ الشرق الأدنى في العصور القديمة، موسكو، 1989.
44. زكار، سهيل: خربوطلي، شكران، تاريخ الوطن العربي القديم، جامعة دمشق، 2000.
45. ساغس، هنري: جبروت أشور، ترجمة آحو يوسف. دمشق، 1995.
46. سالم، السيد عبد العزيز: تاريخ العرب قبل الإسلام، الإسكندرية دون تاريخ.
47. سامسرون، جوليا: نفرتيتي، تر جمة: مختار السويفي، الدار المصرية اللبنانية ، ط1، 1992.
48. سعد الله، محمد علي: الدور السياسي للملكات في مصر القديمة، الإسكندرية، 1988.
49. السعدي: حسن محمد محيي الدين: دراسة مرجعية للعلاقات المصرية السورية في الألف الثاني ق.م، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة الكويت، الرسالة181، الحولية 22، 2001-2002.
50. سليم، أحمد أمين: دراسات في حضارات الشرق القديم، حضارة مصر القديمة، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، 1996.
51. سليم، أحمد أمين: في تاريخ الشرق الأدنى القديم مصر- سورية- لبنان، بيروت، 1986.
52. سليم، أحمد أمين: في تاريخ الشرق القديم، مصر وسورية القديمة، 1989.
53. سليمان، توفيق : دراسات في حضارات غرب أسيا، من أقدم العصور إلى عام 1190 ق. م، دار دمشق، ط1، 1985.
54. سيد، عبد المنعم عبد الحليم: حضارة مصر الفرعونية، دراسة تحليلية ، دار المعرفة الجامعية، ط1، 1998.
55. سيد، عبد المنعم عبد الحليم: وسائل حضارة مصر الفرعونية في حضارة جنوب الجزيرة العربية، في كتاب: التواصل الحضاري بين أقطار العالم العربي من خلال الشواهد الأثرية، أعمال الندوة العلمية الأولى لجمعية الآثاريين العرب، القاهرة، 1999.
56. السيوطي، جلال الدين: المزهر في علوم اللغة، ج2.
57. شرف الدين، أحمد حسين، اللغة العربية في عصر ما قبل الإسلام، القاهرة، 1975.
58. شيفمان: ثقافة أوجاريت، ترجمة حسّان اسحق، دمشق.
59. شيفمان: مجتمع أوجاريت، ترجمة حسان إسحاق، دمشق، 1988.
60. صالح، عبد العزيز : الشرق الأدنى القديم، مصر والعراق. ط 2، 1982. ص388- 391.
61. العابد، مفيد رائف: سوريا في عصر السلوقيين، دار شمأل للطباعة والنشر، دمشق، 1993.
62. العاقل، نبيه: تاريخ العرب القديم، ط4، جامعة دمشق، 1991.
63. عبد الحميد، محمود: أخناتون وبلاد الشام - السلطة والمعارضة، دراسات تاريخية، العددان51-52، 1995.

64. عبد الحميد، محمود: دراسات في تاريخ مصر الفرعونية، مطبوعات جامعة دمشق، 1996.
65. عبد الله، فيصل : تاريخ الوطن العربي القديم - بلاد الشام، منشورات جامعة دمشق، 2003-2004.
66. عبد الله، فيصل: الأرض والإنسان في ألالاخ في القرنين 18-15 ق.م، مجلة دراسات تاريخية، العددان35-36، 1990.
67. عبد الله، فيصل: حوار العبد ومولاه، مجلة دراسات تاريخية، العددان 41-42، 1992.
68. العظم، نزيه مؤيد: رحلة في بلاد العرب السعيدة، جزءان،القاهرة، 1938.
69. العقيقي، نجيب: المستشرقون، القاهرة، 1964.
70. العلاقات الدولية والدبلوماسية في الشرق القديم، موسكو، 1987.
71. علي عبد الواحد، فاضل: الطوفان في المراجع السماوية، ط1، 1999، دمشق.
72. غافليكو فسكا، كريستينا: الفن في بلاد ما بين النهرين، ترجمة كبرو لحدو، دار الينابيع، دمشق، ط1، 1995.
73. غولابيف: المدن الأولى، ترجمة طارق معصراني، دار التقدّم، موسكو، 1989.
74. غيورغادزه، غ.غ: صراع الحثيين للسيطرة على شمال سورية في عهد الدولة القديمة، مجلة أخبار التاريخ القديم، (VDI)، العدد 1، العام1964.
75. فخري: أحمد، مصر الفرعونية، موجز تاريخ مصر منذ أقدم العصور حتى 332 ق.م.
76. فخري، أحمد: اليمن ماضيها وحاضرها، القاهرة، 1957.
77. فخري، أحمد: مصر الفرعونية، ط8، القاهرة.
78. فرزت، حرب: العلاقات السياسية بين مملكة أرفاد الآرامية وآشور في أواسط القرن الثامن ق.م، مجلة دراسات داخلية، العددان45-46.
79. فريدريش، يوهانسن: تاريخ الكتابة، ترجمة د.سليمان الضاهر، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 2004.
80. فون زودن: مدخل إلى حضارات الشرق القديم، ترجمة د. فاروق إسماعيل، ط1، 2003.
81. فيلهلم، جرنوم: الحوريون تاريخهم وحضارتهم، ترجمة فاروق إسماعيل، دار جدل، ط1، 2000م.
82. فينوغرادوف: الدولة المصرية القديمة، في كتاب تاريخ العالم القديم، ج2.
83. قابلو، جباغ : التنافس الآشوري الأورارتي على الشمال السوري، مجلة دراسات تاريخية، العددان 63-64، 1998.
84. قابلو، جباغ : توسع أورارتو نحو الشمال السوري في القرنين التاسع والثامن ق0م. الحوليات الأثرية العربية السورية، المجلد 43، عام 1999.
85. قابلو، جباغ: الأحلامو حتى مطلع القرن الحادي عشر ق 0م، الحوليات الأثرية العربية السورية، المجلدان 45-46، للعام 2002-2003.
86. قابلو، جباغ: العلاقات السياسية والدبلوماسية في الشرق العربي القديم (الزواج السياسي)، مجلة دراسات تاريخية، العددان 79-80، 2002.

87. قابلو، جباغ: دور المرأة في عالم الشرق القديم (سورية، بلاد الرافدين)، مجلة عاديات، حلب، الكتاب العاشر، 2003.
88. كريمر، صمويل: من ألواح سومر، ترجمة طه باقر، تقديم ومراجعة أحمد فخري، بدون تاريخ.
89. كلينغل، إيفلين : رحلة إلى بابل القديمة، ترجمة زهدي الداودي، دار الجيل، دمشق، 1984.
90. كلينغل، هورست: العصر البابلي القديم ودولة حمورابي، تعريب عبد الله الحلو، دار شمأل، 1998.
91. كمال، محرم: تاريخ الفن المصري القديم، ط2، 198.
92. كوزيريفا: لارسا القديمة، موسكو1988.
93. لطفي عبد الوهاب: العرب في العصور القديمة، بيروت، 1979.
94. ليتشكوفسكا، كريستينا: النشاط الاقتصادي لنساء عائلة بوش أوكين، في كتاب الشرق القديم، المجلد الرابع، يريفان، 1983.
95. ماريا جوفانا، بيغا: حريم ملوك عبلا (إيبلا)، ترجمة قاسم طوير، في كتاب أضواء جديدة على تاريخ وآثار بلاد الشام، دمشق، 1989.
96. محمد عبد الغني، محمد السيد: العلاقات المصرية الفينيقية حتى أوائل العصر البطلمي. في كتاب أعمال الندوة العلمية الأولى لجمعية الآثاريين العرب. القاهرة، 1999.
97. مرعي، عيد : ادريمي ملك ألالاخ، مجلة دراسات تاريخية، العددان 29-30، العام 1988.
98. مرعي، عيد: التجارة بين ماري ويمحاض في القرن الثامن عشر ق.م، مجلة دراسات تاريخية، العددان 67-68، 1999.
99. مرعي، عيد: الكتابة والتعليم في بلاد الرافدين، دراسات تاريخية، العددان 41-42، 1992.
100. مرعي، عيد: بابل في عهد آخر ملوكها نابونيد، مجلة دراسات تاريخية، العددان 63-64، 1998.
101. مرعي، عيد: تاريخ الجزيرة العربية القديم، مكتبة الخبتي بيشة، 2004.
102. مرعي، عيد: تاريخ بلاد الرافدين منذ أقدم العصور حتى عام 539 ق.م، ط1، دمشق، 1991.
103. مرعي، عيد: قوانين بلاد ما بين النهرين، ط1، 1995.
104. مرعي، عيد: يخدون ليم ملك ماري، « وثيقة تأسيس معبد إله الشمس (شماش) في ماري »، مجلة دراسات تاريخية، العددان 27-28، 1987.
105. المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ط2، إيران، 1984، مج2.
106. مقدسي، ميشيل - وآخرون: تنقيبات قطنة، ج1، 2002.
107. مهران، محمد بيومي: الحضارة المصرية – الجزء الثاني، دار المعرفة الجامعية، 2001.
108. مهران، محمد بيومي: تاريخ السودان القديم، دار المعرفة الجامعية، ط 1، 1996.

109. مهران، محمد بيومي: دراسات في تاريخ العرب القديم.
110. ميدفيدسكايا، أي أن: حول تحديد خط سير حملة شاروكين في عام 714ق.م، VDI (مجلة أخبار التاريخ القديم)، العدد 2، العام 1989،
111. نوبلكور، كريستيان ديروش: المرأة الفرعونية، ترجمة: فاطمة عبد الله محمود، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 1995.
112. نور الدين، عبد الحليم: تاريخ وحضارة مصر القديمة، ط3، 2000.
113. نيمس، تشارلز: طيبة « آثار الأقصر »، ترجمة محمود ماهر طه ومحمد العزب موسى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1999.
114. هبو، أحمد أرحيم : تاريخ بلاد الرافدين من عصور ما قبل التاريخ إلى سقوط بابل.
115. هبو، أحمد ارحيم: تاريخ الشرق القديم، مصر، دار الحكمة اليمانية ، صنعاء، 1995، ط1.
116. هديب، غزالة: الدولة البابلية الجديدة (626-539ق0م)، دمشق، 2001.
117. الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص 84. ياقوت الحموي: معجم البلدان، مجلد 2، مادة جزيرة العرب.
118. الهمداني، أبو الحسن بن أحمد بن يعقوب، صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن علي الأكوع الحوالي، صنعاء، 1990.
119. ياكو بسون، ف.أ: الدولة الآشورية الحديثة، في كتاب تاريخ العالم القديم، ط 3، 1989، (بالروسية).
120. يايلنكو، ف.ب: بلاد الإغريق القديمة والشرق الأدنى، موسكو، 1990.

Damascus University

121. ARM: « Archives Royales De Mari ».
122. Burckardt. J. L., Travels in Syria and the Holy Land , London, 1822.
123. Graiyson, A. Kirk: Assyrian Rulers of the Early first Millennium BC. (1114-859 BC), A.O. 87 1.
124. Lipinski, Edward: The Aramaeans, Their Ancient History , Culture, Religion.
125. Luckenbill, D.D : Ancient Records of Assyria and Babylonia, “ARAB” , Chicago, 1927.
126. Marguron, Jean-Klaude: Mari ou les Debuts de le Civilisation Urbaine en Syria. Asss. Vol XLV1.
127. Matthiae , P: Fowlles A Tell Mardikh – Ebla , 1997.
128. Matthiae, P: Ebla, an empire rediscovered , London – Torento , 1980.
129. Mosil , A. , The Northern Heghas , N. Y. 1926 , The Middle Euphrates , N. Y. 1927.
130. Philips, W., Qataban and Sheba, London , 1955.
131. Ryckmans, G. , Inscriptions Sud – Arabes , 7eme Series , Le Museon , 55 , 1942.
132. The Amarna letter. Edited and Translated by: William L.Moran. London. 1992.
133. Van Lerberghe, K: Sippar – Amnanum, The Ur-Utu Archive.

Damascus University



المقوّمون العلميون

أ.د عيد مرعي

أ.د شكران خربوطلي

أ.د خليل سارة

المدقق اللغوي

أ.د شوقي المعري

Damascus University